



بدايات لكل فصول التغيير

والغلاء والفساد، عدا كشفها التلازم بين هذه الاقتصاديات والانظمة الاستبدادية نطمح الى حفز البحث والكتابة في الاقتصاد السياسي عن موقع المنطقة في منظومة العولمة الرأسمالية ودورها فيها خلال ربع القرن الاخير. ونشجع على متابعة قطاع الطاقة العربي والاشكال المميزة للاستحواد على عائداته واعادة تدويرها لسد ازمات النظام المالي العالمي وما ينجم عن ذلك من تزييع للاقتصاديات واستفحال للمعادن الاستهلاكية ولتنوعات الفساد والهدر وأخيرا ليس آخرها اخراج النفط والغاز من دائرة التنمية والمعارك الوطنية.

في وقت تسيطر فيه هموم الترميز والتمثل وتحليل «المخططات» على العلوم الاجتماعية، يهبط اعادة الاعتبار لدراسة العلاقات الاجتماعية في تحولاتها وفي ما تنطوي عليه من تمييز وتراتب وفوارق.

كثيرا ما مورس نقد الاستشراق في بلادنا بمزله عن نقد الاستغراب ان نقد التمثلات والصور السائدة في المنطقة عن «الغرب» ليس ثوبا اكاديمي انه ممارسة لمهمة مزدوجة انتاج معارف عن الذات من جهة ومعرفة اكثر دقة وعلمية يد «الآخر» معرفة تسمح بالتعاطي والسجال معه على قاعدة المصالح والحقوق والطموحات العربية ما يعزز القدرة على التحرر من التبعية والاستقلال في الانتظار، نشر قراءة خصصنا بها نواصير تشومسكي لمشكلات الهيمنة الامبريكية، في ضوء الازمة المالية العالمية وترفقا بدراسة عن «حركة البدن أرضي» البرازيلية، اكبر الحركات الاجتماعية في العالم الثالث والنشر هنا إشارة الى شاعليه الاول هو التواصل الثقافي ضمن بلدان «الجنوب» نفتحه هنا بالتعريف بتنتاج إدواردو غاليانو، احد ألمع كتاب اميركا

ولدت فكرة هذه المجلة من إحساس متزايد بضرورة المساهمة بواسطة الفكر والفعل في بلورة المشروع اليساري في العالم العربي وإعادة تأسيس قواه وتياراته، لكن ما دفعنا الى حلبة المتاعرة الصحفية هو انطلاقة الثورات الشعبية العربية بما توجبه وما تستلزمه من يدابات.

تفترض «يدابات» انه لا يزال يوجد مكان للمجلات الضرورية على الرغم من طغيان وسائل «الاتصال المجتمعي» ولعل المكان المناسب يقع في ما يتجاوز الوجبات الفكرية السريعة التي تقدمها صفحات «الرأي والفكر» في اليوميات ولا يصل الى مجالات الدراسات الاكاديمية المحكمة وعلمي هذا الموقع إعادة الاعتبار لجهود فكري وثقافي ليس محكوما بالزائل والمتسرع وإنما بالثقل والجهد اللازمين لإنتاج المعارف ولسد نواقص في الفكر والثقافة.

يقول هذا العدد التجريبي البعض بما نريده ونطمح اليه. القسم الاكبر من موانه مخصص للثورات الشعبية العربية أثرنا فيه الاحاطة قدر الإمكان بأوجهها ومكوناتها المختلفة الشبابة المرأة، الجسد اللغة الاقتصاد السياسي، البرامج السياسية والنتائج الفكرية والغنيب الى هذا، اعطينا الكلمة للناظرين الشباب ليدلوا بشهواتهم من قلب الميادين والساحات والشوارع. وسوف تبقى هذه المجلة مشرعة الصفحات للشباب لنشر نتاجهم على تعدد انواعه.

زعمت الثورات المنظومات الفكرية المتعولة والمعالجة عن المنطقة فوجيت مراجعتها نقديا بقدر ما وجبت الاجابة على الاسئلة والتحديات الجديدة التي طرحتها وتطرحها على الفكر النقدي والممارسة التثويرية.

نهت الانتفاضات الشعبية الى العلاقة الحميمة بين اقتصاديات النيوليبرالية وبين مشكلات البطالة والفقر

اللاتينية والثاني هو الاطلاع على تجارب شعوب «الجنوب» في مضمك الاشكال التنظيمية الشعبية والوسائل النضالية بعدما اتارت الانتفاضات الشعبية اكثر من علامة استفهام يصدد حدود الصفة التمثيلية للجمعيات الاهلية والتفايات المهنية والأحزاب السياسية، يقدر ما اتارت الحاجة الى اشكال مبتكرة من التنظيم والتمثيل على مستوى القواعد ومن اساليب الدعوة والتشاطر.

لم تنته الادولوجيات في عصرنا المتحول، وبرزت الادلة على ذلك هيمنة لاهوت السوق والكهوت المسيس عليه ولا انتهى دور النظرية في إنتاج المعارف - بما هي مبتدى لا منتهى - وفي إرشاد الممارسة النورية. تنشر في هذا العدد مراجعة نقدية بعنوان «أفئعة الماركسي غير الماركسي» وتعرفنا بالمؤرخ الماركسي البريطاني إريك هوزيادوم اضافقة الى موضوعات في تصفية الحساب مع التجربة السوفييتية نتمنى ان تستير هذه المواد، وسواها، ما تستحق من نقاش.

اخترنا لمراجعات الكتب ما يتصل بالثورات الشعبية صدف انها صادرة بالانكليزية لا عجب لأن العالم يضخ مؤلفات وكتابات وفيرة عن المنطقة، من انتاج عرب الاغتراب او غير العرب، يحتوي العديد منها على مواد معرفية خام وعلى معارف تمينة «سوف يجهد في متابعة مثل هذه المنتجات وتقديمها والتعريف بها.

اتارت اكتشافات ويكوليكس الاهتمام بالوثائق الحكومية - بما فيها الاميركية - كمراجع تمينة للتاريخ الحديث والمعاصر ومصدر للتعرف الى السياسات قيد الصنع. نشر هنا عددا من وثائق الخارجية الاميركية ومجلس الامن القومي الاميركي تتعلق بالتدخل العسكري

السوري في لبنان في ربيع وخريف ١٩٧٦. وسوف تعنى صفحات «ذاكرة» بكل ما يتعلق بالتاريخ والذاكرة من مذكرات وشهادات ويوميات ووثائق وتسجيلات التاريخ الشفوي وسواها.

في الثقافة اخترنا التركيز على ثقافة العين لأن هذا القطاع من الذائقة الفنية لا يزال ضعيف النمو في الحياة الثقافية العربية ونوي ان نصيف في الاعداد القادمة قسمين ثقافيين يستحقان عناية خاصة القسم الاول هو الثقافة الشعبية بوجهها، الثقافة المنتجة مياشرة من الشعب والثقافة الموجهة الى الجمهور الشعبي الواسع، والقسم الثاني هو ادب الرسائل غابت كوكبة من الاصدقاء قبل صدور «وبلايات» نفقده مساهمتهم ونعوض عنها بنشر نصوص ورسوم غير معروفة لسمر قصير وجوزيف سماحة ومكرون يقدادي ومحيي الدين اللباد تزئنها خصبة محمود درويش «على هذه الارض ما يستحق الحياة» يخط يده ولن نكف عن استحضارهم.

الحكم في نهاية الامر للقراء والآخرى ان الحكم حتما للقراء لأننا نطمح الى علاقة تفاعل ونضامن مستمرة معهم، نتكل عليهم في تنقية «بدايات» بالكتابة والمؤازرة والنقاش والتند بقدر ما نعتد عليهم كمصدر يسهم في تأمين استقلالنا المالي.

«بدايات»

- ٩ اليسار في الزمن الثوري
فواز طرابلسي
- ١١ النساء في الثورة
نهلة الشغال
- ١٧ ثورة الجسد
خالد فهمي

- ١٩ ثورات ضمن القواعد
المرعية الاجراء
سحر مندور
- ٢٢ اللغة والثورة: قراءة في شعارات
الثورة التونسية
محمد بن بوعزيزي

- ٢٧ طاقات تقهر براكين
إثيل عدنان
- ٢٩ ثورات في الشفاعة اللبني
أيمن خوري
- ٣٣ عثمانية جديدة في بلاد العرب
أيمن قللكودان

اليسار في الزمن الثوري

فواز طرابلسي

٢٠١١ ولا يزال يحركهم ويدفعهم لانواع التضحيات وصولا الى بذل الدم يسخاء، هو العلامة الفارقة على الطابع الديمقراطي والشعبي للانتفاضات وهذه الجذري الابرز، يعلن الشعار الشعب مصدرا للسلطات وعلى السيادة الشعبية على كل سيادة اخرى، فردية او «سلالية» او حزبية او عسكرية او حاكمة يكسب الاجتهاد الديني، ويحسم يعجز الانظمة العربية القائمة عن ان تصلح نفسها بنفسها مؤكدا ان السبيل الوحيد لتحقيق ارادة الشعب هو تغييرها بالقوة، قوة الشعب

الي جانب شعار «الشعب يريد» ارتفع شعار مكمل له لم يقل عنه شيوعا، هو «عمل، حرية خير» الذي وضع حق العمل والعدالة الاجتماعية في صلب العملية الديمقراطية الجديد في هذا الشعار هو المطالبة بالعمل، ذلك انه يشير الى البطالة بما هي احد الدوافع الرئيسة للانتفاضات والمحفز الحاسم لدور الشباب فيها، ومعلوم ان العالم العربي يحمل الارقام القياسية العالمية من حيث نسبة الشباب (١٥ - ٢٤ سنة) بين السكان ونسبة البطالة الى السكان (لا اقل من ٢٣٪) ونسبة البطالة بين الشباب (٤٤٪ من اجمالي العاملين عن العمل، وتحمل بطالة الشباب بدورها الى الطابع الريعي المتزايد للاقتصادات العربية في ظل العولمة الرأسمالية والاملاءات النيوليبرالية وليس أدل على فضيحة تلك الاملاءات من ان يسارع مدبرا صندوق النقد الدولي والبنك الدولي - تحت وطأة التوريتين التونسية والمصرية - الى الاعتراف بأن نمو الناتج المحلي لا يحجب على مشكلة البطالة علما انه المقياس الذي فرضته المؤسسات على مدى ربع قرن عل انه المقياس الابرز لمقياس الجدوى الاقتصادية وتزداد الفضيحة ضخامة اذا علمنا امرين: الاول ان المؤسسات اللتين تتحكمان بعيان اليسر المالية والاقتصادية كانتا تقدمان تونس ومصر نموذجا كمنموذج يقتدى به من حيث النجاح الاقتصادي في ظل «الاصلاحات الهيكلية»

تحمل التورات العربية الى اليسار مزيجا من التحدي الوجودي والفرصة التاريخية، والفيصل بين الاثنين هو قدرته على التحكم من الدروس البليغة التي تحملها العملية الثورية ويلورة مسروعه ودوره فيها وتدير كيفية الرد على تحدياتها، فاعل في ذلك ما يدفع اليسار الى مغامرة مبدية النقد الذاتي، كقارة ذنوبه التي لا تنتهي، والاستعاضة عنها بمراجعة للماضي تسهم في فهم افضل للموقع والدور في الحاضر وتخدم خصوصا للاطلاع على المستقبل. هذا اذا كان بين اليساريين من يريد تجاوز تيارين في اوساطهم يسار دعم الاستبداد بحجة المسألة الوطنية ويسار الرهان على التدخل الخارجي «سيلا» الى تحقيق الديمقراطية

أسهم اليسار وشبابه خصوصا اسهاما متواضعا وان يكن ذا اثر في الانتفاضات في تونس ومصر واليمن، كان الشباب اليساري في طليعة المبادرين للنزول الى الشوارع واحتلال الساحات والميادين والاطلاق شعار اسقاط الحاكم ونظامه، وكسروا حاجز الخوف وتقدموا الصفوف عندما تعلق الامر بمواجهة القمع والحصار في المغرب، فبرزت حركة ٢٠ فبراير التي أطلقت الموجة الشعبية الضاغطة من أجل الاصلاحات وقد شذت الحالة السورية بعض الشيء بسبب دور الاحزاب الشيوعية المتحالفة مع النظام فبرز اليساريون بما هم بالمرجة الاولى المنشقون عن تلك الاحزاب والنشطاء بالصفات الفردية او في مجموعات وتنظيمات صغيرة.

ومع ان اليساريين فازوا بعد متواضع من الاصوات ومن المقاعد في الانتخابات النيابية في تونس ومصر، بقي الوجه الابرز لنضالهم في مواقع الضغط الشعبي لتفكيك انظمة الاستبداد ومؤسساته ونشرباته واستكمال تحقيق اهداف الثورة.

انتفاضات ضد النيوليبرالية

ان شعار «الشعب يريد اسقاط النظام» الذي حرك عشرات الملايين من العرب من المحيط الى الخليج خلال العام

والثاني ان المطلوب توفير ٥١ مليون فرصة عمل في العالم العربي بحلول العام ٢٠٢٠، حسب تقديرات لـ«وكالة التنمية» التابعة للامم المتحدة للعام ٢٠٠٩.

فأي اقتصاديات قادرة على انتاج فرص عمل بهذه الكثرة؟ وأي تحدٍ اكبر من هذا التحدي لثورات يراود لها، ولمن سوف يحكمون بإسمها، ان تبقى محصورة في الحيز السياسي وحده؟

حقيقة الامر ان الانتفاضات تشكل موجة من المقاومات الشعبية المشتركة لمفاعيل النيوليبرالية بعد اكثر من ربع قرن على مباشرة تطبيقها في المنطقة. وهذا ما يفسّر، الى جانب عوامل أخرى، شمولها هذا العدد من البلدان العربية في وقت واحد.

ولا فصل هنا بين دوافع اجتماعية ودوافع سياسية. تراكمت وتيرة تطبيق الاجراءات النيوليبرالية مع تركّز متزايد للسلطة والثروة في ايدي العائلات والمجموعات المافوية - الامنية المرتبطة بالقطاع المالي - العقاري - المفاوضي، سواء في الانظمة الدكتاتورية العسكرية المتحدرة من حركات التحرر الوطني او في الانظمة الريعية السلالية المسيطرة على الاقتصاديات النفطية. ولم يكن صدفة ابدا ان يؤدي هذا التزاوج بين الاستبداد والنيوليبرالية الى تغليب الدور القومي للدولة على اي دور آخر كوسيلة رئيسة للضبط الاجتماعي والسياسي. فهو سمة مشتركة بين انظمة البلدان التي طوّقت فيها املاءات البنك الدولي وصندوق النقد. وترافق تركّز الثروة، والتخلي عمليا عن اي جهد تنموي، في ظل نمو الحرمان والتهميش والفقر، مع تنامي الهدر ونهب المال العام ومع اعادة تصدير عائدات النفط والغاز الى المراكز الرأسمالية حيث توظف في تمويل المديونية الأوروبية والاميركية او في إسناد عملاتها او الاستثمار في القطاعات المختلفة، هذا عندما لا تجري استعادة البترودولارات عن طريق تمويل الحروب الخليجية ومبيعات السلاح بارقامها المليارية والمواد الاستهلاكية الفاخرة الفاحشة.

ولقد كشفت فضائح الحكام العرب المخلوعين، والعشرات والمئات من مليارات الدولارات التي راكمها كل منهم، همجية تسخير السلطة السياسية في سبيل الاثراء عن طريق نهب المال العام وفرض العمولات على المشاريع الاقتصادية واقتطاع حصص مباشرة من عائدات النفط، والسيطرة على الصناديق السيادية ناهيك عن التهريب وتبييض الاموال. وكل هذا في الوقت الذي حادت فيه الحملة ضد «الفساد» عن فضائح وهموم تلك المنهية. إذ جنحت للترويج للخصخصة بحجة ترهل البيروقراطيات الحكومية، ووظفت نظريات «الموازنات المتوازنة» كمبررات

للاعفاءات الضرائبية على رجال الاعمال والاغنياء والبقاء المزيد منها على الجمهور بواسطة الضرائب غير المباشرة، فيما قضت سياسات «التقشف» على دعم الدولة للسلع والمواد الاساسية وقلّصت دورها في التوزيع والرعاية الاجتماعيين الى حدوده الدنيا.

الديمقراطية هي الطريق الى الاشتراكية

في عالم عربي هذه بعض تداعيات وقع العولمة النيوليبرالية عليه، وتلك تحديات ثوراته الشعبية، لا بد ليسار ان يستعيد مشروعه المجتمعي كاملا وان يعيد به انتاج استقلاله الفكري سبيلا الى استقلاله السياسي والتنظيمي والسلوكي. هذا ان هو اراد البقاء على قيد الحياة والمنافسة في كسب الرأي العام والجماهير الشعبية التي يفترض به تمثيل مصالحها الاكثر جذرية.

وحتى لا نتجاهل السؤال التقليدي «ماذا يعني ان تكون يساريا الان؟» يمكن القول ان اليساري هو من يحاول الربط بين قيمتي الحرية والمساواة. وهو الذي يعي، في ظروف بلادنا المخصوصة، ان تحقيق الديمقراطية السياسية مهمة تاريخية متكاملة تتطلب تفكيك أنظمة الاستبداد واستبدالها بانظمة ومؤسسات وتشريعات جمهورية ديمقراطية مدنية. واليساري هو من يدرك، بناء على الدروس الاليمة للتجربة اليسارية ذاتها، ان تجاوز سلبيات الديمقراطية السياسية لا يتم بدكتاتورية تقمع الحرية دون ان تحقق المساواة، وانما بتعزيز الحرية بالمساواة، اي بتحرير الديمقراطية من سطوة رأس المال وتطويرها نحو الديمقراطية الاقتصادية والاجتماعية. بهذا المعنى، فمبرر وجود متجدد ليسار في العالم العربي هو دفع الثورات الديمقراطية الى نهاياتها المتساوقة وتطعيم الديمقراطية السياسية بالديمقراطية الاجتماعية عن طريق المساهمة في حل التناقض بين المساواة السياسية للمواطنين في الدولة واللامساواة بينهم في المجتمع، وهي اللامساواة الناجمة عن الفوراق والامتيازات الطبقية بينهم. ان الديمقراطية هي الطريق الى الاشتراكية.

والحد الأدنى المشترك بين الاشتراكيين لمذلول المفردة هو الاقتناع بأن هذا النظام الرأسمالي ليس نهاية التاريخ ولا هو خاتمة الطموح الانساني. بل ان التاريخ نفسه، بما فيه إنجازات الرأسمالية ذاتها، بات يسمح بتجاوز الرأسمالية. فقد بلغت البشرية درجة من التطور وفرت من الموارد والثروات والمعارف ما يسمح بسدّ الحاجات الاساسية لجميع سكان المعمورة من عمل ومعاش وسكن وعلم وصحة وبيئة نظيفة وأمنة. وان العقبة الاساسية امام تحقيق تلك المهمة التاريخية هي الملكية الفردية ومبدأ الربح، الركيزتان الاساسيتان

للنظام الرأسمالي وليس أدل على هذه الحقيقة من الأرقام التي تتداولها وكالات الأمم المتحدة للتنمية من أن عشرة بالمئة فقط من ثروات أول ثمة من اغنياء العالم كغيلة يسد تلك الحاجات

التحدي الأكبر أمام الاشتراكية هو كيفية زيادة انتاج الثروة من أجل تأمين المزيد من العدالة والمساواة في توزيعها.

على أن هذه الحقيقة ليست تعني الاشتراكية والاشتراكيين من التحدي الأكبر الذي تكشفت عنه تعارب «الاشتراكية المتوحشة» نقصد كيفية حل المعادلة التاريخية الصعبة معادلة زيادة انتاج الثروة من أجل تأمين المزيد من العدالة والمساواة في توزيعها لا توجد وصفات جاهزة توجد محاولات حل تستحق الدرس منها تجربة حزب العمال البرازيلي في الحكم خلال العقدين الأخيرين.

مشروع لعصر العولمة

ان استعادة اليسار لمشروعه المجتمعي كاملاً، يضعه أمام امتحان أدوات النظرية لانتاج المعارف عن عصر العولمة بآليات تشغيله واتجاهاته الرئيسية وخصوصاً عن وقعه المميز على المنطقة والمفارقة الفارقة هنا هي ضعف الجهد الفكري والاقتصادي حول موقع المنطقة العربية من العولمة يختلف جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية ولعل أولى نقاط الاستدلال على هذا الطريق هي الآتية

أولاً: تعيين الاطار العام لخصوصية صلة المنطقة بالعولمة من خلال وجود ركيزتين للامبريالية المعاصرة فيها (١) آليات الاستعواذ على الموارد والثروات الطبيعية - النفط والغاز خصوصاً - وإعادة تصدير عائداتها الى المراكز الاوروبية والاميركية (٢) انفراد المنطقة دون سائر مناطق العالم بوجود مشكلة من بقايا العهد الكولونيالي هي الاستثمار الاستيطاني العنصري لفلسطين، المستمر في قضم الاراضي والاستيطان على مدى فلسطين التاريخية الى يومنا هذا، عدا عن توسعته واحتلاله اراضي الجوار

ثانياً: استكشاف الطبيعة المتناقضة للعولمة يظواهرها الجديدة من منهية الفقاعة المالية وخطورها التدميرية الى نقل الصناعات الى بلدان الجنوب القرب من المواد الأولية والابدي العاملة الرخيصة، وهي ظاهرة لم تسهم في الحد من البطالة والفقر في بلدان الجنوب التي استقبلت الصناعات المنقولة، بل اطلقت موجات غير مسبوقه من الهجرة في تلك البلدان نحو بلدان الشمال ومن تناقصت العولمة المنيرة للجدل توحيد العالم، في الزمان والمكان، عبر ثورة الاتصالات والمعلوماتية المنحلة من جهة، وتذريره في الآن ذاته الى كيانات وولايات ما دون الدولة من جهة ثانية

١ - حول نقول موجوع
المرحلة من خصة
فلسطين والمراج
البحر المتوسطي من
جهة ومن الانشطة
الدينامية لعمرة في
عن لاصي لصي الدال
عن نقول منقول لهذا
الوجه الحساب.

ثالثاً: استجلاء الوجه الجديد لامية تُعيد بالخط جديدة من التضامن والترايط بين بلدان الجنوب تعني عولمة بديلة، تقوم على التقاء المصالح بين المتضررين من الامبريالية

المعاصرة ومن احتكار الشركات العابرة للجنسيات ومن آليات التبادل والتطور غير المتكافئين بين اجزاء العالم، عولمة بديلة تطمح لبناء عالم يتسع لما فيه من عوالم متحررا من العنصرية والمجاعات والفقر والحروب وخطر الغناء النووي، عالم يوفر الحد الأدنى اللائق من الحياة لجميع اينائه، بدلا من ضمان الثراء الفاحش الهائل للواحد بالمئة على حساب التسعة والتسعين الباقين

تتفرطية علمانية ذات هم اجتماعي

لا جديد في القول ان الثورات الراهنة معط نزاع على مستويات.

المستوى الاول هو النزاع الناجم عن التدخل الخارجي متعدد الاشكال والاطرافه الساعي للحفاظ على الانظمة القائمة ولو بالقوة عندما يتعلق الامر بدائرة امن النفط ولكنه يتكيف مع الانتفضات الجارية في قطار اخرى، من اجل استيعابها وانتزاع نصلها الحاد عن طريق التضحية بمرور الحكم والارتضاء بمقادير من التعددية السياسية والاعلامية مع الحفاظ على الركائز العسكرية للسلطة وعلى اولوية الجهاز التنفيذي ومع العمل على إخراج الجماهير من دائرة الفعل والضغط، ولا تقنع قوى التدخل الخارجي هذه في تجديد الاطعم الحاكمة طاكلاً تضمن المصالح الامنية والجيو استراتيجية للامبريالية المعاصرة وتنفذ السياسات الاقتصادية سارية المفعول.

اما مستوى النزاع الآخر فهو مع قوى سياسية اسلامية ترى الى الانتفضات والى حيازة اكرتات برلمانية، الفرصة الذهبية للارتداد على ما تبقى من تشريعات مدنية وعلمانية في الدول العربية المعنية هذا عدا عن استعدادها التنازل عن موجبات الحد الأدنى من التضامن مع قضية الشعب الفلسطيني من اجل كسب الشرعية الخارجية، الاوروبية والاميركية، ناهيك عن انحيازها النيوليبرالي ومعاقبتها الاجتماعية وسعيها لإحلال المعارك الرمزية محل الحل الفعلي للقضايا الاجتماعية والاقتصادية المستعجلة.

في المقابل، حري باليسار التمسك بأبرز رسالة تبذلها الانتفضات من ان التعويل الديقراطي يجب ان يتم بواسطة الشعب بقوى الشعب الذاتية ومن اجل الشعب وترجمة ذلك

هو ارساء المشروع الديمقراطي ليسار على الاسس الاتية:

١. تشريع المساواة السياسية والقانونية للمواطنين ورفض التمييز بينهم على اساس الجنس والدين والمذهب والاثنية .
٢. انبثاق السلطة التنفيذية عن السلطة التشريعية وخضوعها لها ومسؤوليتها تجاهها، وسيادة مبدأ فصل السلطات.
٣. اعتبار الحقوق الاجتماعية - العمل، المعاش، السكن، العلم، الصحة، البيئة النظيفة الآمنة - حقوقا طبيعية من حقوق الانسان. ذلك ان الديمقراطية التي لا توفر عملا ولا تطعم خبزا تدعو اول غاصب للسلطة الى أدها.
٤. الحياد الديني للدولة بما هو تدبير سياسي يحقق عدم تدخل المؤسسات الدينية في شؤون الدولة وعدم تدخل الدولة في شؤون المؤسسات الدينية. و يترجم هذا الحياد في رفض زجّ المقدس - القائم على معادلتى التحريم والتحليل؛ وحقوق الله مقابل واجبات الانسان - في السياسة التي تقوم تعريفا على الاجتهادات والخلافات وتعدد الخيارات. وتؤكد هذه النظرة ان العلمانية ملحق من ملحقات الديمقراطية،

لا العكس، تعتمد المرجعية الزمنية والمدنية للتشريع، اي صدره عن مؤسسات السيادة الشعبية، اكانت المجالس التمثيلية او الاستفتاءات الشعبية. ويقتضي الالتزام العلماني، في هذه المرحلة الانتقالية بالذات، إقران اي تنازل يقدم للتشريع الديني في الاحوال الشخصية بتشريع مدني اختياري مقابل.

منظور جديد للوحدة العربية

انه لاذو دلالة كبيرة ان يؤدي سقوط الحكم الفردي في ليبيا وتونس الى اعادة تفعيل سريعة لمشروع الوحدة المغاربية بين بلدان المغرب العربي. توجت الوحدات العربية المسخرة للسيطرة الداخلية تاريخا من الفشل لصيغ «القطر القائد» و«الوحدات الاندماجية» والتوحيد القسري ولو بالحرب، كما في حالة اليمن، او تشريع الانفصال في صفقة تحافظ على سلطة الحاكم فيما تبقى من البلاد، كما في حالة السودان، عداك عن الفشل في الحفاظ على المشاريع الوحدوية او حتى العجز عن تحقيق وحدة سورية والعراق عندما كان حزب قومي واحد يحكم البلدين.

لا بد من منظور جديد للوحدة العربية يحررها من اشكالية الهويات ومن الاستبدادية. ذلك انه لا يزال المدى العربي المدى الوحيد لتحرر المنطقة والسيطرة المشتركة على مواردها وثرواتها ومقدراتها ومصائرنا وتحقيق

التنمية الفعلية لصالح جميع ابنائها وانتزاع مكانة تليق بهم وبها بين الامم. وهذه اهداف تتزايد الحاجة اليها والعوامل المساعدة على تحقيقها في آن معا نظرا لما يفرضه عصر العولمة من تحديات تدفع باتجاه بناء التكتلات الاقليمية. في سبيل تحقيق ذلك، تملك البلدان العربية - الى اللغة والتراث والتاريخ المشترك - من الثروات الطبيعية العظيمة الاهمية - من نفط وغاز ومعادن ومياه - ما يكفي لتحقيق تنمية إنسانية قائمة على قيمة العمل والانتاج تهدف لتوفير الحد الأدنى من الحياة اللائقة لكل مواطنيها، بأقل كلفة على القوى البشرية.

ويرى هذا المنظور في الوحدة العربية مشروعا طوعا قيد البناء، يتحقق عبر مسار زمني من التعاون والتكامل ويعيد الاعتبار للمصالح والتطلعات المشتركة للشعوب. فيبدأ من تنمية التبادل التجاري بين الدول العربية، وهو من اخفض المعدلات في العالم، ويمر عبر خطوات على طريق التكامل الاقتصادي وبناء السوق المشتركة قبل ان يتوج المسار في اشكال مختلفة من

الديمقراطية التي لا توفر عملا ولا تطعم خبزا تدعو أول غاصب للسلطة إلى أدها.

التكامل السياسي والمؤسساتي. والعالم العربي قابل بالمقدار ذاته لأن يتسع لكل مكوناته البشرية بغض النظر عن الانتماءات والفوارق الاثنية والاقوامية والدينية والمذهبية. فقد إنتهى ايضا التصور الذي يقرن الوحدة الوطنية بالمركية السلطوية. وما ادى اليه من ممارسات عمقت عوامل التفتت الداخلي واستدرجت النزعات الاهلية والدعوات الانفصالية وما تمخض عنها من حروب واقتتال.

في سبيل تعاقد جديد بين مكونات الشعوب العربية، يحمل اليسار مساهمة من نقطتين: تقول الاولى إن تكريس المواطنة المتساوية يشكل حلا ضروريا ولكنه ليس هو دائما الحل الكافي للتعاطي مع جدل الاكثرية/الاقلية. فكيفما تقلبت ادوار التمييز والغلبة بينهما، فقد لا تستقيم في بعض الاحيان دون تصحيح المظالم التاريخية بإقتران المواطنة بالاعتراف بحقوق الجماعات في تقرير المصير.

ويقترح اليسار في النقطة الثانية ان ارتداد الناس الى الانتماءات الاولى (عائلية، مذهبية، دينية، مناطقية، اثنية، الخ) كخط دفاع أخير عن النفس، غالبا ما يتم للاحتجاج على تمييز ضدهم من حيث الموقع من السلطة والسيطرة على الموارد الطبيعية وتوازن الثروة وخدمات الدولة. ويتم هذا الارتداد، وربما بشراسة اكبر، عندما يتعلق الامر بالدفاع عن امتيازات ومواقع استثنائية وإمتياز مكتسبة في السلطة والثروة من خلال

قيمة بينها، في مقابل تلذذها الى دزينة من القطاعات المتفرقة في فكر وممارسة المنظمات غير الحكومية. اضف الى هذا ان عمل العدد الاكبر من هذه الاخيرة إقتصر على التبشير بالديمقراطية والتدريب والتربية عليها في تجهل لسروط تحقيقها عبر الفعل السياسي او استبعاد دور الضغط الشعبي في ذلك.

عبرت النورات عن مشاركة فئات اجتماعية لا تتسع لها الاطر الحزبية والنقابية القائمة على الاساس المهني او السياسي، ولا منظمات حقوق الانسان للتعبير عنها وتمثيلها الطبقات الوسطى، الشباب، النساء، العاطلون عن العمل، الفقراء ومهمسو الارياف وسكان العشوائيات وغيرهم. تتجه هذه السرائح نحو اشكال جديدة من الحركات الاجتماعية تستحق الدراسة والاهم ان الانتفاضات قيمت مساهمات نمية للعمل الشعبي في ابتكارها اشكالا من التنظيم والتحرك القاعدية من تنسيقيات الاحياء واتلاقات شبكية ولجان شعبية للعمل البلدي وهيئات للعاطلين عن العمل وسواها. والملفت جدا ان هذه الاشكال الحدانية تراكفت مع اعانة استنباط كافة اشكال وهيئات تقليدية التضامن والتكافل الاهليين الريفي منه والمدني.

واخيرا، زخرت الانتفاضات بابداعات العبقريّة الشعبية، من حيث اشكال النضال استخدمت من الموارد والادوات ووسائل الاعلام والاتصال والايصال أرقاها، وأجبت في الآن ذاته من عناصر ثقافتها الشعبية الابدع والاكثر تأثيرا وتعبئة للناس وتأجيها للمشاعر من جدها وغنى وإنشاد ورقص جمعي.

على ان العبقريّة الشعبية ليست الحتام بل هي الإلهام الدائم

تلك الانتماءات الاولية من هنا ان تأمين الحقوق الاجتماعية الاساسية وتحقيق التنمية المكانية المتوازنة والتوزيع العادل للثروة والخدمات الدولة عناصر مكتملة للحلول القائمة على المواطنة المتساوية والحق في تقرير المصير.

التنظيم والوسائل

كشفت الانتفاضات الشعبية مدى قصور نمطين من التمثيل الاجتماعي-السياسي: الاحزاب السياسية ومنظمات المجتمع الاهلي. لقد اغترأ دور الحزب الطليعي الانقلابي، القائم على التراتب الاوامري الداخلي، وعلى العلاقة الاستغلالية التربوية تجاه الشعب قبل ان تجهز عليه الانتفاضات لكن خصيصه هذه تجلّت على نحو همجي غير مسبوق في الممارسات الدموية خلال الانتفاضات.

لقد أن أوان الاحزاب الجماهيرية الممثلة لكامل من المصالح والمعيّرة عن التطلعات الشعبية عبر البرامج والسياسات احزاب هي وسائل وليس اهدافا بذاتها ولكن يبقى على الاحزاب الجديدة الكثير من التخييل والابتكار في مجال الديمقراطية الداخلية واستنباط الوسائل النضالية المتلائمة مع المعارك والمنافسات في ظل الانظمة الانتخابية والديمقراطية. ولقد وضعت الانتفاضات المنظمات غير الحكومية امام امتحان ريع قرن من ممارسات لم تخضع لمراجعة جادة. ففي حين برزت معظم منظمات حقوق الانسان في ادوار جد ايجابية، بدت الانتفاضات كأنها «تصعّج بواسطة الممارسة» في موضوع التحويل الديمقراطي خصوصاً. فوضعت صيغة «الشعب/النظام» في مواجهة صيغة «الدولة/المجتمع المدني» التي غلب عليها التفسير النيوليبرالي. واعادت الانتفاضات بجميع قضايا المجتمع واغنية الصلات

النساء في الثورات نحو إعلان نسوي جديد

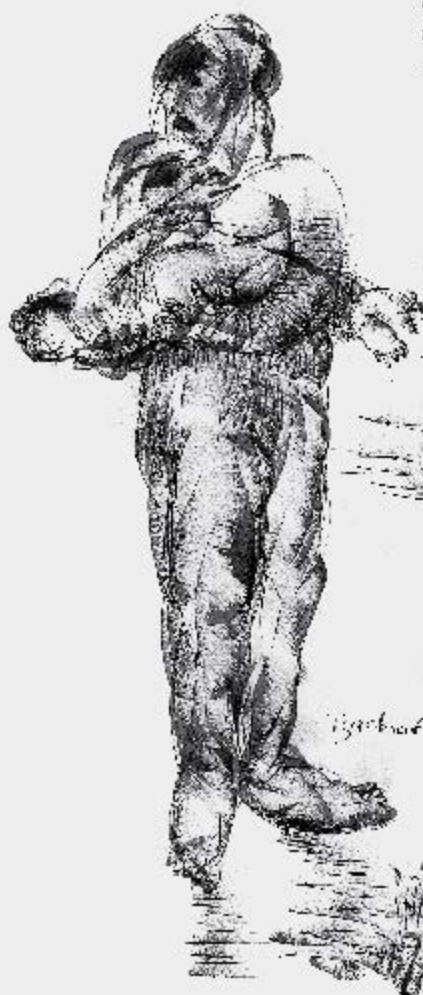
نهلة الشهبال

كاتبة وباحثة في
علم الاجتماع
العربي لبنان

أعدت الثورات العربية الجارية طرح مسألة موقع النساء ودورهن بعدة كبيرة، فاللحظة التعبيرية تفرض الموضوع لاسيما بعدما لوحظت المشاركة النسائية في كافة التحركات وعلى امتداد العالم العربي يتنوع أوضاعهم، تم لوحظ انكفاء حضور النساء في الهياكل المنتخبة أو التفرعية، وبعض الارتدادات عن مكاسب كانت متحققة للنساء وأما التفسير فيكاد يكون جاهزا: «هذا ما حصل بعد الثورة الجزائرية على الرغم من جملة يوحيرد والآلاف من رفقاتها» «إنهم الاسلاميون» يقول أصوات أخرى وتختلط الامثلة التاريخية بتلك العائدة لركائز وحجج فكرية، ويقلب على كل حال منطق الضحية: «هذا ما يحصل دومه» وهو بذلك يكاد يصبح حتمية لا حل لها، هو قدر أو مصير.

ولكن، وفق أي معيار نفهم المسار الذي قطعتة نضالات النساء، افرادا وحركات، للوصول الى حقوقهن؟ وما هي حقوقهن تلك أصلا، ومن يقرر تعريفها؟ تقرب عانة هذه الاسئلة، وبدأ النقاش من السطر الذي يليها، وكان الاجابات عليها يدهية أزعج أنها ليست كذلك بالنسبة للوعي العام الشعبي السائد أو الغالب، بل وحتى لدى الحركات النسوية نفسها، ويتضح أن هناك ضرورة ملحة لنقاش واضح، يتناول المبادئ العامة وكذلك الاستراتيجية بما هي تحديد للأولويات والطرق ووسائل تحقيقها، وهذا كما في المجالات الأخرى كافة، تُطرح مسألة الصلة بين المبادئ والاستراتيجية، فهما ليسا شيئا واحدا، لكن وبالمقابل، ليس بينهما انفصال أو ملاقاة تم بفترض أن كل خطوة تُقطع تغير شيئا في الواقع وفي القناعات والاندفاعات، بما يوجب التقييم وتجديد التلازم ما بين المستويين.

وعلى أية حاله فالانتفاض من أجل الحرية والكرامة والحقوق وضد الاستبداد والفساد والافتقار والارهاب، عمل تحرري أساسي وتعبير عن تطلع ديمقراطي أصيل، وهذا ما يعيشه العالم العربي اليوم، وسيكون من السذاجة افتراض



المطلوب إعادة الكلام إلى النساء بدل التكلم بالنيابة عنهن.

أن هذه الحركة «تتمضي في طريقها» بلا عقبات وصعوبات وصراعاته وبلا احتمال الارتداد والتراجع، وبلا تعويراته والسؤال يتعلق بموقع النساء في الحدث ومساهمتهم في التغيير العُم من جهة وأخيرا بحفظ اندراج مطالبهن المخصوصة في هذا السياق العام.

يستمر حضور النساء كثيفا في الثورات الجارية في المنطقة العربية بلا استثناء لمكان، مشاركات في التنظيم والاندماج في التظاهر والاعتصام متلفيات للرصاص الذي أوقع عدة شهيدات من بينهم كذلك يتعرضن للاعتقال والتعذيب وحتى الاغتصاب ويسبب من كثافتها واستمراريتها، فهذه المشاركة ظاهرة غير مسبوقة لقد تصرفت النساء كمواطنات كاملات الصفة فهل سيتمكن من إرساء هذه المواطنة بما يتجاوز اللحظة الاستثنائية للانتفاض؟

حقن المطالبات النسوية

تبدو مطالبات النساء في العالم العربي متمركزة حول الاعتراف يعقهن في المساواة الفعلية القانونية والسياسية وهذه المساواة معترف بها في البنود الاولى من دستائير أغلب البلدان العربية وذلك قبل الانتفاضات، وإنما هو اعتراف عمومي وملتبس على الغالب يقول «كل المواطنين متساوون» إلا أن بنونا لاحقة تكرر التمييز ويأتي في المقدمة التمييز القانوني في ما يتعلق بقوانين الأسرة أو مدونات الأحوال الشخصية ثم لا تلبث أن تطل برأسها غيرها من الاستثناءات مستندة إلى مزاعم الخصوصية الثقافية والدينية، والتي تلجأ كي تبرر نفسها إلى الهجوم على المعايير «الغربية» المواجهة لها، منددة بنوايا الهيمنة التي تختفي خلف «العالمية الشاملة».

والاعتداد بالشريعة الإسلامية يبدو حجة وازنة تدفع حركات ومجموعات من النساء رغم نشاطيتهن العالية في الحيز العام إلى قبول عدم المساواة وأكثرهن حياء يغلفنها بعجة «التكامل» بين النساء والرجال، بالصد من قائلهم وهو نقاش قديم، ولكنه ما زال قائما وأما الثورات الجارية فتطالب بسلطات ديمقراطية تستند إلى «تأسيسيات» بما يؤثر بقوة إلى مستوى عمل من الإدراك للغراب القاتم، وبين اللحظة كمفصل تاريخي، وهي تطالب بإجراء انتخابات عامة وبصياغة دستائير جديدة، وبالعندالة الاجتماعية والحريّة وبسبب ذلك يجابهات سياسية تزيد من تعقيد الموقف على النساء.

هل يكفي التأكيد على أنه، لقياس صعوبة الأفكار والتحرّكات المطلوبة، بما فيها تلك المتعلقة بحقوق النساء، يجب على الدوام وضعها في صلة مع الديناميات الفاعلة في المجتمعات، وتقييمها بالنظر إلى تلك الديناميات هنا يجب

أما عن حادثة اول
تطل في ذلك فهدا
يفض عن غومنا حاد
لكن هذه لصايد لا
تفي كحيها تقيلات
ذاقة للصاد حتى
لو اخل اصطفا
مناصب رسمية في
مهر واصلوهم بأفهام
الزعمات البهية
فهدا لصلوك تعلى
بالعاقه وليس بالدين
وامساجها مزلت يفتون
في نهاية اللق بخر
يفضون وعصيون
ويكتفيا ذاقة على
طاد اضمال الفندقة
لمفكرين محليين
من بينهم جمال البنا
وبعد قصور

تجنب انحرافين: الاول العائد إلى الدفاع عن «نسبية» ما تبدو حجة للانتفاض، والآخر الذي يقع في التجريد الذي ينضّب الابدولوجيات كمراجع للتحليل عوضا عن المعطيات وعن سمات الواقع. وهذان انحرافان نصا فهدا كثيرا عند تفحص المسألة النسوية في العالم العربي، بل هما تلخيصا فهدا الخريطة السائدة، المسدودة ما بين تلك المتسكة بالإسلامية منطلقاتها والاخرى المعتدلة بالمبادئ العامة للمساواة وحقوق الانسان. وأما المسألة الاخرى فهي سؤال أدوات وضع المنجزات موضع التطبيق، والوسائل العملانية لهذا، وهما هدف كل ممارسة سياسية ومنها ما يتعلق بمسألة النساء.

والتعداد الذي يلي لا يهدف إلى اسقاط «مكر المطالبات» ولا إلى الحكم على «مقدار وجاهتها» بل هنا جسد السعي إلى إعادة الكلام إلى النساء أنفسهن فلفترة طويلة تكلم الباحثون، رجلا ونساء، وكذلك السياسيون، محل النساء «مفترضين» ما ينبغي عليهن التفكير به أو اعتقاده والرغبة فيه وهذه ممارسة غير ديمقراطية بامتياز، حتى لو حرّكها الدفاع عن أفضل الحقوق الممكنة للنساء، لكن الاهم أنها لا تسمح بأنصاج الموضوعات الخاصة بهن. فالمسألة النسوية، وهي تعبر في كل مكان عن علاقات الهيمنة الاجتماعية، لها حساسية كبيرة في المنطقة العربية وتقطر معها «شحنة انفعالية» مكثفة ولا يعود ذلك إلى خصوصيات شتى ومتنوعة كما يُظن، بل هي مرتبطة بشكل عميق بالقلق والشعور بالرهبة اللذين تعكس منهما مجتمعات هذه البقعة من العالم بسبب الهزائم المتتالية والمتوعدة، والعجز عن «تحقيق الذات» بما هو إنجاز التحرر الاجتماعي والوطني. لقد أثارَت اللحظة الثورية الأمل بأن تكون أخيرا هذه الانجازات ممكنة. وهذا أعاد بعض الثقة بالنفس وبالكرامة التي كانت منلومة وهو على الأرجح شرط لازم لمقاربة مسألة حقوق النساء بشكل صحي.

إن ملاحظة الأدبيات المنتجة من قبل المنظمات والجمعيات النسوية، بما فيها الاتحادات المرخصة، تشير إلى أربعة مواضيع أساسية:

1- إقرار قوانين العائلة أو «الأحوال الشخصية» بشكل يعترف بمساواة النساء ومسؤولياتهن داخل الأسرة. يتعلق الأمر كذلك بمنح تعدد الزوجات وبحماية حقوق النساء في حضنة أولادهن عند الطلاق وحقوقهن في المنزل العائلي ونسبة ما في الاملاك المكتسبة خلال الزواج لاسيما حين تكون النساء عاملات ذوات دخل يُنق على العائلة وهي كلها مواضيع تمس مباشرة البنية البطريركية، وتبين مبلغ التناقض بين استمراريتها قانونيا وفكريا وبين الواقع الفعلي حيث النساء بن يمثلن نسبة ذات مغزى من قوة العمل في مجتمعاتهن. أثار هذا الجانب أكبر قدر من التوترات والمواجهات في السنوات الماضية ووصل أحيانا

ثمة فارق بين وعي نساء الطبقات الشعبية ومطالبهن وبين المطالب التي تصوغها الناشطات النسويات.

٢ بالطبع لم تطبق المناقشة في مجلس الوزراء التونسي، ولا حتى روعيت أي نسبة معقولة من الحضور النسائي، وكذلك الأمر بخصوص الحكومة الجديدة في المغرب، حيث امرأة واحدة من «العدالة والتنمية».

٣ انظر «النساء العربيات والأصلاخ: دراسة مقارنة بين المغرب والأردن»، بالعربية والانجليزية، على موقع مبادرة الاصلاخ العربي ٢٠١٠. www.arab-reform-initiative.com Women and Reform.

الى التسبب بمظاهرات هائلة متقابلة، حيث نزل مئات الالوف، من النساء خصوصا، الى الشوارع، بعضهن ذودا عن الشريعة الاسلامية التي «إذا طبقت بشكل سليم» تكفي لتوفير حقوقهن وحمايتهن من غدر الزمان، بينما تطالب الاخريات بمدونة مدنية يمكن تطبيقها على كافة المواطنين بالتساوي. من لا يتذكر تظاهرات المغرب في بداية الالفية الثالثة؟ وقد صدرت المدونة في النهاية بإرادة ملكية وسعت إلى التوفيق بين القطبين. ومن جهة ثانية هناك اصوات عديدة تسجل، وعن حق، الاعتباطية في تطبيق مدونة الاسرة المغربية الجديدة بسبب جهل و/أو ريبة القضاة وصاحبات الشأن أنفسهن، وعجزهن عن الاستفادة من بنودها. ذلك أن البؤس الشديد ما زال قائما، يرافقه ما هو معلوم من سلوكيات وتسويات. وكذلك هي الامية، وبالأخص بين النساء. وقد أعلن حزب حركة النهضة الاسلامي في تونس أنه سيحترم مدونة الاسرة المعمول بها، وهي متقدمة في اعترافها بحقوق متساوية للنساء مع حقوق الرجال. وهو كرر موقفه هذا بعد نجاحه في انتخابات المجلس التأسيسي. ويفتح هذا الموقف الطريق الى التقدم بما يخص التعامل مع القوانين الاسلامية. وتستمر من جهة أخرى محاولات التأويل التحرري للنصوص الدينية والأحداث والامثلة التاريخية العملية، بواسطة مجموعات تنتمي الى الاسلام وإلى النسوية في أن. وهي جهود ما زالت في بداياتها ولكن أهميتها لا تخفى على أحد.

طغيان المطالبات القانونية

+ ادانة العنف الجسدي والمعنوي الذي يطال النساء، والتمييز ضدهن، واقرار الاتفاقات الدولية في هذا الشأن (وعلى رأسها اتفاقية «سيداو»). فقد وضعت جميع الحكومات العربية تحفظات على بعض بنود هذه الاتفاقية، بحجج شتى تندرج كلها في بند الخصوصيات الدينية أو الثقافية. وثمة انطباع بأن النقاش سرعان ما ينزلق الى تحديد «مقدار العنف الجائر» على مستويات متعددة، بما فيه العنف الجنسي من قبل الزوج، الذي تطالب بعض الحركات النسوية في لبنان، أو المناهضة للعنف، باعتباره اغتصابا، فتواجهها صرخات الاستنكار الدينية المحذرة من تخريب البنيان العائلي ومن التدخل في الخصوصيات. ولكن اللافت كذلك هو العنف الجنسي ضد النساء كشكل من أشكال ممارسة القمع السياسي، وهو ليس بظاهرة جديدة، ولكنه يهدف الى ارعاب النساء ودفعهن الى الخروج من الحقل العام، والعودة الى الحيز الآمن للمنزل. وفي مجال آخر، وحيث وقعت اغتصابات جماعية للنساء في أزمنة الحروب الاهلية (وأبرز أمثلتها تبقى بوسنيا وكوسوفو وروندا)، فقد كان ذلك على الدوام اشارة الى نية في إحداث قطيعة بين الجماعات المتقاتلة. بينما يُذكر مثلا أن الظاهرة (كممارسة

جماعية ومنهجية) لم تُر خلال سنوات الحرب الاهلية في لبنان، رغم كل فظاعاتها، لأنه توجد على الأرجح في تضاعف الوعي الجماعي اللبناني فكرة «التسوية» التي سيعاد إليها لاحقا، متى أنهكت الأطراف أو عدلت التوازنات السابقة.

+ تعيين حصة (أو كوتا) في المجالس المنتخبة. وتتفاوت النسب المطالب بها، ولكن الصراع يجري حول المبدأ نفسه، حيث تعارض أصوات، نسوية أحيانا، هذا التدبير لاستثنائيته واقتعاله، فيما أصوات أخرى تشير الى عدم كفاءة بعض النساء اللواتي يُخترن ملء الخانات، في الدفاع عن قضايا المرأة. وهنا أيضا علينا أن نسجل أن حركة النهضة التونسية قد وافقت على اعتماد مبدأ المناصفة خلال إعداد «هيئة الدفاع عن مكتسبات الثورة» لقانون الانتخاب الجديد، وطبقته فعلا، فوصلت بواسطته ٤٧ امرأة الى المجلس التأسيسي على لوائح النهضة، من أصل ٨٩ منتخبا على لوائح النهضة، ومن أصل ٤٩ امرأة في المجلس عموما. ولكن، وعند التفاوض على تشكيل الوزارة بين التشكيلات الثلاث الفائزة في انتخابات المجلس التأسيسي، أطيح بمبدأ تخصيص حصة للنساء، أيا تكن. وتشارك في هذه الاطاحة الحزب الاسلامي والآخر ذو الصبغة اليسارية/الحقوق انسانية والثالث الاشتراكي الليبرالي. + الغاء كافة القوانين التي تناقض المساواة، ولعل أكثرها تداوليا حاليا هو العائد إلى حرمان النساء من منح جنسياتهن الى ابنائهن. وهذا مثال له وجهان، واحد عملي يشير الى هشاشة واضطراب وضع الاطفال المولودين من زواج مختلط، وبخاصة في حالات الطلاق أو وفاة الاب، حين يعيش الاطفال في بلد الأم. ولكن وجهه الآخر يعني الجميع، وهو مرتبط بمبدأ المساواة نفسه، ومعاملة النساء كقاصرات (بالمعنى المهين، وبمعنى المواطنة الفعلية من الدرجة الثانية). ويمكن ملاحظة أن مطالبات النساء لم تتخط الاولاد الى الحق في منح جنسيتها لزوجها، وهو تسوية مسبقة مقترحة من قبل النساء أنفسهن، ترد بخصوصها تبريرات عملية، كعدم تمكن الفلسطينين المتزوجين من غير فلسطينيات من فقدان جنسيتهم المهددة (وهو قرار من الجامعة العربية)، وكأن الانتماء الى فلسطين تحده هذه الاعتبارات. وهناك أيضا موضوع المساس بتوازنات ديمغرافية من طبيعة طائفية، كما لو كانت النساء نوعا من حصان طروادة لغزوات غامضة!

ويمكن ملاحظة طغيان المطالبات القانونية على سواها في هذا التلخيص الذي يستند الى أدبيات الحركات النسائية في المنطقة. وفي دراسة اشرفتُ عليها، ظهر بجلاء الفارق بين وعي النساء من الطبقات الشعبية والريف، الباحثات عن سبل تحسين أوضاعهن المادية، وبين المطالب التي تصوغها الناشطات النسويات والتي تنعكس هنا. وهذه اشكالية

نائبته تطرح كيفية عقد الصلة بين وعي النساء «العاديات» لمشكلاتهن وبين نضال النخبة النسوية

تميز مشاركة المرأة اليمنية

الأمثلة التي سنتناولها من بعض البلدان العربية تهدف بالأساس إلى عرض واقع يختزن مفارقات عديدة، تعبر على الأرجح عن تشابك المسألة النسوية بمتنفس البنية الاجتماعية والسياسات التاريخية للمجتمعات. ونعتقد أن «سر» المسألة النسوية يكمن في رصد تلك المفارقات ودراستها واستخلاص نتائجها. كذلك توضّح الأمثلة المقدر العالي من لامبكاتيكية الفرضيات التي تتكلم عن التعليم والعمل كوسائل لتحرير النساء وهو ما لا يلغي التشديد بالمقابل على أهميتهما والتي وإن قُطع فيها شوط فما زالت راهنة ويقوّه حيث أول الحارجات من المدارس عند الضائقة هن البنات وأول من يفقدن العمل عند الأزمات هن النساء فضلاً عن صعوبة وصولهن أصلاً لهذه تلك، رغم التقدم المسجل في الستينيات ذلك أن انتكاسة أعقبت تلك التقدم، تتلاقى مع الانتكاسة العامة.

مشاركة النساء اليمنيات في انتفاضة بلدن مثال منير. زلن إلى التظاهرات ونصبن الحياكم واعتصمن لأشهر في الساحات وشملت مشاركتهم عدة مدن وليس العاصمة فحسب. وحين اعتقلت توكل كرمان التي أصبحت في ما بعد حائزة على جائزة نوبل للسلام خرجت مظاهرات من الرجال تحمل صورته وتطالب بإطلاق سراحها. وهي وسواها من المنضلات، اعتلين منصات الخطابة في الساحات العامة في صنعاء وفي مدن أخرى، وخاطبن الرجال من موقع قيادي. وكرمان تلك منضلة شابة سبق لها أن قتلت لمنع الزواج المبكر للفتيات. وهي عضو في المكتب السياسي لحزب الإصلاح الإسلامي، ولكنها كثيراً ما نشرت مقالاتها في جريدة الحزب الاشتراكي اليمني. وهي سيدة محببة، كما شاركت آلاف المنقيات بالحراك الدائر، ما الذي يوجب رؤيته هنا؟ الحجاب والنقاب اللذان يفترض أنهما رمز إخضاع المرأة، بما هو إعلانها ملكية شخصية أو الزامها بالتميز الخاص؟ أم قبول المنضلات بمقبضة مشاركتهم في التحركات بأحترام طقوس وتقاليد اجتماعية «تقليدية» عن فتاعة بها أو ارتضاه للنسوية مع القيم السائدة؟ ما هي قيمة المكسب المتمثل بدخول مئات الألوف من النساء إلى مجال التسييس، ووجودهن في الشارع وتناولهن للأوضاع أمكن تلفرات العالم، مبدئات ب«أننا» و«نحن» معدّات ما يردن وما يرفضن، متحولات هكذا إلى فاعلات في مصير بلدن. هل حقاً تلك ليست سوى استغاثة لبلقيس؟

٤. صفحة داخل العلفة والولة في مثل هذه المواجهات. لا تخفى أن الشريكات تقطعا وجرواواوا على إة حال أن يحتوا سيطرتهم على البلد. وبه الهم فلا يجر منكن من عون تفكير كافة مؤسساته. وكان الحصار الدبر. نغزوا إلى حد بعيد.

٥. يصعب طويحة. دكتوراه تخرجها الباحثة زهرة علي حول الحركة النسوية العراقية.

٦. انظر: بطر عبد الفلاح، المرأة المصرية: مائة سنة من التغيرات والاضطرابات. على موقع الجزيرة للدراسات. كانون الثاني/يناير ٢٠١٧. وهو يقول: «هذه النسوة اللواتي تنادى بأبي حال مع الوجود الفعلي للمرأة في الصبح المربع ولدى عكس شكل لفت في قلبها الميمر. حيث تقل نسبة 2٥٪ تقريبا من إجمالي عدد السكان و ٢٥٪ من قوة العمل و 2٤٪ من طلاب الجامعات و 2٤٪ من مجموع الناخبين المقيمين في جدول الانتخابات».

٧. وهو ما تجدته بطريقة كارتونية في الجلس لندري في الفلم طيني لولم. ٢٠١٦. حيث تصوت الفتيات النسويات العراقية مع أفراد ناخبين المرأة ومؤسسات لمصلحة تعداد لوجيات على سبيل المثال.

المرأة العراقية تدخل المحفل السياسي

وأما العراق فقد عرف ثلاثة عقود من الديكتاتورية العنيفة بشكل خاص، وثلاثة حروب كبرى، وحصاراً مديناً، وأخيراً احتلالاً مبعثراً من القوة العظمى العالمية وهو ما كان كثيراً يخلخله أي مجتمع في العالم. وقد ذكك الأمر كان مع احتلالهم العراق كل مؤسسات الدولة العراقية، وأقاموا عرضاً عنها نظاماً سموه «العملية السياسية» التي نظر لها بواسطة «ديمقراطية المكونات» المستلهمة من المثال اللبناني ومن مبدأ المحاصصة الطائفية وقد مس ذلك بشكل خطير حقوق النساء.

بدأت حركة المطالبة بحقوق النساء في العراق مع بدايات القرن العشرين. وعام ١٩٥٩، بعد ثورة ١٩٦٨ التي أطاحت بالملكية، عينت أول خاضية في العالم العربي وكذلك أول وزيرة فيه. وفي ذلك العام أقر القانون رقم ١٨٨ للأحوال الشخصية وكان حينها الأكثر تقدماً في المنطقة. فقد كان قانوناً مدنياً ينطبق على كل العراقيين بغض النظر عن مذاهبهم وأخوابهم. وظل هذا القانون معمولاً به حتى الاحتلال الأمريكي عام ٢٠٠٣. بل كان غالباً ما يعدل لمصلحة النساء، كما حدث عام ١٩٧٨. وسنرى دلالات الاستثناء في هذا السياق. ومنذ ٢٠٠٣، تدور في العراق مجاهبة حول المرسوم ١٣٧ الذي يلغي القانون ١٨٨. وقد رفضته الجمعيات النسوية فجري سعيه رسمياً، ولكن أعيد العمل به بواسطة القدر ٤١ من دستور ٢٠٠٥ والتي تقول «العراقيون أحرار في انتسابهم في أحوالهم الشخصية إلى أديانهم ومذاهبهم الفكرية ومعتقداتهم وخياراتهم، وهو ما يضمنه القانون» وقد أقرت المادة من ضمن الاستفتاء الذي نظم حول دستور ٢٠٠٥ والذي حاز على موافقة أكثر من ٧٨ بالمائة من الأصوات.

ورغم هذا الانتكاس، وإتراجع شروط حياة المجتمع ومعاناة النساء بشكل خاص في هذا المجال، تعتقد الجمعيات النسوية على اختلاف مشاربها أن سقوط نظام صدام حسين قد أتاح دخول النساء إلى المجال السياسي في إطار تعددي وديمقراطي. ومن بين ستة آلاف جمعية موجودة في العراق حالياً، يوجد ألفان منها معنية بالمرأة، أي الثلث. وقد اعتمدت الكوتا في البرلمان، ليس بنسبة ٤٠ بالمائة كما طلبت جمعيات النساء بل بنسبة ٢٥ بالمائة، بينما لم تفر أي كوتا في مصر، والزمّت اللوائح الانتخابية بوجود امرأة واحدة على الأقل، وضعت غالباً في آخر القائمة فلم تفر إلا خمسة عشرة امرأة، ما نسبته واحد ونصف بالمائة من النساء. يفقد في البرلمان الجديد، (وقبل ذلك لم توجد أي امرأة في المجلس الاستشاري، ولكن الملاحظ أن التغيرات العراقية بصوت وفوق اتجاهات أحزابهم ويصعب أن أحيانا «نساء ضد مصالح النساء».



والامية كانت قد انتهت في العراق مطلع الثمانينات، واكتسب الممارسات المعهنة، وذلك لتشجيع النساء على الاستقلال المادي.

لبنان: النظام الطائفي ليو يامتياز

وأما في لبنان، فيوجد «الكثير من الحرية والقبول من الديمقراطية» كما قال الكبير، الدكتور سليم الحص، وهو يقصد طبعاً نظام الطائفية السياسية الذي يبدو أليفاً وقابلاً للتجديد باستمرار في إشرافه على حركة السلطة والثروة وتفاقمهما وهو نظام ليو يامتياز ليس فيه مكان للنساء إلا لزوجات أو بنات أو أخوات الزعماء وهو ما يحصل في ظروف مأساوية، فينضين ولكن يوصفهن «نساءهم» وقد ألهمت الثورات الجارية عدداً من الشبان والشابات تنظيم حراك يقول «الشعب يريد إسقاط النظام الطائفي» ولكنه حراك أدنى فحسب إلى تظهير استمرار وجود تيار علماني وليبرالي أو يساري، بالأخص بين الطلاب، ولعله ليس من ثقل القول التذكير أن نظام الطائفية السياسية ينظم كل نواحي الحياة في البلد منذ الولادة وحتى الموت مروراً بالعمل والزواج، وأنه لا يوجد حيز مستقل عن «سلطته» والتذكير أيضاً أن كتل النساء ينظمون داخل قرارات طوائفهن والأحزاب المعبرة عنها، إلا ما ندر، وبدلاً من يحجج نسوية عن تلك القرارات أو بواسطة استحضار تمبيرات عن «إرادتهن» مناقضة لمساغي تحررهن أو حقوقهن.

لا بد من الإشارة إلى سياق هام في ما يخص العراق خلال السنوات الثماني للحرب الفظيعة مع إيران، تم خلال الانتسي عشرة سنة من الحصار، لعبت النساء العراقيات دوراً حاسماً على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية وفي مختلف النواحي الإنسانية وذلك على امتداد البلاد لقد أمسكن بكل بساطة به معضات في البداية غياب الرجال في الجبهات، تم مبتدعت لتدابير تسمح بالاستمرار على قيد الحياة، وهذا استمر بوفرة عالية وبلا مخارج أو مهرب منه وذلك لمدة عقدين من الزمن، وليس صدفة أن حاول نظام صدام حسين احتواء هذا الدور والمكانة التي تربيته عليه، فسنى في نهاية الثمانينات إلى سن قوانين لهذا الغرض، منها مثلاً تلك التي تبيح للذكور ارتكاب جرائم الشرف حتى درجة القراية الخامسة، وهو كان يحاول بذلك إيقاف «سقوط» جانب بكم من العقيلة والعلاقات القبلية. وقد كان الأمر كارتكازاً إلى حد أنكر السخرية وخلال السنوات الثماني لاحتلال العراق وعلى الرغم من حالة التفكير والفساد السائد، تمت المنظمات النسوية واستمات «الحقل الاجتماعي» غير الأعمال الخيرية وكذلك غير مجموعات ضغط شكلتها للحصول على الخدمات الأساسية للدولة كما انتشرت جمعيات لمراقبة النساء المعنفات قانونياً، وللحصول على حقوق الأرمال ورفع قيمة التوظيفات لهن، ولمراتبة توزيع الموائد العينية، ولمساعدة النساء أثناء الإجراءات الإدارية، وصولاً إلى تنظيم حملات محو الأمية

٨ وهذا يعني، بالأسفل
المرأة التي لم
المرأة الفلسطينية
لحظة الفراق
لجنتهم عام ١٩٨٠
في الضلع على نساء
عظائهن وسألهن
ومعها وللساء
يعتزل لويط
الاجتماعية للثقة
يجتمعت لفتح
ثم في أثناء الحرة
مسترة في لسيون
القول بالثقة، سيما
كل المهر لكانت
الرجل يتقدمه
والنساء على ذلك
فقد لعبت النساء دوراً
مميزاً في الحفاظ على
تاريخ وطن.

٩ كما نرى بعض النساء
ترتيباً لك من قبل
وهنكل موزون
عبرت مثلاً حلاله
لصليب زعماء على
تلك الفترات والصور
سواء دعياء خيوط
السلطة حوكم سوا
بالإصلاحات والصور
الوسط في التوسعات

ردة الفعل
الغالبية
على حضور
النساء في
الحقل العام
تتراجع
عموما بين
التوحيش
والتمجيد
والتوظيف.

بتجاوز الوضع الواقعي للنساء في المنطقة العربية بشكل كبير، التنظير المحيط به كما التشريعات التي تخصه، فأنوار النساء كبيرة، وكذلك المكانة الفعلية والمسؤولية المنوطة بهن داخل مجتمعاتهن وفي أسرهن، على كافة المستويات المادية والمعنوية.

مقدار غياب النساء عن مواقع المسؤولية السياسية والوظيفية لا ينافس إذا بالرجوع إلى المبادئ العامة للمساواة أو إلى القواعد الأخلاقية، وإنما يكون بالنظر إلى حضورهن الاجتماعي والاقتصادي الواقعي، وهذه وضعية لا شك في قصصيتها (أي أنها مرضية شيزوفرينية)، تكشف أكثر من سواها البنية الاجتماعية وعلاقات الهيمنة السائدة، التي تبدو هنا مستقلة عن معطياتها «الموضوعية» ويختلف ما يُظن من أن سر ذلك يكمن في عقلية تقليدية يتسك بها العرب، فقلعه يمكن استنطاق تلك المفارقة لتظهر نسب «وثنائية» الاختصاص مثلا الذي يعتمد على موارد ريعية أحيانا أو أخرى خدمية (كالمساحة من بين غيرها) أو على تعويلات العاملين في الخارج ما يجعل تنظيم العلاقات الاجتماعية والسياسية اعتبارية.

هل تكفي الديمقراطية؟

والنساء غائبات بشكل يكاد يكون تاما عن التمثيل السياسي وعلى أية حال وحتى وقت قريبه كان الجميع نساء ورجالا غائبين عنه بمعناه الديمقراطي، إذ كان خاضعا لأليات انتقاء تخدم سلطات ذات رقع في غاية الضيق استمرارها في الحكم قائم لأنها تؤتي خدمات وكلايته، وهذا لا ينطبق فعسب على بلدان انتهت السلطة فيها إلى أيدي مجموعات نهائية، كما في مصر وتونس وسوريا واليمن (مع الفوارق)، واستمدت مشروعيتها من دورها التوسطي بين إمكانات بلدانها ومنظومة النيوليبرالية العالمية، بل ينطبق كذلك على سلطات تغطي بשרعيات تقليدية (الملكيات مثلا) لكن وجودها في السلطة مرتين هو الآخر يأداء هذا الدور الكلاسي والتوسطي.

مفارقة تطرح نفسها وتتعلق بمسألة الديمقراطية هذه الأخيرة قيمة عليا ولا شك، ولكن هل هي يوما معتمدة لتحرر النساء؟ ما العمل إذا سُنّت بكل ديمقراطية حقيقية قوانين تمهيدية ضدهن؟ المقاومة ولا شك، ولكن السؤال يبقى مطروحا، وهو متعلق بأليات اعانة انتاج وتأييد علاقات الهيمنة بكليتها، بما في ذلك داخل الجماعة المهيمن عليها، اخصد هنا النساء أنفسهن وما العمل لتلافي التحويل الذي يمكن أن يلحق بوجود النساء في المؤسسات التمثيلية أو التشريعية، حين تؤدي مواقفهن المتحفظة أو الرجعية دور الحجة لرفض مطالبات مرتبطة بحقوق النساء، يمكن رؤية هذا المنطق في العديد

من المدونات الرائجة أو تعليقات القراء على مواقع اعلامية مشهورة، حيث يقال «أسألوهن»!

ردة الفعل الغالبة على حضور النساء في الحقل العام تتراوح عموما بين التوحش والتمجيد والتوظيف والخط المشترك بين كل تلك الخصائص أنه يفترض بالنساء أن يبتعن كل مرة، وعلى كافة المستويات أنهن لا يبعثن عن الاستيلاء على السلطة ويأتت المسرحية بموجبه لأن النساء بالمقابل واعتبات لهذا البعد «إيميل» بمعنى من المعاني، أو يستبقن الممكن بالسلوك وفق تسويات مضمره، وحين يحدث العكس يتسببن لأنفسهن بالبقاء في حيز في غاية الهامشية ومقرب (من غربة وليس غرب)، وعلى كل حال فالة القمع تنزل عليهن بقوة حين يخرجن عن الدور الذي يرتضين تقبيله، وهذه وضعية تعزز كيدهن العظيم.

هل يمكن اعتبار أن الوصول إلى السياسة هو التعريف الآخر للديمقراطية وأن هذا ينطبق على الرجال والنساء على حد سواء؟ في هذه الحالة، يتطلب الأمر إعادة الاعتبار إلى جملة من «الخطوط» أولاها تشجيع مشاركة أوسع عند يمكن من النساء في الحيز العام أيا يكن، واعتبار ذلك أمرا «مفتاحيا» بمعنى انتاجه لا يلبه من إدراك للذات حتى لو تأخرت نتائجه أو مرت بمسارات متعرجة الحضور والمشاركة في الحقل العام مرادفة على نضج متعاقبه مع العلم بأن ذلك لا يكفي، وأن الامثلة على سرقة منعزات النساء وعلى اجبارهن على الانكفاء تتكرر كل مرة، ولكن هل من «سبيل أخرى» نعتي الحقوق المنصوص عليها قانونيا قابلة للإهمال والتزوير، وحتى التدابير السياسية قليلة للتجاهل وما يجري اليوم في برلكات الثورات خير دليل. ما هي التقلبات أو التسويات المقبولة، والتي يمكن عقدها؟ وفق أي معايير ينافس التقدم المنجز، بحيث يضبط التلازم المعتمد ويجعلها مندرجة في سياق معلوم، في استراتيجية هذه في مقدمة الاسئلة المطروحة بعودة وبشكل واقعي اليوم على امتداد العالم العربي.

أخيرا، يبدو أنه لا يد من يد التفاوض على «إعلان نسوي» يمكن أن يشكل وثيقة الحد الأدنى لمطالبات النساء في العالم العربي اليوم، وهذا لا يمنع احتفاظ كل مجموعة بتعليقاتها ومطالباتها الخاصة ولكنه يولد دينامية «سجالية» مستقلة، ويقيد على السواء كل التيارات الموجودة بين النساء، لأنه وسيلة لردم القطيعة بينهما، وهي أكبر بكثير مما بين سواهن، وكذلك الرتبة وهذا بذاته له دلالاته يمكن لمسار تفاوضي من هذا القبيل أن يضع التساؤلات والتحديات على الطاولة، وأن يبلور اتجاهات داخل التيارات تلك نفسها، وأن ينضج الكثير من الاهداف والوسائل على السواء إنه جهد سياسي لتوليد عملية «اتفاق» - صراع - توافق، أو توليد استقطاب له فاعليته ومعناه.



ثورة الجسد

خالد فهمي

جزّين التاريخ في
الجامعة الأميركية
بالقاهرة رئيس
لجنة توثيق
ثورة ٧٥ يناير

لم يضرم الشاب التونسي، محمد البوعزيزي، النار في نفسه بل أخسرها في جسده فعندما قام يوم الجمعة ١٧ ديسمبر/ كانون الأول عام ٢٠١٠ بسكب الوقود على جسده وإشعاله احتجاجاً على بطش السلطات كان يرسل رسالة واضحة مفادها أن باستطاعة جسده أن يعبر عما تجيش به نفسه بشكل أبلغ من أي شكوى يكتبها وبطريقة أبلغ من أي هتاف يردده وبالفعل كان من جراء هذا الفعل الدرامي أن سقط نظام من أقوى الأنظمة العربية ومن أشدها قمعا واستبداداً.

الجسد والعسكر

إن هذا اليفيق ببلاعة الجسد وقدرته على تعوي السلطة رأينا، يتمثل في أشكال أخرى في مصر، فخلال «سعيد الذي قام شرطيان بضربه حتى الموت يوم ٦ يونيو/حزيران عام ٢٠١٠ أصبح أبقونة الثورة المصرية ليس بسبب مقطع الفيديو الذي يظهر فساد الشرطة المصرية والذي كان خالد يقوم بتحميله على الإنترنت عندما تمكن الشرطيان من تعذيب مكانه، بل بسبب الصور التي التقطت لحته في المشرحة والتي نشرت لاحقاً على الإنترنت مصحوبة بصورته وهو حي، الأمر الذي أوضح بشكل جلي مقدار التعذيب الذي تعرض له.

ومن اللافت أن جسد خالد «سعيد» استمر في تأجيج مشاعر المصريين لمدة طويلة بعد موته ففي محاولة منها لتبرئة الشرطة، أصدرت مصلحة الطب الشرعي تقريراً نقصت فيه شهادة الشهود وزعمت أن الوفاة كانت نتيجة اختناق الضحية إثر يلهه لفائف مخدرات حاول إخفاها لحظة القبض عليه.

وبذلك أصبح جسد خالد «سعيد» كما ظهر في صور المشرحة وكما «تكلّم» في تقرير التشريح، الشغل الشاغل لأسرته وموضوع اهتمام الجماهير. فلا أسرة رفضت تقرير التشريح وأصرت على انتداب خبراء آخرين لتشريح الجثة

من جديد ومن ناحيتهم قام الناس بتنظيم وقفات احتجاجية في الإسكندرية وفي القاهرة إبتدعوا فيها نطقاً جديداً من الاعتراض لم تشهد من قبل الساحة السياسية المصرية الوقوف صمتاً بصورة الضحية على الأرض وفي السوارع وكان الناس بذلك يقولون ما «سبّح عنه محمد البوعزيزي» الجسد أصدق أنباء من الكلام.

وفي أعقاب اندلاع الثورة المصرية بعد ذلك بأشهر قليلة استمر الجسد في احتلال مكانة مركزية في كل مرحلة من مراحل الثورة، وكان وما يزال بؤرة الصراع مع العسكر الذين يستمتعون في الدفاع عن مصالحهم ويجاهدون لدمر هذه الثورة، فبالرغم من الأسعار الملهمة والنكات المبهجة وبالرغم من الفلوات الرنانة والخطب الطنكة استمر الجسد يلعب دوره المحوري كوقود لسبب الثورة وكمؤجج لحماسها فالتقت الذين «سقطوا بالآلات والمجرحي الذين فقدوا الأعين والأطراف مثلهم مثل خالد «سعيد» هم أبقونات الثورة وهم من يحرك الجماهير ويلعب مشاعرها، فالفيديو الذي يظهر الشيخ عماد عفت وهو يحتضر إثر استهدافه من قناصة في ميدان التحرير، وشهادة أحمد حرارة عن كبحه ففده لعينه اليسرى في أحداث شارع محمد محمود في نوفمبر/تشرين الثاني بعد أن فقد عنه اليمنى يوم «سقوط الشرطة في ٢٨ يناير/كانون الثاني»، وانفجار الجهاز الهضمي لمباكل نبيل

سميرة يشجعونها وحملها رأبها أن تلخص الأهداف النبيلة التي تدور حولها هذه الثورة، أي حق المصري والمصرية في التمتع بجسدها.

كذلك برهنت سميرة إبراهيم على قدرة الفتاة المصرية على التصدي للانتهاكات المنهجية التي اعتادت السلطة الأيوبية المصرية أن ترتكبها ليس فقط منذ تولي مبارك الحكم أو منذ استيلاء العسكر على الحكم عام ١٩٥٢، ولكن منذ تأسيس الدولة المصرية الحديثة في مطلع القرن التاسع عشر. فقد لا تعلم سميرة أن كشف العذرية المهين الذي تعرضت له في مارس آذار الماضي له تاريخ طويل في مصر. ففي عام ١٨٣٢، افتتحت في الأريكة مدرسة للفتيات وكانت تلك المدرسة تلقن عددا محدودا من البنات مبادئ العلوم الطبية ولدى تخرجهن من المدرسة كان متخرجات تلك المدرسة يتم تعيينهن كحكيماوات في أقسام الشرطة للمهام بمهام الطب الشرعي. فبالإضافة لتعديده أسباب وفاة النساء كانت هؤلاء الحكيماوات مكلفات بالكشف على البنات اللاتي يسوفهن أقاربهن من الرجال إلى أقسام الشرطة للتأكد من عذريتهن وتحفل سجلات الشرطة المحفوظة في «دار الوثائق القومية» ببنات القضايا التي تتضمن تقارير الكشف تلك، والتي تحتوي على عبارات وحشية مثل «وجد غشاء البكارة منزال (كذا) من مدة «مديدة» أو «وجدت ربيب (أي ليست يكرًا) ومستعملة من قبل».

قد لا تدرك «سميرة كل ذلك» وقد لا تدرك أيضا أن تلك المدرسة مثل غيرها من المؤسسات التعليمية الحديثة التي تأسست في القرن التاسع عشر لم تكن تهدف إلى نشر المعارف ما يالك يتمكين المرأة، بقدر ما كانت تهدف إلى إحكام قبضة الدولة الحديثة على أجساد مواطنيها ومقدراتهم. وبهذا المعنى، فإن الدولة الحديثة في مصر لم تكن يوما دولة المصريين والمصريات، ولم تكن يوما تخضع لسيطرتهم أو تعكس رغبتهم أو تحقق أحلامهم.

قد لا تدرك سميرة كل ذلك ولكن نجحها في مقاضاة العسكر على كشوفات العذرية المسببة التي يرتكبها هو أكبر تحد يواجه النظام العسكري المصري، إذ بذلك أثبتت سميرة أننا لم تعد نحر كنًا مشاعر الخوف والعار والمذلة وعلى عكس رسالة محمد البوعزيزي المغتالة بالإحسان بالظلم والفقر والغضب، أرسلت سميرة إبراهيم للعسكر رسالة مفعمة بالأمل وبالثقة في النفس، رسالة تقول إنه لا يحق لهم أو لغيرهم الاعتداء على أجسادنا أو انتهاك حرمتنا. إن أجسادنا، كأوطاننا، ملك لنا ولن نسمح لأحد بأن ينتهكها أو يقتصبها بعد اليوم.

سند الذي أضرب عن الطعام لمدة تزيد عن الثلاثة أشهر اعتراضا على معالمة عسكريا بالرغم من كونه مدنيا - كل تلك الأحداث توضح مركزية الجسد ومحورته في مواجهة العسكر.

محورية جسد المرأة في المعركة

على أنه يبدو أن جسد المرأة أصبح الآن وبعد مرور سنة على اندلاع الثورة، هو الحيز الأهم الذي تدور فيه المواجهة مع العسكر مع ما يملونه من سلطة أيوية وآلة قمعية ونية مبيتة لواد الثورة وللتكبل بيطلاتها وبأبطالها.

فمن نشر عليها مهدي لصورته عارية على مدونتها في معالمة جنينة منها لكسر التابوهات حول الجسد والطرح سؤال هم عن يملكه ويتحكم فيه إلى «سجل جنود الجيش للمتقبة «ست البنات» وتعريضها أمام مجلس الوزراء، إلى الضرب المبرح الذي تعرضت له عزة خلال وهي تحاول أن تحمي «ست البنات» وتلود عنها من بطش العسكر، إلى خروج عشرات الآلاف من النساء للشوارع والميادين في مظاهرة حاشدة منددة بانتهاك الجيش لحرمة أجسادهن - كل تلك الأفعال وضعت جسد المرأة في ثورة هذه الثورة العظيمة وأعادت للثورة حيوتها وعنفوانها.

على أن تصدي سميرة إبراهيم لسلطة الجيش ونجاحها في مقاضاته في قضية كشف العذرية كان في رأبي أهم عمل ثوري شهده عام ٢٠١١ وذلك ليس فقط نظرا لشجاعة سميرة إبراهيم الفاعلة بل أيضا لمحورية الجسد في مواجهتها مع العسكر. ففي مارس آذار قبض الجيش على سميرة مع ست قتيات أخريات كن يتظاهرن في التحرير وساقنهن للعسكر الهايكستب في العباسية حيث تم الكشف عليهن طيبا بدعوى التحقق من عذريتهن. وقد حاول المجلس العسكري بعد ذلك تبرير ذلك الفعل المشين بالقول إنه كان يحاول الرد على أية دعوى قضائية مستقبلية قد تقيمها إحدى أولئك البنات تنهم فيها الجيش باغتصابها. وكان المجلس يعترفه ذلك قدم عذرا أفتح من الذنب أما «سميرة فلم تنتظر حتى يقدم الجيش تبريرا لأفعاله القبيحة بل قامت برفع دعوى قضائية ضد الجيش تتهمه فيها بانتهاك حرمتها وامتياز كرامتها. وقد كسبت «سميرة أولى مراحل التقاضي وأمامها الآن طريق طويل حتى توقع العقاب من قام بالكشف عليها ومن أمره بذلك قضية سميرة إبراهيم دالة لأنها توضح كيف أن بقين المرأة المصرية أن الجسد له حرمة وخصوصيته وأن العسكر لا يحق لهم انتهاكه مهما كانت الحجج والذرائع، أن هذا البقين هو الذي مكنا من الانتصار على العسكر بشكل مدو. وبذلك تمكنت



ثورة.. ضمن «القواعد المرعية الإجراء»؟

سحر مندور

روائية وصحفية
مصر لبنان. آخر
أعمالها «حب
يوني» (٢٠١١)

على المدونة ذاتها أسفل صورة علياء المهدي العارية، حضرت صورة صديق لها في الفكرة كما في الموقف عار هو أيضا، وتلك صورة لم يتوقف عندها أحد إن يلاهم أو بالتعبير في الفيديو ذاته إلى جانب السيدة المنقبة التي كانت تتلقى هراوات العسكر وأحذيتهم، وجد شاب يتلقى الضرب ذاته، حتى أن جنديا خفف غوطة يكامل غوته، واستمر ضربه بعدما همد جسم الفتاة أو جاعده، لكن صورته ثابت في صورته

من هي «المرأة» التي يتم الدفاع عنها؟

هي الأم والأخت والزوجة والآبنة أولا، لا المواطنة التي تنحصر لأجل حقها بالحياة الكريمة في بلدنا. انتصر الناشطون والمواطنون للسيدة المنقبة، لأنها تلتفت القمع طبعاً، لكن أساسه لأن القمع أنتج عرياً لم يتمكن المجتمع من هضمه، ضربت كثيرات قبلها، وتمت جرحتهن من شعورهن، أمام الكاميرات، ووقفت كثيرات في مواجهة العسكر، في صور لافتة القوة، لكن العري هو الذي أخرج الفعل عن سيطرته واستدعى الدفاع عن «المرأة»

وعندما خرجت الظاهرة النسائية للانتصار للمرأة، قلن إن النساء خط أحمر، خط أحمر، يعني أن قمعهن يهينهن الجنسية تعديداً، هو خط أحمر، وكانت لكل «سيدة» مشاركة في الظاهرة كلمة تقولها للكاميرات، تضع الظاهرة في سياق الوعي الثوري وتقدمه على مجتمعه، فمضى الشبان لنصرتهن، من خلال إقامة حلقة بالأيدي حولهن، من باب ممارسة «المسؤولية» بالحماية حماية الأم، والأخت والزوجة والآبنة وقد قبل ذلك كثيراً، أحببنا على المستهن، وغالباً على المستهم.

أما علياء المهدي فقد وجدت أيضاً من ينتصر لها، في مواجهة المتقدين تعديداً، ويغضب النظر عن الإطوار الذي حدثته لمرورها، على مدونتها فلة انتصرت لقضيتها، وواجهت المجتمع بجسمها، أما أكثرية الأصوات الجماهيرية المدافعة فلم تنتصر لقضيتها، كون قضيتها مرتبطة بالعري، سعى الملافون «الجماهيريون» إلى دحض حجج المتهمين،

ومنهم توار كثر، بالقول إن عريها شخصي ولا يعني فجور الثورة، وإن المبادرين إلى التكفير لا يعرفون للعبة «سيلا» إلا بالتكفير، وإن التركيز عليها إنما يكشف عاهة اجتماعية وقصوراً فكرية، مع أن علياء المهدي لم تقو أساليب الصورة، وكان إطار عريها شديد الوضوح.

فقد كتبت: «حاكموا الموديلز العرة الذين عملوا في كلية الفنون الجميلة حتى أوائل السبعينيات» وأخفاو كتب الفن وكشروا التماثيل العارية الأثرية تم إخفاو «لايسكم وانظروا إلى أنفسكم في المرأة، وأحرقوا أجسادكم التي تحتقرونها لتتخلصوا من عقدةكم الجنسية إلى الأبد قبل أن توجهوا إلي إهاناتكم العنصرية أو تنكروا حريتي في التعبير» وكانت بذلك تستيق الحملة ضدها، ما يعني أنها تعكس عن «حريتي في التعبير» كمرأة كحرة.

وفي موقع آخر، تابعت المواجهة ذاتها «كنت أجلس مع حبيبي في ميدان التحرير، وأضع فراغي حول كتفه، فخطب مني رجل يوقاحه أن أحرك ذراعي وقال لي ما ينفعش كد» والناس تعلق علينا، وعندما لم أسمع كلامه، وقلت له أنه ليس من حقه أن يطلب مني هذا الطلب، أتى بأخرين ليضربونا» ومرة أخرى، «كنت أجلس بجانب حبيبي نشاهد فيديو على تلفونه، ونستمع مع أصدقائنا إلى أغاني الثورة، وكنت أردي فستاناً على الركبة، وتذمرت «سيدة» منقبة وطلب رجل منا أن نغتر جليستنا وكانوا يفتحون علينا الخيام التي نيك

بها، وتعاركون معنا إذا لم نفصل بين الرجال و«الحريم» كما يسمون النساء»

وختمت بقول شديد المغزى «مصر تحتاج إلى ثورة اجتماعية»

لم يتناقش أحد مضمون العري الذي اقترحتة فالحين قد شلت أمام الصورة المبهترة، انتصب فيها جسده عار وجب التطهر منه.

مصر، والدول العربية كلها «تحتاج إلى ثورة اجتماعية» يستغل مصر - الثورة أنها فتحت النقاش حول المرأة وجسدها، إن عبر تجريتي العري الاختياري والعري القسري، أو في تجربة كشوف العذرية، والمحاكمة القضائية التي أنتجت منها لممارسة الجنس له.

ولكن، في تلك التجربة الأخيرة مثلاً، اتضح أولاً أننا نعيش في دولة تحتاج إلى حكم قضائي ليمنع دس الأصابع عنوة في أجساد النساء. وتلك

مصيبة ومع أن الحكم القضائي إيجابي ويدعو للتفكير، فإن أحداً لم يطرح المسألة من باب أن العذرية حرية شخصية، والتخلص منها خيار خاص، ووجودها أو غيابها لا يلبان أي موقف عام.

صحيح أن تلك الفكرة لا تشبه «المجتمع» لكن غيابها عن المجتمع هو تعديداً ما أنتج كشوف العذرية، التي نكر المجتمع نفسه ضدها فقد نكر صوناً لصورة «الأم والأخت والزوجة والإبنة» ضمن «القواعد المرعية الإجراء» وليس انتصاراً لحرية الفرد في التصرف بجسده.

ولكون جسم المرأة ملكية عامة منعت كشوف العذرية في خطوة تصون العذرية التي يتحكم بها «المجتمع» بدلاً من صون حق المرأة باستعانة جسمها.

لماذا؟ لأن النساء، في نهاية كل مطلق، لسن أكثر من «شرف» المجتمع.

منذ أربعين عاماً كانت بنات مصر ونسائها يتمسكين في شوارعها - وفي أكثر شوارعها شعبية - مرتديات «الميني جوب» وكانت البطالات السينمائية يحسبن الحمر ويدخن السجائر، أمام الجماهير المولعة بهن. وكانت الرافضة تحب كاريوكا بطله الممارك النفاية من دون خشية توجيه إهانة لها على أساس مهنتها وكان الحب الذي تغنيه أم كلثوم وبطرب له رجالها ونسائها، ينتصر للقبلة إن كانت بين حبيبين» فداها خلعها يدال الواحدة ألف ولا يخشى للناس كلام» وكان، وكان، وكان، وكان، وكان يتوقع من مشهد كهذا أن يؤدي بنا إلى عصر يقول

بالحرية الشخصية التامة، في عمق معانيها بعد التمرس في القصور، إلا أن ما تلاه من حكم بالقمع السياسي والفكري والاجتماعي، قد قام على زرع الخوف من الفرد وحرية، وإرساء منطق القوة في صياغة العلاقات الاجتماعية، والسياسية، والفكرية.

الخوف من الحرية وقمعها يتسلسل القوة كيف؟

توقف الفقر عن كونه تعديداً يجب إلغاؤه، ليضحي حالاً تفرض على الناس للسيطرة عليهم به والفقر، يعجز وراء الجهل ارتفعت نسبة الأمية في مصر، حتى فاقت نسبتها ثلث الشعب، وللتخلص من إمكانية ثورة الضعيف على الفقر والأمية، أخرج رجال الدين من عمايتهم الحل السحري: الآخرة، الآخرة، وما يرافقها من غطاء للرأس، تحكم الحجاب على العقل ولكي يسود الحجاب تمت إبانة السفور، وفي مواجهة السفور، بات كل فرد صاحب فتوى، ومع الفتوى، حل التكفير. فلو كانت اللجنة متاحة لكل الناس، لكان الناس قد توحدوا في حال ماء العدوات زرعت في كل بيت، وباتت المحبة كقوة مقارنة بالمنفعة، والسفورة

العري «أكبر» من أن تهضمه العين. العري أقوى من المجتمع.

عورة المجتمع، أما الرجل المفقر والجهل فاستعدا القوامة على النساء، كضعف الإيمان فليظلم قليلاً، وهو يتلقى الظلم كثيراً، وتعالف رجال الدين مع رجال السلطة ورجال المال، وأرسيت قواعد دولة يتكاثر عدد التامنين على معونات المترو فيها بشكل خيالي، ويتضاعف عددهم من عام إلى آخر، حتى بات العيش عشوائياً، والمدينة عشوائية والحرية تهمة بعيدة المنال، والحفدة، كل الحفدة، على من يدعيها فرداً لنفسه، يقتل، باسم آخر قوة نموذجية إلى.

وهكذا، بات الفقر واقعا، والجهل قفها، والحرية كفرا والقوة شرعا.

تلك حال يجوز التوحد عليها لأنها تعمي الفرد عن الإمكانات الأخرى.

«بات الحال على السواد الأعظم من شعب فقير، وتفشت العدوى بين الأقل فقرا والأقل جهلا، فبقيت قلة منهم تذكر المطلب الأساسي، بينما مؤه كثيرون الحرية بحيث تتلاصق مع ألوان «الشعب» أما «الأغنياء» فلم يكو كدهم «بكار»ون» فيه حرية لهم كاملة، ويخرجون على المجتمع بالخطاب المحافظ الذي يضمن لهم بقاء التروات في «الانتزاع يتاعنا» ويوماً بعد يوم، باتت العودة عن مكتسبات زمن سابق، خياراً خاصاً، يجوز الشهادة لأجله. وهكذا، أغلقت القدسية على المعادلة وأضحت الفرد

«السذونة» اسمه مثلية وهي واقع، وليست تهمة أي الرفض للتهمة، ووجب نفيها فلما كما جسم عليه المهدي تهمة «واجبنا كتوار» أن نفي معانيها كفيها أنت، ولما كما عري الفتاة المنفية تهمة «واجبنا كتوار» أن نثبت على الحاكم العسكري

هناك شيء ما في أفق الثورات ينتقص من تورته كونه تحتفي بالإنسان كما هو، وهو يعد أربعين عاماً من القمع، يات صنيعة الثورة إن لم تهز المنزل وأسمه كيف تصنع التغيير؟

هل ستطلب إزالة صورة حسني مبارك عن الجدار، المحافظة على الأصغر الباهت الذي يحيط بها؟

عندما خرجت حملة ترويجية بإعلان بضع خم شيخ الأزهر على خم بابا روما، «انهارت» المرجعية المسيحية صوتاً لسرق المقام الديني في حين اكتفت مشيخة الأزهر بتجاهل الموضوع كونه «غير ذي أهمية» تلك كانت خطوة لافتة في توريته ضمن «مجموعات» «الامت» الظلم كله، وغضت برسوم كان كاتورية تهزاً من لبني، فخرجت تصيح بوضوح «إلا رسول الله» كان يوسع المشيخة أن تنتفض ثوباً عن «الاسلام» إلا أن الشيخ الصوفي أحمد الطيب أخرج الصورة من «سياق المجتمع المحافظ وقرأها بين المعنى» هل تقول شيئاً يستلهم للفن؟ لا بهم موقع الغم على الغم ولا بهم العري مضمون صورة عليه المهدي كان يطرح موضوعاً شديداً الأهمية للفن، ولكنه لم يستمع العري «أكبر» من أن تهضمه العين العري أقوى من المجتمع.

ينتظر المرء عمراً وبهرم، على حد قول الرجل التونسي، لكي يحظى بحياة أقل راحة، على كافة المستويات، ولكي يفوق على هضم كل المسوعات، لا يل طحينها، وعندما تحل لحظة الثورة، يكون الطموح كبيراً، والخشية يحجمه ما لو أتى الطموح محافظة، على سلم اجتماعي أرساء الفساد؟

كل الدلالات تقول بتأرجح على تلك الحافة اليوم تأرجح تصنعه مبادرات فردية تذكر الحق الأسفسي بالحريّة، وتسعى إلى آخر رمق للتذكير به، والنفاج عنه وهو تأرجح تمكن قراءته بعين توريته فهو ابن لحظة انتفاض على عقود من التجهيل والتعتيم المنهجي والمؤله وهو، في مصر وحدها، قد يات مرثية، تأقياً للعين طارحاً التحدي على الذات لكن غيابه عن التجارب العربية الأخرى يفي مربعا، علماً أنه تأرجح يمكن أن يمين مجلساً عسكرياً على سرقفة الثورة من مصاهله وهو تأرجح يمكن أن ينتج رئيساً، يشبه «اللي فات» تستقر صورته ميتسماً وحده، في إطار جديده على حائط يحتفي بصرفاره.

المهزوم في مجتمعه جزءاً من آلة تخدم الإله طمعاً بأخرة وردية هي آلة، كل جزء صغير فيها إله صغير، يحتفي بقمعه ويتوق إلى مكرسته.

ولكن، هل تكون الثورة ضد «قمعي» وتتوقف عند «المكرستي» للقمع؟

ففي المعادلة القائمة، تظهر الحرية المطلقة وحسية مخففة لا يل هي كلفة، والقوة تبدأ من زندي غيبتي، وصوري وشاعري، لتضحي ديناً جاكراً لكل ما يثير في أي ثورة تركه. واليوم، عندما يتحرك الشعب للمطالبة بحريته التي تتخذ شكل عدالة اقتصادية وقبيلية، فهو يحمل معه وفي داخل كل فرد منه منظومة القمع الكاملة تلكه منهم من تبنّاها، ومنهم من طرح إسكانية مساالتها، وقلة تارت فلما عارها، لكن الوعي إلى وجودها ليس عامك وبدا ذلك جليا في صفحات دعم الثورات العربية (وليست المصرية) على «فايسبوك» إذ لا تطلق شعاراً إلا «ويحمد الله» ولا تنتصر لشهيد إلا يدلاً إله إلا الله، ولا تهت حاكماً إلا يدقلة الرجولة، «والإعاقعة»، «والالحاد» والتهمة وصف لفئة مهيشنة أو مجموعة اجتماعية، أما الفخر فمصدره الدائم فيم محافظة جده، دينية، وأخلاقية.

ثورات العرب الجارية راهنا لا تطرح على نفسها تلك الأسئلة، ثورة مصر، تواجه السؤال الصعب هل «ستقوم الثورة ضد جزء من الظلم، متسلعة بجزء أكثر تعذراً منه، بحيث لا يخاف المواطن من تغيير آت» إذ بأمن لثبات مستمر فيم؟

ومع ذلك، تار الناشطون ضد اتهام «إسلامي» للمدين علاء عبد الفتاح بأنه «شاك» لكن أحداً منهم لم يقل أن



شعارات الثورة التونسية: لغة الحرية والكلمة - الفعل

محسن بوعزيزي

أستاذ محاضر في علم
الاجتماع وأمين علم
الجمعية الحرفية
لعلم الاجتماع

هل قلتم ثورة ؟

اهتم في هذا النص بالمشكالية العلاقة بين اللغة والثورة في تونس. واستعمل مفهوم الثورة مستندا في ذلك إلى التسمية التي أطلقها الفاعلون على فعلهم ورأيي أننا إلى حد الآن إزاء نزعة ثورية لا يمكن الحكم لها أو عليها قبل أن نحقق مقاصدها وأزليا القطيعة القطيعة مع الماضي، تعلقا بالحرية والكرامة والعدالة، حسب شعاراتها، وفي الحد الأدنى وإنما ما تعلمت القطيعة بقوة قبضة المجتمع التقليدي أن نسعى بأنفسنا التقدم نحن مقبلون على احتمالات مختلفة ومنها احتمال الثورة، ولكن أيضا على احتمال نفي الثورة، لما تصبح الحدانة وصمة تخشى الإعلان عن نفسها، أو أن يتحول الوضع عورة، فيختفي الجسد تحت السواد تحت الحديث عن حرمة في نزعة نكرة، أو أن يصير الواقع حافلا بمعاني السلفية تحت عنوان الحرية فتثبت بقدرتها المناورة على التقدم يسارا وتستدرجك إلى أسئلتها ورموزها ومنها الهوية ويتحول التنوير إلى نور، نور الماضي فلا يعنيها إلا سلامة هذا الماضي الذي يتحول إلى مضارع وراود المستقبل لهذا يبدو لي، على الأقل إلى حد الآن، أننا إزاء نزعة ثورية لم نحسم أمرها بعد، ينكشف فيها ما كان تحت الرّماد بمختلف تعبيراته وتنقضاته، وسيؤول أمرها بعد تصفية حسابات مختلفة إلى القوة الاجتماعية التي تعبّر عن طبيعة اللحظة التاريخية وتمثلها، وأظن أنها لا زالت قيد التشكل وستعلن عن نفسها لما تنضج طبيعتها الاجتماعية وتخلق لغتها وتعبيراتها إبداعيا وفكريا وأيدولوجيا ولغويا ورمزيا، وأظنها لا زالت جنينية في رؤوس أطفالنا ونجد فرضية النزعة الثورية بعض عناصر قوتها وقادسها في ما رأينا في الشاحات العائنة، في مدن مختلفة وخاصة في شارع يورقية بعد عام من الثورة من عنفوان الفضاء العام الذي بدأ أفراد يتناقشون وجها لوجها بطريقة حرة وعقلانية وبضغون الأسئلة الجديدة.

عام على الثورة وعمون عليها فهل حققت مقاصدها ؟ أم بعضها ؟ أم أنها مقبلة على احتمالات مختلفة ومنها الثورة أو نفيها ؟ يبدو لي أننا إزاء نزعة ثورية لا يمكن الحكم لها أو عليها

حتى الآن في انتظار أن تذبح في اتجاه القطيعة بما فيها من تعبير جذري عميق، أو في الحد الأدنى أن تسعى بأنفسها التقدم على أن احتمال نفي الثورة بطل هو أيضا احتمالا واردا، ليس فقط لأن الانتكاسة السياسية يمكن أن تحدثه فترجّع النظام السابق وشكل مختلف ويصبح ما أنجز ياهظ التكاليف، بل لأن ذكر الثورة الذي كان يمكن أن يكون معزكها وضمانا لمسارها لم يعلن عن نفسه بعد ولم يعرض إلى حد الآن على نورة في المعنى، كما جعلنا هذه الأهم تتورط في تعبيرات احتجاجية مطلية وقطاعية ضيقة وتقرّب في كل مكان دون تقديم للمعاني الثورية الكبرى من قبيل الحرية ومنقضة طبيعة النظام الاقتصادي القادم المفارقة أننا نرى مستقبلا للمخفي في سياق ثوري يفترض أنه يقطع معه فيصير بذلك الواقع حافلا بمعاني السلفية تحت عنوان الحرية هذه التي تعادل أن تثبت بقدرتها في المناورة على التقدم يسارا وتستدرجك إلى أسئلتها ورموزها ومنها الهوية ويتحول التنوير إلى نور، نور الماضي فلا يعنيها إلا سلامة هذا الماضي الذي يتحول إلى مضارع وراود المستقبل لهذا يبدو لي، على الأقل إلى حد الآن، أننا إزاء نزعة ثورية لم نحسم أمرها بعد، ينكشف فيها ما كان تحت الرّماد بمختلف تعبيراته وتنقضاته، وسيؤول أمرها بعد تصفية حسابات مختلفة إلى القوة الاجتماعية التي تعبّر عن طبيعة اللحظة التاريخية وتمثلها، وستعلن عن نفسها لما تنضج طبيعتها الاجتماعية وتخلق لغتها وتعبيراتها إبداعيا وفكريا وأيدولوجيا ولغويا ورمزيا، وأظنها لا زالت جنينية في رؤوس أطفالنا ونجد فرضية النزعة الثورية بعض عناصر قوتها وقادسها في ما رأينا في الشاحات العائنة، في مدن مختلفة وخاصة في شارع يورقية بعد عام من الثورة من عنفوان الفضاء العام الذي بدأ أفراد يتناقشون قضايا الشأن العام وجها لوجها بطريقة حرة وعقلانية وبضغون الأسئلة الجديدة. وهذا هو الوجه المريح في كل ما يحدثه والذي بعد بسرد ما جديد بلوح في الأفق، لا يزال قيد التشكل بعسر،

يبحث عن عناصره الثائفة هنا وهناك. وقد يظلّ المشروع «في حضرة الغياب» إذا ما اتسع الضيق الفكري الذي يتلبس نخبنا، وتماهى عجزها على أن ترى المستقبل، فترى ما لا يرى، وخاصة إذا ما استمرّ كسلها في القبض على اللحظة المعرفية التي تقترحها الثورة وصياغة بدائلها. هذه لحظة انبعث شعب لم يجد أمامه متسعاً من الفكر الجديد فراح يعتني بماضيه ويأخذ الكتاب بقوة لأنه صالح لكل زمان ومكان، وله في ذلك حكمة. ولكن أطفالنا الذين تفتحت أحاسيسهم على سجع الثورة سيكونون أكثر تأهيلاً منّا على بلورة أفق جديد للمعنى الثوري الخلاق. وإنّ أهمّ إنجاز تفعله سلطتنا الحالية أن تحافظ على الصيغة المؤقتة لسلطتها، فأطفالنا قادمون. وما علينا سوى تعليمهم وتدريبهم على «التمرد» على السائد لخلق البدائل الآتية. وعلينا تعليمهم أنّ الثورة التزام، التزام بالحرية كما يقول جون بول سارتر، حرية الجسد، وحرية الرأي والفكر والإبداع. وسيكون من المستحسن أيضاً تعليمهم البحث عن الاختلاف في كل شيء لأن التشابه سلوك القطيع.

متن الحرية في لغة الشعار

أجمع في مدوّني بين المنطوق اليومي والشعارات التي رفعت في وجه النظام التونسي، ابتداءً من سنة ست وألفين وصولاً إلى يوم هروب رأس النظام. وأحاول أن أمسك ببعض القواسم المشتركة التي تجمع بين مختلف مفاصل هذه المدوّنة، مستنداً في ذلك، ولو جزئياً، إلى القراءة السيميولوجية، بما هي مغامرة في الدال. وأثناء التصنيف، واللعب بالكلمات والتساؤل عن المرجعيات، تنبّهت إلى قاعدة أولى لافتة للانتباه مفادها أنّ الشعار يساري بالضرورة. القوى الدينية السياسية تكبر وتهلّل ولا ترفع شعاراً، سواء كانت شيعية (لبنان، إيران) أو سنية أو سلفية. الكابح الديني يمنع هذه القوى من أن تُبدع شعاراتها. ثم إنّ هذه القوى ظلت تراقب المشهد وتفاعلاته، حذرة، غير مطمئنة، ولم تعلن عن نفسها جهاراً إلا بعد ١٤ يناير ٢٠١٠.

القاعدة الثانية تفيد أنّ لغة الثورة، أو اللغة في الثورة تنتقل بنا، بغتة، وعلى غير المتوقع، من براديجم الهوية والخصوصيات المحلية إلى براديجم الحرية بنزعها الإنسانية، الكونية. ويبدو أنّ المرور من الهموم المحلية إلى أسس القيم الإنسانية، بعد فقدان الرّجاء، كان من أهم العناصر التي دفعت باتجاه التعاقد على مصطلح الثورة في الاستعمال الاجتماعي اليومي وإسنادها هذا الاهتمام العالمي. يتجلّى هذا من كثرة تواتر الكلمات التي تحيل إلى القيم الإنسانية: «حرية، عدالة اجتماعية، كرامة وطنية، «حرّيات، حرّيات، لا رئاسة مدى الحياة»، «الشعب يريد، شغل، إسقاط»، وطني بأنّ هذه اللغة

التي ترفع شعار الحرية هي التي أعطت قيمة كونية لهذه الثورة. هذا المرور محير، لأنّه مباغت، ويأتي في لحظة اختنق فيها التاريخ وطغت العدمية وتساعد اللامعنى، فلم يعد لنا في هذه الأرض من وازع إلا أن يمرّ يومنا بسلام، تمهيداً لليل يعقبه نهار آخر دونما همّة في الإنشاء عالية، فإذا بنا نتعلّق بالأبعاد الإنسانية الأكثرها قداسة ونبلًا، وإذا بالشعب يُخرج الحيّ من الميت. وأتعمّد استعمال مفهوم الشعب تنبئها إلى ما كانت فيه من طاقة إنجازية تعلن عن الهوية الشعبية لهذه الثورة.

وأراني اليوم أكثر قدرة على فهم السدّ ومبررات كتابته من قبل المسعدي: السدّ «كتابة جسّرت على معضلة الخلق»؛ حرق الجسم قهراً دفع الكتل التي كانت تسمّى جامدة إلى دحض العدم بالفعل الثوري الخلاق، حينما فهم الاحتراق حياة وتُرجم ثورة. والقهر في لسان العرب اللحم إذا أخذته النار وسال مأوّه. هذا التأويل وما تلاه من فعل صار رديف الحرية في لغة النزعة الثورية: «حرّيات، حرّيات، لا رئاسة مدى الحياة». ورغم ما عبّرت عنه الشعارات من نزعة كونية، إنسانية، غير أنّها عادت لتكرّس براديجم الهوية الدينية في السياسة العملية. ولعلّه مرحلة ضرورية في سيروية التغيير التي تبدأ بالصحو الدينية، وبعدها يتحوّل النقاش إلى المسائل الاجتماعية والاقتصادية والمعرفية والجمالية.

سقطت البلاغة وظلّ السجع

القاعدة الثالثة تنبّه إلى سقوط البلاغة بكل أشكالها، بما هي كلام على الكلام أو لغة فوق – اللغة Méta-langage، فلا حاجة إليها هذه المرّة إلا في القليل. لقد تحوّلت الكلمة في اللحظات الحاسمة إلى فعل، إلى رصاصة مباشرة، محاربة، غير مواربة، حتى كادت بما فيها من تحديدية تقود الثورة وتوجّه مسارها، مختزلة للزمن فيها. وهكذا يتبين مع أوستين كيف تصنع الأشياء بالكلمات. فالشعب لما يثور لا يحتاج إلى بلاغة بل إلى ملفوظ إنجازي يتّجه إلى الفعل فيسميه بدون مجازات. إنّها اللغة – الموضوع التي تسقط كل أصناف البلاغة من رمز وإيحاء ومجاز واستعارة وكناية: «التشغيل استحقاق يا عصابة السراق» – يا بوليس فيق فيق، الحجابة تحكم فيك – خبز وماء وبن علي لا – يسقط حزب الدستور، يسقط جلاّد الشعب. ورغم أنّها كثيفة المعنى والدلالة، لكنّها توقفت عند درجة الصفر من البلاغة، إلا من السجع والإيقاع بما فيه من جرسية لازمة وانضباط عسكري يسعى إلى تغيير حالة سياسية تتغافل، بصورة قصدية أو عفوية، عن بقية الأبعاد كالثقافي والاجتماعي والاقتصادي. البلاغة شعرية حمالة أوجه. أمّا في النزعة الثورية التونسية فلا



وجود لوسيط بلاغي في اللغة إلا المرور إلى الفعل يعرض المواجهة والإطاحة بالحكومة الشعب يريد إسقاط الحكومة إنها لغة تسعى إلى تغيير الواقع بلغة إنشائية خالية من أغنية البلاغة فلا معجز فيها سوى الكلام الخلق واقع جديد وإسقاط البلاغة معطى جديد في تاريخ الحروب العربية إذ كانوا قديماً يدعون طبول الحرب بالبلاغة الشعرية قبل خوض غمارها.

أقيموا بني أمي صنوبر مطيتكم فأنتي إلى قوم سواكم لا ميل

تلتقي هذه القاعدة الثانية مع ما تنبئ إليه رولان بارت في «ميتولوجيات» حين رأى في اللغة النورية لغة لا أسطورة فيها. هذه الأخيرة يراها نسقا سيميولوجيا ثانيا متداخلا أو متراكبا في نسق سيميولوجي أول، ولأنها كذلك نسق على التسبق فإن النورة بما هي فعل تطهيري تقصدها من خطابها.

زلات اللسان

هذه الفكرة التي تنبئ إلى سقوط البلاغة في لغة النورة تستلهم فكرة أخرى تصير على كشف المضمر عبر زلات اللسان lapsus بما هي رغبة غير واعية دقيقة ومكبوتة تفضح فساد النظام خروج مباغت عن النص من شدة ما تضغط عليك الحقيقة الكامنة تقول امرأة في إحدى المناطق التخومية مرتبة بين علي منذ خمس سنوات تقريباً «يفضلك هنا موتى بالسر» بفضلك صرنا نتصور جوعاً وتقول أخرى أمية في لحظة مواجهة دامية مع نظام بن علي الإقصائي «لقد خرجنا الاستعمار قمى سنخرج الاستقلال» وفي ذلك فخر للغة عبر التعريف بالضد وكشف للضباب عبر الخط وزلة اللسان فرغم أنه كلام نساخ يفرج عن قصد المتكلم إلا أنه يدفع الفرد إلى الوعي بحقيقته والقدرة على قولها عبر الزلة لقد تم خنق الكلمة ومعاصرة التعبير حتى لم يعد ثمة من خيار إلا «الكلام أو الموت» يعبر مصطفى صفوان. فإذا بالكيت السيميائي والاجتماعي يفرج طائفة تعبيرية هائلة ساهمت في إسقاط نظام من أشد الأنظمة الاستبدادية يؤسس الكلام أو الموت هذا الخيار الصعب أفضى إلى انبثاق الرغبات الكامنة في التخلص من النظام قبل النورة ويتحول بعد ذلك اللاوعي إلى وعي هائل وفصيح «الشعب يريد إسقاط الحكومة» وغالباً ما يعتمد الشعير في بناء الشعار بما هو توافق الفاضلتين في الحرف الأخير.

بن علي يا جبان الشعب التونسي لا يمان

Barthes, Roland, *Mythologies*, Paris, 1957, p. 187.

١ مصطفى صفوان، *الكلام في الموت*، ترجمة مصطفى حجازي، النسخة العربية للدراسة مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠٦، ص. ٧٥.

٢ علي لاجار ومصطفى صفوان، *البلاغة الوطنية*، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، ٢٠٠٦، ص. ٧٥.

بن علي في السعودية والعصاة هي هي
dégage dégage [ارحل] بأ ختاج
وفي المثال الأخير يفرج المنظور التونسي «سجده»
الخاص من لغة ممتزجة بين الفرنسية والدارجة المحلية
الشجع يرفعاه ويتأثير الانفعالي يوقظ الصمت واللامبالاة:
يا مواطن يا ضحيتك إبعنا شارك في القضية
يا يوليس فيبقى فيبقى الحجة تحكم قبلك
الكرطوش حي حي والحجة في ديني

dégage

والانفعال في هذه الشعارات الرافضة يأتي من الإيقاع الموسيقي، أو كما يمكن تسميته بموسيقى الاحتجاج

ما توتس
علي بابا
سارق!

تونس. ولقد كانت الجامعة التونسية مصدرها الأول. ولما احتاجت هذه الثورة إلى صوت يضبط إيقاعها لم تجد غير ما خلفه اليسار الطلابي، وما صاغته الجامعة وبعض الأحزاب منذ أواخر الستينات حتى أواسط الثمانينات من علامات احتجاجية مناهضة للسلطة. ولو قرأنا هذه الشعارات في مستواها الدياكروني، العمودي، لوجدناها تتجانس مع التطور السياسي والفكري والأيدولوجي للجامعة التونسية في حركات مدّها وجزرها. فعلى سبيل المثال بتطور هذا الشعار تصاعدياً من الأرض إلى الخبز إلى الشغل؛ أرض، حرية، كرامة وطنية ثم خبز، حرية، كرامة، وطنية لينتهي في الأخير بشغل حرّة، كرامة وطنية. هذا الشعار الذي ارتبط بما اصطلح عليه عند اليسار «بالعائلة الوطنية الديمقراطية» يكاد يحتل مسار التطور السياسي والأيدولوجي للجامعة التونسية في شقّها اليساري بالخصوص، إذ لم يكن فيها بين بارز إلا لاحقاً. لم يكن لهذه الثورة إذن من بديل ثقافي غير البدائل التي كانت سائدة قبل عهد بن علي الذي أجّل الثورة، وقد بدت في تلك الفترة تظهر بعض علاماتها في ذبذبات ثورية (Impulsion révolutionnaire) تحالفت فيها مختلف طبقات المجتمع، سرعان ما أجهز عليها بن علي بجهاز بوليسي خانق الثقافة كانت في «حضرة الغياب» على غير ما كان معلوماً في لغة انتفاضة ماي/أيار ١٩٦٨ في فرنسا، التي أسقطت براديجمات وأنتجت أخرى. لقد كان في علاماتها ما يشير إلى نزعة مناهضة للمجتمع التقليدي وللرأسمالية والإمبريالية؛

ليسقط مجتمع الاستهلاك

ليسقط مجتمع السوق

لتسقط الاشتراكية الواقعية، عاشت السريالية

لتسقط الدولة

ليسقط العالم الهرم A bas le vieux monde

الفعل لا ينبغي أن يكون ردة فعل بل إبداع

L'action ne doit pas être une réaction mais une création

الثورة التونسية لا تعد للوهلة الأولى في مدوّنتها اللغوية

بثورة في الثقافة، وقد امتدّ هذا الغياب بفعل

التأثير ليطال بقّة الجغرافيا

العربية الثائرة ومنها اليمن التي

تربط في أحد شعاراتها ربطاً

شرطياً بين الإضراب عن الدّراسة

وسقوط الرّئيس: «لا دراسة ولا

تدريس حتى يسقط الرّئيس»

وهو بالمناسبة شعار يستعيد

إيقاعاً تونسياً رفع سنة ١٩٧٦

والرفض، إيقاع انفعالي لا يترك لك مجالاً للمحايدة واللامبالاة، بل تخترقك الموجات الصوتية الجماعية فتتحملك في المشهد بالرغبة أو بدونها.

نزعة ثورية تحتاج إلى ثقافة

القاعدة الرابعة يمكن بلوغها لما نخرّج الحقل الدلالي الأول لشعارات الثورة بناء على ما تكرر فيها من ألفاظ وصور وما تقارب صوتاً ومعنى. هذا الحقل الأساسي يشير إلى الرغبة في القطيعة مع الفساد السياسي دون أن يحمل، إلا في القليل، رؤية أخرى مختلفة للعالم، تعد بثقافة جديدة، فناً وأدباً وعلماً وأخلاقاً وذوقاً. فهذه ثورة لم تكن مسبقة بوعي ثوري أنتج فكره، خلافاً لبقية الثورات الأخرى البريطانية والفرنسية والبلغية، التي كتبت قبل قيامها. أما في مدونة الثورة التونسية فقد كانت أكبر الغائبين، إذ ليس ثمة ما يشير في إحالات الشعار رغم يساريته، ومنظوره إليه في نصّيته، إلى نزعة نحو خلق مجتمع جديد، تصوّراً وممارسة، يسعى إلى تقويض بعض عناصر المجتمع التقليدي إلا ما ارتبط فيه بالحياة السياسية. ومن اللافت للانتباه أنّ الشعارات كلّها قد عادت إلى اللحظة التي توقفت فيها الحياة السياسية في

كم هي مثيرة رحلة الملاحم الشعبوية كما تنقلها اللغة من أرض ثقافية إلى أخرى، وخاصة إذا تعلق الأمر بالتقاطعات التونسية المصرية التي لا زال التاريخ يخفي بعض أبعادها السحرية ومنها التغريدة الهلالية وهي تنقل بين الصعيد ومضارب الهائلة، وزاد الآفاق النائية، تلك التغريدة التي سعى عبد الرحمان الأبنودي إلى اقتفائها من هنا وهناك وبين هذا وذلك في مصر لم يعد الزحام قاحلا كما رآه محمود درويش في «رحلة المتنبي إلى مصر» بل صار يضج بالمعنى بعد ما حدث ويحدث هذه الأيام مما لا يكسره العزم. ولكنه معنى منقوص من قيمة الحرية كما وصلني من مدرّنة الشعارات التي رتلها الحناجر المصرية فالحرية، بمعناها التقريري الحرفي، لم يكن لها متسع فيها. ولكن أريدت الحرية رغيفا؟ ما الحرية إن لم تكن في رغيف الخبز أيضا لشعب بلغ التسعين مليوناً أو أقل أو أكثر؟ أليس الذي يُنادي بالحرية ينشد كذلك في ما ينشد ريشة رغيفا رجليا لشعب لم يتجاوز في الحالة التونسية أحد عشرة مليوناً ومع ذلك منهم نصف مليون من البشر الأحياء ولكن ميتون ما دأبوا يرزحون تحت خط الفقر؟

هكذا يمر بنا الشعر من اللغة إلى الحياة.

عند ظهور ما يسمى بالحرس الجامعي: «لا دراسة ولا تدريس حتى يخرج البوليس». ولكن حتى تكف مرة واحدة عن جلد الذات، أو ليست الثورة، والإيمان بها، بصرف النظر عن تحقيقها، ثقافة في حد ذاتها. الثقافة الحقّة، يقول سارتر، هي الثورة عينها، تلك التي تطبخ على نار حامية، كأن يصرخ شعب أمام وزارة الداخلية، مصدر قوة الحاكم، ويأمره قيصرياً صوتاً وحركة: «Dégage». الثورة ثقافة، بحلها ومزجها، بعنفها وسلمها، بكلماتها وسجعها، وذبذباتها ووجهها، بإيقاعها الخاص وغير المسبوق. من يتكلمها، ويكتب قصتها على الجدران، ويرسمها، وينسج ملحمتها، شعب في مخاض ثوري، وفي معركة وجود وكل من حاول احتكار صوته إلا واكتوى بنار.

رما يقل استثناء في اللغة قد يكون دالاً أبيضاً، فيشكل بذلك قاعدة. واستثنائيتها تكمن في انتمائه إلى منظومة لغوية مختلفة، وإلى صنف اجتماعي مغاير. فكلمة dégage، لغة المدّرتين أبناء النخبة، ورغم ما فيها من حسم، وقدرة إبحازية، إنشائية، ما دامت تثقل إمضاء الثورة لحظتها الحاسمة، قد توحى بافتكاكها من أهلها، وتحويلها من الهامش إلى المركز في لحظة تمويهية تسعى إلى أن تغلف بعدها الطبقي. وتخفي صوت الهامش ولغته الثائرة.

Jean-Paul Sartre, in ٤
Franz Fanon, Les
damnés de la terre,
préface de Sartre,
Paris, François
Maspero, 1961, p.12.

٥ مصوّد درويش ديوان
مصوّد درويش المجلد
الثاني دار العودة
بيروت ص ١٠٨.

لدينا طاقات تتفجر كالبراكين

إتيل عدنان

روائية وشاعرة
ورسامة ومؤلفة
مسرحية من سورية.
تكتب بالانكليزية
والفرنسية وتعيش
بين بيروت وباريس
وأمركا. من اعمالها
المترجمة الى العربية:
«الست ماري روز»،
«سفر الرؤيا العربي»،
«عن مدن ونساء»،
رسائل الى فواز»،
«قصائد اليزفون»،
«باريس عندما
تكون عارية». آخر
اعمالها «في قلب
قلب مدينة اخرى».

يملك العالم العربي اكبر نسبة من الشباب في العالم. وغالبا ما يكون هؤلاء أعلم بشؤون العالم من آبائهم. وهم لا يزالون ابرياء. ليسوا يفكرّون في المصالح المكرّسة. وهم انفعاليون لا يفكرون في عواقب افعالهم، ولا يحتالون للتعيّش. وهم في معظمهم لا يبالون بالمخاطر.

«الربيع العربي» مصطلح جذّاب لكن الواقع افضل من ذلك. العرب في حالة ثورة منذ العالم ١٩ - ١٤. ثاروا ضد العثمانيين وضد الفرنسيين وضد الانكليز؛ وثاروا ضد حكاهم؛ ثاروا في مصر وثاروا في الجزائر، وقاتلوا في لبنان وفلسطين لا تزال تقاوم بلا انقطاع؛ كثير من العراقيين قاوموا الحرب الاميركية على بلادهم، وحارب الليبيون الاحتلال الايطالي قبل ان يحاربوا نظام معمر القذافي. بالتأكيد، شارك العديد من الشباب في هذه المجهود المتواصل، ولكن اناسا من كل الاعمار قاتلوا معا على تلك الخطوط الامامية كلها.

لذلك نحن نتكلم عن الشباب العربي بطريقة رومنطيقية ولكن حتى في تونس ومصر شاهدنا على اجهزة التلفزة شبانا وشابات ورجالا ونساء في منتصف اعمارهم ومتقدمين في السن. لذا احري بنا الحديث عن جيل جديد من الناس بدلا من مجرد الحديث عن شباب صغار.

قرر السياسيون واجهزة الاعلام في الغرب ان هؤلاء هم «جماهير عربية»، جموع من الناس غير المتعلمين، علما انه يوجد تنوع في التفكير السياسي في العالم العربي اكبر مما يوجد في الولايات المتحدة الاميركية. والدليل هو عدد الصحف في كل مدينة عربية مقارنة بمدينة نيويورك التي تصدر فيها صحيفة رئيسية واحدة هي الـ«نيو يورك تايمز»! ويوجد ايضا من الاحزاب السياسية في معظم البلدان العربية عدد يفوق مما في الولايات المتحدة الاميركية. والسخرية في الامر انه يوجد حزبان سياسيان في الولايات المتحدة والافدح انهما يدافعان في الحقيقة عن ايديولوجية واحدة.

قاوم العرب الانظمة الدكتاتورية ولا زالوا يقاومون، علما ان هذه الدكتاتوريات جرى تنصيبها بدعم الغرب ذاته الذي يوجّه اصابع الاتهام اليها الآن. ولو لم تكن توجد تلك المقاومات لما كانت السجون العربية تفيض بالسجناء السياسيين مثلما هي الحال الآن.

لست انكر حجم ما جرى في مصر وتونس وما يجري الآن في سورية. ولكنني لست اريد ان يُنسى ما قد جرى قبلا. ان منظر ملايين الناس في الشوارع تثور وتعلن عن نفاد صبرها وتطالب بالعدالة الاجتماعية والسياسية لهو تجربة بالغة التأثير. والتكنولوجيا هي الواسطة التي سمحت بقيام تلك التجمعات. ولكن الشجاعة التي تجلّت فيها ليست جديدة.

لا يمكن استبعاد امكانية (بل حقيقة) ان تحاول القوى الرجعية الانقضاض على مكاسب الثورات الحالية. وها هي القوى العظمى التي تدّعي الاعجاب بها تجاهر منذ الآن ان نتائج تلك الانتخابات خطيرة لأن الاحزاب ذات التوجه الديني قد نجحت في الانتخابات الاخيرة. وحتى لو صحّ ما تقوله الحكومة السورية من انها تحمي البلد من انقلاب اسلاموي، فهذا لا يبرر القمع الوحشي الذي نشاهد. فالجواب السليم هو انفتاح صادق - ترافقه اصلاحات فعلية - للنظام السياسي القاسي والمغلق الذي يهيمن على البلاد. ان الشعب العربي ليس متروكا لحاله. اعني ان العرب لا يتمتعون بالاستقلال الناجر، ان ثرواتهم في النفط وفي سائر المواد الاستراتيجية تستثير شهيات الاكثر جشعا من قبل القوى العالمية العظمى التي تتدخل بصفاقة في شؤوننا. هاكم مثالا: هل سمعتم مرة عن سفير للبنان في واشنطن او لندن او موسكو او باريس يلمي على تلك الحكومات كيف يجب ان تتصرّف؟ لكن في لبنان، يتكلم سفراء تلك الدول بسلطة ويوجهون الانذارات غير المباشرة او يتدخلون مباشرة في شؤونه. وهم يفعلون الشيء ذاته في كل عاصمة عربية.



قبله ان اجهزة التلفزة والاذاعات ومواقع الانترنت تشعرهم بالتضامن الكبير معهم من داخل حدودهم ومن خارجها. لهذا تنتقل العدوى من حركة الى اخرى ويرتفع منسوب الامل لدينا دوماً اسيافاً للباس، لكن لدينا ايضا اسيافاً دائمة لأن نفخر بما نصنع ان الامل الصغيرة والام الضعيفة ليست ابداً صغيرة ولا ضعيفة قدر تصويرها عن حالها، او قدر ما يقال انها تلفتها بين حين وآخر تجعلها تلقن دروساً ثمينة لما يسمى «القوى العظمى».

ولذا لن يتوقف النضال في هذا الجزء من العالم وربما انه لن يتوقف في اي جزء آخر. اننا معكومات من حكومات فاسدة على نحو مروع وتقع المسؤولية في ذلك علينا نحن بالدرجة الاولى. ولكننا تلقى مقداراً ضخماً من الضغوط الخارجية بشأنه ومع ذلك فإنا نملك افراداً وحركات شعبية تتفجر كالبراكين وتلهم العالم لم نكسب الحرب بعد، ولكننا لم نخسر هذه الجديده هو ان الشعب لا يشعر بأنه وحيد في نضاله كما كان يشعر من

تأملات في الشقاء اللبناني

الياس خوري

الى ذكرى سمير قصير

روائي وكاتب من
لبنان. آخر أعماله
رواية «سيناكول»
(٢٠١١)

المنازل التي تعمل فيها خادمت سيريلا نيكيات وحشيات وفيليبينيات، وما يشبه «التطهير العرقي» قامت به بلدية ضاحية برج حمود للعمال الأكراد المقيمين فيها. عنصرية ضد الفلسطينيين تحت غطاء محاربة التوطين، بحيث لا يستطيع الفلسطيني اللاجئ الى لبنان منذ ٦٣ عاما ان يشتري شقة للسكن، او ان يجد عملا، وكراهية للسوريين، الذين وجدت بعض القوى السياسية، التي سبق لها وان ادعت انها تقاوم النظام السوري في لبنان، انها تستطيع متابعة خطابها العنصري ضدهم، حتى عندما يثور الشعب السوري ضد النظام الاستبدادي في بلاده، بحجة الخوف على المسيحيين!

شيء من اللامعقول يتحول الى ممارسة يومية في لبنان. حين تتظاهر مجموعات من الشباب اللبنانيين او تعتصم دعما لنضال الشعب السوري، تتعرض للضرب والاعتداء، من قبل شبيحة السفارة السورية في بيروت وبعض الميليشيات ذات التشكيلات الفاشية في لبنان. يُطارد المعارضون السوريون في لبنان، يُعتقل بعضهم، ويسلم الى النظام الاستبدادي في دمشق، بينما تقوم أجهزة حزبية لبنانية بالطلب من مواطنين سوريين مقيمين في لبنان بتعبئة استمارات كي يكونوا تحت القبضة الأمنية!

على بعد مئة وعشرين كيلومترا من بيروت، تدور المجزرة الأكثر وحشية في تاريخ سورية. الشعب السوري ينتفض منذ اكثر من ثمانية اشهر ضد نظام تغول بالقمع والوحشية. شعب قرر بعد اربعة عقود من حكم ديكتاتوري اعتقد نفسه ابديا، ان ينتفض لكرامته، في ثورة سلمية اجتاحت مظاهراتها البلاد من اقصاها الى اقصاها ووجهت بنيران الرشاشات والدبابات. لم يتورع رجال النظام من دوس اعناق الناس في الساحات العامة، ومن قتل المصابين في المستشفيات، وخطف المواطنين، وتحويل المدارس الى سجون.

احتلت بيروت حيزا كبيرا في وعي الثقافة العربية لنفسها، شعراء العرب من محمود درويش الى ادونيس الى نزار قباني، خصصوا للمدينة حيزا كبيرا من نتاجهم الشعري والنثري، متخذين من بيروت، وطننا ادبيا لهم. اسطورة بيروت صنعها تاريخ طويل من الكتابة والمعاناة والاصرار على اولوية حرية التعبير باعتبارها مدخلا الى حرية المجتمع، وتشكلت عبر سنوات طويلة من عمل المثقفين والفنانين والناشرين اللبنانيين العرب، كي تكون مختبرا للحرية والثقافة الطليعية.

لكن الاسطورة تتحطم اليوم، ويتحول ربيع العرب الذي حلم به سمير قصير الى شتاء بيروتي طويل. فمُنذ اندلاع الثورات الديمقراطية في العالم العربي في نهاية عام ٢٠١٠، والمدينة تتحول الى عكس صورتها، كأن مرآة العالم العربي التي انجلت بالثورات تمحو صورة مدينتنا، وتجعلها خارج الاطار.

لماذا اختارت بيروت لنفسها هذا البؤس الذي يدعو الى الحُجل؟ هل كانت الغيبوبة قرارها الواعي، ام ان المدينة غُلبت على امرها في النهاية، واستراحت في الانتظار الذي يقتل روحها؟

في الشهر الماضي اقيم معرض الكتاب الفرنكفوني السنوي في البéal، وقد حمل هذا العام شعار «كلام الحرية». السؤال الذي تبادر الى ذهني هو اين نجد كلام الحرية في بيروت، هل يكفي ان نتحدث عن ثورات العرب، كي يكون لكلامنا مذاق الحرية؟ هل صار الكلام بديلا من الواقع، ام انه صار محاولة لتغطية العجز عن فعل الحرية، بالكلام عنها؟ بدا كلام الحرية غريبا في مدينة لم تتوقف سياسات اصحاب السلطة فيها، عن وأد الحرية. كلام عنصري سائد عن العمالة الآسيوية، مصحوب بممارسات وحشية في

حينئذ إلى زمن الوصاية السورية قبات بعضها بتصرف
وكأنه تابع للمخابرات السورية؟ أم أنها تخفت من نفسها؟
تتدبر باليكم وتستسلم لزعماء الطوائف اللبنانية الذين لا
يسببون سوى الرسوم المتحركة

جذر الاستسلام للصمت هو النظام الطائفي اللبناني
الذي تحول في زمن الوصاية السورية إلى أداة للخلعة
النصاب في النظام السياسي اللبناني، ثم صار يعد قسماً
انتفاضة الاستقلال شكلاً دائماً لحرب أهلية باردة.

ما لم يقل عن طبيعة النظام الطائفي وطبيعة الطائفية
كبنية سياسية ينكشف اليوم على شكل قضية أخلاقية
كبرى يعيشها لبنان

فالطائفية هي شكل من أشكال العنصرية، إنها
مرض السياسة اللبنانية الذي يهدد بمحو العمل الثقافي
الكبير الذي صنعه النهضويون اللبنانيون مع غيرهم من
النهضويين العرب، من أجل بناء ثقافة حديثة منفتحة
ديموقراطية وعلمانية

عنصرية البنية الطائفية لا حدود لها، فحين يكره
اللبناني الآخر لأنه لا ينتمي إلى طائفته فإن الكراهية
تصبح بلا ضوابط وتتهار الأخلاق، وتلاشى القيم
الكلمات في الزمن الطائفي تفقد دلالاتها وتصبح
غطاء لقاموس العنصرية لذا لا تعجب حين يسخر
بعض الزعماء اللبنانيين من الثورات الديموقراطية
العربية، ولا يرون فيها سوى مؤامرة، كما
لا يصيبها العجب حين يعتقد بعضهم
الآخر أن مصير هيمنة طائفته
ونفوذها في لبنان مرهون بمن
سينتصر في الثورة السورية

منطق غرائبي يعتقد بسداجة
وغاية أن العالم يعمل في خدمة الطوائف
اللبنانية ولا يعني أن انتصر الثورات العربية سوف
يعني بداية لغة جديدة، ونأسس دولة المواطنين
المدنية التي لا علاقة لها بترسبات زمن المتصرفة
الذي لا تزال السياسة اللبنانية تعيش في ظلاله

لقد برهن النظام الطائفي اللبناني أنه نظام
استبدادي، وأن استبداد الطوائف هو أكثر أنواع
الاستبداد قدرة على تجريد الإنسان من روحه وعقله
ووجدانه، وتحويله إلى كائن عنصري

غير أن شتاء بيروت الحزين لا يقتصر للأسف على
المستوى السياسي، بل يمتد إلى المستويين الاعلامي
والثقافي، بحيث يتنازع من هذا التصحر الشامل
الذي يحكم على مدننا بالصمت

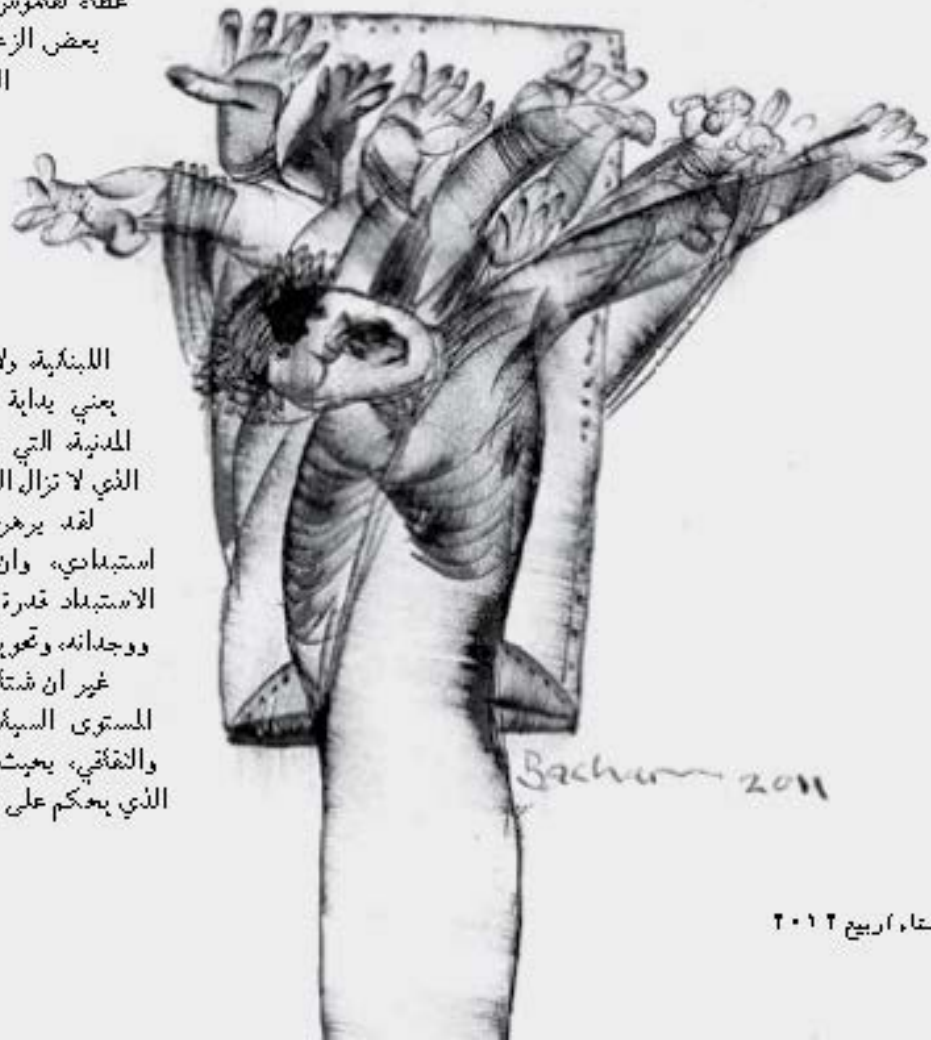
سحق رجال النظام اصابع يدي رسام الكاريكاتور علي
فرزات قتلوا وشوهوا جثة غيث مطر، عذبوا الاطفال وملأوا
بجنتهم كل ذلك من أجل أن تبقى مقبلاً عائلياً لعسكراً
اقتصادية في السلطة

غير أن وقاحة النظام وصلت إلى ذروتها عبر عملية
تزوير الحقائق، والترويج للأكاذيب وتحويل اللغة إلى لغو
مطلق، وامتثال الاعلام عبر استخدامه كأداة دعائية رخيصة
وكاذبة، على طريقة غويلز.

كل هذا يجري بالقرب من بيروت، وبيروت صامتة لا
شيء سوى الحواء والتهريج الاعلامي، والشظمية اللبنانية
التي لا هم لها سوى أن تصنع أكبر صحن تبولة في العالم
أو أن تكفح من أجل أن تكون مقارة جعيتاً أحدي عجائب
الدنيا السبع

كيف نقرأ الصمت البيروتي المخيف؟ وكيف نحلل العزلة
الكبرى التي وجد فيها بعض الشبان والشابات اللبنانيين
انفسهم فيها، وهم يحاولون أن يرفعوا اصواتهم التي
يخنقها القمع والهكسبة؟

هل تخاف بيروت من شبيحة النظام السوري، ومن
اجهزة الأمن اللبنانية التي استعادت في هذا الزمن



الغريب أن الثورات العربية التي تعلن ولادة وطنيات مختلفة بأفق عربي تعلن في الوقت نفسه أفول الوطنية اللبنانية وإحلالها الأخلاقي.

الخوف والقلق، لأنها تهدد بطي
صفحة كبرى في تاريخ الثقافة
اللبنانية بدأت فصولها مع
النهضويين الكبار وامتدت على
مساحة المناخ الثقافي اللبناني الذي
استقبل الثقافة العربية الهاربة من

القمع وتفاعل معها، وصولاً إلى «شقاء العرب»، كما كتبه
الشهيد سمير قصير.

من الصعب القول بهذا الخمول الثقافي والسياسي
والأخلاقي الذي لا يجد له تفسيراً سوى في مناخات الحبيبة
التي أعقبت فشل انتفاضة الاستقلال التي استولى عليها
الطائفون، معلنين عجز البنى الطائفية عن بناء أفق يوحد
الاستقلال بمقاومة الاحتلال الاسرائيلي، ما يعني بقاء الوطن
مؤجلاً لأن الطائفية في جوهرها نزعة عنصرية، وبنية لا
وطن لها سوى مصالحها الضيقة.

الغريب أن الثورات العربية التي تعلن ولادة وطنيات
مختلفة بأفق عربي، تعلن في الوقت عينه أفول الوطنية
اللبنانية وإحلالها الأخلاقي، وتحولها إلى اطر للكرهية
العنصرية، تبرر الدفاع عن الاستبداد الأسدي بخواف
الأقليات وضرورة تحالفها مع الطغاة!

عقلية زمن المتصرفية تحتاج لبنان، وتحيله إلى المكان
الأكثر خمولا في المشرق العربي اليوم، وهذه نهاية لا تليق
بأحفاد أحمد فارس الشدياق، ولا علاقة لها بالصورة التي
رسمتها بيروت لنفسها، حين كانت عاصمة الحرية والمقاومة.
المأسوي أن أغلبية الناس لا تشعر بهذا الشقاء اللبناني.
والبؤس لا يتحول إلى حقيقة إلا إذا رضي البائسون
ببؤسهم، وتأقلموا معه وحولوه إلى نمط حياة.

البؤس ليس قدراً أيها الرفاق.
تحدي البؤس ومواجهته هو علامة الحياة الأخيرة التي
تنتظرها بيروت قبل أن تمحي صورتها في مرآة الموت.

على المستوى الاعلامي
اعلنت الثورة السورية موت
الاعلام اللبناني. ففي ظل
انحياز صحيفتين كبيرتين للنظام
السوري، وضمور الصحافة
الثالثة التي دخلت في ما يشبه

الموت السريري، نستطيع القول ان هناك ازمة حقيقية في
الاعلام اللبناني المكتوب، وان الصحافة اللبنانية تتخلى عن
دورها التليعي في العالم العربي، وتستسلم لخمول الطوائف
وجذب الحياة السياسية اللبنانية.

اما قنوات التلفزيون اللبنانية المختلفة فهي خارج
الصورة. بعضها لا يمل من تكرار اكاذيب الاعلام الرسمي
السوري، بينما يعاني بعضها الآخر تخشياً وبلادة، يردهما
البعض الى ازمة سيولة مالية، لكنه يعبر في الواقع عن ازمة
فكرية وابداعية ضربت القطاع الاعلامي برمته.

يستطيع الاعلام التلفزيوني اللبناني ان يتذرع بعجزه
المادي عن منافسة الاعلام الفضائي العربي، وهو قد يكون
محقاً بشكل جزئي في هذه المسألة، لكنه يتناسى انه يمتلك
رأسماً رمزياً كبيراً هو الحرية، قام بالتخلي عنه طوعاً،
عندما قبل ان يولد في احضان الميليشيات والطوائف،
مصاباً بعاهة لا شفاء منها.

اما على المستوى الثقافي، فباستثناء اعتصام كبير نسبياً
دعت اليه مجموعة من المثقفين واقيم في ساحة الشهداء،
وبيانات متفرقة صدرت هنا وهناك، ومقالات نشرت في
بعض الصحف المحلية والعربية، فاننا لا نجد مناخاً ثقافياً
عاماً اخذ على عاتقه مهمة دعم الثورة السورية. اصوات
الفنانين اصبحت بيحة مفاجئة، والمنابر الثقافية اقفلت ابوابها.
ولعل الاستثناءين الوحيديين على هذا الواقع هما مسرح
دوار الشمس، الذي يديره الفنان روجيه عساف، حيث اقيم
عرضان ثقافيان، لم يسلما من تهديدات شبينة النظام
السوري، وحركة التضامن التي قادتها مجموعات شبابية
لبنانية عبر اعتصامات ومظاهرات صغيرة، كانت تواحه
بعضى زعران النظام السوري وقمعهم.

الغريب ان اصوات الفنانين اللبنانيين الشباب تكاد
لا تُسمع، واللافت ان تقنيات الفن المفهومي والعرض
(البرفورمانس) التي كانت سمة خروج الفنانين اللبنانيين
الشباب الى عوالم ما بعد الحداثة، تتحول اليوم الى ادوات
رئيسية يستخدمها شباب وشبان الثورة السورية، بينما
يغيب الفنانون اللبنانيون الما بعد حداثيين لاهثين خلف
تجاربيهم العالمية!

صورة انهيار بيروت الثقافي والاخلاقي مروعة وتثير

«عثمانية جديدة» في بلاد العرب

ايحيى مملوكوران

كاتب ومحقق
ورواية تركية
آخر مؤلفاتها
«صوت الموز»
تصدر ترجمتها
«طلع ٢٠١٢» عن
دار الجمل

«أهلاً بكم في مطار رفيق الحريري الدولي بـسرتنا وبسرتنا»
يقطع الاعلان ضحكك مجلجل من الذين يدخلون دائماً
خرب تنكة الزبالة عند البوابة رقم ١١ للمغتربين الى
اسطنبول. يدخلون لأنهم يستطيعون ذلك خلافاً لحالهم في
المطارات الأوروبية وهم يستمرون بالتدخين لأنهم كيف
اعتبر؟ لأنهم «العثمانيون الجدد»!

اعرف هؤلاء القوم اعرضهم من الرحلات الى روما وإلى
باريس أو لندن ولكن امهم هناك مختلف بل غريب انذكر
يسهولة توترهم عندما يتعدون الى مضيق طبران برطانيين
أو فرنسيين لا لسبب الا لامكانية ارتكاب خطأ فاضل في
النطق هذه اللغة أو تلكه أو بسبب انتباههم الشديد الى اختيار
نوع النبيذ حاكفاً اللدما الذي يحدث لو اختاروا نوع النبيذ
الغلط فيطردون من الحضارة الحضارة الغربية طبعاً البدوي
انهم خارج الخريطة في مطار رفيق الحريري الدولي هي
خريطة دولية متغيرة عانوا منها لاجيال وما هم الآن مستعدون
لاكتشاف اراضٍ يكره ارض مغيلتهم الشاسعة البيضاء المائلة
الى الصفرة التي عادة ما تسمى «الشرق الأوسط»

خريطةنا للارض العربية

مر جميع هؤلاء القوم ايناء جبلي والجليلين السابقين بالتعليم
فاته تقريباً في المدرسة الابتدائية صفوفنا متماثلة مثلما نحن
متماثلون تعلوها صورة اتاتورك طبعاً ابتداء بصف الروضة
تشاهد وجهه الايقوني الى درجة انه يتحول الى شيء مختلف
عن وجه رجل لبصير وجه كائن «سماوي» مثل يسوع أو مريم
يلا جنس، ومجرد من اي ملمح انساني. ونحت اتاتورك او الى
جانبه «ستلقى» دوماً خريطة لتركيا هذه الخريطة التي شاهدناها
على امتداد تعليمنا الثانوي تصور علاقة تركيا الايديولوجية
والفلسفية بسكر العالم في نظرة استرجاعية، يستطيع المرء
ان يلاحظ ان مغيلتنا ومغاريتنا للامور قد تبلورت بفعل تلك
الخريطة. تركيا تتوسط الخريطة طبعاً بما هي اكبر كيان يمكنك

ان تتخيله، وحيدة في «موقعها الجيو استراتيجي» واصفاطية
بالاعداء» طبعاً كما كانوا يعلمونك وكانت أوروبا فوقنا،
والاخرى جزء صغير منها ولكن حتى هذا الجزء الصغير
كان ملوّناً وجذاباً ومفصلاً على نحو حيوي vivid بواسطة
الانهر واسماء المدن الى اليمين تحت اراض شاسعة رمادية
على صفراء بالكاد تشاهد عليها اسم مدينة، او لعلك تشاهد
اسماء العواصم فقط: طهران، بغداد، دمشق، وخلص لا شيء
اكثر من ذلك تعلمنا الخريطة ياغلي صوت ممكن ان نتطلع
الى أوروبا ونقضي النظر عن الطرف الآخر حيث لا شيء
الا القبار، اي الصحراء اساساً والجمال والعرب المتخلفون
بأنهم البيضاء الباعثة على الضحك وانا اولئك الذين يرون
انفسهم جزءاً من أوروبا ويذلوا بهذا كبيراً ليكونوا عضواً
فيها هم الآن في مطار رفيق الحريري يدخلون ذات مرة كانوا
مستغرقين بالدونية المتغيرة في رحلاتهم الأوروبية وما هم
الآن يستمتعون باستعلائهم المتغيرين وهم يدخلون سجنهم.
والارجح انهم يستعدون لعرض تجاربهم على الفاسيونك
«معلمين» ان بيروت ليست كالعرب» «العرب المعاصرون»
«هؤلاء القوم ليسوا كالعرب»

كانت هذه العبارة الاولى لصدقتني عئشة عندما
دعوتها لتشهد البيعة التي عشت فيها وانا اكتب روايتي
«أصوات الموز» في بيروت خلال العام ٢٠٠٩. وكانت
عئشة في الحقيقة الصديقة الوحيدة التي قبلت دعوتي
كان الآخرون من الكلية يمان بحيث لم يفكروا حتى في
ان «يقامروا» في ارض مغيلتهم الرمادية الصفراء انذكر
سماع عبارات من نوع:

«انك تتعلمين العربية، اذك «سبحانك ويعمدك» اءا هـ
هـ هـ هـ
او
«اذا بيروت تبعد ساعة ونصف عن اسطنبول؟ اقرب
من باريس، يعني؟ واللله»

«استطيعت المشي وحيدة في الشوارع هناك؟ ألا تخجلين؟»

دومة ملاحظات أخرى أخرج من استذكاره حتى أن أمي انشغل بها كثيرا عليّ لاني كنت في أرض عربية وأذكرني أنني قلت لها إن بيروت شديدة الشبه بزمير حيث تسكن ومعاصرة فعلا عندما تدخل والدي يقول شاع بين اصدغاني العرب لاحقاً «لأله (وهو اسم أمي) يوجد عرب معاصرون ايضا».

ولكن لا أمي الفنانة واليسارية السابقة ولا اصدغاني الحاصلون على شهادات عليا هم أسوأ النماذج في الشعب التركي، بل يمكن حسابهم من الكومونيوليتيين الأكثر انفتاحا ذهنيا. لن يتخرج الاثراك العاديون في

تسمية كلاهم «عربي» ولدينا تمايز شائعة من مثل «يسخني الله عربيا إن أنا ذهمت ما تقول» وهو يشير إلى أن العربي هو أسوأ

ما يمكنك أن تكونه والصبيان الذين يطالبون بشرب قهوة تركية لا زال اهلهم يخفونهم بهذه العبارة:

«الصبيان يتحولون إلى عرب إذا شربوا القهوة» فكيف صارت تلك الأرض المتخيلة التي يسكنها عرب «دوسغون» هي المكان الأنثري فجأة؟ والاهم لماذا الشباب في مطار رفيع الحريري يستمتعون بوقتهم إلى هذا الحد إلى حد يجعل من اليد يعني أنه توجد قطبة مخفية في الامرس الظاهر أن دومة مسألة «عثمانيين جدد» بتعين تفحصها بعناية ولعلها لغة محرم.

أغراء الأميرالية الذي لا يقاوم

«اسطنبولية أجليه أجليه»

بأعرض ما لديهم من إبتسامات ينحني أكثر الحائطين المصريين فسادة يتواضع جمّ أمام «العثمانية الجديدة» إن في تونس صارت جنسيتي أهم موضوع تدور حوله الاحاديث حتى أن سافقي «سيارات الاجرة الأكثر تحايلا في بيروت يقررون «ما نام، التوصليلة من الحمرا للجميزة عشر دولارات» إلى «أهلا وسهلا عشرة آلاف لبناني» بعد أن يسمعونني من اسطنبول، ولا يدلي من أن أقول، وقد عشت في أرض عربية ثلاث سنوات، إن هذا السلوك جديد، وهو

مقر، بدأ مع وصول الرئيس الوزراء اردوغان «للتقيقة واحدة» في دافوس، وتضخم بعد قضية اسطول الحرية، ما جعلنا نحن الاثراك المخلصين الجدد للعالم العربي وباطال القضية الفلسطينية والاهم من ذلك هو مسلسل «هذه ونور» فانا اسطنبول، أرض الميعاد للمسلمين، تدخل كل بيت في المنطقة العربية فكانت كل حلقة من حلقات مسلسلات الثقافة الشعبية التركية تقترح العالم العربي افتحاه حتى ان الاسرائيليين لم يستطيعوا ان يبرؤوا هذا «الاحتلال» (عرض المسلسل في اسرائيل ايضا، وهكذا قبل ان يصل العثمانيون الجدد، كانت تفككتهم قد سبقتهم، وقد لقيت الكثير من الاعجاب والاحتضان، الاعجاب والاحتضان؟ هما كلمتا السر اللتان فتحتا ابواب الشرق الاوسط المنسية أمام الشعب التركي

الجامع إلى الحية

«انهم يحبوننا، هناك»

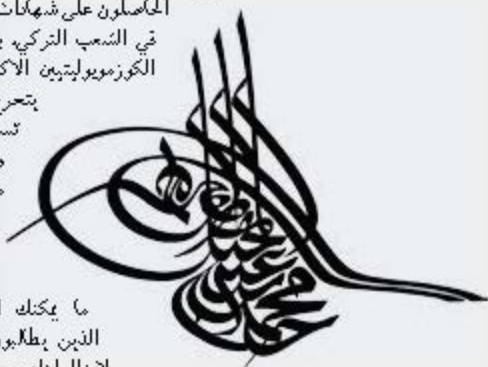
كل «مغامر» ممن تجسم رحلة الساعة والنصف «الجزيرة» إلى بيروت يدلا من يكرس أو لندن كان يعود إلى الوطن وهو يردد العبارة الأسماء

«انهم محبون ينك انهم مغرمون يتركنا هناك»

كانوا يستمتعون بشعور جديد كلياً تجاه الاثراك ان يعجب بهم شرفيون يدلا من ان يتجنهم غريون للتحقق من اهليتهم لعضوية الاتحاد الادري، يكثر الطرائق إلا لا، انهم يستقبلون بالتصفيق في «لاعب كرة قدم في الشرق يدلا من ان يحدهم الغريون ينظرانهم الساخرة، ويتلقون العناق المغوي من الشرق يدلا من ان يتكلموا فيديك السباسة من الغريب لم يفر الاثراك على مقاومة كل هذا، وفوق ذلك كان «فرانهم الوجودي» قد أنهكهم

فراغ تركيا الوجودي

منذ تأسيس الجمهورية التركية عانت اجيال من الاثراك علاقة فضائية مع الغرب كنا بقايا امبراطورية رابعة لكن تركيا كانت في نهاية المطاف، يدلا ينفضل من أجل عضوية ناد لم يرغب به قط وكانت مراوغة التاريخ تلك بمثابة المسألة، على الرغم من انه يجري تصويرها بما هي حقبة بطولية في التاريخ الرسمي ان انتصر تمرنا كان هزيمة في النطاق الاوسع فقد خلق البلد نفسانيا بين هذين الوصفين للحدث ذاته وهذا ما خلف «فراغا وجوديا» في الهوية الجمعية للشعب التركي، في اعتقادي أورتهم رؤية لانفسهم مضخمة أو مضغرة حتى ان دبلوماسيينا الأكثر برودة اصيب بذلك الوعي الازدواجي المتضارب خصوصا في العلاقة مع اليونان وارمينيا فخلال تاريخ تركيا الحديث



حاولت الجمهورية الشامية ان تغلق نفسها احتفالاتها وطقوسها واساطيرها وهويتها الجمعية الخاصة غير ان شبح ٦٠٠ سنة من امبراطورية قديمة ظل مغيماً فوق البلد لاسداء هزيمة المسيح، اعتبر العام ١٩٢٣، عام تأسيس



أزمير وعن ذبح الارمن بما هو جزء من تلك القصة الخراقية الواقعة بالضبط بين الحقيقى واللاحقى، ولم تكن علاقة الهوية الجمعية بالماضي في وضع اسلم، كنا نحتفل دوماً بفتح اسطنبول بواسطة العثمانيين الذين تكرههم كتب التاريخ وكنا نقيم التماثيل للسلطين العثمانيين الذين ترميهم كتب التاريخ بالاهانات بسبب حبائهم المتهتكه، وكانت الكتب التسعون الاكثر مبيعاً تعكس في معظمها عن حبة الحرم في القصر العثماني او في القصص العثماني الشعبية، ولكن كان يفترض بنا ان نتغلب ذلك التاريخ على انه تاريخ قديم لمجرد انه حصل قبل اعلان الجمهورية ولم يكن للارتباك ان يعمر اكثر من ثمانين سنة فصعد الى المسرح «الأد كد يا» (حزب العدالة والتنمية) الحزب الحاكم حالياً ليعتبر هذا التاريخ ويشغفنا الى الابد من ذلك الفراغ الوجودي وقد طال واستطال، ومع انهم يرفضون الحجج على المستوى الرسمي، فإن الحزب ادار مقود سياسة تركيا الرسمية من غرب الى شرق ومع ان ذلك احدث حالة دعر في أوساط الحرس القديم للنظام، كان المدة قوية ومدعومة دولياً الى حد كبير الى هذا، لما كان للحركة الاسلامية علاقات اقتصادية وثقافية سابقة مع العالم العربي كان من اليسير تطبيق التجربة في المضمائر السياسي كان جهاز تركيا العصبي مرهقاً لطول ما اعين من قبل الاوروبيين فعان اوان الالتفات الى اخوتنا الذين كنا نمقتهم لسنين ففي ذلك يلسم لصورتنا عن انفسنا في عيوننا ذاتها، والا هم انه يجلي الارتباك حول الهوية التاريخية والجمعية، وما ان اعطيت إشارة الانطلاق حتى تسارع المسار السوسولوجي لتعديل المقاربة الجمعية للعرب على نحو مدعش بسبب الموقف السياسي للجمهورية لم يكن الجمهور العلماني يعرف شيئاً عن العالم العربي ولكن الجميع خارج تلك الدائرة، بمن فيهم اشد نقاد الحكومة فساًوة، اكتشفوا «الطائفة» والحدود المفتوحة مع سورية ولبنان مشرعة لوكالات السفريات، ثم سلكت شبكة التجارب الفردية طرقها عبر الانترنت، وهذا هم، على البوابة رقم ١١ في مطار رفيق الحريري الدولي، يدخنون ويتضاخكون بطريقة لم يألوهها في المطارات الأوروبية.

فيما تركيا تعيد ابتكار علاقاتها التاريخية مع العثمانيين كان العالم العربي يساهم بعماسة في تلك العملية بطريقة ما وفي الوقت ذاته، بدا كإن العالم العربي نسي ان يبرقراطياته المعطلة انما هي من بقايا التركة العثمانية وبدا أنهم يترددون في تذكر ان أفندية مصر او يابات تونس كانوا يستغلون ارضهم فجأة صار العثمانيون ذكرى عذبة، حلاوة طحينية لا يمكن للعالم العربي ان ينسأها، يصعب الاجابة على سؤال لماذا تم ذلك وكيفه افترض ان هذا الجزء من قصة الغرام

الجمهورية، العام صفراء وهذا ما صعب تصالحنا مع انفسنا حول الكيفية التي بها تتعاطى مع الهوية العثمانية، انتج غياب التوافق هذا انعداماً للشعور التاريخي في حبة الفرد التركي ان ابناء جيلي خصوصاً سوف يروون الحكاية ذاتها، اخبرنا اجدادنا قصة خراقية حدثت ذات مرة ثم تبخرت مع قيام الجمهورية، وسمع معظمنا عن إجلال اليونانيين من

يجب ان يترك لكاتب عربي.

«التمشي في شارع الحمرا!»

«تناول موخيتو في الجميزة!»

باستشرافية مغالية جدا، يكتشف «الأتراك البيض» - وهو الاسم الذي نطلقه على الطبقة الوسطى العلمانية العليا في تركيا - روعتهم ويشاركونها على «تويتر» في هذه الايام. واولئك الذين كانوا يواجهونني بنظرات فارغة عندما كنت اتحدث عن حياتي في بيروت يشاركوني الآن مغامراتهم شديدة «الاثارة» في لبنان. اتساءل ما الذي سوف يحصل عندما يكتشفون ان بيروت ليست الجميزة او وسط المدينة فقط. حتى تلك التجارب المحدودة والصغيرة جدا تشكل دعاية كافية للبنان لكي تبدو الرحلات الجوية الى بيروت مثل الرحلات الداخلية في تركيا. في زمن كنت ازور بيروت لأنقطع عن اسطنبول واستطيع الكتابة. اما الان، يستحيل ان اصعد الى رحلة جوية متجهة الى بيروت دون ان اجد احدهم يقول لي «ايجي خانم! مرحبا!» وكان هذا كافيا لكي ابدأ البحث عن مأوى اكثر امانا لممارسة الكتابة. قلت لنفسني: هي تونس. ولكني وانا اتجول في تونس القديمة سمعني أحد الخانوتين يتحدث بالتركية على الهاتف فهتف «خوش غلدينيز!» اي «اهلا وسهلا» بالتركية. قلت في نفسي «هذه نهاية قصتي هنا». ومع اني واحدة من اقسى نقاد حكومة «حزب العدالة والتنمية» فانا جزء من الكيان الامبريالي لأنني فرد تركي ولا مهرب لي من «مهند»! فإذا ادعائي باني فرنسية، بلكنتي الفرنسية

المضحكة جدا، اقل احراجا من ان اكون ممثلة لامبريالية البسكوت التي تنكئ على فراغ.

النفاق باختصار

الجزء الاكثر احراجا من هذه القصة ليس الامبريالية ذاتها وانما تطبيقها البدائي على أيد تركية:

ان حزب العدالة والتنمية بل رئيس الوزراء طيب اردوغان شخصيا يبدو وكأنه المخلص الجديد للعالم العربي والرائد الجديد للقضية الفلسطينية، لكن الحكومة التركية في الوقت ذاته تبني دروعا صاروخية بالتعاون مع اسرائيل ضد «الخطر» الايراني.

وثمة ترويج كثيف لـ«النموذج التركي» بما هو افضل نموذج يصلح للعالم الاسلامي لكن ٥٠٠ طالب و ٨٠ صحفي يقبعون في السجون، فضلا عن الظلم الاجتماعي والرقابة المشددة.

تنوجد كل هذه المشاعر العنصرية المتأصلة ضد العرب ويُطلب معانقتهم في الآن ذاته.

ويسود جهل عميم بكل ما يتعلق بالعالم العربي والاسوأ ان ينعدم لديك اي فضول بشأنه فيما بلدي يتهايا لـ«زعامة المنطقة».

لعل العثمانيين الجدد عند البوابة رقم ١١ ليسوا منزعجين من هذا المسلسل التركي الجديد، ولكني في حرج شديد لأن اكون جزءا من هذه المسخرة.

هواء بلا ديكتاتور

محمد خير

شاعر وكاتب

مصري. آخر

اعماله «عفاريت

الراديو» مجموعة

قصص قصيرة.

أرتدي ملابسي وأنا أنظر إلى العلم القماشي على الحائط وقد بدأت تكسوه طبقة خفيفة من الغبار، على المكتب كمامة الغاز السوداء بالفوهة الاسطوانية تشبه وجه حيوان مفترس، أفكر أنه بعد عام من الثورة أصبح الذهاب إلى التحرير مخيفا أكثر بكثير.

منعني الكسل من أن ألفت انتباه سائق التاكسي كي يتخذ الناحية اليسرى في شارع قصر العيني، أغلقنا الزجاج في البرد بينما كانت مصابيح الطريق الصفراء تكشف مساحات صغيرة من الظلام الكثيف، قبل مجلس الشعب أوقفنا الشباب، بدأوا يشيرون من بعيد لترجع لكن السائق واصل تقدمه وقال لهم إنه سيتجه إلى اليسار قبل الميدان (قلت له إني ذاهب إلى طلعت حرب). كان الإغلاق يبدأ قبل انتهاء الجزيرة الضيقة بين جانبي الطريق ما يعني استحالة العبور سوى بقفز التاكسي فوقها. عدنا أدراجنا للخلف وقمنا بدورة واسعة عن طريق عابدين. تذكرت فجأة بيروت والحوازر الأمنية المتعددة والمتقاطعة. لازلت أجد الحواجز الحجرية الجديدة في قلب القاهرة أغرب بكثير من ذهاب مبارك. قبل أيام تسللت على أقدامي من خلف مبنى الداخلية عبر شارع عي الفلكي ومنصور وتصورت أنني سأجد نحفزا وتفتيشا. لا شيء سوى عساكر وعساكر ومدركات ثم عساكر مرة أخرى. تذكرت قصة قديمة كتبتها عن مدينة يرتدي أهلها جميعا في الليل الملابس العسكرية، لم أنشر القصة لأنها كانت مباشرة أكثر من اللازم.

بعد أيام أخرى ألصق أحدهم فوق الجدار الذي سدّ مدخل قصر العيني لافتة بيضاء كبيرة عليها كلمات أمل دنقل «أه ما أقسى الجدار». فكرت أن المجاز لم يلتصق بالواقع أبدا إلى هذا الحد من قبل. كأن الكلمات كتبت للجدار أو كأن الجدار ارتفع كي تُلصق الكلمات عليه، حتى الحجارة المكعبة الضخمة الرمادية كأنها جاءت من الأساطير رأسا، أحجار مكتفية بذاتها على طريقة الأهرامات يكفي أن

توضع فوق بعضها كي تلتصق وتثبت بوزنها الخاص وبثقل حضورها. تترك بينها فراغات تسمح باختلاس النظر، ورأيت على الانترنت صورة لطفلة صغيرة على ظهرها حقيبة المدرسة تنحني وتنظر عبر الفتحة الصغيرة بين أحجار شارع محمد محمود، كتبوا تحت الصورة «الماضي والمستقبل» فكتب أحد المعلقين «يعني مافيش حاضر؟». وما لفت انتباهي في الصورة أن البنت الصغيرة كانت محجبة. لكن أحد الإسلاميين يكتب مقالا يستشهد فيه ببدايات المناوشات بين المسلمين وجيوش الروم الجرارة، ويقول إن المسلمين عندما تحرشوا بالجيوش الإمبراطورية كانوا يطلبون غير الممكن، كان الكاتب يتحدث عن إشكاليات تهدد المشروع الإسلامي، لكنني نسيت بقية المقال وعلق بذهني «غير الممكن» أو «الغير ممكن» غير الممكن هو ما دفعنا لننزل، ضد حسابات الورقة والقلم، لكن شيئا سحريا لا نعرفه أو ربما تعويذة ما لا تتخلق إلا عندما ننزل جميعا ونصنع الأبواب وراءنا! إنزلوا!!!!!! هو النداء الأشهر عبر التويتر كلما واجهت الثورة اعتداء أو تحرشا أو حتى شائعة.

الفيس بوك يصنع منجنيق

لكن يوم ٢٥ يناير لم أنزل إلا لأن الوكالات الإخبارية أغضبنتني. قضينا الأيام السابقة بين التشكك والغضب والأمل والسخرية، وفي ظهيرة ٢٥ يناير كتبت وكالة رويترز أن «عشرات تجمعوا عند دار القضاء العالي بوسط القاهرة». عشرات؟ صفقت الباب ورأيت ونزلت. إلى أن جاء اليوم الذي نزلت فيه من عند محمد هاشم في قصر النيل قرب الفجر ووجدت الشباب يعكفون على صناعة شيء يشبه وحشا أسطوريا فاستيقظت صورة فلكلورية داخلي لكنني كذبتها، ما هذا يا شباب؟ حقا؟ يبدو أنه «منجنيق» حقيقي!

لا أصدق أن شباب فيس بوك صنعوا المنجنيق من أجل الحرب، ربما لا نعرف حتى تأثيره القتالي الحقيقي في



نفسك» كيف تحول الجنرال من اسم ممنوع من الصرف إلى فعل متعدٍ لا يشرح ذلك سوى الصوت الغاضب للشباب الذي كان يهتف وهو يحدق فينا بعينين لا تطرفان وغرق يمكن أن تلمح لمحة رغم الظلام وكنا بالأسفلى عندما لمحا حركة فوق «مطوح مجلس الوزراء» ذهتف الناس مرحبين بالقناصة وعلى هذا الرصيف نفسه قبل عشرة شهور قمنا تحت أسوار البرلمان وكان الضوء قويا من الأعمدة وقلت مازحا لرفيقتي مدي بذلك الطفلي الضوء كي أنام واستيقظنا عند الفجر عندما بدأت النوار يديديون على الأرض بأقدامهم مع الهتاف «قوة، عزيمه، إيمان، ثورة مصر في كل مكان» وكنت أبكي قبلها كلما سمعت «ثورة في كل شوارع مصر» بردها فتية لم يكونوا معنا في التظاهرات اللانهائية على «سلام الذنابات» وأحدهم في الميدان كان صغيرا جدا ربما في السادسة عشرة عندما هتف في هاتفه بنادي شخصا ما ظهره اليوم الأول للثورة ويقول له أن «إزالة الثورة يتحصل» فنظرت لحالده عبد الحميد وضحكنا مسلفين

لكن براءة اليوم الأول سرعان ما خدشت بجراح ودم وتحت ركبتي جرح ليس من طلقه مطاطية أو خرطوش ولكنه يشبه كثيرا إصصية مطاط وخرطوش، وكنا نترجع مهرولين أمام قسم مصر القديمة يوم جمعة القضاة وضعت في الدخان من بعضنا البعض أنا وأخي أحمد وإيهاب عبد الحميد واصطدمت بعمود حديدي صغير يخرج من الأرض فسقطت مصصا، ورأيت في ما يرى الدايخ الأطفال يخرجون من حواري مصر القديمة غضبا من سقوط قنابل الدخان في البلكونات ويهجمون بالحجارة على قسم الشرطة الذي يحتل نصف مدخل الشارع الضيق أمامك من الحجرة وأشرع الأطفال تدور كمراوح وقنقنات حتى أسكتت الإطلاق من داخل القسم بعد توان جاء أحدهم بأقويس من مكان ما وتراجع به للخلف حتى سد مدخل القسم، وسمعت صرخة «طلع المخابرات يا لا» وبعد دقائق كانت النار وكان الدخان يعلو سماء الكورنيش ومن بعيد بدأ عمود دخلي آخر قال الناس أنه قسم شرطة دار السلام

أذكر ذلك كلما نزلت إلى الميدان فأبحث بعيني عن هؤلاء الذين خاضوا المعارك الحقيقية وقهروا الجهاز الأمني بيننا وبين السلطة وبين الإسلاميين معارك وراة معارك أخرى على الأرض عمدتها «مين بيدب في مين؟ وضربة الوحش يا كتيبتن ماقبهاش معلش، ومن ناسيين التحرير يا ولاد الس» أما نحن فقد بدأنا أملين أن نوسع قفعاكتنا الفاضلة لتسع للجميع، والأن نأمل أن نحافظ على وجودها فحسبه أن نحملها فلا تنفجر وهي لم تنفجر عندما لا مست الآخرين في الميدان الفاضل المحمي برغبة رحيل الفرعون

العصور الوسطى، ربما كان أناة تخويف كدينصور بطيء يتخط أو غوربلا تخط صدرها وتصرخ، «منجنيق» لنطقها يتعطش الجيم لتبدو ثرىخية أكثر ونضحك لم يكن سوى مقامرة صنعتها البهجة التي رافقت الموت في الثمانية عشر يوما التي هزت العالم فسل المنجنيق على كل حال ولم تبق سوى ذكراء وصورة في الشرائط الوثائقية الوجوه الشابة المبتسمة التي أحطت بعملية تصنيعه أين هي الآن؟ ألا زالت متبسمة، ألا زالت حية قبل تنحي مبارك بساعات وبعد خطابه الأخير المحيط كنا نقول أنه ربما لم تقلم مصر بعد ما يكفي من دماء وجاءت المفاجأة السعيدة في اليوم التالي وتلقيناه عند القصر بعد العصر فقبلت هناك أصداقنا وزملاء منهم من نسبت اسمه لكننا احتضنا بعضنا دون تمييز وبدا أن المفاجأة السعيدة حصلت أخيرا لكننا في أقدم بيروفرطية في التاريخ حيث لا يد أن تسدد الفواتير كاملة عدنا لنضع الدم المستحق ومنذ يوم مسبيرو بدأ الطريق الذي لا رجعة

وتبدو الثورة الآن بين الفاشيتين مثل سيارة صغيرة غضة تحاول المرور بين شاحنتين، الطريق مظلم والكلاكسات هائلة ومخيفة والسيارة تصر على المرور، تتقدم وتراجع وتتقدم ونحن يأيدينا فتحنا القفص وخرجت الوحوش لكننا أضعنا المفتاح ولو وجدناه لأضعناه مجددا عمدا في «ألف ليلة وليلة» يسكن الساحر قصرا لا يراه أحد، يعود الساحر كل يوم قبل الليل يقف في الصحراء ويتلو التحيات فيظهر القصر ليدخله ويخفيه مرة أخرى، الثورة تختفي لا يظهرها سوى الهتاف في الشوارع والجنرال يخشى الفكرة لكنه يخشى الفعل أكثر، ثم برعبه أن يكون الفعل جميلا عند مبنى التلفزيون قبل تنحي مبارك بساعات كان حاجز الأسلاك بين الناس والجنود لا تتخلله سوى الحوارات المنفصلة وقف أحدهم محمولا ويده اليف يتننى بهتافات جميلة مذهلة في طراجتها وموميفها، نسيت تم تذكرته عند مجلس الوزراء قبل الاجتياح والقتل عندما كان شاب يهتف هتافا غربيا «وطنطاري» وطنطاري على



الاحتجاز قبلت حالة جلال وسامي حسام وأينا الوراثي، ولم أعرف أنهم احتجزوا بسببي إلا بعد شهر طويل، كانوا قد أغلقوا خراوتي أضرب فنادوا فاعتقلوا يدورهم، يومها في ظلام سيرة الترحيلات، كنت أطمش نفسي إلى أنني ما زلت أملك العين اليسرى اليمنى لم تكن ترى سوى بقعة سوداء دائرية، وكل الاحتمالات ممكنة، من الكلمة البسيطة إلى انفصال الشبكية لم يكن واردا البحث عن مساعدة، بجواري كان يردد منهارا أربعيني مصاب بالسكري وتمتد حائلان أو ثلاث من الإغماءات، العربة الجديدة الضيقة شبه معدومة الشبكية كانت تضم أكثر من ثلاثين محتجزا لكن الرعب بدأ عند إطلاق قنابل الغاز على مجموعة محتجزين قريبة من ميدان التحرير، فنبلة الغاز تصيب بالفتيان وتلهب العين في المساحات المفتوحة، لكنها قد تقتل في المساحات المغلقة هذا ما كان قد بدأ يحدث فعلا في العربة المزدحمة التي تسلك الغاز إليها من المساحات الضيقة بين القضبان الجديدة، ازدادت الاغصاءات وبدأت بالطرق من الداخل على جدران السيارة من دون استجابة، خطرت لي لحظة عشرات الحوادث الشبيهة لمحتجزين اختنقوا في «سيارة الترحيلات» حتى من دون قنابل غاز، ولم أعد أفكر في عيني.

وكنّا قد تحوّلنا في المظاهرة من شارع شميليون في وسط البلد، الشارع التجاري العريق نال نصيبه من قنابل الغاز، وأمثلا ياسوا اختراع في عهد مبارك البلطجية والمجرمون الذين يجلبونهم بالسيارات في أيديهم الجنائز والسلاسل الحديدية والأسلحة البيضاء، يندشون وسط المظاهرة، ويهتفون معهم، ثم يبدأون بالهجوم عليهم من قلب المظاهرة، مواجهات «شميليون» اشتعلت ثم تحوّلنا إلى شارع رمسيس وازداد العدد وازداد مجددا عند حائل منطقة بولاق أبو العلاء، وعندما وصلنا إلى ميدان عيد النعم رياض، بدت المظاهرة كبيرة ومهيبة وعند مقر الحزب الوطني، بدأ الهجوم الثاني.

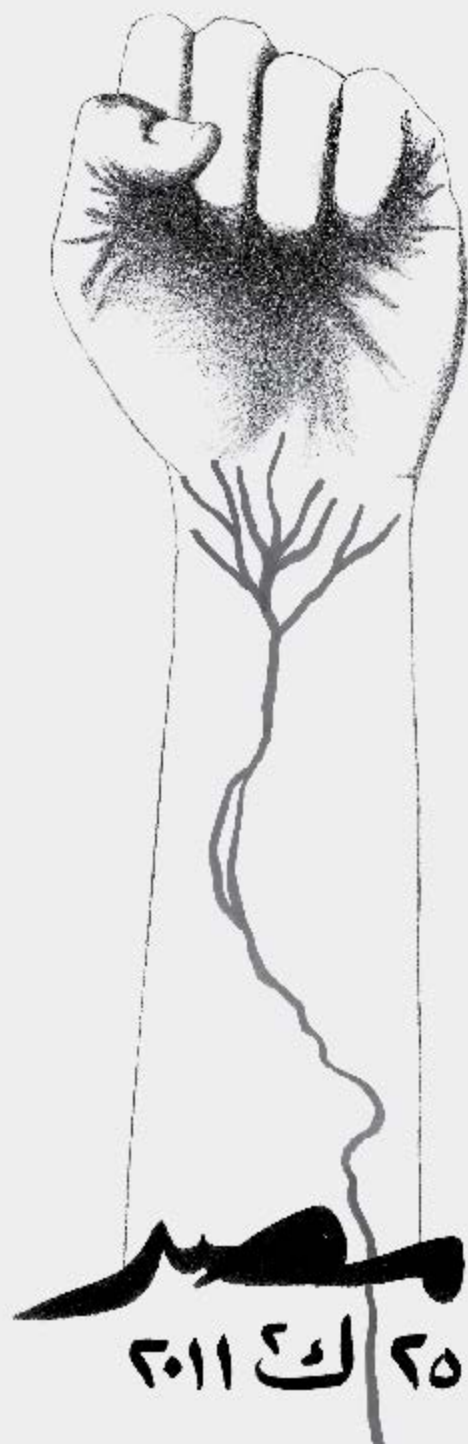
تراجعت تشكيلات قوات الأمن المركزي أمام بواتي مقر الحزب الذي تعرض للهجوم في الليلة السابقة، المشهد المألوف لم يعد يثير الرعب، الخوف والملايس السوداء والعصي في صفوف منتظمة، اقتربت المدرعات وبدأت بإطلاق قنابل الغاز، ومثل الليلة السابقة انطلق الرصاص الحي في الهواء

بعد ذلك تحول كل ما كان جميلا إلى اتهم، ارتدى الواقع قوانينه مجددا واستراح بثقله على جسد الثورة الغضبية وفي كل بيت منصبة أكاذيب رسمية تسكن الشائكة الفضية وبينما كانت كاميرات العالم مسلطة على الميدان كان ياتع السجائر على بعد مئة متر منه يستقبل الأخبار من تلفزيون ماسبيرو صغبر أبيض وأسود ويقول لأخر مشيرا نحو الميدان «هه مليون سلاح جوة»، ولم ألتفت من أولئك الذين ألفوا بأنفسهم وبأجسادهم ومصائرهم في أثون الرصاص فخر ما أدهشني الذين قررا كل منهم أن يتحول إلى ضحكة يرتدي قناعا ساخرا أو يرفع «أرجل إيدي وجعنتي» ويسير طوال اليوم في الميدان كأنها يقول «أنا نكتة» وقد خلقت من أجلك، فأتسم» البعض يحمل فكرة واحدة أو حزورة سياسية وجاء من أقصى المدينة كي يحكيها فقط كي يثبت وجهة نظر ما متحدا في سبيل ذلك ما لا يعلم، وهذا أب آخر أوقف أطفاله يحملون لافتة تهزأت على لوحات متجاورة تصرخ بجملته «هه وهذا ملتح عابس يدور في الميدان مع زوجته في سوادها» ويتكلم عن نفسه وعنهما، وهنا شباب يتسلق كل شيء الأعمدة والبنائات والألواح الخشبية ويبدو أحيانا يتسلق نفسه، والناس يسبون ويتدافعون يرفق دون معرفة لكن الألفة تظلل الميدان.

مع الغاز في سيارة الترحيلات

وفي عصر اليوم الأول كنا عشرين شابا وبنات لا نعرف بعضنا بعضا احتجزنا بين شراري قصر العيني ومنصور، وعندما حاصرنا البوليس من الناحيتين بدأ كل شيء ينتهي به وقال شباب «يعني كده خلاص؟ دنا جكي من حلوان» أجابه الآخر «أنا جيت من طنطا»، فأتسمنا، وعدنا للمناوشة وكان شعور الجميع أننا نريد إطالة هذا اليوم لأقصى مدى ممكن وفي اليوم التالي قلنا لنجعلها يومين، ثم قلنا لا نريد أن نكون مثل ١٨ و١٩ يناير فلنجعلها ثلاثة لا بل أربعة كيف أحسست مصر كلها أن اليوم الكبير «سيكون الجمعة ٢٨؟ وكيف نزل الناس يومها كي «يشيلوا مبارك» هكذا نجده، وكنا ما زلنا نفكر إلى أي مظاهرة نذهب حتى سمعنا المتهافت تحت البيت فنزلنا، وكنت أمتشي بصعوبة من آثار «العلفة» التي نلتها قبل يومين أثناء احتجائي، وكنت قد تعسست فأصبحت في أول المظاهرة وهناك هاجمونا، وفي





من وراء أسوار مقر الحزب، وبينما ترقّب المتظاهرون هجوم الجنود، انطلق الهجوم فجأة من أصحاب الزي المدني. هؤلاء ليسوا من البلطجية، بل من مباحث أمن الدولة المدربين على الاعتقال. القواعد القديمة تقول للمتظاهر ألا يقاوم إذا لم يستطع الهرب، وذلك تجنّبا للضرب المبرح. طاردني اثنان من المباحث وهربت منهما، وانخلع المعطف في يديهما. لكنّ ثالثا ظهر في مواجهتي مسدّدا لكمة مظلمة إلى عيني اليمنى. انكسرت النظارة في وجهي ووجدت نفسي على الأرض. تكوّمت متلقيا الركلات واللكمات. الأدرينالين حجب شعور الألم، ووجدت نفسي محمولا يعبرون بي إلى الناحية الأخرى من الطريق. الضرب مستمر أثناء سحلي إلى هناك، والأسئلة لا تتوقف: ماذا تعمل؟ أين تسكن؟ بين كل سؤال وآخر، لكمة أو ركلة أو سيّة.

بين سيارات البوليس المتراسة أجلسوا المحتجزين على الأرض منفردين، انتزعوا المحفظة واستولوا على بطاقة الهوية والهاتف المحمول. جاءت سيارة ميكروباص، نقلوني إليها بصحبة شرطي جالس أمامي، بينما تمددت منخفضا في آخر العربة. تحركت السيارة مخترقة حواجز حديدية خلف سور المتحف المصري. نظر إلي الشرطي بالملابس المدنية وفاجأني: ماذا بك؟ قلت: «عيني اليمنى». أزاح يدي ونظر في وجهي، ثم مارس فجأة دور الطبيب في السيارة الحالية إلا أنّي ومنه والسائق. وضع كفه على عيني اليمنى أولا، وسألني عن الرؤية، ثم رفع يده ووضعها على العين اليسرى، وسألني إن كنت أراه. «نعم أراك» أجبت. رفع يده وقال: «ما فيش حاجة!».

نزلنا من الميكروباص إلى ميكروباص آخر. وجدت هناك ليّنا وهالة وسامي. جلست في المقعد الأخير. انهمكت هالة وليّنا في تأنيب الضابط ودحض الحجج التي ردّ بها حتى انفجر: «أنا مرتّبي ٧٠٠ جنيه وعندي ثلاثة أطفال». أكد أنه ليس ضدنا، لكنّه يقوم بعمله.

تحرك الميكروباص مجددا بعدما انضم إلينا شابان صغيرا السن والحجم، عمرهما لا يتجاوز الثامنة عشرة ربّما. كانا خائفين ويبدو أنّهما اعتقلا عشوائيا. حاولنا طمأنتهما حتى هدأ قليلا. وعاد خوفهما عندما توقفنا أمام سيارة الاحتجاز الكبيرة، وأمرونا بالصعود. بقيت ليّنا وهالة في الأسفل، بينما صعدتُ وسامي والشابين إلى السيارة. للوهلة الأولى، بدت في الظلام فارغة، لكن اتضح أنّها عتمة الأجساد المتلاصقة. لا مكان للجلوس، بالكاد استطعت الوقوف عند أحد الشبايبك القليلة الصغيرة التي تشابكت قضبانها لتسمح بأقل تنفس ممكن. عندما تسرّب الغاز إلينا في الداخل، بدا أنّنا نموت. لم يكن معي منديل، فأعطاني أحد المحتجزين طرف شاله،

ووضع كلّ منّا طرفا من الشال على أنفه. انتشرت تعليمات التنفس: «ليس من الأنف، لا تدعك عينيك». بعد دقائق، تحركت السيارة، ودارت دورة وعادت إلى طرف الميدان. هذا الغاز، وبدأوا بإنزالنا واحدا واحدا. مررنا على ضابطين على التوالي، كان أحدهما مدير أمن القاهرة بنفسه. سألنا أسئلة قليلة، أعاد إلينا الهويات والهواتف. تحركت في طرف الميدان وأنا لا أرى شيئا من دون النظارة. وجدت يدا تمسك بذراعي. كان أحد الشبايب الصغيرين اللذين كانا معنا في الميكروباص. سألني: «مش محتاج حاجة؟ أوصلك حتة؟». شكرته. وإذا به يخرج ما في جيبه من جنيهات قليلة ويقول: «إحنا ممكن نقسمهم». ابتسمت، وعرفت لحظتها أن قنابل الغاز ليست المسيل الوحيد للدموع. لكن ذلك كله كان جميلا رغم كل شيء، كان ذلك قبل أيام الموت المرعب بالدهس والقنص والسحل، وبين هذا وذاك انتشرت في الحواري وعلى نوافذ البيوت صور الشهداء وهم لأول مرة شهداء الديمقراطية فلا احتلال هنا أو حرب، وكما استغرق الناس وقتا ليفهموا أنها ثورة استغرقوا وقتا أطول ليدركوا أن هؤلاء «شهداء»، وكانت ضجة قد ثارت قبل سنوات من أجل انتزاع اللقب المقدس لغرقى مراكب الهجرة غير الشرعية إلى أوروبا، ولم يعترض الناس كثيرا على أن موت المظلوم شهادة، لكن موت الثائر ما زال هنا تحت التقييم وما زال وجهة نظر، ويحكي لي خالد عن والد أحد الشهداء كان يركب سيارة أحد المحامين ويرفع على صدره صورة ابنه المكتوب فوقها الشهيد فلان، أوقف السيارة حاجز بوليس ليلي ودار الضابط حتى وقف أمام نافذة الأب وانحنى وسأله «وده بقى كان ببيلطج عند أنهي قسم؟»

كيف يتجاوز الآباء ليايهم؟ هذا سر الانسان، بالنسبة لي فقد قررت أن أضمّ شهداء ما بعد الثورة إلى أسلافهم، أضمّ شهداء ماسبيرو ومحمد محمود ومجلس الوزراء إلى شهداء ٢٨ يناير فكأنهم ماتوا جميعا في اليوم نفسه وبذا أستطيع أن أنام بالكاد لا أن أفرح، لا فرح سوى لجيل سيأتي لم يعرف الموتى ولم يصاحبهم ولم يذق معهم «عيش وملح»، لا فرح سوى عندما تنتهي هذه الدوامة الكبرى فيستيقظ الناس يوما كما استيقظنا عصر يوم ١٢ فبراير ففتحتنا النافذة وتطلعنا إلى الشارع والناس وتنفسنا الهواء بلا ديكتاتور.



من الثأر إلى طلب التغيير

جمال جبران

صحفي - محرر

المصفحة الثقافية في

جريدة «الثوري»

صنعاء

شاب من قبيلة هنية جاء إلى «ساحة التغيير» في صنعاء للاخذ بثأر ابن عم له سقط شهيدا في الساحة هل يغير ثورة التغيير أم تغيره؟ هذه قصته.

العاصمة صنعاء حاصلا عزيمته وسلاحه صنعاء التي صارت منطقة «مفتوحة للسلاح بعد أن كانت «مساحة» (مُحرّمة) في العصر القبلي ولا يجوز أخذ الشكر على جغرافيتها. لكن علي عبد الله صالح استطاع تخريب كل شيء حتى تلك الأعراف القبلية التي كانت تعمل - بشكل من الأشكال - في مضمونها مدنية من طراز رفيع ومتقدم يحمي حرمة

الشاب حمود ولم تكن يوما ضمن برنامجه اليومي قبل أن يسقط ابن عمه الوحيد والطالب في جامعة صنعاء شهيدا في الأيام الأولى من الثورة فقدم إلى صنعاء من أجل الأخذ بثأر ابن عمه تلبية لنداء الواجب القبلي الذي لا يتسامح أبدا مع دماء الأكراب المعتدى عليهم أو يتركها تذهب هدرًا خدم إلى

«لقد أخذنا جائزة نوبل للسلام»، قالها حمود الشاب القبلي الثائر المقيم في خيمة اعتصامه في «ساحة التغيير» أمام جامعة صنعاء منذ نحو تسعة أشهر. لم يقادر خدمته إلا للخروج في مسيرة احتجاجية أو للدفاع عن الساحة عندما كانت قوات نظام علي عبد الله صالح تقوم بتنفيذ عملية هجوم جديدة.

لم تكن السياسة أو الثورة في ياله أو تفكير



الأنفس في ظروف معينة. لقد سمح علي عبد الله صالح بكل شيء ولم تعد لأي حركة حصانة من أي نوع.

قال له: «سلمية، سلمية»

لكن حمود الذي توجه الى المكان الذي سقط فيه ابن عمه شهيدا في «ساحة التغيير» وجد عندما وصل الى هناك صعوبة في دخولها بسلاحه فهذه منطقة منزوعة السلاح ، بحسب ما أخبره أحد الشباب الواقفين في أحد مداخل الساحة لحمايتها من أي اختراق وقال له «سلمية، سلمية».

كان هؤلاء الشباب يعرفون أن إصلاح ما قام علي عبد الله صالح بتخريبه وتدمير طوال سنوات حكمه لن يكون سهلا فهي مهمة تحتاج لوقت وجهد كبيرين. لكن لتكن البداية من المفردات. لا تصح الاستهانة بقوة المفردات وقدرتها على التغيير. استهانة موازية لما كان يقال عن «الساحة» عند بدايتها بعدد قليل من الشباب. أخبروا صالح أنهم «شوية عيال» سرعان ما سوف يزهقون سريعا من اللعبة ومن ثم يعودون الى قاعاتهم الدراسية. لكن «شوية العيال» هؤلاء نجحوا في زلزلة الأرض تحت اقدام النظام.

«سلمية سلمية»، لم يفهم حمود هذه المفردة للمرة الأولى ولم يكن مستعدا لإلقاء سلاحه ، لكن كان لابد له من الدخول الى الساحة فهناك يقيم ثأره المنتظر. ركن سلاحه في جهة ما ودخل. اعتقد أن مسألة الرجوع إليه وإدخاله لن يكون غير مسألة وقت فلا شيء يستحيل فعله على الناس هنا في ظل وضع منفلت. لكنه لم يكن يعرف أنه لن يعود الى قطعة سلاحه مرة أخرى.

ولما صار في الساحة، أصبح حمود في المكان الذي اعتقد انه سيكون ارض المعركة المرتقبة والتي يفترض أن يخوضها من اجل استعادة شرف

القبيلة وبالتالي رفع راية كرامتها عاليا مرة أخرى.

لكن أين القاتل! أو الهدف! سيعرف لاحقا ان الرصاصة التي اختارت رأس ابن عمه كي تستقر فيه جاءت من بندقية قناصة ملثم اتخذ لنفسه إحدى البنايات المطلة على الساحة كي يقوم بممارسة هوايته في القتل من جهة وتنفيذ أوامر ساداته الكبار من جهة أخرى.

كيف أمسك بثأري! قال حمود لنفسه وهو يخبرنا عن أيامه الأولى في الساحة. نظر الى الأمر من كل ناحية وجهة وفكر مليا فوجد استحالة المهمة، استحالة توازي مسألة عودته الى القرية من غير تحقيق نجاح مهمته. فمن غير الإمساك بثأره لن تكون هناك من عودة وهذا أمر مفروغ منه، فكيف يعود ويقابل أهل القبيلة وهو لم يأخذ بثأر ابن عمه بعد.

هو البقاء إذا، والبقاء سيتطلب أياما قد تطول ولا احد يعرف كم ستطول، الأمر مفتوح على مصراعيه. لكن كانت هناك مشكلة أخرى، فكيف سيقدّر هذا القبيلي الشاب على التأقلم مع كل هؤلاء الغرباء المتواجدين في الساحة وكيف سيقدّر على التأقلم مع عاداتهم ونمط حياتهم وهو القادم من ريف بسيط – هذا قبل أن تنضم القبائل الى الثورة – لا يعرف كل هذه التفاصيل المعقدة.

لم يكن يعرف أنه لن يقيم هناك فقط بل سيتحول مع الوقت الى مواطن فاعل في هذه الدائرة التي ستمدّد مع الوقت لتصبح مدينة داخل مدينة.

كما لم يكن يعرف أنه سوف يدخل في «مختبر إنساني» سيعمل على تغيير نظره للحياة والأشياء والمفاهيم الصغيرة التي كانت راسخة في أعماقه وهو يرى الجميع في القبيلة يسيرون عليها كدستور حياة ومنهج لا يقبل

القفز عليه أو تجاوزه أو اختراقه بأي حال من الأحوال.

«سلمية، سلمية»، إنها كلمة السر التي بواسطتها سيتم اختراق وعيه القبلي الراسخ وتحويل دفته باتجاه مغاير تماما.

مختبر جامعة صنعاء

بداية كانت صعوبة التعامل مع مجتمع شبابي جامعي مدني يرتدي اغلبهم ملابس «إفريقية» وملابس رياضية وقت لعب الكرة في الساحة ويمارسون طوال اليوم عادات غريبة عليه لم يألّفها أبدا في محيطه القروي البسيط. لم يكن هذا سهلا عليه أبدا. لكنه ومع الوقت ومع الفعل الثوري وجد انه كل هذه عبارة عن تفاصيل صغيرة لا أهمية لها وهو يتابع الشباب بشكل يومي ما أدخله في عمق البيئة الاجتماعية الجديدة التي تشكلت في «ساحة التغيير»، ومن بعده هذا الخليط الاجتماعي الكبير الذي وجده في مكون واحد بلا فوارق أو طبقات؛ شباب جامعة قدموا الى جامعة صنعاء من كل محافظات اليمن، جماعة من الحراك الجنوبي، شباب جامعة الحوثي، شباب حزب التجمع اليمني للإصلاح، شباب من قبائل كانت الى ما قبل الثورة لا تلتقي في مكان واحد إلا والرصاص ناطق رسمي بإسمها من اجل تصفية ثارات قديمة. كل هؤلاء تجمعوا في ساحة واحدة وفي رأسهم هم واحد هو التخلص من نظام علي عبد الله صالح والتفرغ بعد ذلك لبناء حياتهم من جديد، حياة اليمن القائمة على مواطنة متساوية ودولة نظام وقانون على عكس تلك اليمن التي نجح نظام صالح في تدمير بنيتها الاجتماعية والثقافية كما القبيلة من خلال تعامله مع اليمن كخصم يريد النيل منه بأي شكل من الأشكال.

لكن اللحظات التي حفرت عميقاً في ببال الشباب حمود وعملت على تحريك فكرة الأخذ بالثأر عن طريق استخدام السلاح من تفكيره هي تلك اللحظات التي كانت القوات المسلحة التابعة لنظام علي عبد الله صالح تهجم فيها على الساحة باستخدام الذخيرة الحية والغازات السامة المحرمة دولياً بهدف إنهاء الاعتصام وتفكيك «ساحة التعبير» في تلك اللحظات التي تكررت كثيراً وسقط فيها عشرات الشهداء من الشباب كان حمود يعد نفسه في وضعية تشبه حالة مريض بالإيمان وصار عليه أن يتناول جرعة اللازمة كي تخفف من الآلام الربوية التي يعاني منها جسده جرّاء انتهاء مفعول الجرعة الفائتة كان حمود وقتها بحاجة إلى سلاح، ينظر إلى كل ذلك الرصاص المنهمر على الساحة وعلى الرفاق وينظر إلى يديه فيجدهما خاليتين من «سلاح» سلاحه الذي ركنه في مكان آمن على مقربة من الساحة وتركه هناك بعد أن رفض الشباب القانونيون على مداخل الساحة إدخاله ينظر إلى يديه بلا حول أو قوة والشباب يتساقطون ما بين شهيد وجريح في أرجاء واسعة من المكان «ما كل هذا العجز» يقول لنفسه، «ماذا يقول عني الأهل في القرية لو علموا الحالة التي أنا عليها الآن يا عماري الكبير» يتحدث حمود مستذكراً تلك اللحظات وعلى وجهه ابتسامة خفيفة كأنه يسخر من نفسه أنه قالها في يوم ما.

بالصدور العارية

«كنت أرى شباب القبائل، أمثال» شباب قبائل ينهم تسارح قديمة جداً وهم يتقدمون معاً خطوة خطوة ويصدور عارية صوب الزوايا التي ينهم منها الرصاص وهم يهتفون «سلمية، سلمية» وهم شباب خبروا

الشباب لم يكونوا خائفين وهم ينظرون لرفاقهم يتساقطون واحداً تلو الآخر.

السلاح مثلي ونشأوا معه وكبروا، تعلموا الفحص والملاقي الرصاص قبل أن يتعلموا القراءة والكتابة في مدارس تحفيظ القرآن، تمكّنوا من السلاح بالتوازي مع تمكّنهم من السبر على الأرض، فما الفارق بيني وبينهم وكيف أترجع أنا لاسترداد قطعة سلاحهم هنا تايوتن أسام رصاصات لا تفارق بين قبلي ومثلي وطالب جامعة وعامل بالأجرة اليومية»

ويستطرد حمود متذكراً «في مرة واحدة سقط منا نحو ٣٠ شاباً معظمهم طلبة جامعة حصل هذا في مدة لم تتجاوز النصف ساعة وكان الرصاص يسقط علينا من بنايات عالية تمركز عليها قناصه لكن المدعش والإعجائزي أن الشباب لم يكونوا خائفين أبداً وهم ينظرون لرفاقهم يتساقطون واحداً تلو الآخر يل كلوا يتقدمون إلى الأماكن التي كانت تخرج منها الطلقات واستطاعوا التقدم نحوها ونجحوا في القبض على عدد من القناصة في حين فر البقية وهذه حادثة ما كنت لأهملها لولا أنني رأيتها بعيني وكنت شاهداً عليها»

الحق لا الشأر

من هذه اللحظة عرف حمود معنى تلك الكلمة التي كان يسميها تردد مع كل هجوم «سلمية» عرف معنى أن السلاح قد لا يكون حلاً في كل الأحوال وأن رد العنف بعنف مقابل لن يؤدي إلا إلى مزيد من العنف والقتل وضياع الحقوق واستمرار علي عبد الله صالح في الحكم، ما كان يبحث عنه هو أن يجذب القبائل لساحة استخدام السلاح

وتحويل الثورة إلى مجرد تمرد شعبي مسلح ضد النظام يعطيه الحق في قمعها باستخدام السلاح، «هذا ما كان يبحث عنه لكنه فشل تماماً في ذلك»

ولا ينكر حمود هنا فضل رفاقه الشباب المتواجدين في الساحة منذ أيام الثورة الأولى وهم متعلمون أكثر منه وعلى مستويات ثقافية جيدة، ولولا النقاشات اليومية والمحاضرات والندوات التي كانت تتم في الساحة إضافة إلى تلك الهجمات المسلحة التي كان شاهداً عليها لم يكن ليصل لهذه القناعات الجديدة التي صار يمتلكها.

ليوم،

لا يزال حمود في الساحة لا يعترف بالتسويات السياسية التي حصلت وإعلان تنحي صالح عن الحكم في مقابل منحه ومعاونته حصانة تحميه من أي ملاحقات قضائية على جرائمه التي اقترعها في حق الشباب إضافة لجرائمه السابقة.

ونسأله إلى متى يمكن أن تبقى في الساحة معتصماً؟ فيجيب مبكثراً: «إلى أن نأخذ حق رفاقنا الذين سقطوا يرصاص علي عبد الله صالح ولم يطلقوا حمله رصاصاً واحداً»

... ولو بقيت يدان وحيدتان تصفّقان للحياة!

كتبت بشرى المقطري هذا النصّ في الذكرى الأولى لانطلاقة الثورة اليمنية. تعرضت بسببه لحملة تكفير ودعوات لسحب جنسيتها وإقامة الحدّ عليها. وقامت في المقابل حملة واسعة للتضامن معها في اليمن والعالم العربي والعالم. نشر النص هنا لأن بشرى خصّتنا به وتكرارا لتضامننا معها.

معادلة بائسة لناهبي الثروات ومشعلي الحرائق، هذه المدينة التي تنمو في دمي كغيمة متفتحة كلما استكنت في ظل العزلة. وألمني الدمار الذي يلتف حولي، لقد قوّضوا فيها كل شيء، ولم يعد فيها سوى جبال من النفايات ومنازل مهدمة ومعطوبي ثورة، ونواح في كل بيت، حياة متعبة لكنها تتسع للكون لأن في نبضها: شباب التصعيد الثوري.. شباب الحياة.

٣ • في العشرين من ديسمبر. قرر هؤلاء الشباب. الشباب المندس، الشباب المنقلت من قيد الأحزاب العفنة، المعفّرة وجوههم في الشمس والذين يجوبون المدينة في مسيرات يومية سلمية تتصدرهم سيارة ربع سوداء، للعزيز الرفيق، محمد صبر، قرروا أن يشقوا مسارات الرمل والحصى مشيا على الأقدام إلى صنعاء. لم أكن استوعب في عقلي المتواضع هذه المسيرة الجنونية وكنت كغيري أجزم بأننا لن نصمد وأن آلة القتل ستعترضنا في أي زقاق، خاصة وأن الأحزاب لم تكن راضية

لتأتي بعد ذلك القبيلة والرأس الواحد ليقطف ثمارها، ويكتبه حسب إرادة المنتصر وليسقط مشروع الدولة المدنية ولينتكس الحلم. ها أنا اليوم أشعر بحزنهم وبخيبتهم، وقد تحايل على ثورتهم لصوص الثورات. وهاهو النظام اليمني «القديم» يعيد إنتاج نفسه في دائرة حلزونية لا فكاك منها.

٢ • في عز التي خلّفتها ورائي كجرح مفتوح، المدينة التي خرجت من صيرورة العماء لتشق طريقها في ليل الحديد والنار، لينادي أبنائها بفجر جديد ليس فيه دكتاتور البلاد الحزينة، هذه المدينة التي تضمخت سماءها بالدماء: أكثر من ألف شهيد مدني ومسلح، وقوافل من النساء الشهيدات، وأكثر من ثلاثة آلاف جريح، وأكثر من ثلاثمائة أسرة نازحة، المدينة الوحيدة التي أحرقت ساحاتها وجرفت جثث أبنائها وسحلت في ميادين الحرية، المدينة التي غزاها «هولاكو» ليذمر وجهها الحبيب، المدينة التي رفضت أن تكون محطة ترانزيت لصراعات العسكر وجنرالات الحرب، وأن تكون

١ • لا تكفي النوايا الطيبة لتصنع ثورة بيضاء كما كنت أعتقد، لا تكفي أحلامك التي خرجت من أجلها لتعلن صرختك أنت والشباب الطيبين: «الشعب يريد إسقاط النظام». وبعد عشرة أشهر ما زال هذا الشعار كالكسكين يتجول في حلوقنا، ولم نعد نعرف كيف نصرخ ليسمعنا العالم، لأن زوابعنا الرعدية لم تتخط حدود الفنجان. أدرب لساني الآن على الصراخ وأنا اتجه إلى عدن عليّ استطيع استعادة جذوة البداية، ووهج الأحلام التي لا تنطفئ.

لكن التاريخ لا يعيد نفسه، إلا بشكل ملهاة أو مأساة، وها نحن نعيش جزءا من تراجيديا النزاع الأخير، تراجيديا حتمية التخب السياسية والقبلية والعسكر والدين، تحالف التخلف في بلادنا، لكن ألا يحق لنا أن ننسأل لماذا الثورات في بلادنا تنتهي إلى تسويات سياسية مريعة؟ وهل علينا أن نتقبل هذا المصير الحتمي؟ أتذكر الآن خيبة آبائنا وأجدادنا، وأدبائنا ومثقفينا بعد ثورة ٢٦ سبتمبر، نضالهم الطويل ليسقطوا نظام الإمامة،



ولم تكن هناك أبسط الضروريات موجودة. كنت أقف وأنظر للسحاب وهم يحرقون الأشجار حتى يتدفقا من البرد الفارص الذي كان قد وصل إلى أقصى درجاته كان ليلا طويلا، ليلا حزينا ودامية كنت ارتجف حتى أقصاي من البرد والوحشة، وعيون لا ترحم تطل من بعيد، العسكر والقبائل والبيئة المعادية، والله الذي لا يرانم.

٥ • بعد ليل خدير الدامي نهض السحاب باكرا وتأيموا مشيهم الحنيث، وإن لم يبق كثير منهم من هول ما تعرضوا له في ذلك اليوم لكن إصرارهم العنيد على الوصول إلى صنعاء ودخولها في النهار كانت أقوى من كل السدائد أميال من الخطي اللاهنة، أميال من الأسفل المنجلي ها هي النورة تحيي من جديد، كأن مشهدا سرياليا، لن تستطيع عينك حصر الأفق، كأنك بشربة من كل المدن اختلطت لهجاتها، بأحلامها يعرفها بتعبها، بأفكارها عن النورة، كأن انصهارا لكل الفروق المناطقية والطبقية والطائفية، وعلى أعتاب صنعاء كانت القرى والأهالي وحتى قباب المآذن، وأسقف البيوت الطينية

لائي كنت من حين للآخر أعبر صحراء رأسي ولا أجد سوى خوف ناء يطل بعينه كلما اقتربنا من صنعاء.

٤ • كانت الأمور كلها طيبة «لدة طيبة ورب شكور» لكن الأمور لم تعد طيبة، والرب الشكور لم يعد حاضرًا في ليل خدارم تركنا الرب نتدير أمورنا، ولم نستطع أن نفعل شيئًا أمام عجزنا البشري، يك كم أكره هذه المنطقة لما تبقى من حياتي العدا الذي كان موجهاً البناء تهديدات الحرس الجمهوري وشتائمهم عنجهية العسكر والقناصة المتمرسين في رأس الجبل قبائل متعطشة للمكنا وتنتظر الإشارة، الليل مظلم ولا نستطيع رؤية أقدامنا وملايين من السحاب يناب صوقية لا تقي من البرد في السوارع وفي الوهاد أقدامهم شققها المشي حالات إغماء وتعبه لكن قبائل المنطقة لم تسمح لهم بالمبيت هنا القبيلة تعتبر مرة أخرى عن غريزتها الوحشية قبائل النظام المتهاوي مازلت أذكر صوت الرجل في الميكروفون وهو يستجدي إمام المسجد، ويستحلفه بكل أنبياء الله والصالحين أن يفتح له للسحاب لينمواد النساء اتجهن إلى المدرسة

عن مسيرة ستقلب طاولة الرهائنات السياسية على لاعبيها، انحرث معهم تسوقني متعة الكاتب لأن يرى بعينه ما سيحدث، كنت أنفاد بؤله أعمى إلى «مسيرة الحياة» وكان الأمر في مخيلتي أشبه برحلة أسطورية قديمة قطعها الأبناء في أيام النضال السري وكننت أكتب حتى أفقد متعة الكتابة واتجاهزها إلى متعة النظر الحسي وأنا أفوق بعين مغمضة مشاهد الطبيعة الجبال والوديان وقباب الشمس، وأرى النساء والسحاب يمشون بعضهم إلى جوار بعض في مشهد مدني لم تعهده هذه البلاد في تاريخها ستة أيام من القبط تم ستة أيام من البرد ستة أيام من الحلم ستة أيام من الجنون مازلت أذكر مشهد وصولنا إلى ذمار، والقبائل تحيئنا، ولم أكن قد عاينت القبائل أبداً دائماً ترعيني ملامحهم وصوت الرصاص كانوا يحتفلون بنا على طريقتهم البسيطة، والنساء يحجن حولنا كأن عرساً من أعراسهم البدائية لكنني كنت مفتونة بطقوس الترحاب القبلية هذه «مفتونة بهذه الطريقة البسيطة بالتعبير عن امتنانهم لنا» وكنت جذا ممتنة لهم وللعالم، والله وللطرفات، وللحصى، وللبرن ممتنة

١ يحجزه كدة شارع محلي بزمون.

٢ خدار منطقة تعمد عن معاد ٧٥ كيلومتر كانت أكثر مريحة صافية لسمرة لحيلا.



تلوح لنا بشعارات الثورة، شعارات تخص تعزّ الحبيبة، تعز بهية المدائن، كانت المشاعر الدافئة تكتس ما علق في أرواحنا من غبن، وتغسل كإسفنجة كل مشقات المسير، كانت المسيرة الراجلة مهرجانا حقيقيا للحياة، كرنفالا بشريا ثوريا لانتصار كل قيم المدنية والحب والتسامح والإخاء التي شوهته الحروب والصراعات وقبائل الفيد وكهنة الدين في وعينا، وأنت ترى الحشد المليونى لن تصدق أن هذه الفكرة المجنونة «فكرة الحياة» تدرجت مثل كرة الثلج ولم يستطع أحد إيقافها، لا النظام المرتعد من هول ما رآه ولا قادة «اللقاء المشترك»^٣ الخائفون من الجنون التعزّي القادم.

٦٠ في دار سلم؛ حدثت المصيدة، وحتى الآن وأنا أخوض رأسي لأسابيع وأتذكر ذلك النهار الحائر، لحظة، لحظة، وأشعر بأن ما جرى، لم استطع استيعابه. قبل وصولنا دار سلم، جاء أحد المفاوضين من ساحة صنعاء وأخبرني بأنه لا بد أن نتجه إلى شارع خولان، لأن الطرق غير آمنة وكنت معتادة على تهديدات كهذه، أخبرته بأني مشاركة في المسيرة وليس لدي سلطة حتى على نفسي. بعد ربع ساعة، أظلمت السماء بقنابل الغاز وكنت كغيري مصابة بين مصابين، ثم انهمر وأبل الرصاص من كل صوب، سقط عشرات الشهداء، وكانت مسيرة قادمة من صنعاء في اتجاهنا، وأرادوا تفريقها، وفجأة توقف الرصاص وصرخوا «أجروا». لقد فك الحصار، أي حصار هذا الذي فك فجأة؟ ومن كان يحاصر من؟ حتى الآن لم أفهم؟ وكيف كان الحرس الذين يقتلوننا قبل وقت، يلوحون لنا من بعيد. أحتاج لكتيبة من المحللين السياسيين يقتعون رأسي البليد بما حدث في

لم تستطع أن تبكي أمامهم لأنك مقهور، لأن الله خذلك، لأنك قطعت ٢٥٦ كيلومترا من الحنين إلى صنعاء.

دار سلم؟! لكن ورغم المذبحة كانت الجموع تهدر تريد «ميدان السبعين»، تريد لذلك الطاغية الذي منحه السياسيون الحصانة أن ينتزع من عرشه الطاووسي إلى أقرب مزبلة. كان العقل الجمعي هو سيد الموقف، حالة من اللاوعي الأعمى الصادق وهو يعبر عن مسارات الثورة الحقيقية، حالة من الحمى، حالة من الجنون الغاضب، صرخة واحد مدوية، هادرة كطوفان الماء ستظل تتردد في أعماقي حتى يوم الدينونة: «السبعين».

٧٠ لكن رب السبعين كان محجوبا بعباءة السفير الأمريكي، وبتصريحات السياسيين المرتعدين، وبابتهاالات قادة «المشترك» الذين أفزعتهم هذه الجموع المزمجرة وأخرجتهم عن كل لياقة سياسية، بعد مذبحة دار سلم تفرقت أيدي سبأ. البعض اتجه ركضا إلى «ساحة التغيير»، والبعض اعتصم في «جولة ٥٤». وهناك أيضا لم يرحمهم القنلة، قنابل الغاز والرصاص كانت في انتظارهم وسقط عديد من الشهداء. لم أدخل «ساحة التغيير» احتجاجا على ممارسات بعض قوي الثورة التي استقبلت الشباب بالضرب والاعتداء والتحريرض المناطق القبيح. وصلت بيت رفيقتي هالة القرشي، الساعة الحادية عشرة. كان يوما شافا ومروعا، يوما دمويا، يوما تفجرت فيه حلوقنا من البكاء لأننا شعرنا بمذاق الإهانة جليا كالملاح في الجراح المتقيحة من ألم

المشي، كالشوك حينما ينغرس عميقا في لحمك الطري المتوجع وحينما لم تستطع أن تبكي أمامهم لأنك مقهور، لأن الله خذلك، لأنك قطعت ٢٥٦ كيلومترا من الحنين إلى صنعاء وفي رأسك تلمع الأحلام المتوهجة كسنابل قمح، ثم فجأة ينتهي كل شيء.. يتلاشى كسراب ويبقى قلبك المخلوع وحيدا في الفراغ..

٨٠ المسيرة حركت طحلب الماء الآسن من أشهر، من قبل توقيع «المبادرة الخليجية». أعادت لأصحاب الحق حقهم، أعادت «معنويا» الثورة للشعب. ولذلك هي أفزعت العالم الداخلي والخارجي، وأفزعنتي أيضا صرخة الشعب حينما يتجرد من سياط السياسة ومن لعبة التوازنات؟ أفزعني الهدير الصاخب لأكثر المشاعر نبلا وديمومة. أفزعني المشي المحموم ليسطر بالخطي ما لم تقدر على كتابته حتى الآن عبقرية دون كيخوته ونحن نطارذ طواحين الهراء السياسي. وعندما لم يستطع بعض كهنة «المشترك» المتدينين وبعض أذئاب علي عبدالله صالح تفريغ هذه المسيرة من روحها. بدأوا بشن حملات على القائمين والمشاركين في المسيرة، حملات تشهير، واعتداء وتهديد، وتخوين، وتحريض، بل وصلت «الديماغوجية» ببعضهم أن اتهمنا بالعمالة الأجنبية لإيران نعمل لاسقاط «المبادرة»، والحصول على أموال طائلة. تصوروا «إيران» و«الحوشية» هذه التهمة التي يلصقها كهنة الدين الجديد على كل من يخالفهم في الرأي، وهم يكررون اسطوانة نظام صالح. لم يرعيني هذا العهر السياسي المروع، لأنني أدرك أن هذه المسيرة هزت أبراجهم العفنة، لأنهم أدركوا بأن هناك شعبا جبارا

٣ «اللقاء المشترك» هو تحالف احزاب وشخصيات المعارضة الاسلامية والقومية واليسارية.

٤ جولة دار سلم: في مدخل مدينة صنعاء.

خارج المعادلة السياسية، ويستطيع هذا الشعب أن يحطم قيود الارتهاق السياسي.

● ٩٩ لكني ورغم هذه المسيرة الرائعة أشعر بخيبة كبيرة بحجم الله تتربع فوق صدري، خيبة الكئاب عندما تؤول أحلامه البسيطة إلى هباء اتجهت إلى عدن عليني أتخفف من كل الخيبات المتراكمة، عدن التي تخرج دائماً من فاع روحي كلما ألت بي النواب، المدينة التي تمنحني توازناً قيريقياً حائلة المدينة التي يمكن أن ترى الله في بحرها وحيداً بطل عليك، طيباً ومتسامحاً، سترى الله في ضحكات الصبيكين، وستسمع في صوت امرأة عدنبة وهي تضحك للعالم ملوحة للمارة بأن الحبة ما زالت بخير، سترى الله حياً في كل ما حولك، من صراخ الباعة لسجار الأولاد، لرائحة العود العدني، لزرق البحر اللانهائية.

● ١٠ لكنك إذا فتحت عينيك جيداً سترى عدن أخرى تشكلت وفق اشتغالات السياسة، وحسابات الريح والحساسة، سترى الأعلام الجنوبية ترفرف في واجهات البيوت والمحلات والشوارع والأزقة «ترفع يا استعماراً» ليخرج الشماليين من مدينتك، «الجنوب الحر ينكدهكم» الجنوب العربي، «حب الجنوب يجمعنا» كنت أجوب عيني مذهولة من حملة الأعلام ومن الجنوب الذي قسمته الحروب والأحقاد وصراعات الزعماء، التاريخية الفارغة الجميع يتحدث باسم الجنوب، وكل يرى بعينه حلاً لقضية الجنوب، ما بين «العدالة» و«فك الارتباط» و«حضر موت الكبرى» شعارات كثيرة لم استطع حصرها لكن رأيت جيلاً رائعاً من شباب الجنوب خالفاً من أمراض الماضي.





وصراعاته، سيحقق صيرورته الفكرية والروحية وسيقرر مصيره بأفكاره حتى وإن مازال صوته خافتاً.

● ١١ وكانت هناك عدن أخرى عدن الموجة السلفية الجديدة، كنت أرى الوهابيين الجدد، يتدون لحاضرة عدن ملوتين هواء البحر وسكينة الروح العدنية الجميلة هائم بخرجون من كهوف الظلام، تجار الدين والموت والخراب، كأن هناك حضور لاقت للسلفيين وهو ما يهدد بنية عدن الثقافية وتسامحها، كان هذا الوهابي «الطائري» يغزو عدن وسترى في عينيك «الشعب يريد تحكيم شرع الله» و«الموت لأعداء الله» وسترى أيضاً في الأسواق الموصفات الدينية التي هي صنيعة سعودية بامتياز، هذه السلفية الجديدة التي تبرز الآن بشكل جلي أيضاً في تعز وفي غيرها من المدن هي الخطر الحقيقي الذي علينا تجنبه، لأنها تهدد سلامة الحياة برمتها، سلامة التنوع، والاختلاف، ومحاولة تصدير حرب طائفية جديدة، واستنساخ التجربة الباغية للعراق.

● ١٢ في الشمال تدخل النورة شهرها الحادي عشر، وفي عدن لم يعد هناك من ثورة، فقط في «كرتر» التي زرتها برقرف علم وحيد وشاحبه ترى لماذا لم تستمر الثورة في عدن؟ لماذا صراخنا الحزين لم يصل إليهم؟ أدرك أن البعض يعتقد أن ناهبي عدن ومفتي استباحتها في ٩٤ هم اليوم واجهة الثورة، هم تحالف النظام القديم، نظام علي عبدالله صالح الذي حكمنا منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وأن هذا النظام «القديم الجديد» يعيد إنتاج نفسه لأنه لم يخرج من أرضية الفساد يعده وأن «سلاطين الأموال وجنرالات الحرب اعتلت الثورة، وأن المباشرة لم

تقدم شيئاً للمقتلة والمفسدين وناهبي الأموال سوى تخريج جميل للمهرب لكنني اعتقد أن أبناء عدن وغيرهم من المدنيين هم التوازن الحقيقي لمشروع الدولة المدنية القادمة وحتى لا تهددنا أوهام الخلافة الإسلامية.

● ١٣ كان علي أن أؤكد حكيم الزمن الأخير، أبو الرقائي الطيبين الأستاذ علي مقبل عبده، رجل الحلول الصعبة والمستعيلة، الرجل الذي تنكسر الأمواج عند قدميه كصخرة زرقاء في بيته الكائن «في خور مكسر» بيت متواضع تكسوه الألفه والحبه احترم صمته المهيب وأنا ها هم يخرجون من كهوف الظلام، تجار الدين والموت والخراب.

أحاصره بأسئلتي البلهاء: عن اليسار والنورة والنظام، والسبب، محاولة نيش ذاكرته المتعبة، وكان يلجمني بحكمته كلمات كحد السكينة، حكمة من نجده نحن الرقائي الذين لم ننح من ركام طواحين التواريخ والبله كانت خبيته أكبر من خبيتي وهو يتحدث عن لصوص النورة؟ وعن النظام؟ والمباشرة؟ وعن أين المصلوية التي لم ينتبه إليها أحد في كلماته جراح عميقة لم استطع أن أرم كوايسهه كانت حكمته الرائعة ليفس هذه النورة من فوق جبل الملك «حينما تعرفون أين تضعون أقدامكم وتكونون أحرار في خياركم ستستعيدون الثورة من اللصوص».

هذا الحكيم الطيب بسنواته السبعين يعينيه التقنيين المكتظين بالأحداث بثيابه البسيطة التي تشبه سمو روحه بلخص مفارقات ثورته، ومفارقات الحزب الاشتراكي اليمني الذي يتخط

الآن كفاطرة خدية ويجز خلفه ملايين من الرقائي الطيبين الخزان.

● ١٤ في الطريق إلى تعز، كانت الأعلام الجنوبية تودعنا، وشعارات السلفيين، وكنت أفكر بمدىتي، تعز الحبيبة الملتفة بأوردتي أفكر بها وبأبنائها الطيبين هؤلاء الذين عليهم أن يحموا تراث الوطن وأحقاقه على ظهورهم كصخرة سيزيف فقط ليستوا للجميع آدميتهم حتى لو تأكلت جلود أقدامهم في مسيرات تطالب بحق الحياة، حتى لو تيسست شغافهم وهم يمشون «الصف ووحدة الصف» كم أنا حزينة من أجلهم لأنهم لا يدركون أن هذا الواقع الطحلي الجديد لن يتشكل وفق أحلامهم لأن نظام صالح سيتحالف مع القوى التقليدية في نظام ما بعد صالح سيتحالف أيضاً مع السلفية الجديدة التي تنهب الآن عدن ليستج نظام الكوارث والأزمات وحروب الطوائف و«مبغى أبناء تعز المدنيون خارج التاريخ الوافي في تاريخ افتراضي فابسيوكي يشهدون فيه أحلامهم، لكنني اعتقد أن علينا جميعاً أن ندرك بأننا مازلنا في كراسي المدرسة، في سنة أولى ثورة، لنتعلم من كل أخطائنا ونستوعب تناقضات واقع الثورة الجديدة، ولا نستكين للأنظمة الجديدة القديمة المتحالفة على سحقه أنظمة الفساد التي رباها صالح وكهنة الدين السياسي فهنا الوطن يحتاج إلى ثورات عديدة لذلك أسس التحالف والاقتصاد والوصاية وثاليس ثقافة مدنية تعددية متسامحة بعيداً عن فتاوى الوعظ والإرشاد نستطيع ذلك حتماً حتى لو بقيت فقط يدان وحيدتان تصفغان للحياة في ليل خدار.

• علي صالح عبد
على قناة العرب
الأمري في طوكيو
حزب من حزب
٢٠٠٢ إلى ٢٠٠٢
بعضية الحكيمة
تعرض في حياته
الصالحية للصين
والغيب لله عل
خدا ومادى وجداد.

سلمية سلمية ضد القتل

محمد دحنون

صحافي وناشط
من سورية.

«..اللاعنف طريقنا ونؤكد عليه، ونؤكد أيضا أننا سنبنّي سوريتي بالحب، ولا مكان للحقد ولا للحاقدين بيننا»
(أحمد مولود الطيار. من محاضرة بعنوان «حول النضال اللاعنفي». منتدى جمال الأتاسي، دمشق).

مجموعة شباب داريا

في المسافة الفاصلة بين المتظاهرين ورجال الأمن والجيش. المسافة التي لا تُقاس بالأمتار فحسب. سار الشاب الذي لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره: حمل عبوات مياه تُبثت إليها ورود ووضعها قريبا من رجال النظام. لم يكن الشاب الذي سيغدو أحد رموز الثورة في سوريا اليوم ابن مدرسة في الكفاح السلمي. كان ناشطا في تنظيم التظاهرات والمشاركة بها في مدينته داريا (٨ كلم جنوب غرب دمشق). سيعتقل الشاب في السادس من أيلول مع صديقه يحيى الشربجي خلال كمين نصبته لهما القوى الأمنية. بعد ثلاثة أيام، يعود غيثا مطر جثة هامة إلى أهله. جثة تنقصها حنجرة! يحيى الشربجي (٣٣ عاما)،

الذي مازال معتقلا حتى اليوم، كان أحد أعضاء ما عُرف بـ «مجموعة شباب داريا»، المجموعة التي تستلهم فكريا إسلاميا لاعنفيا، يعتبر الشيخ جودت سعيد واحدا من أهم المنظرين له. نشطت المجموعة بين عامي ١٩٨٩ و ٢٠٠٣، ضمن محيطها الاجتماعي. وتمثل نشاطها بحملات توعية ضد التدخين والرشوة، كما قامت بحملات لتنظيف الشوارع. تعرّض يحيى الشربجي، مع أحد عشر شابا آخرين، للاعتقال على خلفية هذه النشاطات، واستمر اعتقاله قرابة العامين ونصف العام قضاها في أقبية الأمن السورية (من صفحة «الحرية ليحيى الشربجي» على موقع الفايسبوك).

يوضّح أسامة نصّار، وهو من أصدقاء يحيى الشربجي الذين شاركوه تجربة الاعتقال في العام ٢٠٠٣، أحد الأسس التي يقوم عليها مفهوم المجموعة للنضال السلمي (نحن نضع القوانين ونلتزم بها. وليس من الصحيح أن نكون مرآة لعداوة الطرف الآخر. إن فقدوا الأخلاق والمبادئ والعقل فسنبقى ملتزمين بأخلاقنا ومبادئنا وعقلنا) (من لقاء للناشطة الحقوقية رزان زيتونة مع الناشط أسامة نصّار <http://damascusbureau.org/arabic/?p=1654>).

وأصدقائه أن يعاينوا عن قرب الموقع الذي تحدّثه نشاطاتهم في نفوس رجال الأمن والشبيحة، فقد نقل عن أحد هؤلاء قوله «أفضّل أن نسمع مئة مظاهرة على أن نعمل زبالين في «لم» المنشورات من داريا وأمثالها».

تشكّلت منذ الخامس عشر من آذار، تاريخ اندلاع الحركة الاحتجاجية في سوريا، عدّة مجموعات شبابية اتخذت من الكفاح السلمي نهجا لعملها. وغالبا ما ارتبطت نشاط هذه المجموعات، بمختلف مظاهرها، بمستوى الاحتجاجات التي تشهدها أغلب المحافظات السورية. ففي الوقت الذي تقتصر فيه مظاهر الاحتجاج في بعض المدن، التي درج المنتفضون على وصفها بـ «المحرّرة»، على التظاهر والإضراب، تشهد مدن أخرى، في مقدّمها العاصمة دمشق، العديد من نشاطات الكفاح السلمي. من خلال التعريف الذي تقدّمه لنفسها، تصف إحدى

سيعتقل الشاب في السادس من
أيلول مع صديقه يحيى الشربجي
خلال كمين نصبته لهما القوى
الأمنية. بعد ثلاثة أيام، يعود غيثا
مطر جثة هامة إلى أهله. جثة
تنقصها حنجرة!

هذه المجموعات (مجموعة اللاعنف والنضال السلمي) نهجها يأخذ «إصلاحية متكاملة» ليست الغاية منه إسقاط نظام أو حكومة بل بناء مجتمع مدني ديمقراطي تفاعلي في «سوريا» يكون منبعاً على الانحياز إلى أئمة العنف والوقوع في شرك الصراع الذي تحاول السلطات الحالية جر الشعب إليه».

تنوعت نشاطات مجموعات النضال السلمي في سورية، أضفوا لنشاط الثورة الرئيسي، السلمي هو الآخر، والمتنوع بالتظاهرات، أنشطة احتجاجية أخرى غنيت بتحقيق هدفين على الأقل: تشكيل نشاط رديف للتظاهرات واستكمال ما تفعله هذه في سعيها لتحقيق هدف الانتفاضة: إسقاط النظام، وإبصال الصوت للعديد من الشرائح الاجتماعية الضعيفة أو المترددة وحتى الموالية للنظام: انتبهوا، هذا البلد يشهد ثورة.

بعض أشكال النضال السلمي

يهول رجال الأمن في جميع أنحاء «سوق الصالحية» التجاري، يكتشفون بذلك هويتهم بالنسبة لمن لا يعرفهم من أصحاب محال ومأكلة عصرية يادية على وجوههم ضحكات مكبوتة ونظرات مندهشة ومسلوكة.

لم يكن ثمة تظاهرة في «ساحة «عرنوس» حيث ينتصب تمثال كامل للرئيس الراحل حافظ الأسد ولا إطلاق نار من قبل أية «عصابة مسلحة» الأمر أبسط من ذلك: صوت إبراهيم الفاشوش، المنشد الحموي الذي ألهم حماسة مئات الألاف عبر أهازيجه التي غطت على الضجيج في أحد أشهر أسواق دمشق التجارية وأكثرها ازدحاماً برؤد أهزجته ذات اللازمة التي أصبحت شهيرة: «سويلا ارحل يا يسار!».

اكتفى نشاط النضال السلمي في سورياً بجهاز بسيط لتضخيم الصوت (سيكر) مع «بو. إ. س. بي» سجلت عليها أهازيج الفاشوش، وضع الجهازان على سطح أحد الأبنية وأطلقت الأهازيج وإخلاء الموقع، اعتقل رجال الأمن «السيكرات» فحظيت هذه بصفحة على موقع التواصل الاجتماعي (الفيسبوك) دُعيت «الحرية لسيكرات ساحة عرنوس».

كانت هذه التجربة الأولى لما سيُعرف لاحقاً باسم (المذبذب الفاشوشي)، وسيعيد نشاط النضال السلمي الكثرة في غير مدينة سورية، لا سيما تلك التي بقي فيها الحراك ضعيفاً.

جاء اللون الأحمر الذي إصطبغت به بحرات كل من ساحة «باب مصلى» و«السبع بحرات» إضافة إلى «دوار البطيخة» ليشهد سكان العاصمة، رمزيًا، على سيلان الدماء في مدن سورية أخرى.

بعد ذلك بوقت قصير، وفي عصر يوم الثالث عشر من تشرين الأول، يرتفع في «سوق الحرقة» التجاري صوتاً يخاطب تجار دمشق، يدعوهم لقول «كلمة الحق» والانتفاض للمدافع عن إخوانهم في محظلات الوطن وفي مدنهم دمشق، وبعد الدعوة، يرتفع مجدداً صوت المنشد الحموي،

الذي اقتلعت مغاربات النظام حنجرتة هو الآخر، متمارجاً مع أصوات «عراقبة» «شامية تعوي» «سايخ دمشق» و«سورية» لن ينجح الطرقي أو الخلع أو حتى الرقش في «إسكند» صوت المنشد الصائغ عن المذبذب، مَرَّ زمنٌ طويل جداً على رجال أمن النظام قبل أن ينجحوا في استعادة القدرة على النظر في وجوه المتظاهرين، سقط النظام «رمزيًا» وقُت السخرية من أهم رموزه على مسمع «و«مراي» من الناس، وعلى بعد ما لا يزيد عن كيلومتر واحد من «سوق «الحمدية» حيث يقع الجامع الأموي، وحيث يخاطب كل يوم جمعة «الشيخ» محمد سعيد رمضان البوطي.

قبل هذه الحادثة بأسبوع، كان شباب مجموعة «أيام الحرية» إحدى مجموعات النضال السلمي الأكثر نشاطاً، قد فاجأت المتفضين السوريين، وسكان العاصمة تحديداً، في صباح الخامس من تشرين الأول، بتلوين بعض من البحرات الموجودة في ساحات دمشق الأشهر باللون الأحمر، شملت العاصمة، التي يشهد مركزها، وتحديداً داخل السور التاريخي القديم، نشاطاً اعتياداً لدرجة يبدو معها أن ما يجري في مدن سورية أخرى لا يقع في نطاق اهتمامها، جاء اللون الأحمر الذي إصطبغت به بحرات كل من «ساحة «باب مصلى» و«السبع بحرات» إضافة إلى «دوار البطيخة» ليشهد سكان العاصمة رمزيًا، على «سيلان الدماء» في مدن سورية أخرى.

وبعداً تجاوز المتفضون السوريون الهتاف الأبرز لنورات الربيع العربي «الشعب يريد إسقاط النظام» إلى هتاف «الشعب يريد إعدام الرئيس»، قامت مجموعة «نفوس كرام» ضمن فعاليات «روزنامة أيام الحرية» بإجراء مراسم إعدام رمزية للرئيس الذي أسقطت الثورة شرعية نظامه في أواخر شهر حزيران، فقد تم تعليق مجسم ورفي للرئيس «السائب» على مدخل نفق «باب شرقي» القريب من حي «باب توما» وفي ليل ذات اليوم، الخامس والعشرين من شهر تشرين الأول، قامت مجموعة أخرى بإطلاق حزمة قوية من الضوء باتجاه قصر الشعب في ما أسمته «هجوم»

ليزرباً لإخافة فائدة الشرعية وليستبقظ مرعوباً على كابوس الحرية الذي تسرب لمخيلته»

تتوَّعت نشاطات الكفاح السلمي لمجموعة أيام الحرية وخطابت شرائح اجتماعية متعدّدة، كان أحد أهمّ نشاطاتها توزيع رسالة على أسئلة الجامعة من خلال وضعها في صناديقهم البريدية تزامن النشاط مع وضع «مذيع قاشوش» لتشتيت انتباه رجال الأمن في الكليات التي شهدت توزيع تلك الرسالة وهي كليات الأناب والطب والسريرة والاقتصاد والعمارة، تضمّنت الرسالة عرساً للحال التي وصلت إليها الجامعات السورية في ظلّ «سوريا الأسد» كما طلبت الرسالة من فارتها أن يتساءل عن «الطلاب تعزّبوا عن محاضراتهم؟ أتعلم أنهم يقعون خلف القضبان أم ألا تتحمّل بمكانتك هذه قدراً من المسؤولية لسكونك عن الظلم؟»

بعد أسئلة الجامعات، قامت مجموعات «أيام الحرية» بإعداد رسائل وفق ثلاثة نماذج تخاطب التاجر التسقي أو الحليبي انطلاقاً من موقفه، ثم ذلك عقب متابعة الموقف التجاري في المدينتين السوريتين الكبيرتين وكان من الطبيعي أن يختلف مضمون الرسالة حسب «المرسل إليه» فقد جاء في الرسالة الموجهة إلى التاجر المؤيّد «سعر صرف الدولار يساوي مائة وعشرين ليرة «سوريّة هذا اليوم قريب بقيّة الأسد حينها، لن يشتري منك لا خبز ولا غنم» إننا سقط النظام ستسقط معكم غير موقفك لأنّ الشعب لا يسقط له

الوسيلة غاية

مع انطلاق الانحسار العام، الحادي عشر من كانون الأوّل والذي دعت إليه تسقيات الثورة وهبّات ومجاسل المعارضة على اختلاف أطرافها، دخلت الثورة السورية طورا جديدا عنوانه العريض «المقاومة المدنية اللاعنيفة» غطى «الانحسار العام» على الدعوات التي خرجت منذ فترة تطالب بالتدخل الخارجي بصيرته الأكثر خشونة «خطر جوي» «منطقة عازلة» لصالح تفعيل ما يمكن تسميته «عناصر القوة الداخلية» للثورة.

قبل ذلك يحوالي الأسبوعين، كانت مجموعات الحراك السلمي السوري قد خطت واحدة من أولى خطواتها نحو العصيان المدني العام حيث قامت بوضع مائة الصمغ في أففال عدّة مراكز حكومية في بعض أحياء العاصمة دمشق ورفقه ركن الدين، السويقة، شارع ٢٤ أبار، حرمستك بعد مضي أكثر من عشرة أشهر على اندلاع الثورة السورية ورغم العدد الهائل من الضحايا الذين سقطوا وفاتح الكراهية والحقد اللذين واجه بهما النظام الشعب المنتفضه يسعى طيف كبير من المشاركين في أنشطة الثورة المختلفة إلى الحفاظ على سلميتها

ويوعي كبير، يدرك المنتفض السوري أن السلمية تبني حين تهتم. ويدرك أن بناء «سوريا المستقبل» «سوريا» ما بعد «سوريا الأسد» لن يبدأ في المرحلة التي تلي سقوط «نظام العنف» بل كان قد بدأ حين خط عدد من الفتيّة الشكر الأبرز في ثورات الربيع العربي على جدران مدرستهم الشعب يريد إسقاط النظام





البحرين: داخل الميدان، خارج الطائفة

علي أحمد الديري

«دؤن ويأحث
وصحفي مواليد
البحرين ١٩٧١.
اسمهم في تأسيس
صحيفة «الوقت»
البحرينية، محرر
في صحيفة
«مرآة البحرين»
الإلكترونية آخر
أعماله «خارج
الطائفة» (٢٠١١)

الاحتجاجات السبائية التي خرجت من نحو ٢٥ منطقة من مناطق البحرين، ترفع أعلام البحرين وحدها، وتهدف بهتافات تطالب بإصلاحات سياسية والاخراج عن السجناء ومطالب معيشية أخرى تحمل شعار «الشعب يريد إصلاح النظام». تعرضت منذ لحظة خروجها مساء ١٤ فبراير لقمع عنيف من قبل رجال الأمن. سقط الشهيد الأول سريعا وصاعدا، إنه علي مشيمع (٢١ سنة) الاحتجاج تحول من قوره إلى كتلة غضبه لم تتمكن صدمتنا أن تلتقط أنفاسها بعد، ففي صباح اليوم التالي ١٥ فبراير، وأثناء تشييع جنمان الشهيد الأول، أسقطت قوات الأمن الشهيد الثاني أثناء خروجه للمشاركة في تشييع الأول، إنه فاضل المتروك (٣٢ سنة) عشرات الجرحى، إصابات يطلقها «طاعلة وشوزن» حالات متفاوتة الغضب اشتد الجماهير احتشدت أمام مستشفى السلمانية الطبي حيث سقط الشهيد الثاني قريبا منه الهتاف احتك «الشعب يريد إسقاط النظام».

هكذا تطور الحدث سريعا كما تطور الشعار. عصر، كان «دوار اللؤلؤة» يحج بالمتظاهرين الغاضبين حملوا غضبهم وجاؤوا يهتفون به في الميدان العام. عشرات الآلاف توافدوا إلى دوار اللؤلؤة، لم يوقفهم الأمن هذه المرة. بدأ المشهد خاليا من رجال الأمن الذين انسحبوا بعد خطاب الملك في المساء بدأ نصب الحريم والتمهيد لاعتصام أعلن أنه يتد حتى تحقيق المطالب.

للأمثلة لم أخرج ظهرا من بيتي فاصدا دوار اللؤلؤة، كنت فاصدا الصديق الإعلامي عبد الوهاب العريض الذي كان ينتظرنني عند «قبرة جد حفص التي دفن فيها الشهيد علي مشيمع» حين وصلت، وجدت الجموع تتجه نحو الميدان. سلمت نفسي إلى حيث تشق أقدامهم طريق حربة جديد كان المشي في شتاء النائية والنصف ظهرا لهذا جدار التقطن صورا تذكارية لنرويه غدا لن توصلهم إلى دوار اللؤلؤة. توقفنا عند مجموعة من

النسوة ينثرن المسموم على أقدام المتوجهين للميدان. كانت لحظة حميمة وضاجة بالمعنى. ساورتنا دهشة كبيرة لحظة الوصول إلى دوار اللؤلؤة في تمام الساعة الثالثة وأقل من عشر دقائق. يوم الاثنين ١٥. لم يتوقع أحد أن يصل. أرسلت مباشرة صورة بالآيفون عبر برنامج الداتس أب (WhatsApp) وكتبت معها: «نحن في قلب ميدان اللؤلؤة الآن بانتظار ردة فعل قوات النظام». كانت الرسالة الأولى التي بعثت بها لأصدقائي في قائمة التويتر والواتس أب. تحدثت إليهم عن لحظة الوصول إلى دوار اللؤلؤة وما قبله هذه اللحظة الرمزية من محاولة لفتح ميدان عام مشترك بشارك فيه الجميع في صنع الدولة التي يريدونها لهم. كنت أكتب ورؤوس البصل تتدحرج بين أقدام المحتجين استعدادا، ليس لمواجهة رؤوس الأمن، بل رؤوس طلائعهم المسيلة للدموع. بعد لحظات سمعت الهتافات تدوي من محيط دوار اللؤلؤة: إنه إبراهيم شريف، الأمين العام لجمعية «وعد»، محمولا على الأعناق بلوح يعلم البحرينيين، وبأيد الأخرى بلوح المحتجين معبرا عن وقوفه إلى جانبهم.

كانت الشمس ساطعة ونصب اللؤلؤة ناصعا في يانصه بدأ بعض المحتجين بأخذ قبولته قوي حشيش الميدان بعد تعب صبح مجهد وطويل، ولفرط دهشة الوصول يكتفي المرء بأغماضة واحدة ليغفو. بدأ معنى الميدان يتشكل في ذهني تدريجيا. كان دوار اللؤلؤة، قبل هذا اليوم، ليس أكثر من دوار مروري مغتلق دائما بحركة السيارات العكرة. لكنه صار الآن محطة تحوّل تصل إليه متحدثين اختناقات النظام التي سببها الفساد والتمييز والعنف والاستبداد وغياب المواطنة وتفريخ جماعات ولاء مصطنعة عشرات الآلاف من الجماهير المنددة أخذه في التوافد والهتافات تعلن غضبه.

مختبر التعايش

مع بداية ظلال المساء، صار الدور ميدانا. لم يعد مكانا تدور حوله السيارات لتأخذ الاتجاه الذي تقصده. أمسى مكانا يدخله الناس ليدينوا أجهزة النظام التي أعتبتهم من الدوران حول منطقة فارغة من المعنى الذي يعدهم بالأيام التي لم يعيشوها بعد. مع المساء صار الميدان منصة. افتتحها المحامي حسن رضي بالقول إن الدستور العقدي هو مطلب هذا الشعب، والدولة الديمقراطية التي نريدها هي دولة يحكمها الشعب وفق دستور يحمي تنوعات الشعب بجماعاته المختلفة.

صديقي، الأكاديمي والمثقف البريطاني أدريان بروكت، كان مصرًا ليلتها أن يصل ميدان اللؤلؤة، ترجل من سيارته عند فندق الرجيسي (بعد ٨٠٠ متر تقريبا)، ليصل الميدان بعد مشقة في تمام الساعة الحادية عشر ليلا، ترافقه زميلته. كنت بانتظاره مع مجموعة أصدقاء وصديقات، قال في لحظة دهشة: معقول كل هذا! كل هذه الحشود المحتجة في ميدان عام والناس بشعاراتها ولافتاتها وهتافاتها من كل الأطياف؟ قلت له: هو معقول في البحرين فقط من بين دول الخليج. وهذا الاستثناء هو ما يجعل تجربة هذا الميدان محفوفة بالخطر والمغامرة. فما يحدث هنا يخترق المنظومة الخليجية المؤسسة على الولاء لصاحب السلطان والطاعة، مقابل ضمان العطاء.

غفوتٌ وصحوتٌ قريبا من الساعة الرابعة فجرا على وقع الخبر: قوات مكافحة الشغب مدعومة بالجيش تهاجم «الدوار» عند الثانية والنصف من فجر اليوم، وتخلف إصابات وقتلى.

الأربعاء ١٦ فبراير. الميدان يمزج بالناس والاختلاف. ظهرا، يصلي المعتصمون، سنة وشيعة، صلاة ظهر واحدة. صفا واحدا لا صفين. عصرا، الشباب يعيدون طلاء نصب اللؤلؤة، بعد أن كتبوا عليه في اليوم السابق انفعالاتهم الهائجة. يعيدون النصب إلى بياضه، ويزيدونه من وهج حماسهم بياضا. صار الميدان الآن مختبرا للتعايش بين الجماعات المختلفة التي بدأت تتوافد عليه، وهذا هو التحدي الأكبر أو الجهاد الأكبر، كيف نجعل من الميدان ساحة مشتركة، ميدانا عاما، تظهر فيه مشتركاتنا الوطنية، وتغيب خصوصيات كل جماعة.

هكذا إذا، وجدت نفسي سريعا جزءا من هذا الميدان، ومثلما وجدت فيه تجربة للعيش المشترك معا بالنسبة للمختلفين، كان بالنسبة لي تجربة أخرى، لنقل: مختبرا

لمفاهيمي النظرية كمثقف معني بالحرية والإنسان والفضاء العام والميدان المشترك والدولة والتعددية والديمقراطية. كان علي أن أقرب عمليا، من المفاهيم النظرية، التي استهلكتها كتب المفكرين والمثقفين الكبار، أختبرها في ميدان الناس وعلى أرض الواقع. وجدتني بالقدر نفسه أريد أن أوظف أدوات الاتصال الحديثة جميعها لأنقل هذه اللحظات بكل ما فيها. أن أكون شاهدا ينقل أحداثها بعينه الناقدة والمعايشة. عبر تويتر كنت أنقل مقتطفات من الخطابات التي تقال في الدور وموقفي النقدي على بعضها، أسجل ملحوظاتي عما يقال، وما أراه لا يحقق مفهوم الدولة المدنية.

ليل ١٦ فبراير. أفترشتُ حشيش الدور، واضعا حاسوبي المحمول في حضني، أكتب تأملاتي، وتجربتي الجديدة. وبعد عودتي للمنزل قرابة الساعة الواحدة فجرا، أرسلتها لعدد من الأصدقاء، ولمجموعة «دروب» الإلكترونية التي تضم نخبة من السياسيين والإعلاميين والمثقفين البحرينيين. لم أكن أعلم حينها أنه يفصلني عن خبر الفاجعة ساعات قليلة. غفوت وصحوت قريبا من الساعة الرابعة فجرا على وقع الخبر: قوات مكافحة الشغب مدعومة بالجيش تهاجم «الدوار» عند الثانية والنصف من فجر اليوم، وتخلف إصابات وقتلى. كيف يمكن أن أستوعب الصدمة؟ كنا للتو هناك ننشد الحرية ونحتفي بالتعدد والاختلاف. كان الجميع ينامون في سلام الحلم. كيف يجروون على هذا الاغتيال؟

قتيلان ومئات الجرحى. حتى الخيمة الطبية لم تسلم من الاغتيال، كذلك الطاقم الطبي، الطبيب صادق العسكري يتعرض للهجوم والضرب ولم يشفع له رداؤه الأبيض وإعلانه لهم أنه طبيب. يسقط العسكري، ينقل إلى غرفة العمليات. الأخبار نتواردها عن طريق تويتر والفيسبوك. المصابون لجأوا إلى مجمع مستشفى السلمانية الطبي، اعتبروا الحرم الطبي مكانا آمنا، الطاقم الطبي في حالة ذهول. لا أحد يعرف حجم المصابين وعددهم وإصاباتهم. بدأت الحالات والإصابات تتوافد إلى المستشفى في سيارات خاصة. الإسعافات التي خرجت لتقل الجرحى اختفت. تجمهر وهيجان حاشد، المحتجون يحاولون العودة للدوار. قوات الأمن تواجههم بمسيلات الدموع والرصاص المطاط والانشطاري عن قرب. رأس ضحية ثالثة تم تفجيرها بتصويب مباشر. الحادث تشهد عليه الصحفية نزيهة سعيد وتنقله للإعلام. قوات الأمن تتقدم من جهة الدور باتجاه مجمع السلمانية الطبي تمنع المسعفين من الوصول إلى الدور، تهاجم المسعفين وتقوم بضربهم.

تويتر يأخذني إلى الحدث

لم أحتفل بالقاء في مكاني أكثر، خرجت متجهة إلى مجمع مستشفى السلمانية الطبي، أصل قبل خروج مسيرة الكافر الطبي احتجاجاً على الوزير فيصل الحمر وطاقمه الانباري بسبب منع الإسعافات من الوصول إلى الدوار لإفقاذ الجرحى والمصابين.

كان المكان ضاحكاً بالفوضى والغضب والانفجار والصدمة التي لم تستوعب هذا الهجوم بعد اعتذار الملك منذ يومين فقط هناك كنت أشاهد يكاميرتي ويحواشي كلها الأجساد المصابة، أرى البكاء ومفعول هذه المجزرة في الناس وفي هتافاتهم التي كانوا يصرخون بها في مستشفى السلمانية وانقل الحدث عبر تويتر، كأي أحول وظيفتي الثقافية من الجلوس في البرج العاجي إلى لمس الناس.

كان تويتر يعرضني لأن أذهب إلى أماكن الحدث نفسها أن أتابعها بنفسني، أسجلها بنفسني، ألقها بنفسني، أقترب من حقيقة ما يحدث المتفقون الذين لم يكونوا قريبين من هذا الحدث كانوا يبدون جداً لأنهم كانوا يستقون معلوماتهم عبر وسائل الإعلام الرسمية في أبراجهم العاجية، وعبر مواقع مصالحهم في الدولة، ولو كانت هذه المصالح في شكل تهويلات كاذبة وما يأتي إليك ليس هو الحقيقة، ما يأتي إليك هو ما يراد إيصاله إليك، وما يعمد البسطة إن انطلت عليهم مثل هذه الألاعيب والأحاييل وطرق التزييف والدجل، لكن لا عذر للمثقف الذي يقرأ التاريخ ويقرأ بطش الأنظمة أن يجلس متلقياً مثل الآخرين، في حين المسألة بينه وبين رؤية الحقيقة بأم العين، خطفة قلم وراح بعض المثقفين يضغي على رواية السلطة المزيد من المصداقية إذ أخذ يروج لفكرة طائفية المعارضة.

تويتر كان بالنسبة لي، إذاً، معرضاً آخر على الذئب للحدث، لا انتظر أن تحصلك أخبار الحدث كتبت من هناك رسائل تختنق باللحظة والصدمة «هنا في مستشفى السلمانية الطواقم الطبية في حيرة والمحتجون في حيرة والمصابون معقون والشهداء وحدهم حسوا حيرتهم انهم مطمئنون فكم؟ كتبت أيضاً:

«هنا في ساحة الطوارئ الوضع مكي جداً مضحك جداً، جداً، هزلي جداً، باتس جداً، متفائل جداً، هنا مجمع التناقضات وكلنا ننتظر سيارة إسعاف تسمح لها أن تأتي من الميدان بجثة أو

شبه جثة أو لا جثة، حتى يس لو تجمي» كتبت أيضاً «دخلت المشرحة وصوروت جثث الشهداء كان أحدهم مهشم الرأس وحالة الناس هستيرية خرجت من ساحة المستشفى وتوجهت لجمعية حقوق الإنسان، من هناك جاءني اتصال من فنانة اللي بيدي سي، يسألني يوصفي كتاباً وصحافياً عن تطورات الأحداث على أرض الواقع، شهدت بما رأيت عيني وما شهدت حساسي.

قائمة العار

لم يعد تمة مكان اللحية ولا لادعاءات الرزانه ولم يعد تمة مكان للجلوس خلف منضدة كتابية لا تنزل الشارع لترى بأم عينها ادعاء الرزانه هنا هو قد يكون بلادة مشاعر، وقد يكون سذاجة وقد يكون سطحية، لكنه أبداً لن يكون رزانه بالمعنى الإيجابي، ولن تحمل هذه الكلمة إلا أن تكون سلبية ومرعبة أو كما تقول حنة إرنست في كتابها «في العنف» النزاهة والرزانه قد تبدوان أمرين مرعبين في مواجهة فاجعة لا يمكن احتمالها، أي حين لا تكونان ناتجتين عن السيطرة على الذات، بل تجلباً واضعاً لعدم الفهم إن المرء لكي يتمكن من أن يبدى رد فعل عقلانية، عليه أول الأمر أن يستنار.»

ألا مستنار مثقف أو كاتب أو صحافي أو صاحب رأي أمام مشهد قتل أرواح خرجت تطالب بحقوق مدنية سلمية فهذه خيانة للإنسان ألا يستنار هؤلاء من أجل السماع عن حق



ساقطة من قائمتي التي لا أريد أن أحتفظ فيها بمن يقتلون بكلماتهم شعبي الذي لا يريد غير مواطنه الدستورية.» صممتُ القائمة على طريقة قائمة العار المصرية التي نفذاها شباب ثورة ٢٥ يناير، ليدنوا بها صحافة العار التي كانت تمجد نظام مبارك حتى آخر يوم له، قبل أن تدينه في اليوم التالي لسقوطه. كانت القائمة اقتباسا ضمن عدة اقتباسات أخذها شباب الثورة هنا من شباب الثورة هناك.

الورود تفتح السياج

ظهر السبت ١٨ فبراير، كان ينتظرنا حدث آخر، بطعم مختلف. خرجت مع صديقي ورفيق الميدان عبد الوهاب العريض، مررنا على المراسلين البريطانيين الذين أخذناهم من فندق «الدبلوماسية» حيث يقيمون وتوجهنا جميعا نحو المستشفى. كان الوقت قبل الثانية ظهرا. علمنا في الطريق أن مجموعات من الشباب خرجت متوجهة لفك الحصار على الميدان، بدّلنا وجهتنا إلى هناك. قال لنا صديقنا المراسل بحسه الصحافي: الحدث سيكون هناك.

قريبا من الميدان، سنرى المتجمهرين يزحفون نحو السياج الشائك الذي نصبته قوات مكافحة الشغب على مسافة نحو نصف كيلومتر من الدوار من جهة منطقة «السنابس». مواجهات يستخدم فيها الأمن الغازات المسيلة للدموع، لكنه يتحاشي الإصابات والطلقات المطاطية كما في الأيام السابقة. أبراهيم شريف، أمين عام جمعية «وعد»، الذي يقضي اليوم عقوبة السجن لمدة خمس سنوات، لاتهامه ضمن ٢١ آخرين بمحاولة «قلب نظام الحكم»، أول من وصل من القيادات السياسية لدعم الشباب، يقف مع الشباب ملاصقا حاجز الخطر، قبل أن يتجه لرجال الأمن ويطلب من قائدهم السماح للشباب العزل بالاعتصام السلمي، ويخبرهم أن لا أحد هنا ينوي إثارة أي نوع من أنواع الشغب. يبدي الأمن تجاوبا فيما يبدو أنه مقدمة لانسحاب ينتظر أمر التنفيذ.

والشباب من ناحيتهم، يبدأون مناورات طريفة، تبدو كمغازلة لرجال الأمن. أعلام البحرين تلف أجسادهم الغضة، بعضهم يجلس على الأرض رافعا علمه، والبعض يتقدم نحو السياج الشائك رافعا الورود، يلاصقون السياج الشائك، ويمررون الورود لرجال الأمن من خلال الفتحات الصغيرة. صبيّة تجتاز السياج الشائك بجسدها النحيل، تتجه نحو رجال الأمن، تقدم لهم ورودها. أغصان الورود مرتفعة، شاهقة. كل وردة رسالة سلام إضافية، ترخي شوك السياج أكثر وتهتك رهبة الآليات الغليظة أكثر وتكسر عيون العساكر أكثر. كنا نشهد اللحظات بدهشة بليغة، وبنشوة من

الناس في المطالبة بإصلاحات سياسية وحكومة منتخبة من قبل الشعب؟ فهذه خيانة لمبادئ الحرية والديمقراطية. لكن الأنكى، أن يستثار هؤلاء ضد مذهب المحتجين وطائفتهم، أن يسبغوا على المحتجين صفة سطحية (شيعة، متدينين) تجردهم من حقهم في الاحتجاج والرفض. إنهم بهذا يخونون وظيفتهم التي تنظر لحقوق الإنسان بصرف النظر عن معتقده ودينه، وهذه هي خيانة المثقف.

صباح السبت ١٩ فبراير، وأنا ما أزال تحت وطأة سيناريو اليومين السابقين، وأنا أزال تحت رعب فاجعتيها التي عايشتها عن قرب، رحت أبحث في صحافة بلدي عن صوت ينتفض من أجل الإنسان، من أجل أرواح من سقطوا، أذهب إلى كتاب الرأي (المخضرمين) في صحافتنا المحلية واحدا واحدا، أبحث عن صوت الإنسان في ما يكتبون، أذهب إلى المثقفين الكبار، أبحث عن كلمة تشجب القتل والقمع، لا أجد.

صبيّة تجتاز السياج الشائك بجسدها النحيل، تتجه نحو رجال الأمن، تقدم لهم ورودها. أغصان الورود مرتفعة شاهقة. كل وردة رسالة سلام إضافية.

صحيفة «الوسط» حملت وحدها همّ نقل الحدث، نذرت نفسها له، رفعت سقفها إلى أقصاه في النقل، فدفعت ثمنه لاحقا. كانت تعمل وحدها، فيما راح الإعلام في بلدي يبرر مجازر القتل، ويلتمس للحكومة الأعذار ويزيد عليها من تدليس، ويسكب على الحكومة شرعية الفعل، وعلى الضحايا والقتلى لا شرعية الاحتجاج، ويتهمهم بالطائفية والفئوية، كون غالبية المحتجين من طائفة واحدة، وكأنهم لا يعلمون. كنت أرى الأقلام (المخضرمة) في الصحافة تنسف ما تبقى من إنسانيتها، وتخطط ما ترقّع به «هرمها» الذي استقر في ثوب الطاعة والولاء. استقرار يدرّ عليها رفاة مريحة. هذه الأقلام التي لفرط ما هرمت، لم تعد تستوعب، ولا تقبل، معنى أن يثور الشباب، وأن ينتفضوا لصناعة غد مختلف، حتى وإن كانت بعض هذه الأقلام منخرطة في تنظيمات ثورية في السبعينات.

على بريدي الإلكتروني وصلتني قائمة مصورة باسم «قائمة العار»، تتضمن أسماء مجموعة من كتاب الصحف الذين أمعنوا في تخوين المحتجين وتطييفهم ووسمهم بعملاء إيران، بالقدر الذي راحوا يمعنون في تبجيل قمع السلطة. أنزلت صورة قائمة العار على صفحتي في الفايسبوك، وكتبت تحتها «رجاء كل من يقرأ اسمه في قائمة العار، من الإعلاميين الذين كانوا أصدقائي، فليعتبروا أسماءهم وشخصياتهم



سيصم النظام البحريني أذنه عن «سماعها متعمداً» وسيبصر على رسم أبقونة يُسمّى بها الثورة، سينسبها إلى دولة ولاية الفقيه، تلك الدولة التي رفضها شباب الثورة أنفسهم، والتي عبروا عنها بقولهم: «لم نرفض حكماً استبدادياً للوقوف في حكم استبدادي آخر»، والتي قالت جمعية الوفاق (الإسلامية الشيعية)، باستحالة قيامها في البحرين.

دخول الدوار، خارج الطائفة

يوم ١٩ فبراير، بداية فترة هدوء تمتد أسابيع ثلاثة قبل أن يواجهها النظام بقمع هستيري في منتصف شهر مارس. وستكون هذه الفترة وما بعدها مختبراً حقيقياً للجميع: مختبراً ميدانياً للقوى المعارضة (جماعات وجمعيات وأفراد)، مختبر فيه اختلافها وترسم ملامح تعاضدها المشترك، ومختبراً لشكل الدولة التي تتطلع إليها الجماهير المطالبة بالتغيير، ومختبراً لرد فعل المجتمع الذي يشهد التغيير كواقع قائم وملح، ومختبراً للجمعيات والمؤسسات الأهلية في تعاملها مع الثورة والحدث والسلطة والسبب والإنسان، ومختبراً للسلطة في جدية ما تُخبر عنه بسياسة شعبها، وأخيراً مختبراً للمنطق في حقيقة مواقفه إزاء حريات الشعوب والعلاقة مع السلطة.

«لامح الدولة المدنية صارت تطرح نفسها بعدة أشكال داخل هذا المكان، نخلات الدوار الواحدة والعشرون تحولت إلى علامات تنوع يقدر ما هي علامات أصالة، ويقدر ما هي علامات شموخ، سريعاً ما تم ترفيق النخلات لتصير كل نخلة مقراً لكيان مختلفه خيمة عند كل نخلة، يل خيماً على امتداد المساحة المحيطة بالدوار، تكسدت الخيم، تلاصق بعضها بحب بعض، الناس كذلك صارت الدوار أكبر، صارت ميداناً حقيقياً.

كل من لديه مطلب احتجاجي سيجد له متسعاً في هذا الميدان، لا أحد يسأل أحداً عن انتمائه وأصله أو فصله أو دينه أو مذهبه الميدان هو المساحة الحرة للممارسة فعل الاحتجاج الحر، لهذا جاء بعضها في غابة التعقل وجاء بعضها في غابة التطرف وكان بينهما كثير، لا أحد يتحكم في الميدان ولا الناس لا سيد غير علم البحرين الذي كنا نراه للمرة الأولى بهذا التآلق برفق رقيقاً كبيراً مفتخراً. وكلما ابتعدت الخيمات عن مركز الدوار ومتصته الرئيسية، تنوعت أكثر وتعددت، في هذا المكان ستجد لك متسعاً وترحباً وحفاوة كيفما كنته «شياً أو شيعياً، إسلامياً أو ليبرالياً أو علمانياً أو يسارياً أو شيعياً أو زائراً من دولة أخرى هكذا كنت أرى الميدان مصنع تعاضد جديد لم نختره من قبل.

يشهد فتحاً جديداً، إنه فتح الورد فتحٌ يُخجل فتح الغزو وبهزمه كان الطقس رائعاً يزيد المشهد روعة أخرى.

أبث هذه اللحظات عبر تويتر، وعبره أيضاً علمنا أن تلفزيون البحرين يعرض خطايا لولي العهد، يأمر بسحب جميع القوات العسكرية من شوارع البحرين يأمر غوري نهيداً لإعلان الجهاد على أرواح الضحايا، تم البدء في الحوار سريعاً ما بدأت الآليات العسكرية وقوات الأمن بالانسحاب يُعلن بيان الجيش رقم ٢: «انسحاب القوات العسكرية من العاصمة».

كنا في ما يُشبه الحلم تنسحب آليات الجيش وسط تصنيف الجميع وصرخات فرحهم وفزائهم وصلواتهم أرسلت عبر تويتر لأصدقائي مفتخراً «فتحنا الدوار» كنت أجدني مسروراً كافي الحدث في فتح الدوار، في كسر حصاره تسليقاً جرياً نحو الدوار، من يصل أولاً، غير مصدقين كان الدوار قد تحول فعلاً إلى أبقونة الثورة، سُمّ «ميدان التحرير» أو سُمّ «ميدان الشهداء» أو «لؤلؤة الثورة» لا فرق، كل الأسماء صارت أسماء.

الشباب يضعون خطواتهم الأولى داخل الدوار بين صاخر فرحة، وساجد على الأرض، ومتفان من شدة الفرح، ومحتضن لرفيقه الأهانج، المتهافت الصلوات التكبيرات، كانت لحظات لا تشبهها غير لحظات النصر، من فورهم قام الشباب بحملة تنظيف للميدان، للملحة آثار الهجوم الذي بلغت النيام قبل يومين المئات من الطلقات المطاط المئات من أسطوانات الغازات المسيلة للدموع، أحذية أطفال هنا وهناك لعب، دعى جمعت كلها في معرض صغيرة انتشرت في أركان الدوار البعض راح يرسم على الأرض لوحة بالحجارة تقول: «نحب البحرين ونطالب بمصلحة كل شعبها».

لم تقص دقائق حتى كان الميدان مسرح فرحة عارمة لألاف المتحمسين الذين اتخذوا من خطاب ولي العهد ضماناً يكفل لهم حرية التجمع السلمي، هو التجمع نفسه الذي «يحاسبون عليه» بعد دخول قوات درع الجزيرة في ١٦ مارس كل من وطأت قدمه الدوار سيكون متهماً بالخيانة والعمالة والصفوية والمجوسية وما لا يقال من الأوصاف وسبواجه أشكالا مختلفة من التحقير أو التوقيف عن العمل أو الفصل أو الاعتقال والتعذيب أو جميعها.

في المساء، يأتي الأمين العام لجمعية الوفاق بخطب في عشرات الألاف التي احتشدت في الميدان، أرسل عبر تويتر المقطع الأهم في خطابه: «نحن لا نريد دولة إسلامية ولا دولة دينية، نريد دولة مدنية متحضرة» ستكون الدولة المدنية أبقونة أخرى للثورة البحرينية وحلمها اللؤلؤي تلك التي

عند النخلة رقم ٦

عند النخلة رقم ٦، حيث خيمة جمعية «وعد»، كنت أجلس وأمكث وأتواعد وأتجاوز وأتناقش، وأكتب أيضاً. ومن هناك قررت مع عدد من الأصدقاء والمثقفين الليبراليين إصدار نشرة خاصة بالميدان، سمينها «صدى الميدان». كانت أول نشرة تعبر عن صوت المعتصمين، يطبع منها ٢٠٠٠ نسخة على نفقة جمعية «وعد» التي سوف يقوم أتباع السلطة وأنصارها بحرق مقراتها في ١٤ مارس ٢٠١١ وإغلاقها بالشمع الأحمر. عبرنا في هذه النشرة عن المطالب التي رفعها المتظاهرون، وذهبنا بها خطوات أبعد نحو: الملكية الدستورية، التداول السلمي للسلطة والبرلمان المنتخب كامل الصلاحية، من خلال رؤية ليبرالية علمانية. وعند النخلة رقم ٦ خضت نقاشات موسعة مع الأصدقاء حول شكل الدولة المدنية المتسعة بالاختلاف والتعدد، تمت دعوتي من خلال شباب «وعد» و«المنبر التقدمي» لإلقاء محاضرة، أردت أن أنطلق بها من خلال هذا العنوان، تأخرت الندوة، قبل أن تباغت النخلة قوات درع الجزيرة.

«أعتذر لكم أيها الأصدقاء، حفل توقيع كتابي «خارج الطائفة» الذي وعدتكم أن يكون مقابل النخلة رقم ٦ في دوار اللؤلؤة، سنؤجله قليلاً، فالنخلة لم تعد في الدوار، واللؤلؤة ليست في مركز الدوار، وخيمة «وعد» فقدت نقطتها في محيط دائرة الدوار. الدوار اختطفته القبيلة، رأت فيه خروجها. الآن الدوار خارج الجغرافيا لكنه داخل التاريخ.»

قبل أيام قليلة من استباحة جزيرتي الصغيرة على أيدي قوات درع الجزيرة، صدر كتابي الأخير «خارج الطائفة». كتبت في حسابي على تويتر يوم السبت ١٢ مارس: اليوم تسلمت ٣٧ نسخة من كتابي «خارج الطائفة» بطريقة درامية. أنا ممنوع من دخول السعودية عبر الجسر، وصديقي عبد الوهاب العريض ممنوع من دخول البحرين. فكيف أتسلم منه نسخ كتابي التي أحضرها من معرض الرياض عبر دار مدارك؟ وقفنا عند الحدود ناولني، الكتب وناولته الشكر، ورجعنا داخل الحدود التي هي أقل من أوطان.

أعلنت للأصدقاء: «مقابل النخلة رقم ٦ في دوار اللؤلؤة، عند خيمة «وعد» العلمانية، سأوقع كتابي يوم الاثنين ١٤ مارس». تتطور الأحداث الأمنية تجاه التصعيد، تحتقن الأجواء، يصير كتابي خارج الدوار. في لحظة الدوار كنا نعيش زمن «خارج الطائفة»، كان الدوار بما يجتمع فيه من أطراف تختلف حد التناقض، تجربة ميدانية في الخروج من الطائفة، والدخول في المدينة

المتعددة والمتنوعة. لهذا كنت أرى أن الدوار هو المكان الأنسب لتوقيع كتابي، ففي تجربته ما يعزز هذا الخروج، وما يعزز الدخول في الدولة المدنية.

بعد يومين، وفيما كانت آلات التكسير تفتك بأعمدة اللؤلؤة، أعلن الجيش في بيانه رقم ٦ أنه تم تطهير الدوار. أرسلت للأصدقاء الاعتذار التالي: «أعتذر لكم أيها الأصدقاء، حفل توقيع كتابي «خارج الطائفة» الذي وعدتكم أن يكون مقابل النخلة رقم ٦ في دوار اللؤلؤة، سنؤجله قليلاً، فالنخلة لم تعد في الدوار، واللؤلؤة ليست في مركز الدوار، وخيمة «وعد» فقدت نقطتها في محيط دائرة الدوار. الدوار اختطفته القبيلة، رأت فيه خروجها. الآن الدوار خارج الجغرافيا لكنه داخل التاريخ.»

كنا داخل الدوار خارج الطائفة، اليوم نحن خارج الدوار وداخل الطائفة. داخل الطائفة التي استخدمتها السلطة، لتطالب بإزالة الدوار خوفاً على مصالحها من الطائفة الأخرى، وخارج دوار اللؤلؤة الذي بقي يرفع شعاراً مدنياً يطالب بحقوق متساوية مكفولة للجميع، دون النظر إلى الطائفة أو القبيلة أو الدين. في لحظة سديمية بدا كل شيء مشروع تدمير من أجل الاحتفاظ بالسلطة فقط.

كان الميدان حياة أخرى، يجعلك تشعر أن على هذه الأرض ما يستحق الحياة، كما يقول محمود درويش. لم أستطع أن أرى هذه الحياة خارج تلك التي بدأ الإنسان العربي يصنعها في ريعه. الحياة التي حولت عواصم عدد من الدول العربية إلى ميادين تحرير، إنه الزمن الذي سنفتخر دوماً بأننا جزء منه، أننا صنعناه وشاركنا فيه، أنه حدث في زمننا، أننا رحلناه للأجيال القادمة. كتبت ذات صباح في تويتر تصبيحة لكل الشعوب العربية في ريعها العربي، قلت: «على هذه الأرض ما يستحق الحياة. الحياة حيث ميدان اللؤلؤة (البحرين) وميدان التحرير (مصر) والساحة الخضراء (ليبيا) وساحة التغيير (اليمن)».

هكذا حرصت على أن أكون داخل هذا الحدث، وداخل هذا الحلم، شاركت في التوقيع على كثير من العرائض التي تدين عنف السلطة المفرط في مواجهة المحتجين وتطالب بمزيد من الإصلاحات في البحرين والخليج، بينها عريضة باسم المدافعين عن حقوق الإنسان في الخليج العربي التي وجهت يوم ٢٢ مارس ٢٠١١ إلى مجلس حقوق الإنسان والمفوضية السامية لحقوق الإنسان، وكذلك العريضة التي دشنتها أسرة الأدباء والكتاب في البحرين للأسباب ذاتها. كما شاركت في أغلبية التظاهرات التي نظمت إبان ثورة ١٤ فبراير، بما في ذلك تلك التي توجهت إلى المناطق الحساسة في الدولة مثل قصر الصافية، وسكرتارية رئاسة الوزراء



الثورة
[لا تنطفئ]

للمطالبة بإسقاط الحكومة واستقالة رئيس الوزراء الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة، الذي لم يتزحرج عن كرسيه منذ لحظة ولادتي وولادة استقلال الدولة العام ١٩٧١.

نقد المثقف

ستتيح لي فترة الهدوء داخل الدوار أن أمارس وظيفتي في القراءة والنقد، وسأبدأ بنقد المثقف. المثقف العقلاني حد البرود. المثقف الذي يحرص على مظهر الحياد والرزانة أمام الفاجعة، المثقف الذي لا يغضب ولا ينفعل تجاه انتهاكات السلطة لكرامة الإنسان، فقط لأن غالبية شيعية تشعر بالاضطهاد والتمييز، صرخْتُ تطلب مساواة وعدالة سياسية. كتبت مقالا نشرته في «صدى الميدان» قبل لحظة دخول قوات درع الجزيرة، قلت فيه إن مهمة المثقف في هذه اللحظة أن يقول واقع الحال بشجاعة، ليس هناك أجدر منه في القول، قوله ينير الحقيقة، وهذه هي مهمته التنويرية، أن يكشف الحجب

في ١٦ مارس شُنَّ الهجوم على الدَّوَّار وجرى «تطهيره» من المحتجين... ومنذ ذلك اليوم والبلد يعيش تطهيرا من كل فعلٍ احتجاجي، ومن كل من احتجّ، وكل ما طالب بالإصلاح، وكل من حُلم.

التي تحول دون ظهور الحقيقة. المثقف الذي لا يقول الحقيقة هو أحد أجهزة السلطة، تستخدمه للإبقاء على واقع الحال، يستوي في ذلك المثقف الحداثي واليساري والقومي والديني والليبرالي والعلماني. سميت المثقف الصامت عن قول واقع الحال بـ«مُثَقَّف شحوال» وهي مشتقة من لفظة شعبية بحرينية تستخدم للتهكم وبيان استقرار الحال على ما هي عليه دون تغيير. هو مثقف لا يزعج السلطة ولا تزعجه. مثقف يجد في فُرْاعة المتدينين تسويغا كافيا للاكتفاء بالحد الأدنى من الديمقراطية. مثقف يهادن كل الأوضاع ليضمن له موقعا في كل موضع.

صار اسم «مُثَقَّف شحوال» مصطلحا مفاهيميا لقراءة مشهد المثقف البحريني والخليجي، وصار موضع تندر طريف في صفحات الفيسبوك وبعض النقاشات العابرة. ولأنني كنت أحد أعضاء «أسرة الأدباء والكتاب» (تأسست عام ١٩٦٩) شاركت في ٢٢ فبراير في المسيرة التي نظمها الأسرة إلى دوار اللؤلؤة ترفع شعار «معا نحو الحرية». كانت هذه المسيرة امتدادا لتاريخ الأسرة الوطني والنضالي منذ نهاية ستينات القرن الماضي. لكن بعد اجتياح درع الجزيرة، دفع مجلس إدارة الأسرة العناصر للحرية ثمن وقوفه إلى جانب الإنسان ضد النظام، سيشهد هجوما مكارثيا من قبل

بعض مؤسسيها بالتعاون مع أجهزة الدولة، سيقوم هؤلاء بإدانة مجلس إدارتها الحالي، واتهامه باختطاف الجمعية وتسييسها، وبالعزل ضمن أجندات حزبية وطائفية، وسيدفع بهذا الفريق لتقديم بيان اعتذاري، تحت تهديدات أمنية، وستمارس ضغوطات لحل مجلس الإدارة المناصر للثورة. وسيعمل أيضا على تغيير اسم الأسرة، إلى «اتحاد الأدباء والكتاب البحرينيين»، ليتم التماهي مع النظام في مسح معالم وجه «الأسرة» النضالي وتاريخها العريق، ولتشهد بعدها موجة من الاستقالات الجماعية احتجاجا على تنصل الأسرة من شعارها الذي اخلصت له طوال سنواتها في السابق: «الكلمة من أجل الإنسان». وبعد أن صار شعار المسكين برقيتها الآن: «الكلمة من أجل السلطة».

قدمت استقالتي. كتبت أناشد المثقفين في الخليج بعد اجتياح قوات درع الجزيرة لشعبي: «أخطر ما يهدد الضمير هو أن تروضة المعرفة على اعتياد الجريمة. يا مثقفي الخليج وأصحاب الكلمة في مؤسسات إعلامه، لا تسمحوا لضمايركم أن تعتاد جريمة اغتيال شعب البحرين». إن مثقف الخليج الذي خرج على منظومته الدينية أو القبلية، لم يستطع أن يضحى بنظام المصالح مع السلطة، فهو يعيش في محيط السلطة التي تملك كل شيء، تملك مصادر الثروة كلها بيدها، وتملكه هو أيضا. لهذا هو لا يستطيع أن يجهر بالحقيقة المجردة. سيبتكر هذا المثقف لحياته شتى الأعذار، يبرر بها تخوفه من الديمقراطية الحقبة وتخاذله عن دعمها، وضربه للحركات الاحتجاجية التي تطالب بها، وتشويهه لرسالتها.

الاجتياح

مر هدوء الأسابيع الثلاثة، ومر معها الحلم بالدولة المدنية، بدولة تزدهر بالتعدد والاختلاف، الحلم بالخروج من الطوائف والدخول في الدولة، غادرنا هذا كله، ودخلنا الموت فقط.

كان ١٤ مارس موعدنا مع دخول قوات «درع الجزيرة» للبحرين. تقدمت عبر جسر الملك فهد رافعة شارات النصر. في ١٥ مارس صدر «قانون السلامة الوطني»، وبدأ هجوم إبادة وحشي على قرية سترة التي عرف أهلها بالمقاومة منذ تسعينيات القرن الماضي. وفي ١٦ مارس شُنَّ الهجوم على الدَّوَّار وجرى «تطهيره» من المحتجين وفق ما جاء على لسان المشير المحسوب على الجناح المتشدد في العائلة الحاكمة. ومنذ ذلك اليوم والبلد يعيش تطهيرا من كل فعل احتجاجي، ومن كل من احتج، وكل من طالب بالإصلاح، وكل من حُلم.



خطاب العولمة وتربية «الشباب» في العالم العربي

ميسون سكرية
تدريس التكنولوجيا
في الجامعة الأميركية
في بيروت

مقدمة

شهد العقد المنصرم تحولاً باتجاه الاهتمام بالشباب في العالم العربي. نشأت وزارات للشباب ووضعت استراتيجيات وطنية خاصة بالشباب. ظهر العديد من المنظمات الأهلية المتخصصة بالشباب وعدلت المناهج التعليمية بحيث يصبح الشباب «مؤهلين للعمل» وتشكلت مجالس نيابية للشباب بهدف زيادة «مشاركة» الشباب في الحياة السياسية في مصر، على سبيل المثال. ظهر ٦٠٪ من المنظمات الأهلية الخاصة بالشباب خلال الفترة ٢٠٠٣ - ٢٠٠٦. صدر العديد من التقارير في العالم العربي عن أوضاع الشباب وكرست الجامعة العربية تقريراً لها للعامين ٢٠٠٤ و٢٠٠٦. لموضوع الشباب وكرست الصحف اليومية صفحات أسبوعية خاصة بهم. وخصصت الشبكة العربية للمنظمات الأهلية تقريرها السنوي لعام ٢٠٠٧ لتحليل وضع الشباب العرب والمجتمع المدني وتخصص مراكز رسم السياسات أقساماً كاملة للشباب - مثل عصاف فارس في الجامعة الأميركية في بيروت ومدرسة الحكم في دبي. قبل ظهور هذه الموجة العارمة من الاهتمام بالشباب في العالم العربي نفسه، ظهرت في الولايات المتحدة، بعد هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، موجة مماثلة من الدراسات والوثائق الخاصة برسم السياسات المنسوبة للشباب العربي من تلك المبادرات «مبادرة الشباب المسلم» في «مؤسسة راند» و«مبادرة شباب الشرق الأوسط» في «معهد بروكلين» (المشارك في برنامج عصاف فارس في لبنان ومدرسة دبي للحكم) و«برنامج التبادل والدراسة الخاص بالشباب» (Youth Exchange and Study Program) التابع لوزارة الخارجية الأميركية. وخلال الفترة ذاتها، تشكلت منظمات أهلية متخصصة في خدمة الشباب في الولايات المتحدة، مثل «مؤسسة التربية والتشغيل» Education for Employment Foundation.

وسرعان ما حذت المنظمات الدولية حذو المبدعين، فظهرت «الأمم المتحدة» لاهداف الألفية؛ عدسة الشباب العربي» UN Millennium Goals: Arab Youth Lens التابعة للأمم المتحدة وأصدرت منظمة العمل الدولية تقريراً خاصاً حول الشباب العربي. وبالإضافة إلى كل هذا، أخذت التقارير المعنية بالإصلاح العام في العالم العربي - مثل تقارير التنمية البشرية - تركز بشكل خاص على «قضية الشباب». لماذا كل هذا التحول نحو الشباب في هذا الوقت بالذات؟ كيف يتم تصوير الشباب لدى المنظمات وفي الوثائق والتقارير؟ هل يؤلف الشباب فئة واحدة فائقة بذاتها؟ ما هي الدلالة البلاغية والاجتماعية والسياسية للشباب في هذا الخطاب؟ تقدم معظم الوثائق الأكاديمية والوثائق الخاصة برسم السياسات ثلاثة أسباب مركزية (١) «الانفجار الديموغرافي» الذي ضرب أرقماً قياسية في عدد الشباب حيث باتوا يشكلون ٦٠ - ٧٠٪ من مجموع السكان في معظم الدول العربية؛ (٢) ازدياد الطلب على مهارات أعلى مستوى وهي مهارات يجري اكتسابها عادة خلال مرحلة الشباب، في الوقت الذي يراد فيه للدول العربية الانتقال من اقتصاديات الانتاج والمواد الأولية إلى اقتصاديات «المعرفة»؛ (٣) التهديد المتنامي للسلام والأمن العالميين الصائر عن كتل من الشباب العاجزين عن إيجاد عمل بسبب افتقارهم إلى مهارات رفعة المستوى فيتحولون إلى فريسة سهلة للسامعين إلى تحريض الشباب في المجموعات الإسلامية الأصولية. لكن هذه الأسباب لا تقدم في أفضل الأحوال، سوى جزء من الحكاية. فالتحول الجديد نحو الشباب، رغم أنه يبدو ظاهرياً مدفوعاً بالتزام حماية حقوق الشباب ومصالحهم تنبع من واقع العميقة من التزام بخدمة ائتلاف من المصالح السياسية والاقتصادية المهيمنة في المنطقة والمؤلفة من الولايات المتحدة، والشركات متعددة الجنسيات إضافة إلى النخب العربية المتحكمة بالسلطة والمال.

جری إنتاج مفهوم «المراهق» للترويج لمجتمع الاستهلاك.

تشرح هذه الدراسة الكيفية التي يعمل بها هذا التحول نحو الشباب العربي المعاصر على ترويج نموذج نيوليبرالي من الإصلاح الاقتصادي والسياسي في المنطقة، يصرف الانتباه عن الفوارق والمظالم الاجتماعية البنيوية، ويضع مسؤولية حل مشكلة الاضطرابات في المنطقة على كاهل الشباب كأفراد، ما يصب في مصلحة رجال الاعمال العرب والنخب السياسية والاقتصادية الغربية والأميركية. أضف إلى ذلك أن التحول نحو الشباب يستند إلى نموذج للثقافة العربية يتصف بالسمة الاستشراقية وبالعجز الثقافي، بل وهو يعمل على تعزيز النموذج المذكور.

انتاج مفهوم «الشباب»

النماذج التقليدية الوضعية السائدة للتفكير بشأن الهويات الاجتماعية، كالشباب مثلا، تعتبر تلك الهويات كينونات طبيعية وموضوعية ومحسوسة موجودة في العالم الواقعي، خارجة عن نطاق الخطاب والبلاغات والإدراك الحسي. ان هذا النمط من التفكير، ينسب تزايد الاهتمام بالشباب العربي بكل بساطة الى عامل «طبيعي» هو ارتفاع نسبة الشباب بين الشعوب العربية. لكن الدراسات السوسولوجية والتاريخية العصرية أظهرت أن هذا الأسلوب في التفكير بشأن الشباب غير واف. فالشباب، شأنهم شأن الهويات الاجتماعية الاخرى، يجري تكوينهم اجتماعيا وثقافيا على نحو دائم ومحتوم.

برزت مقولة «الشباب» كفضة اجتماعية في الغرب مع نشوء الرأسمالية الصناعية والشركات الكبرى ومع إنشاء الدولة القومية البيروقراطية الحديثة. وقد أدت هذه العوامل مجتمعة إلى تنامي الطلب على العمالة الكتابية والإدارية والهندسية، وإلى انتشار منظومات رسمية للتدريس وإلى تطويل فترات التعليم الذي يرتبط حاليا بالهوية الشبابية على نحو وثيق. كما أن التغييرات التي طرأت على بنية الأسرة والحياة المنزلية بسبب العمالة الصناعية المأجورة - كانفصال موقع العمل عن المسكن؛ وغياب الأبوين نهارا؛ والتحول الحاصل في مسؤولية تأهيل الشباب اجتماعيا؛ وانخفاض عدد أفراد العائلة - أدت إلى تولد إحساس جديد بوجود فجوات محددة بين الأجيال، وانفصال واضح بين مرحلة الطفولة ومرحلة البلوغ، بحيث باتت مرحلة الشباب فترة تحول طويلة تمتد بين هاتين المرحلتين، المنفصلتين حاليا، من حيث الحياة والعمر والفاعلية. وأدى تطوير الدولة والمدرسة والأجهزة المرتبطة بهما، بهدف تحقيق السيطرة الاجتماعية المركزية وإعادة الإنتاج المعممة للقوى العاملة، إلى انتشار تمايزات قياسية معقنة على

(Sukarieh & Tannock, ١ 2008).

Sukarieh & Tannock, ٢ 2008، المصدر ذاته.

أساس تقسيمات عُمرية دقيقة في القانون وفي التصنيفات والتنظيم المؤسساتي، جعلت من العُمر أمرا ذا شأن اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا بصورة لم يسبق لها مثيل من قبل^١.

ولكن لا يمكن اعتبار الشباب إطلاقا مجرد أثر جانبي من آثار التطور السياسي والاقتصادي. فللشباب دور أساسي أكبر بكثير في صميم هذا التطور. يجري استحضارهم وتكوينهم على نحو منتظم ومتعمد وصريح من قِبَل النخب لخدمة أجنداتها ومصالحها السياسية والاقتصادية. في المجال الاقتصادي، يتم استحضار الشباب تاريخيا لتأمين مصادر عمالة رخيصة ومطوعة لإنتاج السلع ولتكوين أسواق مستهلكي تلك السلع. كانت «تربية الشباب» استراتيجية محورية لتجنيد العمال بدءا من نشوء صناعة النسيج في أميركا، مطلع القرن التاسع عشر، إلى انتشار الوجبات السريعة والمنافذ الفرعية لشبكات تجارة التجزئة في خمسينيات القرن العشرين، وصولا إلى حقبة تصدير الصناعات النسيجية والإلكترونية الى دول الجنوب اعتبارا من سبعينيات القرن العشرين. وعلى نحو مماثل، تم ابتكار مفهوم «المراهق» بصورة أساسية كعامل ديموغرافي تسويقي في أميركا في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، لتخصيص موقع لائق جديد في السوق تنتج فيه البضائع والخدمات المخصصة لتلك الفئة العمرية.

في المجال السياسي، يجري استحضار الشباب، منذ فترة طويلة، على صورة تهديد تنبغي مواجهته أو مشكلة تحتاج الى حل، مثلما يجري استحضارهم في الآن ذاته بصورة وعد وروية لمستقبل أفضل ينبغي تحقيقه. في الغرب، تسبب التطور الرأسمالي في ظهور حالات تخلخل اجتماعية وجغرافية هائلة، ما أدى إلى تنامي عدد الشباب العاطلين من العمل الموجودين خارج نطاق المراقبة، في الأجواء الحضرية غالبا، الذين كانوا مرتبطين بهويات وبأساليب حياة كانت تُعتبر معارضة لرأسمالية الشركات، أو بديلا عنها أو خارج نطاقها. وكانت نتيجة استثارة خطابات ذات طبيعة علمية تتناول «جنوح الأحداث»، وتستند إلى مفاهيم قياسية معولة حول المراحل المناسبة لتطوير الشباب وإلى علماء نفس وتربويين وعمّال اجتماعيين، في مطلع القرن العشرين، أن إعيدت صياغة الصراعات التي كانت قائمة فعليا على خطوط الطبقة والعرق والتشكيلات الاجتماعية والاقتصادية المتنافسة، وتصويرها بما هي مشاكل ذات طبيعة فردية في التطور المعياري للمراهق، يمكن معالجتها من خلال تطبيق معارف وتدخلات الخبراء والاختصاصيين^٢.

إذ نلاحظ تصاعد وتيرة الحديث عن الشباب، في العالم العربي أو في أي مكان آخر، لا يكفي أن نعلل ذلك ببساطة

يتنمى نسبة الشباب في المجتمع، بل علينا أن نتساءل دائماً عن الجهة التي تتكلم باسم الشباب، وفي أية سياقات، وما هي الأهداف الاقتصادية والسياسية الأشمل لذلك عندما فقط يمكننا أن نفهم مغزى هذا التحول الطارئ نحو الشباب في العالم العربي حالياً.

الشباب العرب بين النعمة والنقمة

يُنزل العدد الكبير للشباب في العالم العربي نعمة ديموغرافية أو نقمة ديموغرافية، حسب قدرة الدول المعنية على الاستفادة من الطاقات البشرية المتوافرة لارضاء تطلعات الناس إلى حياة غنية بالإنجازات. فالشعب كثير العدد الذي يتأذى بسرعة بإمكانه أن يكون العامل المحرك للتنمية المادية والرفاه الإنساني في حال توافر العوامل المساعدة - كارتفاع مستويات الاستثمار، والأنواع المناسبة من الخبرات التقنية وسواها. وفي حال غياب تلك العوامل المذكورة، يتحول الوزن الديموغرافي إلى عامل لتكريس الإفقار نظراً لتناقس أعداد متنامية من الناس على موارد وأعمال محدودة.

عندما نتفحص سياقات التحول الحالي نحو الشباب في العالم العربي، وأجنداتهم، نلاحظ أن خطاب الشباب مؤلف من مجموعة من الأدعاءات المحبوبة بأحذكم^(١)، هناك انتفاخ ديموغرافي من الشباب العاطل من العمل أو الذي لا يعمل يكمل طاقته في العالم العربي؛ (٢) ينزل هؤلاء الشباب المهمشون المبتعدون عن المشاركة تهديدا للأمن الإقليمي والعالمي، وهم تربة خصبة للأصولية وللإرهاب؛ (٣) من أجل مساعدة الشباب العربي ومكافحة الإرهاب، تمة حاجة ملحة لتنمية الاقتصادات العربية ودمجها بالاقتصاديات الغربية، وتهديدا من خلال الترويج لنموذج نيوليبرالي فكم على تحرير الأسواق.

يرد هذا الخطاب في معظم التقارير الأميركية والدولية التي صدرت مؤخراً والتي تتحدث عن الشباب العربي. هذا هو غراهم قولر، النائب السابق لرئيس مجلس الاستخبارات الوطنية في السبي. أي. إي. ومؤلف كتاب «عامل الشباب» الصائر عن معهد بروكينغز، يبرز وجه النقمة الديموغرافية خصوصاً لجهة الميل نحو العنف والعداء للولايات المتحدة.

«يؤدي وجود هذا العدد الكبير نسبياً من الشباب في المجتمعات الشرق أوسطية إلى تفاقم كل أبعاد المشاكل السياسية والاقتصادية لتلك المجتمعات، فالشباب غالباً هم من يحول المشاكل الاجتماعية المتفشية إلى مزيج يؤدي للانفجار والراديكالية السؤال المهم المطروح أتم

معظم المجتمعات الشرق أوسطية هو من سينجح أكثر من غيره بتحريك هذه المجموعة من الشباب «سياسية الدولة أم قوى سياسية أخرى إسلامية في معظمها؟ فالمواقف التي ستخضعها هذه المجموعة من الشباب إزاء الغرب تعتبر أحد الشواغل المهمة، وذلك مع تدهور صورة الولايات المتحدة تدهوراً خطيراً إن الحيلولة دون إجراء تغيير دراماتيكي في مقاربة الولايات المتحدة للشرق الأوسط، واستمرار النزعات السائدة حالياً، من شأنهما أن يؤديا بصورة شبه مؤكدة إلى نشوء أجيال جديدة مهيأة اجتماعياً لاتخاذ موقف العداء للولايات المتحدة وسياساتها وقد يكون من المحتوم بالنسبة لهؤلاء الشباب الذين يتزايد عددهم ترجمة المساعر من هذا النوع إلى تعبيرات «سياسية» وحتى إلى أعمال عنف وتدل المؤشرات على أن الولايات المتحدة لن تنجح، على الأرجح في المستقبل المنظور في كسب اهتمام معظم الشباب بما يكفي للتغلب على مساعر العداء نحوها على المستوى السياسي، أو لتقديم الغرب باعتباره النموذج البديل المقبول والمتاح للمسار المفضي إلى التنمية وستتنمى مواقف الاستياء تجاه معظم الأنظمة في المنطقة ومن شأن ذلك أن يخلق مزيجاً يطيح بالاستقرار على نحو لا يصدق، ويمكن لهذا المزيج أن يعبر عن نفسه من خلال مستويات أعلى من الإرهاب والعنف المرتكزين على الوضع المضطرب الذي قد يدوم لأجيال»^٢.

في المقابل، نلاحظ تكرار المنحى ذاته في الحديث عن الشباب في العالم العربي المعاصر من قبل النخب العربية وهنا يمكن اعتبار خطاب الملكة رانية معترفاً عن تعريف الشباب ليس فقط بما هم أوسع قطاع مجتمعي بل هم القطاع الذي يجير «الصراع الأيديولوجي» عليه.

«ألفاكم اليوم في الوقت الذي أتعاقى فيه، ومعني شعب الأردن، من الأعمال الإجرامية التي خضرت بلدنا الحبيب في التاسع من تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٤. لقد أكدت تلك الأعمال الشريرة أن باستطاعتنا مواجهة هذه الأيديولوجية الشريرة، كما أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك بأننا نشهد معركة واضحة بين أيديولوجيتين متعارضتين واحدة تقوم على مبدأ الحياة والأمل، وأخرى متجذرة في الجريمة والفوضى. نحن نعتقد أن المستقبل هو ما يهم في حين يعيش هؤلاء في الماضي ويسعون لتدمير المستقبل وهذا المستقبل، الذي يتمثل في قطاع رابع في المجتمع، هو هدف الصراع الأيديولوجي الحالي. لقد اعتدنا على التعامل مع ثلاثة قطاعات تقليدية: القطاع العام والقطاع الخاص وقطاع المجتمع المدني. لكننا أغفلنا حقيقة وجود قطاع رابع هو الممثل الحقيقي لمستقبلنا قطاع يضم أكثر من ٢٠٠

مليون مواطن عربي، مواطنون لم يُسمع صوتهم عبر معادلة القطاعات الثلاثة^٤

وما تقوله الملكة الشابة هو ما يؤكد سعيد المنتفق، رئيس «القادة العرب الشباب» Young Arab Leaders في مقابلة خاصة:

«كنا في المنتدى الاقتصادي العالمي بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر؛ مجموعة من الأشخاص اجتمعنا في نيويورك لمناقشة الأسباب الرئيسة للمأساة. خلال النقاش، كان أحد الموضوعات الرئيسة التي ركزنا عليها جميعا هي كيفية الحيلولة دون تكرار أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ثانية. اتفقنا على أن الأسلوب الوحيد لتحقيق ذلك هو إدارة الشباب الذين يسكون المستقبل بأيديهم والذين يستطيعون تحقيق التغيير الإيجابي. الشباب هم المستقبل، هم المخلصون، وإذا لم نستطع التقاطهم في مطلع حياتهم، فلا أعتقد أن لدينا أي أمل في المستقبل. علينا أن ننشر بينهم ثقافة الأمل»^٥

مكافحة الارهاب عن طريق النيو ليبرالية

تتكرر تلك الادعاءات بشأن الوضع الحالي للشباب في العالم العربي بحيث تبدو وكأنها طبيعية بل وبديهية لا تحتاج لبرهان. ولكن لا يوجد ما هو طبيعي أو شائع أو محتوم أو بدهي في أي من تلك الادعاءات والافتراضات التي يحفل بها خطاب الشباب هذا. بل إنها تقوم بسلسلة من الالاعيب الأيديولوجية والسياسية التي تعمل على وضع حد للنقاش والنقد وطرح التساؤلات.

أولا، يؤكد خطاب الشباب أن مساعدة الشباب في العالم العربي هي المرادف لمكافحة الإرهاب، والمرادف لتعزيز الإصلاحات الاقتصادية النيوليبرالية؛ فكل هذه الأمور تعني الشيء ذاته؛ وهي تنسجم بصورة طبيعية مع بعضها البعض. ثانيا، يطرح خطاب الشباب السائد فكرة وجود ارتباط طبيعي بين مصالح الولايات المتحدة ومصالح النخب السياسية المحلية في الحفاظ على قواعدها وانظمتها السلطوية، ومصالح نخب رجال الأعمال متعددة الجنسيات والمحلية في تنمية أسواقها والأرباح، من جهة، وبين مصالح الشباب العربي في عملية تنمية سليمة ومجزية من جهة أخرى.

ثالثا، يوحي خطاب الشباب السائد هذا بأن مكافحة الإرهاب وتعزيز النيوليبرالية لا يجريان لخدمة النخب الغربية أو الأميركية أو المحلية، بل يجريان أولا وأخيرا لمصلحة أكثر المجموعات السكانية تهميشا في المنطقة، أي، الشباب العرب الفقراء المنتمين للطبقة العاملة والعاطلين من العمل أو الذين لا يعملون بكامل طاقتهم.

لكن إطار الشباب يحقّق ما هو أكثر. فهو يحول دون طرح مجموعة كاملة من الأسئلة والانتقادات: هل يتّمل الشباب العربي، فعلا، تهديدا للأمن المحلي والدولي؟ ما معنى «الإرهاب» و«الأصولية» بالتحديد؟ هل يؤدي تعزيز الاقتصاد النيوليبرالي وحرب الولايات المتحدة ضد الإرهاب، فعلا، إلى مساعدة جماهير الشباب العربي – أو هل تؤدي إلى الإضرار بهم؟ هل هناك فعلا ارتباط وثيق بين مصالح الشباب العرب ومصالح كل من النخب المحلية والأميركية – أم أن هناك تضاربا فعليا في المصالح ينبغي معالجته؟ واستنادا لخطاب الشباب، لا داعي للقلق بشأن مسائل من نوع الأيديولوجيات أو الاقتصاد السياسي أو علاقات القوة بين الدول وضمن الدول.

شباب «متعولم» وشباب «محلي»

والواقع أن الصفات المميزة للتاريخ المحلي والثقافة المحلية والعلاقات الاجتماعية والنزاعات السياسية المحلية، غائبة عن تلك الوثائق، ترد، في أفضل الأحوال، في الهوامش والخلفية. بدلا من ذلك، يجري ربط جميع المسائل المذكورة، في العالم العربي، بنموذج معياري شامل ووحيد للتنمية السليمة للشباب في المجتمع. يتناول هذا الإطار الشبابي، الذي نُزعت عنه الصبغة السياسية، النزاعات الأيديولوجية والطبقية والوطنية والقومية الفعلية ويعيد موضعها باعتبارها مسألة تنمية سليمة للشباب تضع حدا للجنوح وتنسم بالبراعة والإشارة. وهنا يجري تقديم الأجندات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المحددة التي يتم ترويجها في المنطقة العربية، ليس باعتبارها خيارا بين بدائل أخرى ممكنة، بل باعتبارها ضرورية ومحتمة. فهي، أولا، الخيار «الحديث» في مواجهة الخيار «المتخلف»، بلغة الأجيال الاجتماعية. وهي، ثانيا، ضرورية لمتطلبات تنمية الشباب المحلي، بلغة العمر الفردي.

يرتبط التحول نحو الشباب في العديد من الأقطار العربية ارتباطا وثيقا باعتلاء قيادات عربية شابة رأس الهرم السياسي في الجمهوريات – سوريا – والممالك – الأردن – أو المشيخات – قطر. بالرغم من اعتلاء هذه القيادات الشابة مواقعها من خلال التوريث فقد دأبت على ترويج نفسها على أنها جديدة تسعى للتغيير. هؤلاء هم «المصلحون الشباب» الذي يعملون بالشرابة مع «ملكة الأردن الشابة»، رانية، أو «سيدة سورية الأولى» أسماء الاسد، أو «شيخة قطر الشابة»، الشبيخة موزة، لأحداث التغيير عن طريق تجسير الهوة بين الغرب وبين العالم العربي وتشريع ابواب المنطقة على الاقتصاد العالمي. وقد أحاطت هذه القيادات

٤ www.queenrania. jg/content/modulePopup.aspx?sectD=&itemID=1035&ModuleID=press&ModuleOrigID=news-22k Accessed January, 29, 2009.

٥ مقابلة خاصة، ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر، ٢٠٠٧، البحر الميت، الأردن.



الثورة

[اشحنها من جديد]

«الشباب المتعولم» يربي «الشباب المحلي».

الشباب نفسها «بالنخب الاقتصادية الشابة» - على اعتبارها ممثلة للتغيير والتجديد، رغم أنها مشابهة من حيث الدور والخلفية للنخب القديمة. وهكذا توافق بروز دور الملوك والرؤساء والامراء والشيوخ الشباب مع تزايد الاهتمام بالشباب في البلاد المعنية، إضافة لتنامي البرامج ومشاريع الإصلاح التي تناولت التعليم الرسمي والتعليم الخاص وتغيير المناهج التربوية بما يتناسب مع «روح العصر» بناء على هبات من البنك الدولي والمؤسسات الدولية. ورغم أن الإصلاح مشروع موجه للمجتمع بكامله، يجري الترويج له باعتباره مشروعاً للشباب ينقذه الشباب. على اعتبار أن الشعب العربي شعب فتي ديموغرافيا. وقد تم تسويق كل البرامج المذكورة باعتبارها جزءاً من عملية التحرير والتحديث والدمقرطة في العالم العربي - لنقله إلى اقتصاد عالمي جديد.

لكن نظرة متأنية نلقبها على تلك الخطابات وعلى عملية وضع البرامج الفعلية، من شأنها إيضاح المهمة التي يقوم بها هذا «التحول نحو الشباب» سياسياً واجتماعياً وخطابياً. رغم البلاغيات التي تستخدمها الحكومات والمنظمات الدولية تتحدث عن استهداف «الشباب» عموماً، فبرامج الشباب تختلف اختلافاً جذرياً عندما تكون موجهة إلى فئة «الشباب العربي المعولم» أو إلى مجرد «الشباب العربي».

تتألف فئة «الشباب العرب المعولم» من الأفراد الأصغر سناً في النخب المحلية والعالمية، يشاركون الحكومات والمجموعات الدولية والولايات المتحدة في المفاهيم والأجندات ذاتها. ومعظم هؤلاء الأفراد تلقوا علومهم في الغرب (٩٣،٢٪) في المملكة المتحدة أو الولايات المتحدة أو في الجامعات الأميركية في الشرق الأوسط ريفضلون الحديث باللغة الإنكليزية. وهم رجال أعمال في القطاع الخاص، ممن قطفوا ثمار الخصخصة واقتصاد السوق الحر، إضافة إلى تروؤس البعض منهم للمنظمات الأهلية.

يقدم أفراد هذه الطبقة أنفسهم بوصفهم إصلاحيين يتطلعون إلى المستقبل، يعملون بالشراكة مع المجموعات الدولية والغربية لإدارة وتربية الفئة الأوسع من «الشباب المحلي» على اعتبار هؤلاء النقيض الصارخ لها تضم المتخلفين والكسالي والمفتقرين للمهارة والتهذيب والانضباط، بل أنهم محدودو الأفق وعرضة للوقوع في براثن الأصولية والإرهاب. والواقع أن «الشباب العرب العالميين» تحولوا إلى «مستشرقين محليين»، يروجون لرؤية نمطية للثقافة العربية، كما تتجسد في الشباب المحليين. هكذا يجري تصوير مشاكل الشباب على أنها مشاكل الثقافة العربية. فالشباب يفتقرون لمهارات الريادة لأن

الثقافة العربية تفتقر إليها. والشباب لا يقدر على قيمة العمل لأن لدينا في العالم العربي ثقافة العار. والشباب إرهابيون لأننا نفتقر لثقافة الأمل، ولأن العقل العربي عقل متطرف. والشباب يقومون بالتفجيرات الانتحارية لأن الثقافة العربية هي ثقافة الموت. والشباب متعصبون ولا يتسامحون مع الآخرين لأن الثقافة العربية ثقافة أصولية. وبالنسبة للأردنيين الشباب العالميين، من الواجب إدارة الشباب المحلي أو الثقافة المحلية وإلا فإن الإرهاب سيعم المنطقة. ولذلك، يضم هؤلاء جهودهم إلى جهود «مستشقي» الغرب - في الإدارة الأميركية والمنظمات الدولية الأخرى - كالمندى الاقتصادي العالمي والبنك الدولي والأمم المتحدة - من أجل «إدارة» الشباب المحليين أو الثقافة المحلية التي تفرخ الإرهاب.

ومن هنا، نجد أن بلاغيات الشباب لا يمكن استثناءها من التراتيبات الهرمية التي تشكل جزءاً لا يتجزأ من المجتمع العربي. فمفهوم «الشباب» يختلف عندما يُستخدم للإشارة إلى الملك الشاب والملكة الشابة والرئيس الشاب والسيدة الأولى الشابة والنخب الشابة، عنه لدى استخدامه للإشارة إلى الشباب العرب «العاديين» ضمن بقية السكان. كذلك يختلف المفهوم بين الشباب الذين هم وكلاء، وبين الشباب التابعين لهم. فإذا كان الشباب يعني «التغيير»، فثمة القيادات والنخب الذين يضعون برامج التغيير وينفذونها بالتنسيق الوثيق مع الولايات المتحدة - بريطانيا في حالة سورية - والمنظمات الدولية، ومن ثم هناك الشباب الذين ستطبق عليهم تلك البرامج، والذين ينبغي أن يطالهم التغيير.

لا يكتفي المصلحون بالتحالف مع النخب العالمية، يرتبطون بكافة أنواع المنظمات الشبابية العالمية، مثل «القادة الشباب العالميون»، «رابطة الرؤساء الشباب»، «القادة الشباب العرب»، «رابطة رجال الأعمال العرب»، «المندى الاقتصادي العالمي» والمجلس المنبثق عنه، «مجلس الأعمال العربي»، وبالنظر لأنهم أسسوا منظمات جديدة خاصة بهم في الأردن، مثل «رابطة الرياديين الشباب» و«جمعية الاقتصاديين الشباب»، فإن أولئك المصلحين يعرفون أنفسهم بأنهم عالميون ويشيرون إلى الشباب الذين ينبغي إصلاحهم بتعبير المحليين.

تبنى أفراد تلك النخب الشابة وجهة نظر النخب الرأسمالية العالمية بشأن الشباب وضموا جهودهم إلى جهود النخب العالمي الأخرى لمحاربة الإرهاب. ويمكن تقسيم مفاهيم النخب الشابة حول الشباب إلى فئتين: الفئة الأولى تتصل بمشاكل الشباب، وتتصل الثانية بالحلول الخاصة لتلك المشاكل. وبما أن مكافحة الإرهاب تجري عن

خلال اكتساب المزايا عن طريق دعم البلاط الملكي، والتلاعب بسياسات الإصلاح واستغلال منظومة من شبكات الانتفاع الشخصية، للاستفادة من التدابير الاقتصادية الجديدة التي نشأت خلال صيرورة الإصلاح.

أفاد أفراد الجيل الجديد أيضاً من الشبكات الاقتصادية التقليدية العاملة على مبدأ الدكاكين التي تعود إلى جيل آبائهم، والتي أنشأوا على أسسها شبكات دولية حديثة ورغم أن النخب الجديدة المعولمة تطرح نفسها باعتبارها الحرس الجديد الذي يحارب الحرس القديم وكل ما ينهله (أي المحسوبية والفساد والواسطة) فإنها تستمر على منوال ممارسات الحرس القديم (أهلهم)، ولكن باعتبار تلك الممارسات جزءاً من الدولة النوبلبرالية في مقابل دولة الرعاية الاجتماعية، ولم يكن تعيينهم لأنفسهم وكلاء لإصلاح الشباب والمجتمع العربي ليصير ممكناً لولا موافقهم المتميزة الموروثة في النظام الاجتماعي العربي السائد ذلك أن نظام المحسوبية والزبونية الكامن في صلب دولة الرعاية الاجتماعية، الذي تدبته النخب المذكورة حاله استعصاء عنه بنظام محسوبية جديد تألّس في القطاع الخاص والواقع أن القطاع الخاص في معظم الأنظار العربية تهيمن عليه حالياً علاقات الائتكال على الحكومة أو على العائلة، تجمع بينهما شبكات المحسوبية فقد نُفذت الإصلاحات الاقتصادية ضمن منظومة سعي وراء الربح حافزت على شبكة من العلاقات الحكومية ولم يقتصر المستفيدون من تلك الإصلاحات على السياسيين وزعماء العشائر والنخب الاقتصادية التقليدية، بل أفاد منها أيضاً جيل جديد من رجال الأعمال الريفيين، لا يعدو كون العديد من أفراد أبناء وبنات النخب الاقتصادية والسياسية القديمة.

وهكذا، وعلى الرغم من أن أفراد النخب الشابة يطرحون أنفسهم كمصلحين وكأشخاص يكافحون الفساد والمحسوبية والوساطة بهدف بناء المجتمع النموذجي الذي تدعو إليه الولايات المتحدة، فإن قصص الإصلاح المذكور توحى بعكس ذلك تماماً فالفساد والمحسوبية تجري مكافحتهم عندما يتعلق الأمر باستخدام الموارد العامة للحصول على وظائف حكومية، ولكن ليس عندما يتعلق الأمر بحصول النخب على عقود المشاريع الحكومية لقد شهد الأردن نسوة أوليغارشية من رجال الأعمال الشباب، يتمتع بعضهم بنفوذ نفوذ رئيس الوزراء أو حكومته في مجال تقرير السياسات الاقتصادية والسياسية مثال على ذلك شريف الزعبي الذي سبق وشغل منصب وزير الصناعة وشغل حالياً منصب وزير العدل وقد تولت الشركة القانونية التي تملكها عائلته عدة صفقات ضخمة في

طريق تجسير الفجوة عبر إطلاق اقتصاد السوق، يجري إبراز المفاهيم المتعلقة بمشاكل الشباب وحلولها بتعابير اقتصادية فالشباب يفتقرون للمهارات اللازمة للعمل في الاقتصاد العالمي، وهم كسالى ينتظرون أن تساعدكم الحكومة، متعصبون ضد الآخرين، وهم غير مسؤولين ولا يحبون ركوب المخاطر وإطلاق مشاريع خاصة، لا يعرفون ولا يجيدون العمل الجماعي، وهم مستهزون ومعرضون للتجنيد من قبل الأصولية بالتحلي، فإن الشباب بحاجة لأن تجري إدارتهم وحمايتهم من الأصوليين هم بحاجة لأن يتعلموا كيف يصبحون رجال أعمال، لأن يضطلعوا بمسؤولية حياتهم لتقبل فضائل العمل، وبحاجة ليتعلموا التسامح.

حالة الأردن: هل الجيل الجديد مختلف عن القديم؟

ما الذي يجعل تلك النخب ترى في ثقافتها ما يراه المستشرقون؟ من هي تلك النخب؟ كيف تلتقي مصالحها بمصالح الإمبريالية الأميركية وما هي تدخلاتهم؟

تميل النخب الأردنية الشابة والفاعلون الدوليون لتصوير الصدى الموجود بين الشباب الأردني عموماً وبين النخب الأردنية الشابة باعتبارها انقساماً بين المجتمع الجديد والمجتمع القديم في البلد، وتجري الإشارة دائماً إلى النخب الجديدة بتعبير «الحرس الجديد» المؤيد للتغيير والمرونة والانفتاح والعولمة، والذي يخوض الحرب مع «الحرس القديم» المقاوم للتغيير والمعارض لمشاريع الإصلاح لا لسبب سوى مقاومة التغيير، قال لي أحد القادة الشباب العاملين في معرض الشرح: «الشباب الأردني الذين هم نتاج للحرس القديم والذين لم تتح لهم الفرصة التي أتيحت للشباب الأردنيين بالدراسة في الخارج وتوسيع آفاقهم بجسودهم القيم التي ورتوها عن الحرس القديم، ومن هنا الحاجة للعمل على تغيير هؤلاء» لقد تم اختزال كامل الصراع السياسي والاقتصادي ضد «مشروع الإصلاح الهاشمي» إلى مجرد مشكلة ثقافية يمكن حلها عن طريق تدخل ثقافي، تسيّره الوكالة الأميركية للتنمية العالمية، دون الحاجة لإعادة النظر بما ألحقته برامج الإصلاح ذاك من وبلاط بالمجتمع الأردني.

أفراد الحرس الشباب الجديد هم في أغليبيتهم من الفاعلين في القطاع الخاص، الذين تنامي أهميتهم في الاقتصاد العربي منذ انسحاب الدولة عبر الخصخصة وبرامج التعديلات البنيوية بتكلمون الإنكليزية بطلاقة حيث يعتبرونها لغتهم الأم ويتمتعون بمستوى تعليمي عال ويرتبطون ارتباطاً وثيقاً بالشركات والمؤسسات الدولية ولم تنشأ تلك النخب بناء على معايير تنافسية تتصل بالاقتصاد وبالمشاريع الخاصة كامتلاك مهارات قيادية أو إبتيان بفكر خلاقة بل تكونت من

الأردن قبل توليه المنصب، بما في ذلك خصخصة قطاعي الاتصالات والتعدين وصفقات إنشاء بنى تحتية كان لها تأثير على السياسة الاقتصادية. ولقد حل استغلال أوليغارشية الرياديين الجديدة لرافعتها السياسية لتتجنب تنفيذ مشاريع الإصلاح التي تضر بمصالحها، محل فساد الحرس القديم الناجم عن استغلال الأردنيين من خلال تقديم الوعود لهم بتأمين وظائف في القطاع العام.

خلق شخصيات نيوليبرالية مطواعة

إن دراسة معمقة للبرامج الموجهة للشباب العربي في الفترة الأخيرة تظهر أن هدف هذه البرامج ليس اعداد الشباب للعمل في منظومة الاقتصاد العالمي؛ وليس بالطبع مساعدتهم على التوظيف، بقدر ما هو خلق الشخصية النيوليبرالية التي تتحمل مسؤولية فقرها وبطالتها بينما تنظر بالاعجاب الى النخب التي جمعت أموالها بسبب العمل الدؤوب والتمتع بمهارات العمل في السوق العالمي.

رغم أن الخطابات الرسمية المتعلقة بالشباب تتفنن في الحديث عن إعداد الشباب العربي للعمل ضمن اقتصاد المعرفة العالمي الذي يتطلب مهارات عالية، نجد أن العديد من البرامج المخصصة للشباب مهياة للترويج للانضباط ولأخلاقيات العمل وإدارة الوقت وثقافة تحمل المسؤولية - التي عادة ما تُعتبر بمثابة قواعد أساسية، ما يسمى «المهارات الناعمة». تسعى البرامج الخاصة بالشباب لتكييفهم مع عملية الإصلاح الاقتصادي النيوليبرالي الشاملة التي تسعى الحكومات لترويجها منذ أواخر الثمانينات وبواتر مختلفة على امتداد العالم العربي. وقد شهدت الفترة المذكورة خصخصة جميع المؤسسات الحكومية الرئيسية، وتوقيع اتفاقيات التجارة الحرة مع الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي، وتأسيس المناطق الاقتصادية الحرة في معظم الأقطار العربية.

لكن، لتأمين نجاح اقتصاد السوق النيوليبرالي دون مواجهة معارضة سياسية قوية وعوائق اجتماعية، يجب تدريب الشباب في الأقطار المختلفة بحيث يتصرفون ويفكرون كشخصيات نيوليبرالية تؤمن بالسوق الحرة والروح الريادية ليس فقط عن طريق تزويدهم «بالمهارات» المطلوبة، بل بتزويدهم أيضاً بالسلوكيات والمواقف والقيم والأيدولوجيات. ففي حين يضطلع القطاع العام والمجتمع المدني بمساعدة القطاع الخاص على الترويج لهويات وطنية انعزالية جديدة من خلال الحملات الدعائية - تحت شعارات الأردن أولاً ولبنان أولاً او فلسطين أولاً - تضطلع المؤسسات الأميركية والدولية ومؤسسات القطاع الخاص بمسؤولية الترويج لاقتصاد السوق

الحرة النيوليبرالية بين صفوف الشباب.

ماذا تعلم تلك البرامج؟ ومن هم الشباب الذين تستهدفهم؟ إن إلقاء نظرة فاحصة على ما يجري، كفيل بكشف الترويج لاقتصاد السوق الحرة النيوليبرالي تحت مسمى الديمقراطية، والترويج للانطواء القطري بدلاً من الديمقراطية في المجال السياسي.

المنظمات الرئيسية التي تروج لتلك الأيدولوجيات هي «إنجاز العرب» Injaz - الفرع العربي من المنظمة الأميركية التي روجت لاقتصاد الحر منذ تأسيسها في العام ١٩٩٩ والتي رافقت عملية الترويج لاقتصاد الحر من أميركا اللاتينية الى أوروبا الشرقية ومن ثم في العالم العربي - و«نجاح» Najah وهو برنامج تابع لـ«إنقاذ الاطفال» Save the children. وفي حين تعمل منظمة «إنجاز» مع الشباب في الجامعات والمدارس، تتوجه «نجاح» إلى المنقطعين عن الدراسة. الهدف من برنامج «نجاح» هو تعليم طرق النجاح للشباب المنقطعين عن الدراسة وهي مخصصة أساساً للشباب الذين يعيشون دون خط الفقر. يجري ترويج برنامج «من المدرسة الى المهنة» School to Career باعتباره برنامجاً لتنمية الإمكانات وهو يهدف إلى تدريب المدرسين ومديري المدارس والمستشارين فيها على كيفية تدريس المهارات الناعمة للشباب في المدارس. وبما أن «إنجاز» تتمتع برعاية النخب السياسية والاقتصادية - الملكة رانية في الأردن والشيخة موزة في قطر والأميرة [مي] في البحرين - وتحظى بدعم الشركات الرئيسية في القطاع الخاص فإنها تتمتع أيضاً بتغطية إعلامية جيدة في معظم الأقطار العربية. ومن خلال هذا الترويج الإعلامي تتمكن «إنجاز» من الوصول إلى الشباب إضافة إلى الطلاب الذين يتابعون المقررات التي تنظمها. وهكذا نجد أنه وبالإضافة إلى ١٠٠,٠٠٠ طالب مشترك بمسابقات وبرامج «إنجاز» على طول العالم العربي، هناك ملايين الشباب الذين تصلهم أيدولوجية «إنجاز» عبر التغطية الإعلامية لتلك المنظمة.

وقد وقعت «إنجاز» مؤخراً عقداً مع «وكالة غوث وتوظيف اللاجئين الفلسطينيين» UNRWA للسماح لملتطوعين بتعليم طلاب الوكالة اقتصاد السوق. الهدف الرئيس المعلن لهذه البرامج هو تمكين الشباب وتزويدهم بالمهارات التي تجعلهم صالحين للتوظيف في اقتصاد السوق المعولم. يتحقق ذلك من خلال سلسلة من المسابقات على مستويين، الثانوي وما بعد الثانوي. المقررات التعليمية تركز جميعها على مهارات وأخلاقيات العمل بالإضافة الى الريادة والقيادة التي تختصر بمهارات هي أيضاً. اي كل ما من شأنه تعزيز الخرافة القائلة إن اقتصاد السوق مشرّع الأبواب أمام الجميع



اجتماعية أخرى في العالم العربي؟ وإذا كانت نفس المجموعة من الأفكار تُرَوِّج لفئات مختلفة فكيف لها أن تفكر بالشباب؟ البس من الأجدى من الوجهة النقدية، أنه إننا ما فهمنا السياسات التي يجري ترويجها على حقيقتها لا بد لنا من معرفة المصالح التي تخدمها تلك السياسات والبدائل التي يمكن اختيارها؟ وإننا كان يجري ترويج نفس السياسات بين فئات مختلفة في المنطقة العربية في هذه اللحظة التاريخية، يبرز سؤال لا سبيل لتفاديه: ملهي الدلالة التي يحملها الشباب حالياً؟

بعد دراسة الموضوع يمكن الاستنتاج بأن هناك خمس دلالات للشباب تخدم مصالح النخب ومصالح المجتمع الدولي حالياً على نحو واضح.

الدلالة الأولى هي أنَّ الشباب يناسبون أفكار التغيير اللازمة للمنطقة والفكرة السائدة أن الشباب يمثلون دائماً وكلاء التغيير، ما يسرع من مشروع التغيير والإصلاح الذي يمكن تنفيذ مصالح سياسات الولايات المتحدة من خلاله. ينسجم ذلك مع كل هذا الاقتناع بالتغيير، وهو أسلوب لوضع مشروع التنمية ضمن إطار عملية تطورية وحيوية: الشباب هم راشدون لم يكتملوا بعد وينبغي الأخذ بيدهم في درب النضوج. ومنه أن العالم العربي ما يزال متخلفاً ويحتاج لمن يساعده على الوصول إلى الاقتصاد العالمي لكي يتطور، كذلك يحتاج الشباب العربي إلى التمكين لكي يصبح قادراً على المنافسة ضمن الاقتصاد العالمي.

الدلالة الثانية هي في ما يروّجه خطابُ الشباب من توجه نحو المستقبل ومن تأجيل للرغبات وتعليق للأحلام وهو يطلب من الناس الاستثمار في المشاريع الآن بأمل أن يعود عليهم ذلك بالفوائد مستقبلاً، ولكن للوصول إلى هذا المستقبل يجري تأسيس المتديبات، على طريقة «المتديبات من أجل المستقبل»، كما يجري تخصيص الأموال من أجل المشاريع الشبابية المستقبلية.

الدلالة الثالثة هي أن الشباب يمثلون فئة معتمدة، وهو تعبير ملطف يساعد في تفادي الحديث عن فئات أخرى كالطبقة. رغم أن أهداف المشروعات الشبابية تُصمَّم على أساس طبعي أي أنها تستهدف الطبقة الوسطى والشباب الفقير على نحو أساسي، وعلى العامل «الديني» الذي يمكن شحنه سياسياً وهو ما من شأنه المساعدة في عملية الاستيعاب التي تهدف لإيجاد مواطنين مستهلكين مطوَّعين سياسياً.

الدلالة الرابعة، تعزيز الفجوة بين الأجيال، تشكل جزءاً من عملية التثقيت، التي تعقب عملية الدمقرطة النيوليبرالية من خلال تفكيك المركزية وفصل الاقتصاد عن السياسة ما يساعد في عملية السيطرة والتحكم.

أما السمة الخامسة والأخيرة فهي أنَّ خطاب الشباب

حيث النجاح لا يتطلب سوى يضع مهارات يتعلمها الشباب كما أن من شأنه حجب المظالم البنيوية المتأصلة وانسحاب الحكومة من دورها في توفير الخدمات الاجتماعية وإننا كان ذلك يصبح على المستوى الفردي فإنه يصبح كذلك على مستوى الدولة كذلك يتعلم الشباب أن الولايات المتحدة هي رائدة الاقتصاد العالمي، ليس لأنها تستغل موارد الأمم الأخرى بل لأن الشباب فيها يتمتعون بمجموعة من المهارات التي تجعلهم تنافسيين. وبما هذا إلى النظام التربوي الناجح في الولايات المتحدة المصمم خصيصاً لهذه الغاية.

تعمل تلك البرامج بالطريقة التي ذكرنا لا على جذب الشباب إلى اقتصاد السوق العالمي فحسب، بل أيضاً على معالجة مشاكل الاضطرابات الاقتصادية الناجمة عن صيرورة «الإصلاح الاقتصادي» النيوليبرالي الذي اجتاحت العالم. فـ«الوكالة الأميركية للتنمية الدولية» USAID يحكم كونها وإعيرة للاضطرابات التي ستجلبها الإصلاحات الاقتصادية الرامية لنشر اقتصاد السوق الحرة في المجتمع العربي، تعمم الفكرة القائلة أن أسباب الاضطرابات الاقتصادية داخل النظام يعود إلى الأفراد أنفسهم لا إلى السياسات، فالشباب لا يدفعون فقط لتمثل تلك الاضطرابات، بل يدفعون للاعتقاد أيضاً بأن ذلك كان خيارهم، مما يبعدهم عن التفكير بمطالبة الدولة بالحماية من صدمات السوق. فإذا كانوا في النظام القديم عمالاً يحكم الحاجة، فيصوِّر لهم الأمر الآن على أنهم رجال أعمال ربابيون بل أرادتهم.

ترجى هذه البرامج لنموذج من التعليم يُعتبر فيه أن كل ما هو ذو معنى وفائدة هو المرتبط مباشرة بمصالح السوق وبالقطاع الخاص. ويتضمن ذلك فتح الأبواب أمام القطاع الخاص للمشاركة مباشرة في التعليم الحكومي في الأردن بل إن برنامج «إنجاز» نفسه يضم شركات مثل «إرامكو» و«سابفوري» و«ماكدونالدز» للاستشارة، ولتقديم متطوعين لتدريس مساقات «إنجاز» واستضافة الدورات التدريبية وعرض «قصص نجاح الشركات» أمام طلاب المدارس الحكومية، ولرعاية المدارس - ما يتيح لتلك الشركات في الوقت نفسه مجالاً للتفكير بالدعاية - والأهم من ذلك كله لتمويل إنجاز بالكامل منذ انتهاء فترة الهيئة الأولية المقدمة من الوكالة الأميركية للتنمية العالمية.

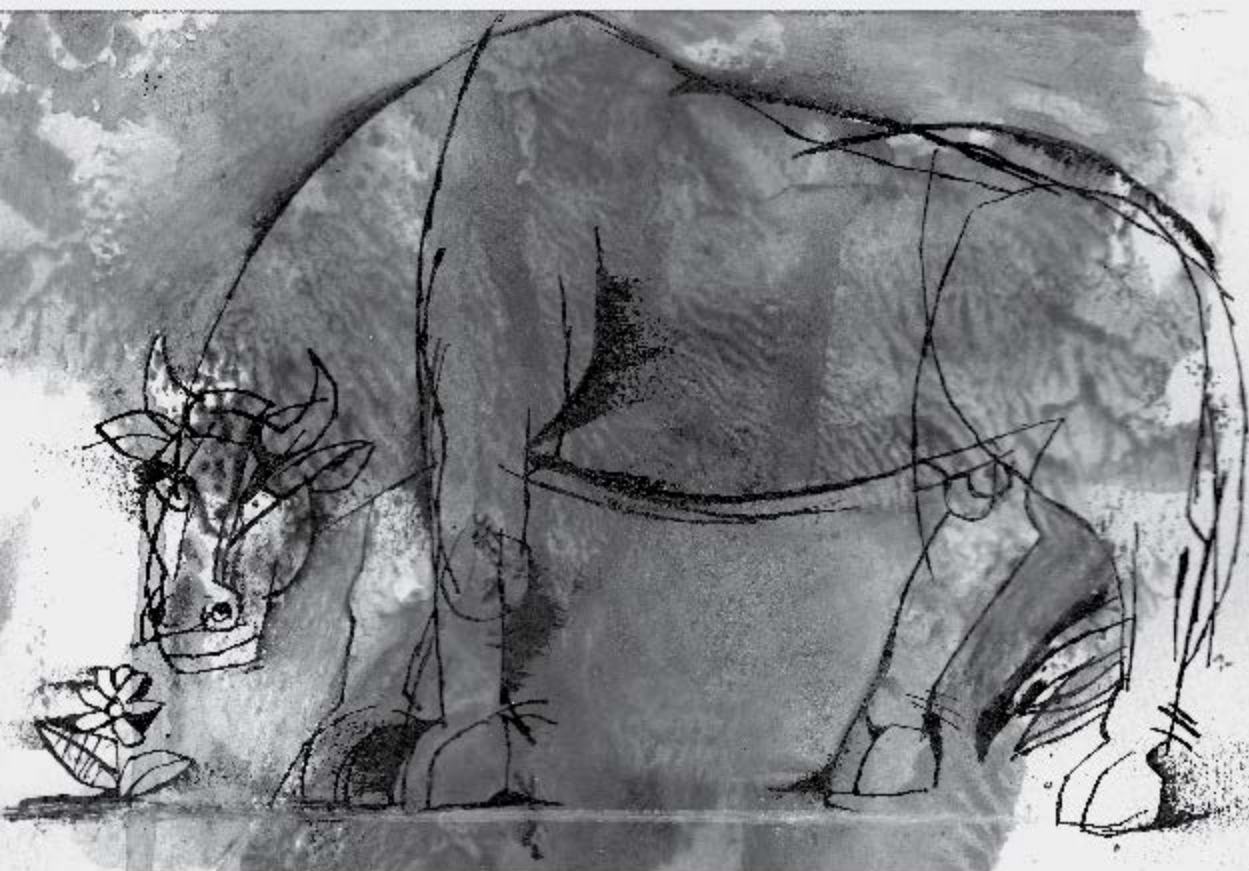
خاتمة

هل أعدت تلك المشاريع للشباب فقط؟ هل تقتصر الأيديولوجيات التي تُشَرِّع عبر البرامج المهمة للشباب على الشباب فقط؟ أم أنها تُشَرِّع عبر برامج أخرى مهمة لفئات

هذا بالتحديد هو سبب ترويج الشبّاب باعتبارهم بنية من قبّل النخب السياسية والاقتصادية وفي هذا الجزء من العالم وبهذا التزامن التاريخي بالتحديد ذلك ان الفكرة تتمتع بجانبيّة كبيرة إضافة إلى أن بإمكانها أن تصبح أداة تسويقية ناجحة للمشايخ التي ترغب تلك النخب بتنفيذها في هذا الجزء من العالم. يبقى على الباحثين معرفة سبب ترويج هذه الفكرة حاليًا، والجهات التي تقوم بالترويج ولأية أهداف.

يسرع التدخل الخارجي ونهج التدريب والأسلوب الأيوبي التي تشكّل كلها المشروع الأميركي في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

وإذا كانت هذه الدراسة قد ركّزت على أجندات سياسية يعينها تعمل على الشبّاب في العالم العربي، فإن من المهم ألا يغيب عن البال أن الشبّاب يجتذبون مجموعات مختلفة لا تشترك كلها في نفس أنواع الأجندات السياسية التي تتناولها الدراسة الحالية. وهو ما يجعلنا ندرك أن



النيولبرالية والاستبداد في سورية

ياسر منيف

نلفظ وأستلنا

مساعد في كلية

إمرسون في الولايات

المتحدة الأمريكية

عمر ضاحي

أستاذ مساعد في

الاقتصاد في كلية

علمي في الولايات

المتحدة الأمريكية

http://glsh.

aljazira.net/dope

http://2011/04/20

114314059483767.

٧ مقالة خاتمة، ٧٠ عرض

الآن نوفمبر ٢٠١١

البحر البيت القرن.

٧ كان مؤسسا الحزب

ميفال علفي وصالح

الذي البيطير، مؤرخي

تأليف تصليها العربي

في فرنسا، وقد تقرأ

يا فتادار القرائية

والعلمية ولا سيما

أفكار القرائية

الفرنسية. فازي

أرموني الذي كان

أيضا مؤرخا لويلا لوز

خلفا، مرجعا بالصفة

إلى الجيل (العسكري)

العلم في البحث، ولا

سيما الأسد الذي عمل

على البيطير يؤمن أن

أرموني هو الرئيس

أديولوجي، الضمني،

الحزب البحث.

مع تفكّم الثورة السّعبية في «سورية» يتضح أكثر فأكثر أن النظام الحالي في دمشق يشهد مراحلهِ الأخيرة. وفيما يستمرّ النظام بالتّشبّث بالسلطة وبواصل حملته الهمجية لقمع الحركة الاحتجاجية، يستخدم أيضاً ورفقته أساليباً لاطلاق أنطبع يهيمك أيدولوجياً مناهضة أو ممانعة للإمبريالية أو، ونموذجه الاقتصادي القائم على دولة الرعاية الاجتماعية الاشتراكية. لقد أولي بعض الاهتمام للنقطة الأولى، لكننا نتطرق في هذا المقال إلى النقطة الثانية، في محاولة لتفنيد المسار الاقتصادي للنظام وتسليط الضوء في شكل أفضل على أحد جوانب الثورة.

السلطوية والتحرير الاقتصادي

أعطت القيادة السياسية في سورية أولوية كبرى للاستقلال على حساب القوى المعارضة داخل البلاد وخارجها، لكن لدى رسم مسار التحرير الاقتصادي، نلاحظ خسارة تدريجية لهذا الاستقلال من خلال تبدل القواعد السّعبية للنظام ما يفسّر جزئياً تفاصيل الأزمة الحالية فعلى النقيض من بلدان نامية أخرى خضعت لعلاج بواسطة الصدمات، كان التحرير الاقتصادي في سورية تدريجياً ومزّ بثلاث مراحل مختلفة خلال حكم حافظ الأسد، في حين دشّن بشار الأسد مرحلة رابعة فور تسلّمه السلطة (جوماً ٢٠٠٥) تكشف هذه الآليات النّقاب عن نموذج التثبيت السياسي الذي بناء حزب البعث تدريجياً وصقله الأسد لدى وصوله إلى السلطة. كما تسلط الضوء على العلاقة العضوية التي نشأت مع مرور الزمن، بين صعود اقتصاد السوق والحكم الإكراهي، فقد ساهم كل منهما في تبلور الآخر. بيد أن النموذج السلطوي النيولبرالي زاد أيضاً من احتمالات اندلاع ثورة اجتماعية.

منذ الانقلاب البعثي عام ١٩٦٣، طوّر الحزب القومي العربي الصّاعد نوعاً من الاشتراكية مستلهماً من

التخطيط الاقتصادي وتوزيع الثروات كما طبّقهما جمال عبد الناصر. وقد مارس حزب البعث العربي تأثيراً في أوساط معلمي المدارس والمنقّبين إلى أن اندمج مع الحزب العربي الاشتراكي بقيادة أكرم الحوراني عام ١٩٥٢. كان الحوراني منظماً فاعلاً ومعزّزاً للفلاحين ضد الإقطاعية، ومع الاندماج اكتسب حزب البعث قاعدة واسعة في أوساط الفلاحين. عندما استولى البعث على السلطة، كان أحد همومه الأساسية تحسين حياة العمّال والفلاحين وإضعاف هيمنة النخبة السّنية المؤلفة من ملاكي الأراضي والتجار التي كانت تسيطر سابقاً على سلطة الدولة والجزء الأكبر من الاقتصاد. أعيد توزيع ثلث الأراضي الزراعية على الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً، وجرى تلميم القطاع المصرفي وصناعات أساسية فيما احتكرت الدولة التجارة الخارجية (هوفينغر ويوكلر ١٩٩٦) ومن أجل تطبيق برنامجهم لجأ الحزب إلى القوة لضبط المجموعات المستاءة وقمع أي معارضة منظمة. وشهدت المرحلة المحتمة من منتصف الستينات إلى أواخرها نزاعات سياسية حادة بين الفصائل المختلفة داخل الحزب، وتعدّدا بين الجنائحين «الرايديكالي» و«البراغماتي» وفي الوقت نفسه كان وزير الدفاع حافظ الأسد ينادي للوصول إلى الرئاسية، وعدم إلى تصفية خصومه داخل الحزب وخارجهم وقد «شوّت» السجلات بين الفصائل المختلفة في الحزب بصورة نهائية عن طريق انقلاب نفّذه الأسد عام ١٩٧٠. وشكّل صعود الفصائل المحافظة بداية حقبة جديدة.

لدى تسلّمه سدة الرئاسية، أطلق الأسد برنامجاً لوقف الخطوات التّفيمية التي كان الفصل «الرايديكالي» في البعث، بقيادة صلاح جديد، قد طبّقها في الأعوام القليلة السابقة، ولا سيما في مسكّل الإصلاح الزراعي وفرض القيود على القطاع التجاري الخاص. ظاهرياً اتبع النظام نموذجاً تنموياً قوامه التصنيع بهدف استبدال الواردات

بالإنتاج المحلي حيث تمسك الدولة بزمام الاقتصاد، وتطلق مشاريع اقتصادية وتتولى التصنيع، وتفرض قيودا كمية على التجارة الدولية. وفي الوقت نفسه، كانت البيروقراطية السورية الواسعة النطاق تضع شريحة كبيرة من السكان تحت السيطرة المباشرة للدولة (بيرثيز ١٩٩٥). لكن بما أن العمّال في المدن والفلاحين كانوا يشكلون قاعدتين اجتماعيتين مهمتين للنظام، كان الهدف من البرنامج الإنمائي الذي قادتته الدولة حمايتهم من السوق بدلا من إخضاعهم لقواعده. وهكذا، على الرغم من تمكن النظام من إطلاق مشاريع صناعية وتصنيعية مهمة، لم يستطع تحويلها مصدرا لتراكم الرساميل، وظلّت الدولة توزيعية في طبيعتها، تعتمد على إيرادات النفط والمساعدات الخارجية التي تدفقت من السعودية ودول الخليج لاعتبار سورية «دولة مواجهة»، إضافة إلى تحويلات المغتربين (والدندر ١٩٩٩). وبسبب غياب القطاعات التصنيعية والصناعية الحيوية، ظل الجزء الأكبر من التجارة غير النفطية يتركز على الزراعة من حيث الإنتاج أو التصنيع الزراعي.

بعبارة أخرى، استخدم النظام عائداته النفطية لتمويل البرامج الاجتماعية مثل التعليم المجاني، والمنتجات المدعومة من الدولة، والرعاية الصحية المجانية. وبحسب تعبير عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو، استخدم النظام «اليد اليسرى» للدولة، وقوامها البرامج الاجتماعية المتنوعة، من أجل تحسين الظروف المعيشية للسكان. لكن هدف الدولة الأساسي، كما يشرح بورديو نفسه، هو الإبقاء على هرمية السلطة، سواء تحقّق ذلك عن طريق الإجماع أو العنف. ولذلك، عندما تواجه الدولة أزمة، تحكم بـ«يدها اليمنى» عبر اللجوء إلى أساليب الإكراه والعنف لقمع أي احتجاجات أو تحركات اجتماعية تتحدّى شرعيتها. لقد دُمج الفلاحون والعمّال والنقابات المهنية (مثل نقابات المحامين) في النظام ومُنحوا تمثيلا رسميا فيه، فخسروا تدريجا كل استقلال ذاتي، وباتت قياداتهم تُعيّن أكثر فأكثر من السلطات العليا بدلا من انتخابها، وذلك بالاستناد فقط إلى اعتبارات الولاء للنظام. وفي سبيل ترسيخ سلطته، اعتمد الأسد بصورة متزايدة على الجيش وأجهزة الامن والمخابرات، إلى جانب إنشائه حرسا بريتوريا (جمهوريا) تولّى شقيقه رفعت قيادته وأسندت إليه المهمّات غير القانونية تماما.

من عبادة حافظ الأسد إلى مجزرة حماه

عاش المجتمع السوري في حالة دائمة من الاستثناء. خلال عهد الرئيس حافظ الأسد، لم يكن هناك مواطنون سوريون بل مرؤوسون ورعايا. كما رأت ليزا ويدين أن «عبادة

شخص الأسد» التي طوّرها في السبعينات وزير الإعلام أحمد اسكندر أحمد، استخدمت مزيجا من المشهدية والبلاغة والطقوس التي تؤلّه الأسد. ورغم أن هذا المزيج لم يمنح الرئيس شرعية أو «هيمنة» غرامشية (بمعنى الرئاسة والقيادة)، فإنّه نجح في فرض الطاعة له. تقول ويدين إنّ أحدا لم يؤمن فعلا بعبادة الأسد، لكنّ قدرة النظام على إرغام الناس على التصرّف «وكأنهم» يؤمنون، ولدت في ذاتها هالة من السلطة المطلقة والقوة التي لا تُقهر. كما أدّت إلى إبعاد الناس عن السياسة وحتى توريطهم في ممارسات النظام، على الرغم من أن هذه القدرة مبالغ جدا فيها لدرجة تؤدي إلى تقويض عبادة الشخص بحدّ ذاتها (ويدين ١٩٩٩).

واجه الأسد التحديّ الجديّ الأول لحكمه عام ١٩٧٦. فقد فشل النظام في الحؤول دون حدوث ركود طويل في الظروف المعيشية لعدد كبير من السوريين. وعلاوة على ذلك، لم يبد استعدادا لتوسيع المساحة السياسية كي تصبح أكثر شمولا. فأدّى ذلك إلى نزوع المعارضة اليسارية نحو التشدد، ولا سيما مع صعود «اليسار الجديد» السوري من خلال «رابطة العمل الشيوعي»، فضلا عن انتفاضة «الإخوان المسلمين». نشبت الأزمة السياسية بسبب الحكم المطلق الذي مارسه اللواء السوري حافظ الأسد. فإلى جانب حال الطوارئ المطبق منذ عام ١٩٦٣، شنت الدولة حربا ضروسا ضد أي شكل من أشكال التنظيم السياسي، وانتهكت حقوق المواطنين الأساسية. اتّخذ الصدام بين الدولة والحركات الاجتماعية (النقابات، الإخوان المسلمين، الأحزاب اليسارية) أشكالا متعدّدة بدءا من التنظيم المستقلّ ضمن النقابات والاحتجاجات وصولا إلى الاغتيال والصدمات المسلّحة مع الشرطة وقوات الأمن في حماه ودمشق (لوسون ١٩٨٩). تبين أن زج عشرات الآلاف من السجناء السياسيين في السجون السورية وتعذيبهم بصورة روتينية لم يعد كافيا. فمن أجل وضع حد للأزمات السياسية ومنع انتفاضة «الإخوان المسلمين» من تحقيق أهدافها، أطلق النظام، بواسطة «يده اليمنى»، العنان لممارساته القمعية بحق السكان. فتراوحت حصيلة القتلى في مجازر حماه عام ١٩٨٢ من ١٠,٠٠٠ إلى ٢٠,٠٠٠ شخص (كليفلاند ٢٠٠٠: ٣٩٤؛ فيسك ٢٠٠٢: ٦٢).

بداية حقبة التعديلات الهيكلية

أدّت السياسة الاقتصادية لنظام الأسد إلى اندلاع أزمة ثانية في منتصف الثمانينات. ومن أجل إيجاد حل لأزمة الديون الحادة، فكرت مجموعة داخل الطبقة الحاكمة في طلب المساعدة من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. لكن ذلك

«يجب
ألا تفهم
الثورات
العربية
البراهنة
بأنها رفض
للسلطوية
العربية
وحسب»
إنما أيضا
للتبعية
للغرب.
كلغة
الاستعمار
الغربي
الجديد
مزوجا
بالسلطوية
المحلية
أكبر من أن
يُحتمل».

كان لاغرض عليهم القبول بإملاءات المؤسسات الدولية الأمر الذي لم يرق للنخبة السورية ولذلك فضل النظام عدم الاستماتة بالبنك الدولي وعمل على معالجة الوضع داخلياً بيد أنه اختار، تحت تأثير مجتمع الأعمال الذي كان نفوذه يتعاظم المزيد من تحرير الاقتصاد وهكذا، عقب أزمة حالة في أسعار صرف العملات الأجنبية عام ١٩٨٦، أعلنت الدولة بداية حقبة من التعددية الاقتصادية وقد أقرت سياسات اتاحت للقطاع الخاص الاستثمار بحرية أكبر، وزادت عدد القطاعات المفتوحة أمام الاستثمارات الخاصة، وعمدت إلى تحرير الأسعار وخفض الدعم الحكومي لها، وكذلك تحرير التجارة وأسعار صرف العملات وكان «الاتحاد العام لنقابات العمال» قد أعد تقريره الخاص رداً على الأزمة، ودعا فيه إلى زيادة السيطرة الحكومية على الاقتصاد معتبراً أن السبب في الأزمة هو تبعية سورية في الاقتصاد العالمي وصعود القطاعات غير الإنتاجية (سكر ١٩٩٤) يظهر تهميش مفترحات النقابات في مقابل الأخذ بكراء نخب الأعمال الصاعدة، الانعسار المطرد في تأثير إحدى القواعد الاجتماعية للنظام، واستمرت هذه النزعة خلال العقد اللاحق وقد مهد هذا السبيل الطريق لإقرار قانون الاستثمار رقم ١٠ لعام ١٩٩١، الذي نصّ على إعفاء الاستثمارات الجديدة من الضرائب لسنوات عدة، وأدت عوامل متعددة إلى تحرير الاقتصاد أكثر فأكثر في التسعينات. أصبح القطاع الخاص منافساً جدياً للقطاع العام (بيريز ١٩٩٥: ٢٥٧ - ٢٦٠)، ففضلاً عن ذلك اعتُبر انهيار الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية أفولاً للأيدولوجيا الاشتراكية، فانسحقت روايتا الخطاب الماركسي من أدبيات النظام والمناهج الجامعية، وفي صورة عاكسة، بات الاقتصاد السوري أكثر تداخلاً مع الرأسمالية العالمية أصبحت الطبقة الرأسمالية التي تعتمد على التمويل العالمي أقوى من رؤاد الأعمال المحليين وشهدت أحوال موظفي الدولة تدحجوا سريعاً فيما خرج القطاع الخاص الراجح الأكبر من عملية التحرير الاقتصادي النيوليبرالي. أصبحت التناقضات حادة على مستوى القيادة البعثية ولمعالجة تلك المشكلة بدأ النظام تهميش دور الحزب في بعض الميادين. في تلك المرحلة كانت عملية اجتثاث البعث من الاقتصاد واضحة للعيان (جوبا ٢٠٠٥) لم يعد حزب البعث مركزاً لصنع القرارات والمداولات في المسائل الاقتصادية، ففسح في المجال أمام تأثير رجال الأعمال البارزين.

«ربيع دمشق» ينفضي بمقابلة صحفية

توافق وصول بشار الأسد إلى السلطة مع الوعد بالإصلاح السياسي والاقتصادي لكن، بعد مداعبة قصيرة مع الأول

لم يُطبق سوى الإصلاح النقي. أدى «ربيع دمشق» إلى انتشار الدورات المستقلة والمنتديات الفكرية ومنظمات المجتمع المدني، وتُوج بصمود إعلانات أو بيانات عدة (مثل «بيان ٩٩») طالبت بمزيد من حرية التعبير، وسيادة القانون، واستقلال القضاء، وإلغاء المحاكم الخاصة والقانون العرفي وقانون الطوارئ معظم مطالب المجتمع المدني كان مدروساً ومتروكاً، ولم ينبر أحد للمطالبة بإسقاط النظام أو إجراء تعول «سياسي جذري» ومع ذلك، لجأت الحكومة إلى القمع، وسرعان ما تعول «الربيع» «فشتاء» مع ما حملته المقابلة الشهيرة التي أجرتها صحيفة «الشرق الأوسط» مع بشار الأسد في فبراير/كفيناظ ٢٠٠١ من مؤشرات عن التحول في الخطاب الحكومي:

«عندما تكون نتائج أي فعل نفس الاستقرار على مستوى الوطن، فهناك احتمالاً ليس احتمال أن يكون الفاعل عميلاً يغترب لصالح دولة ما أو أن يكون إنساناً جاهلاً ويغترب من دون قصد، النتيجة أن الإنسان في كلتا الحالتين يقدم أعداء بلاده، وهنا في هذه الحالة أي على مستوى الوطن يكون التعامل مع النتيجة مباشرة وهنا يتحمل الفاعل المسؤولية كاملة بغض النظر عن النيات والخلفيات» (اليس ٢٠٠٥: ٩٢).

نشر عبد الحليم خدام الذي كان آنذاك نائب الرئيس ثم انسحق لاحقاً عن النظام، وبقم نفسه الآن في صورة الإصلاح الديموقراطي - نشر إذا رسالة النظام في مختلف أنحاء البلاد مكرراً معزوفة أن هؤلاء المفكرين الليبراليين على صلة بوكالات أو سفارات أجنبية، وأنهم «مستشيون» يدعم البلاد لا يد من التذكير بأن الجزء الأكبر من الحراك السياسي خلال «ربيع دمشق» تركّز في الإعلام المقروء والمنتديات العامة والبيانات الرسمية ولم ينزل أحد عملياً إلى الشوارع (ما عدا احتجاجات قليلة ومحدودة اندلعت على خلفية إغلاقي منتدى الأتاسي ومحاكمة الناشطين بطريقة غير عادلة في المحاكم العسكرية).

الإنعطاف نحو اقتصاد السوق

منذ وصول بشار إلى السلطة عام ٢٠٠٠، ازداد اعتماد الدولة على القطاع الخاص إلى حد كبير، بيد أن الاختلاف كان نوعياً وليس كميّاً فقط، فبالا، كان التحرير الاقتصادي يتم بصورة تدريجية ومجتزئة، ويُطبق في شكل خاص رداً على الأزمات أما في عهد بشار الأسد، فقد حصل انعطاف حاسم نحو اقتصاد السوق.

فقررت القيادة الاقتصادية في ظل الأسد، ولأسباب وجهية على الأرجح، أن النموذج القديم غير قابل للاستدامة، لكن التخلص من النموذج يكامله طرح معضلة: هل يستطيع

«استبدال اليساري تيسير الرداوي بالليبرالي الاقتصادي عبدالله الدردري على رأس هيئة تخطيط الدولة، بعدما عبّر الأول عن خشيتيه من تفاقم عدم المساواة».

النظام أن يتخلّى كلياً عن قواعده الشعبية الأساسية، تحديداً اليد العاملة في المدن والفلاحين؟ وهكذا دار نقاش على مستوى القيادة حول النموذج الذي يجب اعتماده: التحرير النيوليبرالي المطبّق دفعة واحدة أم التحرير التدريجي. أصبح ما يُعرّف بـ«النموذج الصيني» شعاراً للمسؤولين السوريين. خلال العقد المنصرم، اتخذت الحكومة إجراءات واسعة النطاق لتحرير التجارة (مثلاً المرسوم التشريعي ٦١ لعام ٢٠٠٩)، بما في ذلك إنهاء الاحتكارات الحكومية للواردات، وتحرير الصادرات الزراعية من خلال خفض الرسوم على الصادرات أو إلغائها.

وعلى الصعيد الداخلي، أدى هذا أيضاً إلى تحرير أسعار معظم السلع (من خلال «قانون المنافسة ومنع الاحتكار» لعام ٢٠٠٨). مُنحت للمرة الأولى تراخيص لإنشاء مصارف خاصة، وتأسست بورصة. وجرى تثبيت تحرير السوق العقارية ورفع التنظيمات عنها، بما في ذلك إبطال قوانين الإيجار القديمة والسماح للملكي الشئق بطرد المستأجرين بسهولة أكبر من السابق حين كانت المساكن تخضع لقوانين تضبط بدلات الإيجار (قانون الإيجارات والعقارات رقم ٦)، كما تم تعزيز قوانين حماية الملكية الخاصة. وجرى تحرير قطاع الطاقة وسحب الدعم العام عنه، ولا سيما عن أسعار الديزل والبنزين والغاز، كما سُحب الدعم عن الكهرباء شيئاً فشيئاً، وحُررت أسعار المدخلات الزراعية والصناعية. وبسبب تراجع الإيرادات النفطية التي انخفضت إلى النصف تقريباً في غضون خمسة عشر عاماً، طُبّق التكييف الهيكلي بعد طول انتظار. وأسفرت الاستراتيجية التي اعتمدها النظام عن تهميش إضافي للقطاع العام فيما أسند دور قيادي إلى القطاع الخاص والطبقات المنخرطة في الاقتصاد الجديد.

لم يكن حجم التحرير وانكفاء دور الدولة في الاقتصاد في سورية دراماتيكية بقدر التحوّل الذي شهدته دول عربية أخرى مثل مصر وتونس. بيد أن سورية كانت تتطلّع إلى تلك الدول أو ترى فيها نماذج تحاول محاكاتها. وقد أشارت وثائق أساسية في السياسات إلى أن هذه الخطوات نحو التحرير تشكّل تغييراً جوهرياً في التوجّه الاقتصادي. خلال المؤتمر القطري العاشر لحزب البعث في يونيو/حزيران ٢٠١٠، أُطلقت عبارة «اقتصاد السوق الاجتماعي» التي أصبحت النموذج الاقتصادي الجديد في سوريا. صحيح أنه تم الإبقاء على كلمة «اجتماعي»، في إشارة على الأرجح إلى أن جوانب دولة الرعاية سوف تظل قائمة، إلا أن هذا التطوّر شكّل تحوّلاً حاسماً نحو اقتصاد السوق. فقد جاء التطبيق موجّهاً نحو السوق أكثر منه نحو الرعاية الاجتماعية، ولم تتمكن الدولة السورية من تأدية الدور التقني الرشيد الضروري لإدارة

نظام تنموي قائم على الرعاية الاجتماعية، أو لم تكن مستعدة له (سعيان ٢٠٠٩). وبدلاً من ذلك، ظهر اقتصاد نيوليبرالي يزداد اقتراساً مع تركيز على الاستهلاك، والاستثمارات غير المنتجة، ودور متنامٍ لقطاع الخدمات. والمؤشّر الآخر إلى هذا التحوّل كان استبدال اليساري تيسير الرداوي بالليبرالي الاقتصادي عبدالله الدردري على رأس هيئة تخطيط الدولة، بعدما عبّر الأول عن خشيتيه من تفاقم عدم المساواة وتهميش العمّال في المدن والفلاحين، القوّتين الاجتماعيتين اللتين شكّلتا تقليدياً جزءاً من قاعدة النظام في سورية.

أمبراطورية آل مخلوف:

٣٠٪ بطالة و ٣٠٪ تحت خط الفقر

ولعل التجسيد الأبرز لصعود هذه «الليبرالية الجديدة السلطوية» يتمثّل في الدور الذي أدّاه ابن خال بشار الأسد، رامي مخلوف، عبر التسلّل إلى مختلف القطاعات الاقتصادية الكبرى مستفيداً من منطوق عدم التدخّل الحكومي في الاقتصاد. وعندما لم تناسبه يد السوق «الخفيفة»، لجأ إلى الإكراه لتحقيق أهدافه. فعلى سبيل المثال، عندما طرح النائب المعارض، رياض سيف، علامات استفهام حول صفقة مع إحدى شركات الخلوي التي كان مخلوف متورّطاً فيها، وُضع سيف في السجن. وفي هذه الأثناء، استمرت أمبراطورية مخلوف الاقتصادية في النمو لتتجاوز قيمتها ثلاثة مليارات دولار في أقل من عقد (ويلاند ٢٠٠٦: ٦٠). وقطاع الهواتف اللاسلكية هو من القطاعات التي يمارس شبه احتكار فيها. تجدر الإشارة إلى أن هذا القطاع هو خير برهان عن قساوة النيوليبرالية السلطوية (رُكّبت شبكات الهواتف الخلوية في مناطق لا يزال الوصول إلى مياه الشفة فيها محدوداً)، والأهم من ذلك أنه يشكل قطاعاً استراتيجياً لجمع المعلومات ومراقبة السكّان.

أدّت الممارسات النيوليبرالية لمخلوف وأمثاله إلى القضاء على المستوى المعيشي للمواطنين السوريين في الأعوام العشرة الماضية. فتركز الثروات هو الأكثر تفاوتاً على الإطلاق منذ مرحلة الجمهورية العربية المتحدة، مع سيطرة خمسة في المئة من السكان على خمسين في المئة من الثروات. في الوقت نفسه، عملت الطبقة الحاكمة على تحقيق انتقال مهم إنمائي تدريجي من الاقتصاد المخطط إلى اقتصاد نيوليبرالي تسبّب بوصول معدل البطالة إلى ما يزيد على ٣٠ في المئة وارتفاع نسبة الأشخاص الذين يعيشون دون خط الفقر من ١١ إلى ٣٠ في المئة (ويلاند ٢٠٠٦: ٦٣).

في السابق، كانت الطبقة الحاكمة تسأل «ماذا يكلف الاحتفاظ بالسلطة؟» وكان الجواب يؤدّي دوراً حاسماً



«الحكم السلطوي لم يعد قادراً على الانفصال عن الطبقات النيوليبرالية للحفاظ على النظام».

في تعديد خريطة التحالفات السياسية وتوزيع السلطات بين المجموعات الاجتماعية المختلفة والحزب والجهاز البيروقراطي والأوليغارشية الحاكمة في الأدنة الأخيرة، توقفت الأوليغارشية الحاكمة عن بناء ائتلافات الطغمة العسكرية أصبحت البورجوازية الجديدة استبدل الجنرالات برآتهم الكاكية وقبعتهم العسكرية بيدلات وربطات عنق سوداء. هكذا خسر النظام أن يلعب ورقة النمو الاقتصادي بمساعدة وتعرض من المسؤولين السابقين في البنك الدولي الذين رجوا لقوى السوق البوطونية لكن كان لهذا الدمج ضمنه فالحكم السلطوي لم يعد قادراً على الانفصال عن الطبقات النيوليبرالية للحفاظ على النظام أصبح مصيره رهناً بنيوليبرالية «معاذ» لم يعد بإمكان الطبقة الحاكمة أن تقسم التحالفات وتلعبها كما كانت تفعل في الماضي؛ باتت هاتس المناورة السياسية المتأجج أمام النظام معدوداً جداداً لقد أتى الدمج بين الطبقات الحاكمة في الميدانين السياسي والاقتصادي إلى تضيق دائرة الإمكانيات السياسية المتاحة بناءً على ذلك، يجب إدراج تداعي النظام الحالي في هذا السياق الطويل من الالتقاء بين الليبرالية الجديدة والسلطوية

ثورة ضد التبعية أيضاً

يجب ألا نغفهم الثورات العربية الراهنة بأنها رفض للسلطوية العربية وحسب، إنما أيضاً للتبعية للغرب كلفة الاستعمار الغربي الجديد ممزوجة بالسلطوية المحلية أكبر من أن تحتفل لقد أظهرت فضلات الشعوب العربية ومعاركها

٤ سايروس موني
الثورات العربية،
«صانع» في كية
مونت مولييه، ١٧
أبريل/نيسان ٢٠١١.

ضد الإمبريالية أن بعض العنف الغربي على الأقل غير قابل للتصدير إلى الأطراف في بعض الحالات، حاولت الشعوب العربية تعدي السلطوية عبر تبني ما وصفه فرانز فانون بـ«برنامج الفوضى السلمية» الاستعماري والعنف المطلق، لكنها فشلت في معظم الأوقات في إطاحة الأنظمة، ومجزرة حماة خير شاهد على ذلك من الضروري إدراج الثورات التي يشهدها العالم العربي اليوم، والتي تتخذ طابعاً سلمياً في غالبيتها، في هذا السياق لقد اختار غالبية المتظاهرين العرب إدراكاً منهم بأن العنف ضد الديكتاتورية معكوم عليه بالفشل، استخدام سلاح الضعيفة التظاهرات السلمية وبذلك تخوض الشعوب العربية نصلاً مزدوجاً

(١) تسنّ معركة ضد السلطوية العربية

(٢) تحاول أيضاً تعدي النيوليبرالية العالمية لهذا أظهرت الحكومات الأميركية والأوروبية تردداً في دعم مطالب المجتمعات العربية.

يتدخل الغرب فقط لاحتواء هذه الثورات، إما عن طريق عسكريتها وإما عبر عقد صفقات مع المجموعات الأكثر رجعية التي تبدي استعداداً لترويج الأجندتين الأميركية والأوروبية في المنطقة، إذا بتعدي المعتدون العقد الاجتماعي غير المدون بين الغرب والحكومات السلطوية لقد قبل هؤلاء الحكومات استيراد جزء من العنف الغربي؛ وفي المقابل سمح لهم «المجتمع الدولي» بممارسة حكم أوتوقراطي.

في سياق السلطوية العربية، سلكت «سورية مساراً مختلفاً عن سواها من البلدان فهي لا تتبع إعلانات الغرب مثل مصر في عهد مبارك أو الأردن بقيادة عبد الله لكنها لم تكن يوماً معارضة بحق للنظام العالمي الأميركي كما يحلو لها أن تصور نفسها أحياناً كانت أكثر استقلالاً مما قد ترغب فيه الولايات المتحدة، وقد بدا ذلك راديكالياً في حقبة سادها الخضوع التام من جانب إخوان سورية العرب لكن الهدف الأساسي لهذا الاستقلال كان الحفاظ على النظام، وتورط النظام السوري في الحرب اللبنانية عام ١٩٧٦ إلى جانب الميليشيات المسيحية اليمينية لسحق منظمة التحرير الفلسطينية شاهد على طبيعته المحافظة وفي عام ١٩٩١، اختار حافظ الأسد المشاركة في حرب الخليج ضد العراق في حين شارك نظام ابنه في حملة استثنائية لتسليم المطلوبين ولجأ إلى تعذيب المواطنين السوريين لجمع معلومات «أساسية» يمكن أن تساعد الولايات المتحدة في «حربها العالمية على الإرهاب» يظهر الرد الخجول من الاتحاد الأوروبي والبلدان العربية «المعتدلة» والولايات المتحدة خلال الأشهر الأولى من اندلاع الثورة في سورية، والصمت الإسرائيلي في شكل عام أن الغرب كان يرى في النظام السوري ورقة خيمة يمكن أن تساعد في الحفاظ

٥ هما أن الأسد وعددا كبيرا من انصاره ينتمون إلى الطائفة العلوية الأقلية، اختصر عدد كبير من الباحثين المجتمع السوري المعتقد والمعتقد الطبقات بمجموعة من المذاهب الدينية ذات المصالح المتعارضة. أظهر المؤرخ العراقي، حنا بطاطو، وآخرون سواء، أن استخدام «النظرية المذهبية» كمقياس أوحد لقراءة المشهد السوري وفهمه، اختزالي جدا، وإن اعتبر بطاطو أنه مع مرور الوقت، أسندت قيادة الأجهزة الأمنية والفرق المختلفة في الجيش إلى مزيد من العلوين. لكن من الخطأ اعتبار النظام «مذهبيا». فقد بينت الأحداث الأخيرة أن فئة تركيبة سياسية اقتصادية تتقاطع مع الخطوط المذهبية.

على هيكلية السلطة المهيمنة حاليا في المنطقة، مع أنه يُفضل ربما أن يتم إضعافه ويصبح بالتالي أكثر خضوعا. لكن النظام السوري تمتع، بفضل سياسته الخارجية «المعارضة» ظاهريا، بشريعة أكبر في عيون بعض العرب إلى حين اندلاع الثورة السورية. علاقته الوثيقة مع النظام الإيراني وحركات المقاومة اللبنانية والفلسطينية تجعله فريدا في السياق العربي. وقد اعتقد النظام أن هذه العلاقة الاستراتيجية ستمنحه حصانة ضد موجة الاحتجاجات في العالم العربي. فقد قال بشار الأسد بوضوح قبل اندلاع الثورة أن سورية مستقرة ولن تتأثر بـ«الاضطرابات». في الأشهر الأخيرة، تبدلت الاستراتيجية الغربية لأن النظام السوري فقد هيمنته وأصبح عبئا على أوروبا والولايات المتحدة. كما في مصر وتونس والعراق وليبيا، قد يبحث الغرب عن مستبد ودود كي يحل مكان بشار الأسد.

واقع جديد يولد في الشارع

ماذا يكلف الاحتفاظ بالسلطة اليوم؟ تخسر النيوليبرالية السلطوية بسرعة قبضتها على المجتمع، وكذلك ما تبقى من شرعيتها. فبعد كل موجة من التظاهرات، يعارض عدد متزايد من السوريين حكمها، حتى ولو كانت أقلية فقط تتظاهر حتى الآن في دمشق وحلب. لقد تمكن النظام حتى الآن من إقناع عدد لا بأس به من السوريين في هاتين المدينتين الكبيرتين بأن البدائل عن حكمه تتمثل في المذاهب الخطيرة أو أشكال النظرف المخيفة. لكن العنف وقتل المتظاهرين السلميين المستمر يحدث تحولا سريعا في عقول السوريين. يطالب مزيد من الأشخاص بسقوط النظام، وبناتوا مقتنعين بوجوب سقوطه بعد الجرائم الكثيرة التي ارتكبها. النظام عاجز بالكامل تقريبا عن بناء تحالف حيوي. فحالة الاستقطاب بين النظام من جهة وباقي السكان من جهة أخرى تحول دون تكون كتلة تاريخية جديدة يستطيع النظام أن يبني مستقبله عليها. يُظهر توقيف كل الرجال والفتيان دون سن الأربعين في درعا ضعف النظام المتزعزع. كما أن هذه الممارسة تذكّر إلى حد كبير بالحقبة الاستعمارية. يلفت قانون إلى أنه عندما تتحرك آليات التخلص من الاستعمار، يصعب جدا وقفها. يكتب «لا يمر إنهاء الاستعمار أبدا مرور الكرام، فهو يركز على الكائن ويحدث تغييرا جوهريا فيه، ويحول المنتفج المسحوق القابع في حالة لا طائل منها فاعلا محظيا يُسلط عليه ضوء التاريخ الكاشف بأسلوب من الأبهة». ما لا يفهمه النظام السوري وسواء من الأنظمة العربية هو أنه عندما تتحرر العقول من الاستعمار، يصعب للغاية إعادة استعمارها من جديد. يثير تحرر العقول من الاستعمار غضب الديكتاتوريين العرب

الذين أمضوا في معظم الأحيان عقودا عدة في محاولة «تدجين» شعوبهم. لكن الأهم هو أن الأنظمة العربية لا تفهم أنه حتى لو تمكنت من تفادي سقوطها الآن، فهي توجّل فقط زوالها الذي سيحصل لا محالة. فرصتها الوحيدة للحفاظ على ما تبقى من سلطتها هي أن تنجح حيث أخفق نابوليون. فعندما انتقلت عدوى المثل العليا الثورية إلى عدد كبير من السود في الكاريبي في مطلع القرن التاسع عشر، اعتقد نابوليون أن الطريقة الفضلى للحوّل دون وقوع ثورات في المستقبل هي إجلاء جميع السكان من الجزيرة وإعادتهم إلى غرب أفريقيا.

الثورة تتجاوز المعارضين التقليديين

لا تحمل الثورة السورية في ذاتها رفضا للنخبة الحاكمة وحسب، بل ذهبت أيضا أبعد من التصور الذي وضعه المعارضون التقليديون للطريقة التي سينتهي بها النظام. يخلق الناس في الشارع واقعا جديدا متقدمين بأشواط عن بقية السكان الذين اضطروا إلى أن يتحملوا بطريقة أو بأخرى واقعا لا يطاق. لقد ترسّخ استبطان الخطاب المذهبي والقمع بقوة في عقول عدد كبير من السوريين، إلى جانب التفكيك والتدمير المنهجين للمجتمع المدني، واللذين وقفا عائقا أمام إجراء نقاشات جدية حول مستقبل البلاد واقتصادها والتنمية البشرية والديمقراطية، كما ساهما في توليد انطباع بانتفاء البدائل. مهما كان غياب البدائل وهميا، شعر عدد كبير من السوريين بالنفور والخوف من الآخر، بعدما هالهم حجم المعاناة التي تكبدها كثر من من أبناء قومهم. لم يستطع كثر أن يفهموا كيف يمكن أشخاصا أن يسبوا نحو موت محتوم – وكل من يغادر منزله في سورية للتظاهر يسير على الأرجح نحو موت محتوم – ولا كيف يمكنهم أن يواجهوا الذخائر الحية بأياد غزل، فاحتموا بكل سرور في الأكاذيب ونظريات المؤامرة والكرهية المطلقة والغضب من المحتجين؟

أما في ما يتعلق بالإعلام السوري، فقد لجأ إلى التحريض الأكثر دناءة وحقارة ضد المحتجين. فإلى جانب اختلاق شبح الفتنة المذهبية حين لم تكن هناك أي أدلة على وجوده، أراد النظام والإعلام أن يجعلوا السكان شركاء لهما في المجازر التي ارتكباها أو هما على وشك ارتكابها. فقد راح المتصل تلو الآخر يعلنون في البرامج الحوارية عبر التلفزيون الرسمي السوري أنهم يرغبون في رؤية النظام يضرب «المخربين» و«المتأمرين» بيد من حديد، على وقع التشجيع والبهجة العارمة من مقدّم البرنامج. لقد كان رد النظام مزيجا من الهبات الاقتصادية غير

المراجع المذكورة في المقال

- Andonij, L., 2011. The delusions of Bashar al-Assad. [online 03 Apr 2011]. Available at: <http://english.aljazeera.net/indepth/opinion/2011/04/20114314059483767.htm> [Accessed 10 May 2011]
- Ali Atassi, 2011. Syrian prisons overcrowding, businessmen offer warehouse's. [online 05 May 2011]. Available at: <CNN: http://ireport.cnn.com/docs/DOC-602670> [Accessed 6 May 2011]
- Barakat, H., 1999. Syria's Peasantry, the Descendants of Its Lesser Rural Notables, and their Politics. Princeton University Press.
- Bourdieu, P., 1996. Acts of resistance : against the new myths of our time. Cambridge, UK: Polity Press.
- Cleveland, W.L., 2000. A History of the Modern Middle East. 2nd ed. Boulder: Westview Press.
- Fish, R., 2002. Pity the Nation: The Abduction of Lebanon. New York: Thunder's Mouth Press / Nation's Books.
- Fanon, F., 2004. The Wretched of the Earth. Translated from French by R. Philcox. New York: Grove Press.
- Hopfinger, H. and Boeckler, M., 1996. Step by step to an open economic system: Syria sets course for liberalization. British Journal of Middle Eastern Studies, 23, pp.183-202.
- Joya, A., 2007. "Syria's Transition, 1970-2005: from Centralization of the State to Market Economy". In P. Zarembka ed. 2007. Transitions in Latin America and in Poland and Syria (Research in Political Economy, Volume 24). Emerald Group Publishing Limited. pp.163-201.
- Lawson, F., 1989. Class Politics and State Power in Ba'hi Syria. In B. Berberoglu ed. 1989. Power and Stability in the Middle East. London: Zed Books. pp.15-30
- Lesch, D.W., 2005. The New Lion of Damascus: Bashar al-Assad and Modern Syria. New Haven and London: Yale University Press.
- Perthes, V., 1995. The Political Economy of Syria under Assad. London: IB Tauris.
- Rudy, S., 2011. "The Arab Revolt". Mc. Holyoke College Lecture. April 12th, 2011.
- Sulilar, N., 1994. "The crisis of 1986 and Syria's plan for reform". In E. Kienle ed. 1994. Contemporary Syria: Liberalization Between Cold War and Cold Peace. London: Academic Press. pp. 26-43.
- Waldner, D., 1999. State Building and Late Development. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press.
- Wedeen, L., 1999. Ambiguities of Domination: Politics, Rhetoric, and Symbols in Contemporary Syria. Chicago: University of Chicago Press.
- Wieland, C., 2006. Syria: Ballots or Bullets? Democracy, Islamism, and secularism in the Levant. Seattle: Cune Press.
- سعيدان، سمير، السفير، ١٩ أبريل نيسان ٢٠٠٩.

القابلة للاستدامة مقرونة بزيادة من السياسات الاجتماعية الفاسدة إلى جانب العنف والهمجية الشديدين على الصعيد الاقتصادي أفترت زيادة على الأجور، ففي ٢٤ مارس آذار، رفع راتب حوالى مليوني موظف ومتقاعد في القطاع العام بنسبة تتراوح من ٢٠ إلى ٣٠ في المئة إضافة إلى خفض عام في الضرائب على المداخيل. من شأن كلفة زيادة الأجور، إلى جانب الصندوق الاجتماعي الذي أعلن عن إنشائه مؤخرًا لمساعدة العائلات المعرومة، أن تزيد عن مليار دولار أميركي أو تبلغ نحو ستة في المئة من إجمالي موازنة الحكومة السورية، وذلك من دون احتساب الخسائر في العائدات بسبب خفض التعريفات ومعدلات الضرائب (الذي يهدف إلى خفض أسعار المواد الغذائية والسلع الاستهلاكية الأساسية)، ومن الواضح أن هذه الإجراءات التي لا يستطيع النظام تحمل تكاليفها هي شكل من أشكال الرشوة الرامية إلى وقف الاحتجاجات المستمرة. بيد أن المشهد الأكثر تعقيداً عن تعجيد الحكم السلطوي والسياسات النيوليبرالية هو تلخّف كبار رجال الأعمال مثل رامي مخلوف وأيمن الحايك وخالد عبود وأحمد أنس السلمي لفتح مستودعاتهم وتحويلها مراكز اعتقال موزعة في تصرف النظام كي يستخدمها علماء أصبحت سمعته العملاقة مكسبة بنزلاتها.

على النقيض من مصر وتونس، لا يزال الجيش والأجهزة الأمنية في سورية وومعهما الهيكلية الحكومية موالية للطبقة الحاكمة ولا شك في أن هذا الواقع يجعل إطاحتها أكثر تعقيداً منه في مصر أو تونس، لكن مستوى المؤسسة واستقلال المؤسسات أكثر تدنيًا في سورية منه في البلدان المذكورين، ولذلك فإن إسقاط النظام السوري قد يتيح تطهيراً أفضل للمؤسسات الحكم، ويوفر فرصة لبناء المؤسسات بالاستناد إلى الإجماع والمشاركة فضلاً عن ذلك نسبة الشبكات المرتفعة نسبياً هي نعمة وليست نقمة فهي تتيح صوغ الأيديولوجيات والآراء العالمية بطريقة إيجابية من خلال الممارسة الديمقراطية والخطاب المنفتح بدلاً من أن الإجماع في التصليب والتشدّد في ظل الحكم الأوتوقراطي، لكن الوقت يدعهم، وما زال السؤال، ماذا يكلف الاحتفاظ بالسلطة، من دون جواب.

٦ أيار ٢٠١١ ميلادي

«اقتصاد السوق الإسلامي»: البرنامج الاقتصادي والاجتماعي للإخوان المسلمين في مصر

صلاح العمروسي

خبير اقتصادي.
باحث في
مركز البحوث
العربية، مصر.

شأنه تطهير جهاز الدولة ومؤسساته الإنتاجية والخدمية والمالية والصحفية والإعلامية، من القمم الفاسدة، عديمة الكفاءة في معظم الأحوال، وكان من شأنه أيضا أن يكون عاملا لتحسين شروط دوران عجلة الإنتاج، بعبارة أخرى، أن تجاهل ومناهضة المطالب الاجتماعية كان السبب الرئيسي في ضعف دوران عجلة، ومن ثم يشكل عنصرا رئيسيا في الاضطرابات السياسية والاجتماعية التي لم تهدأ منذ اندلاع الثورة حتى الآن.

العدالة الاجتماعية إبنة النضال

وشعار العدالة الاجتماعية الذي أطلقته الثورة، يتضمن بطبيعة الحال الحقوق الاقتصادية والاجتماعية التي انتزت بنضال عمالي وشعبي استمر عشرات السنين في العالم الرأسمالي. فهي لم تتحقق كنتيجة عفوية لما حققته الرأسمالية من تقدم ونمو اقتصادي، وإنما تحققت بالنضال، لتشكل تحولا استراتيجيا ومكاسب إصلاحية عظيمة الشأن يمكن تحقيقها في ظل العلاقات الرأسمالية نفسها. بل لقد أصبحت حقوقا معترفا بها على نطاق عالمي عندما تضمنها العهد الدولي لحقوق الإنسان. ولكن تلك الحقوق الاقتصادية والاجتماعية لا تستغرق شعار العدالة الاجتماعية، الذي يمكن أن يعني، على الأقل من جهة نظر الأحزاب الاشتراكية، الثورة الاجتماعية التي تؤدي بالضرورة إلى تغيير في علاقات الإنتاج وعلاقات الملكية التي تشكل بالضرورة أساسا أشد رسوخا وقوة لوضع تلك الحقوق محل التطبيق، لاسيما في ظل الشروط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تعيشها مصر والتي تدفع الرأسمالية المصرية بميولها الليبرالية الجديدة إلى التحلل من تلك الحقوق الاقتصادية والاجتماعية أو الالتفاف عليها، لذا فإنها تتطلب نضالا شاملا حتى تشق طريقها إلى

تحتل العدالة الاجتماعية مكانة رئيسية في شعارات الثورة: «عيش، حرية، كرامة، عدالة اجتماعية». هذه العناصر المترابطة في شعار الثورة لم تأت عفوا، وإنما كانت تعبيرا عن معاناة وطموحات الأغلبية الساحقة من الطبقات الشعبية الكادحة التي صنعت الثورة، وأصبحت هذه الشعارات جميعا، تملك مشروعية الثورة نفسها. ومن ثم لم يعد بمقدور أي حزب سياسي أن يتجاهلها أو أن يتنصل منها مهما بلغت ميوله المحافظة أو الرجعية، وذلك بما فيها الحكومات المتعاقبة، ومجلسها العسكري.

ولكن هناك فرقا شاسعا بين الاعتراف الشكلي أو اللفظي بتلك الشعارات وبين التبنّي الحقيقي لها. فقد أصبح واضحا أن القوى المتصدرة المسرح السياسي، من المجلس العسكري وحكوماته الثلاث والأحزاب الدينية والليبرالية والديمقراطية الاجتماعية، عدا الأحزاب اليسارية، تسعى لحصر الثورة في إسقاط رأس النظام، مع الحفاظ على النظام القديم مع تحسينات جزئية إلى هذا الحد أو ذاك. عمل هؤلاء جميعا على مناهضة أو تجاهل المطالب الاجتماعية، وأطلقوا عليها تسمية «المطالب الفتوية»، في سياق التشهير بها، باعتبار أن الحركات الاجتماعية تعمل على تعطيل حركة الإنتاج، وأنها تسعى لتحقيق مصالح خاصة، أو جني المغنم والمنافع من الثورة، التي ينبغي في نظرهم أن تظل طاهرة بريئة معبرة عن مصالح عليا مجردة لشعب مجرد في وطن مجرد. وفي أحسن الأحوال يجري تجاهلها باعتبارها مطالب غير واقعية، أو تتجاوز الإمكانات الاقتصادية. وفي الحقيقة أن كل ذلك ليس سوى دفاع عن مصالح وامتيازات القمم البيروقراطية العليا العسكرية والمدنية، ومصالح القوى الرأسمالية المتحالفة معها، ذلك أن تلك المطالب الاجتماعية لا يمكن تحقيقها إلا على حساب امتيازات كل هؤلاء. بل يمكن القول أن الاستجابة لتلك المطالب الاجتماعية، على الأقل بصورة جزئية، كان من

أرض الواقع. ولكن هذا التضال قد يشكل أيضا مقدمة ومداخل للنورة الاجتماعية.

اقتصاد السوق الإسلامي

وسوف تلعب الأحزاب الدينية باعتبارها الأحزاب الحاكمة المقبلة دورا رئيسيا في الصراع الاجتماعي حول الحقوق الاقتصادية والاجتماعية وهو ما يستلزم تركيز هذه الورقة على دراسة برامج هذه الأحزاب من الحقوق الاقتصادية والاجتماعية. وطبيعة الحال لا ينبغي أن تقتصر على أية اعترافات لفظية ببعض أو حتى كل تلك الحقوق ولكن لا بد أن نعتبر مدى جدتها ومصداقيتها من خلال المعالجات التفصيلية، فالنسيطان يكمن في التفصيل، كما يقال هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى ينبغي ربط تلك المعالجات بسياساتهم الاقتصادية العامة، ومدى حظها من النجاح في علاج أزمة الاقتصاد المصري المزمنة، والتي تقف أصلا وراء تدهور تلك الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، منلما تكمن وراء تفجر النورة. وفي النهاية فإن الممارسات العملية بعد استلام الحكم تشكل المعك العملي لمصادقية تلك الأحزاب. عبارة أخرى إننا إزاء الإشكالية التالية: كيف يمكن لتلك الأحزاب أن تلبي المطالب الاجتماعية للأغلبية الساحقة الكادحة من المصريين في ظل تبنيها جميعا لسياسة الحرية الاقتصادية أو ما يسمى اقتصاد السوق التي سار عليها نظام مبارك والحزب الوطني الديمقراطي طيلة العقود الماضية ولكن بعد أسلمته أو إضفاء طابع إسلامي عليه، فيما يسمى اقتصاد السوق الإسلامي؟ وهي عموما نفس الإشكالية التي تواجه الأحزاب الليبرالية أيضا والتي تبني نفس السياسة الليبرالية الجديدة. فالوهم المشترك يتمثل في أن اقتصاد السوق أو السياسة الاقتصادية الليبرالية الجديدة، يمكن أن تتكامل النجاح إذا ما جرى تخليصه من الفساد وأسلمته. وسوف نعرض فيما يلي إلى برنامج حزب الحرية والعدالة

الحد الأقصى والحد الأدنى للأجور

ينص برنامج الحزب في الباب الخامس الخاص بالقضايا الاجتماعية على «ضمان حد أدنى من الأجور يضمن الحياة الكريمة للمواطن المصري، بحيث ترتبط الزيادة في الأجر بمعدلات التضخم». وهكذا لا يفر فقط بوضع حد أدنى للأجور وإنما أيضا تحريكه بشكل يتواءم مع التضخم ويدعو الحزب أيضا إلى «وضع حدود قصوى لرواتب العاملين في الإدارات العليا بالمؤسسات والشركات» فمن الواضح أن الحزب لم يكن من الممكن أن يتجاهل الحركة السعوية القوية المطالبة بعد أدنى وأقصى للأجور، وإن تكن

سياساته الأخرى خاصة التنمية منها خاصة قد تجعل هذا التوجه غير مضمون النتائج.

في قضية البطالة، لا يقدم الحزب جديدا عن سياسة الحزب الوطني [حزب مبارك] فهو يرى حل مشكلة البطالة في «التشويق الخارجي» ولا سيما في الدول العربية للعمالة المصرية، مع الحفاظ على حقوقها عن طريق عقد اتفاقيات تنموية لاستقدام العمالة ومنحها وضعاً تفضيلاً ربما يكون الجديد هو تلك الاتفاقيات التنموية التي قد لا ينجح فيها، فالعمالة المصرية في الخارج تمثل أصلاً أحد مظاير ضعف مكانة مصر في البلدان العربية التي لن يحلها هبسة التبارك الديني على الحكم وتقزير بالتكالي من الدول البترولية الخليجية التي تشجع حكم الأحزاب الدينية في مصر. أما في الداخل فلا يقدم الحزب سوى ما كان يردده نظام مبارك والبنك والصندوق الدولي، مثل «تشجيع المنشآت كهيئة العمالة من خلال حوافز التمويل ووضع برامج لدعم تلك المنشآت» وكذلك الحل الأكثر شهرة المتمثل في الصناعات الصغيرة والمتوسطة لكن مع أسلمتها حيث نفراً «تسهيل الائتمان للصناعات الصغيرة والمتوسطة لأنها تؤدي دورين مهمين توفير فرص العمل وتخفيف حدة الفقر» وبأن ذلك مفروض بالتأكد على أهمية استخدام صيغ التمويل الإسلامي لتمويل هذه المشروعات» حقيقة الأمر أن المشكلة لم تكن في غياب الطابع الإسلامي عن استراتيجية الصناعات الصغيرة والمتوسطة، حتى يمكن أن تقدم الأسلمة حلاً، فمشكلة تلك الاستراتيجية أن الصناعات المتوسطة والصغيرة (وكذلك متناهية الصغر) لا يمكن أن تنجح إلا كجزء من استراتيجية أشمل لتطوير الصناعات الكبيرة في سياق تطوير الهيكل الصناعي بأسره. وتوطين التكنولوجيا في مصر، إلخ.

الزكاة والوقف والصدقات خلا للبطالة والفقر

في مواجهة قضية الفقر التي وردت تحت عنوان «العدالة الاجتماعية» يشدد الحزب على أهمية توظيف التمويل المجتمعي من زكاة ووقف وصدقات وغيرها في معالجة الفقر، وتوفير التمويل للمشروعات متناهية الصغر والصغيرة للفقر من هذه الأموال لا تتزاعهم من دائرة الفقر. ويقترح الحزب أن تضاف إلى مخصصات الفقر بالموازنة نسبة ٢٠٪ مئوية من الإدارات البترولية تحت بند «زكاة الركاز» للعمل على تحسين أوضاعهم المعيشية» ونحن لسنا إلا إزاء إحياء مسميات من الموارد مستقاة من التراث (سوف تخصص بالضرورة من الضرائب) وهي بالتالي لا تضيف شيئاً من الموارد في حقيقة الأمر، وإن كان ثمة ادعاء بأن طابعها الديني لن يدفع الممول إلى التهرب منها على خلاف

الضريبة التي تنتشر فيها ظاهرة التهرب، أي أنها ستكون بمثابة وسيلة لمكافحة التهرب تحت مسمى «الزكاة».

وفي هذا السياق يقترح الحزب إحياء نظام الوقف ويدعو إلى «تعديل قانون الوقف الحالي لكي يعمل على تشجيع الأثرياء لإنشاء أوقاف جديدة... وإطلاق مبادرات جديدة للنفع العام»، أي أن مسألة الفقر وضعت على محور العمل الخيري وليس النهوض بالاقتصاد، وبالمناسبة يقدّم الحزب مسألة الوقف كعنصر في تمويل التعليم والصحة، بعبارة أخرى، يقدّم هذه الأشكال التراثية باعتبارها الدواء الشافي لكل مشاكل مصر الاقتصادية.

وفي مواجهة الغلاء يتحدث الحزب عن «تفعيل قانون حماية المنافسة ومنع الممارسات الاحتكارية». أي أننا إزاء تبني سياسة الحزب الوطني التي أصدرت قانون الذي يريد حزب العدالة تفعيله، وهو قانون يحمي الاحتكار في الحقيقة ولا يكافحه. ومن المعروف أن هذا القانون لا يجرم إطلاقاً رفع الأسعار (طالما أنها لا تتم من خلال اتفاقات احتكارية)، وهو يجرم خفض الأسعار، أو ما يسمى «الأسعار الافتراضية»، لأنها تؤدي إلى تدمير المنافس الذي لا يقوى على القيام بخفض أسعار سلعه. وعلى الرغم من ذلك يقدم الحزب تعديلاً صغيراً، يتمثل في ضبط مؤقت أو استثنائي للأسعار، حيث يقول «التزام الدولة بوضع تسعيرة للسلع والمنتجات الأساسية عند الضرورة ولفترات زمنية محددة». فمن الواضح أن الحزب ينطلق من حرية حركة الأسعار وأن «وضع تسعيرة للسلع» يكون فقط عند الضرورة وبصورة مؤقتة.

يتحفظ الحزب على شعار الحرية النقابية. لذلك يورد في برنامجه الانتخابي مطلباً لتعديل القانون الخاص بالنقابات العمالية (القانون ٣٥ لسنة ١٩٧٦ والقانون ١٢ لسنة ١٩٩٥) بما يزيد من مساحة الحريات النقابية ويحول دون تفتيت التنظيم النقابي. ويؤدي ذلك بالضرورة إلى إعادة إنتاج معدلة لسياسة الحزب الوطني المعادية للحرية النقابية، مع تعديل صغير يوسّع هامش الحريات النقابية، ومن الواضح أن هذا التنازل يستهدف الالتفاف على الحركات العمالية التي بدون حرية نقابية كاملة ستكون مجردة من أهم أسلحة النضال من أجل حقوقها الاقتصادية والاجتماعية من تحسينات في الأجور وشروط العمل، إلخ.

لا يقدّم الحزب جديداً في مجال الحق في التعليم، سوى الدعوة إلى توسيع التعليم نوعاً وكيفاً (هكذا وردت) وجغرافياً، وزيادة اعتمادات التعليم، ويقدم إضافته الإسلامية من خلال مشاركة المجتمع ومن خلال إحياء نظام الوقف لسدّ فجوة التمويل. ويقر حزب الحرية والعدالة سياسة الحزب الوطني في إنشاء الجامعات الخاصة، حيث ورد في البرنامج

الانتخابي «التوسع الأفقي في إنشاء الجامعات الحكومية والأهلية لتصبح النسبة جامعة لكل ٢ - ٣ مليون مواطن». ولا يوضح الحزب موقفه بشكل واضح من إتاحة التعليم المجاني في جميع المراحل حتى المرحلة الجامعية، خاصة أن البنك الدولي يطرح مشروعاً لقصر مجانية التعليم على مرحلة التعليم الأساسي قبل الجامعية. وتمثل الجامعات الأهلية خطوة على طريق التخصص الكاملة للتعليم الجامعي.

إعادة النظر في سياسة الدعم

وكذلك الحال في الصحة حيث يدعو البرنامج إلى توفير الرعاية الصحية لكافة المواطنين بغض النظر عن قدراتهم المالية أو محل إقامتهم بما يضمن حرية المواطن في اختيار مكان تلقي الخدمة العلاجية، و«زيادة المخصصات المالية لقطاع الصحة بشكل تدريجي لتصل إلى المعدلات العالمية». ويدعو أيضاً إلى «مدّ مظلة التأمين الصحي لتغطي كافة طبقات الشعب، وفيها يدفع الفرد ما يستطيع ويحصل على ما يحتاج». وهذه الصياغات مجردة وعمامة ويكتنفها بعض الغموض، حيث لم يحدد الحزب موقفه صراحة من الجدل الدائر حول مشروع القانون الجديد للتأمين الصحي المقدم من الحزب الوطني وحاتم الجبلي [وزير الصحة المصري ٢٠٠٥ - ٢٠١١]، والذي لا تزال تقدم صياغات معدلة منه، وأكتفي البرنامج الانتخابي بتبني «التقدم بمشروع قانون للتأمين الصحي بما يمنع خصخصة التأمين الصحي». ولكن ذلك لا يكفي إطلاقاً، حيث أنه قد تبلور في مواجهة مشروع حكومات الحزب الوطني، مشروع متكامل للتأمين الصحي الاجتماعي المعمول به في أوروبا الغربية وكندا وبعض بلدان العالم الثالث مثل الهند (وهو نظام مناقض للتأمين الصحي التجاري المعمول به في الولايات المتحدة والذي يستوحي منه مشروع القانون الجديد المقدم من حاتم الجبلي). ونظام التأمين الصحي الاجتماعي الشامل الذي يجب أن يغطي كل المجتمع يتميز بميزات ثلاث: حزمة علامة واحدة لكل المؤمن عليهم، وأن تكون مؤسسات تقديم الخدمة هي مؤسسات لا تستهدف الربح، وأن لا يدفع المشتركون سوى الاشتراكات المقررة في القانون، ولا يضطرون لدفع أية مدفوعات إضافية مقابل تلقي علاجات معينة.

في مجال الإسكان، يدعو الحزب إلى إعادة توزيع التنمية والسكان على معظم المسطح القومي، ولكنه بدلاً من أن يعيد للدولة دورها في توفير الإسكان الشعبي بأسعار رخيصة يرى «إعادة النظر في سياسات الدعم للتحويل من دعم السلعة والمنتج الإسكاني - والذي غالباً لا يصل لمستحقيه - إلى الدعم المباشر للمواطن لتمويل مسكنه. وهذا يفتح

المجال واسعاً لعمل قطاع المقاولات الخاص، الذي سيعظم أرباحه على حساب السكان ويتجاهل البرنامج التحول الاستراتيجي الذي جرى في ظل حكومة [أحمد] نظيفه والمتنل في تغلي الدولة عن بناء الإسكان الشعبي في إطار ما يسمى مشروع مبارك القومي للإسكان وإيكالته إلى القطاع الخاص، الذي عظم التكلفة أخيراً مضاعفة، بحيث تجاوزت إمكانيات منخفضة الدخل المستهدفين، وذهبت إلى القادرين على الدفع، وليس إلى ذوي الحاجة للسكن.

ومن الملفت للنظر أن حزب الحرية والعدالة يسعى للتخلص من الدعم السلمي، ويضعه بين مصادر زيادة إيرادات الموازنة العامة، فقد ورد بالنص «إعادة النظر في سياسات الدعم السلمي للتحول من دعم السلعة، والذي غالباً لا يصل إلى مستحقيه» إلى «دعم مباشر للمواطن» أي أننا إزاء إعادة إنتاج محاولات الحزب الوطني لإحلال الدعم النقدي محل الدعم العيني.

ومن الملفت للنظر أيضاً أن فرض ضريبة تصاعدية ليست مطروحة كمصدر لزيادة إيرادات الدولة، ولكنها وردت فقط في البند المتعلق بمكافحة الفقر في البرنامج الانتخابي، وفي «بيان الحديث عن رفع حد الإعفاء فقط» لكن دون اقتراح شرائح جديدة بخلاف ما هو موجود في القانون الذي ينتهي عند شريحة ٢٠٪ للأشخاص الذين يبلغ دخلهم آلاف جنيه فأكثر (والذي قد يصل إلى عشرات الملايين، فقد أضاع سمير رضوان [وزير المالية في الوزارة الأولى بعد الثورة برئاسة عصام شرف] شريحة ٢٥٪ على ١٠ مليون فأكثر فمن الواضح أن حزب الحرية والعدالة لا يتبنى سياسة الضرائب التصاعدية، إلا في شكلها الهزيل الموجود في قانون بطرس غالي [وزير مالية أسبق] وعلى خلاف البرنامج الانتخابي، يلاحظ أن برنامج الحزب يخلو تماماً من الحديث عن الضرائب التصاعدية.

الدولة في خدمة القطاع الخاص

وبصورة عامة يدعو الحزب إلى زيادة المخصصات المقدمة لمختلف نواحي الإنفاق الاجتماعي: الصحة والتعليم والبحث العلمي، وزيادة الأجور والمعاشات ناهيك عن الإنفاق الاستثماري على المشاريع القومية الكبرى (بمعدن) البرنامج بالاسم: مشروع تنمية «سيناء» ومنطقة قناة السويس، والساحل الشمالي ومنخفض القطارة، وتنمية الصعيد وجنوب أسوان) ولكن الزيادات المقترحة في الإنفاق لن تجري مرة واحدة والأبد، وإنما تحتاج لزيادات جديدة كل سنة، وهذا يتطلب نمواً سنوياً متصاعداً للموارد الدولة السيادية، وهو ما لن يتحقق إلا من خلال اتساع

الوعاء الضريبي، أي من خلال تنمية الاقتصاد، وإلا فكيف ستحقق هذه التنمية؟

يتبنى الحزب ذات السياسة الليبرالية الجديدة للحزب الوطني، حيث يرد في برنامجها أنه يرى «أن يقوم الاقتصاد المصري على مبدأ الحرية الاقتصادية في ظل دولة قوية وأطر مؤسسية ضامنة لتحقيق الرخاء والعدالة» ويضيف «الحرية الاقتصادية هي الضامن للإبداع والتطوير والتنمية الاقتصادية مع قيام الدولة بدورها الرقابي القوي في حماية المنافسة ومنع الاحتكار في السوق» ويشير أيضاً إلى أن للدولة «دورها في حماية الفئات الفقيرة» كذلك يؤكد على أن للدولة «دور آخر في تنمية الهياكل الأساسية والمرافق العامة والمسرعات الاستراتيجية خاصة، التي يعجز القطاع الخاص عن الدخول فيها» إما لكبر حجم التمويل المطلوب أو لارتفاع درجة مخاطرها أو لتدني العائد المتوقع منها أو لعدم تحقيق عائد إلا بعد آجال طويلة نسبياً» ولكن هذا الدور التنموي للدولة قد يكون مجرد أمنيات طيبة في ظل تبني نفس السياسة المالية الانكماشية من الناحية الجهرية، واعتماد السياسة النقدية نفسها القائمة على حرية تداول وحيازة النقد الأجنبي (وهي المسؤولة عن تحويلات عشرات المليارات من الدولارات إلى الخارج قبل الثورة وعن استنزاف احتياطي النقد الأجنبي بعد الثورة بسبب حرية حركة الأموال الساخنة في البورصة) وكذلك تبني سياسة حرية التجارة التي أزلت الحماية الجمركية عن الصناعة المصرية وتبني نفس السياسة في فتح أبواب الاقتصاد المصري على مصراعية رأس المال الأجنبي المباشر أو في المحافظة في سوق الأوراق المالية، وذلك عدا تعديلات هامشية لا تمس بالجوهر، وبالطبع هناك اختلافات جزئية لا يتسع المجال للتعرض لها هنا باعتباره خارج موضوعنا، ولكن كل ما نود قوله أنه في ظل تلك السياسة الاقتصادية الليبرالية الجديدة، فليس من المتوقع أن تحقق التنمية الاقتصادية النجاح، وبالتالي ضعف الوعاء الضريبي وضعف الإيرادات السيادية ومن ثم اقتتاد القوة الدافعة نحو المزيد من تلبية الحقوق الاقتصادية والاجتماعية.



معمر القذافي والوعي الصحراوي

جوزيف سماحة

كتب جوزيف سماحة هذا النص الموقع باسم مستعار (زياد يوسف) في عدد أيلول ١٩٨٩ من مجلة «زوايا» التي اصدرها وفواز طرابلسي في باريس خلال العامين ١٩٨٩ و١٩٩٠. النص ليس بحاجة الى تقديم اما سبب استخدام الاسم المستعار فهو يساخط ان جوزيف كتب مقالا آخر يوجه في ذلك الحين

«إلى أي مدى سوف يستجيب التاريخ لهذه العناوين التي يصيغها (كذا) معمر القذافي؟ وإلى أي مدى يكون لهذا الرجل الذي يفاجئ العالم بكل أمر لا يتوقع أن يجسد تطوراته على الأرض؟ وحين كل الجميع يضمن حلا لهذه الأسئلة كل التاريخ يصر على أن يسلس قياد أحداثه لأمر هذا الجديد الذي طلع به معمر القذافي على العالم».

«الزحف الأخضر»، أيلول - سبتمبر ١٩٨٩

قل كلمتك وامش

ألقى أمام الوفود خطباً هو حالة نموذجية عن الانحاء الذاتي والقائم على إقناع النفس بالعظمة فالك «إن ما يلقى أميركا وفرنسا والجهات الامبريالية ليس مقررات القمم العربية سواء عقدت في الدار البيضاء أو عمان أو طرابلس وإنما تقلقهم المواقف التي تتخذها الجماهيرية الليبية التي لم تتغير في شأن اعتبار إسرائيل فوق التراب الفلسطيني أمرا غير شرعي وناتجا من مغلفات الحرب العالمية الثانية لذلك لا بد من أن يخطفي».

بطبيب للقذافي أن يكون مصدر قلق للجهات الامبريالية فهو يعرف أنه لن يكون، في أي حال من الأحوال مصدر تهديد جدي لها، ما يقوم به لا يعدو كونه «إفلاق راحة» وهو لا يستدعي أكثر من رفع الصوت أو إحداث ضوضاء ما هذه «العجفة» بسميها مواجهة أما عجزه عن الفعل في قرارات القمم العربية، وبالتالي في السياسات العربية فيلغسه وهو القومي العربي المتعصب، إلى أن يختصر الأمة كلها في قطر وإلى تحميله ما لا يجرؤ زعيم قطري على تحميله لبلده وهو إذا كان يجرؤ على ذلك فيالضبط لأن الحمل خفيف؛ نبرة عالية ومخصصات شهرية لحفظه «الكتاب الأخضر» والفائمين مقام الشعب الليبي بما يمكن تسميته تجاؤزا، «نورات» تلقى راحة الامبريالية الأمور «سهلة» وتسمح للقذافي ادعاء الحضور في

لم تقص ساعات على هذا «الزحف» حتى كان القذافي يفاجئ العالم فعلا، لقد سبقته الجمال والتوق إلى بلغرت لتترك في حديقة السفير الليبي قرب خيمة منصوبة للزعيم القادم في أية لحظة والذي يمكن لسؤولي يوغسلافيا أن ينتظروا ساعات لاستقباله في المطار حتى يقال لهم إنه وصل منذ فترة إلى سبها. وفي حين كان مؤتمر عدم الانحياز يعاني مخاض التحول نحو «الاعتدال» و«الواقعية» كانت مساهمة القذافي فيه بعد أن أسست الجمال والتوق قيادها له التهديد اليوم بأنه سيدخل القاعة بمتطبا حصانه وكان من الطبيعي أن يفاجأ الصحافيون بذلك فيسألوه فيستدعيهم إلى لقاء يعلن فيه أنه غير راض في وسيلة النقل المناسبة لأن أنظمة السير في يوغسلافيا لم تلحظ إمكانية التجول في المدينة فوق حصان!

توجه الرئيس الليبي إلى بلغراد بفأمره شعور بالاعتزاز، فلقد انتهى للتو من الاحتفال بالذكرى العشرين لنورته وأقام من أجل ذلك احتفالات جماهيرية (طبعاً) كانت من الدقة والتنظيم يعث إن عددا أكبر من الضيوف المهتمين أصيب يكلمات مؤذية وهو يحاول أن يشرح طريقته بين أعضاء «اللجان النورية» مصدر الاعتزاز هو أن القذافي مارس في المناسبة الهوية المحببة لديه طالما أن صناعة التاريخ صعبة فلمنا لا نعيد كتابته؟

التوازنات العالمية. وطالما أنه حاضر فيها فلم لا يعيد صياغتها؟ (كتابتها بالأحرى!).

نضع جانباً الصلة التي يقيمها بين عدم شرعية إسرائيل وضرورة زوالها لتتوقف عند حديثه عن نتائج الحرب العالمية الثانية - ومنها إسرائيل، الآيلة إلى الزوال في رأيه.

نحن هنا أمام رئيس دولة يفترض فيه أن يكون مُلماً بألف باء السياسة الدولية. ومع ذلك فإنه يدلي بأقوال يستطيع أي طالب في أي مدرسة إعدادية أن

يخالفه فيها لا بل أن يفحمه. إن نتائج الحرب العالمية الثانية راسخة إلى حد أن التوازن الدولي، برمته، قائم عليها حتى الآن وأن إعادة النظر فيها لا تقبل أي مزاح، ولا هذا النوع من المزاح بالتحديد (أحداث بولونيا، التطورات بين

الألمانيين دلائل على ذلك). أما الإشارة إلى أن إسرائيل هي من نتائج هذه الحرب فكان يفترض فيها أن تكون مقدمة للحديث عن صعوبة «اختفائها» لا العكس. هذا إذا كنا معنيين فعلاً بهذا الاختفاء لا بإقلاق الجهات الإمبريالية فقط. (النزاع العربي - الإسرائيلي، أكثر من سواه بين النزاعات الإقليمية كلها، يحمل بعداً دولياً مؤكداً - يجعل من معرفة حقائق الوضع الدولي شرطاً لازماً لأي انتصار).

لكن العقيد في واد آخر، يهمله تسجيل الموقف بغض النظر عن مردوده وإمكانية تنفيذه. يخاطب العالم وأذناه ترهفان السمع إلى وتيرة تصفيق «اللجان الثورية» إلى حد أنه ينسى أنها لجان «متفرغة» لذلك وأنه مسؤول عن «تفريغها» (تفريغ يمكن للقارئ أن يملأه بالمعنى الذي يفضل). عاد القذافي إلى الموضوع نفسه في بلغراد ولكن بشكل أكثر «عيانية» هذه المرة. لقد اقترح «تفريغ» فلسطين من اليهود. ونقلهم إلى مناطق أخرى بينها منطقة الألزاس واللورين. وبما أنه يملك حداً من التماسك في تفكيره فقد برر اقتراحه هذا بضرورة تشكيل حزام بشري يمنع انفجار الحرب مجدداً بين ألمانيا وفرنسا. أما أن ألمانيا غير مسلحة، أما أن فرنسا تملك جيشاً في ألمانيا، أما أن التنسيق بين البلدين قائم بالتحديد على الصعيد العسكري، أما أن أوروبا الغربية متجهة نحو شكل من الاندماج الاقتصادي (والسياسي)؟...

فهذه كلها أمور لا تعني «عقيدنا». لقد قرر أن هذه نتائج الحرب العالمية الثانية، (بعد حرب طبعاً)، وأنتج من هذا الخليط حلاً لأزمة الشرق الأوسط. وحصل كل ذلك في قمة عدم الانحياز التاسعة في بلغراد حيث امتنع البيان الختامي عن رشق الإمبريالية والصهيونية ولو... بوردة!

نهبط من هذا العالم الخرافي إلى أرض الواقع قليلاً، مع العلم أن الهبوط إلى أية أرض سيكون مستحيلاً طالما أن الحرب الألمانية - الفرنسية ستطيح بالكرة الأرضية كلها. ولكننا مع ذلك سنحاول الهبوط. ماذا نرى؟ نرى أن خطر التفريغ الوحيد المطروح حالياً هو خطر تفريغ ما تبقى من فلسطين ممن تبقى من أهلها. إن التوازن الحقيقي بين العرب وإسرائيل يهدد بتحويل هذا الكابوس إلى أمر واقع لا تنفع في درئه عقيرة القذافي. هذا ما حصل في ١٩٤٨ وما تكرر في

١٩٦٧. هناك في إسرائيل، اليوم، من يدعو إلى «الترانسفير» ويحظى بتأييد واسع من أجل ذلك. وهناك في فلسطين انتفاضة مستمرة منذ عامين، وشعب يواجه صلف الاحتلال. ويتعرض أبناؤه للإبعاد الحقيقي في حين أن المحتفلين في

ليبيا تدمى أيديهم تصفيقاً لإزالة إسرائيل من غير أن يكلفهم ذلك سوى بحة في الصوت يزول أثرها في اليوم التالي. أين الجدية في هذه الحالة؟ أين الجهل، أين المزاج، أين المزايدة، بل أين اللوم؟ لعلنا أمام مزيج من هذه الصفات «الحميدة» كلها. كيف يمكن أن ننسى أنه قبل أن يكون صوت القذافي في السماء كانت رجلاه على الأرض؟ لقد سبق له، عشية هذا الخطاب، أن وقّع اتفاقاً لتسوية النزاع الحدودي مع التشاد وهو الذي ملأ العالم ضجيجاً بأن «شريط أوزو» جزء لا يتجزأ من التراب الليبي لا مجال لأية مساومة عليه. فعل ذلك تقديراً منه لموازين القوى واحتراماً لما يعرف في أفريقيا بـ «الحدود الموروثة عن الاستعمار». إن الاستعداد للقبول بالتحكيم حول «أوزو» يعيد الاعتبار لقاعدة من قواعد الحياة السياسية في «القارة السمراء». وهذه القاعدة هي، في أحسن الأحوال، بمستوى ثبات «نتائج الحرب العالمية الثانية» ومع ذلك لا يملك المرء إلا أن يسائل القذافي: هل تملك، منفرداً، حق التفريط بجزء من الوطن الليبي وبالتالي، بجزء من الوطن العربي؟ وهل يمكن لمن يبدي استعداداً للتفريط بالأمس أن يلقي، في اليوم التالي، محاضرة عصماء مثل التي ألقيت في احتفالات أول أيلول (سبتمبر)؟!

ثورة قامت في مكان لا يليق بقائدها...

«الفتاح هي الأمل الطالع في ليل البشرية القاتم». لقد خان السجع كاتب افتتاحية «الزحف الأخضر». كان يمكنه أن يقول «الفتاح هي الأمل القادم في ليل البشرية القاتم». لكنه فضّل الصيغة الأولى واثقاً أن قراءه لا يتوقفون عند هذه التفاصيل. لكن المشكلة أن قائده معمر القذافي لا يشاركه

الذقة في هؤلاء الغراء وفي «تفتتهم وعلمهم» يقول العقيد ما حريفته «إن أوروبا الغربية هي أفضل مكان لتطبيق النظرية العالمية الثالثة والنسبي الأساسي أن العالم سيتقدم فكرته بمرور الزمن لصالح النظرية العالمية

ثانشر وريغان وغورباتشوف وفوقهم نيكاراغوا ونورييغا وهنود أميركا الحمر والمجموعات النازية والفاشية القادمة من كندا وغيرها... كلهم يعرفون من «الكتاب الأخضر».

غدار وقد يمس بهبطه ولذلك فإن أفكار «الكتاب الأخضر» تسرب بالرغم من الحصار المضروب عليها يبدو أن شيئاً منها تسرب إلى الفرنسيين قبل قرنين من الزمن فقاموا بنورتهم وأسسوا جمهوريتهم ولكن هذه

الثالثة ليس مكان غير مناسب لتطبيق النظرية الأوروبية الغربية هي أفضل مكان لتطبيق النظام الجماهيري حيث يوجد الشخص المثقف والمتعلم ولكن كلما تغلفت المجتمعات كلما واجهت النظرية صعوبة في تطبيقها لم يكن واجباً أن تقوم في ليبيا مثل هذه الثورة بل في بلد يكون نموذجاً لو قامت في السويد أو في سويسرا لكانت أفضل.

لم تعد أوروبا مهددة بالزوال بفعل حرب المائة - فرنسية وهذه يسرى «ساعة» ولكنها مهددة بكل حضاراتها ودياناتها وأفكارها وتياراتها ونظمها الاجتماعية وعقائدها، بأن تعيش رداً من الزمن قبل اعتناق النظرية العالمية الثالثة حتى «ليل» السويد وسويسرا فسيبقى «فائز» بانتظار القنديل الليبي الوقت يضيغ سدى قلبياً بلد لا يستحق النعمة التي حلت عليه بلد لا يلقى بفكره ولا يصلح تربة خصبة لأفكاره أكثر من ذلك ليست ليبيا مغترباً جديراً بتجريب الثورة فيه حتى إذا نجحت بصر إلى تصديره معلية إلى شعوب «مذففة ومتعلمة» تحتاج إلى هذا «اللفاح النظري».

لا ندرى إذا كان الفذافي يحترم شعبه كثيراً ولكن الواضح أنه مقتاط منه ويشعر أنه مظلوم يند كان لا يكفي هذا الشعب أن يكون قليل العدد فهو فوق ذلك «متخلف ما العمل مع شعب لا يصلح لا كما ولا نوعه لإضاعة «ليل البشرية القتم»؟ الفاح هي الأمل الطالع «ليست بصفتها ثورة شعب بل بصفتها فكرة أطلقها رجل واكتشفه متأخراً أنه فعل ذلك في مكان ليس هو الأفضل لتطبيقها «الظلام الليبي» ليس الأب الشرعي لفكر الفذافي، أنه الخطر الأول على هذا الفكر لو أن السويديين لبيون أو لو أن الفذافي سويدي لكانت الأمور على غير ما هي عليه لكن «مع مرور الزمن» وتقدم السويديين «فكرته» سينتهي الأمر بهم إلى مساعدة الفذافي في حمل المشعل لإضاعة «ليل البشرية القتم» وعندما يحصل ذلك فإن «عصور التنوير» التي عرفتها أوروبا الغربية ستبدو سواداً كلها أمام «الوجه الأخضر».

أفكار «الكتاب الأخضر» في كل مكان

هل يعني ذلك أن على البشرية أن تنتظر «مرور الزمن»؟ كلا، لا يمكن للأمر أن تكون على هذا السوء فالزمن

الجمهورية هي ما قبل تاريخ «العصر الجماهيري» الذي استدخله فرنسا، حتمه بمجرد قراءة الكتاب كدلاً فتقدم على الخطوة الأولى التي تؤكد بلوغها سن الرشد النوري اللغة النظام الديمقراطي البرلماني (كان هذا تقريباً هو التعليق الليبي على الاحتفال بالثورة الثانية للثورة الفرنسية).

وما يقال عن الثورة الفرنسية يقال عن خصمها اللدودين رونالد ريفان وما رغبت تتسرع بقوله الفذافي أنهما أصيبا باللس الجماهيري فاعتمدا «الراسمالية الشعبية» من غير أن يدركا ما لسخرية الأقدار - أنها اختراع يملك عبوهمة الفذافي براءته «يوجد في أميركا الآن» يقول العقيد تسعة آلاف شركة امتلكها تسعة ملايين من العمال يعد ١٩٨٢، أي يعد ظهور «الكتاب الأخضر» هذا صحيح وقد حصل مثله في بريطانيا «سوى أن ذلك تم في إطار تفكيك القطاع العام واستيلاء فئة اجتماعية جديدة تستند إليها «الثورة المحافضة» وإنا قبل أن ذلك حصل قبل ترجمة «الكتاب الأخضر» إلى الإنكليزية كان الجواب المحتمل ومن قال أن البريطانيين والأميركيين ليسوا «خضراء» في طبيعتهم؟ وبالنسبة فإن ميخائيل غورباتشوف في رأي الفذافي ليس إلا «دالتونية» مصفاً يعنى الألوان فهو يحسب أن البيرسترويكا تجديد للثورة الحمراء في حين أنها «بيرسترويكا خضراء» والتعبير للفذافي شخصياً الذي يضيف «أن غورباتشوف قلم قانون التشاكرات بتأثير النظرية العالمية الثالثة والكتاب الأخضر».

بين الاشتراكية الفرنسية والارتداد اليميني التتسري والريغني، والمحاولة الإصلاحية الغوريكسوفية، فاسم مشترك واحد: الغزف من «الكتاب الأخضر» والتأثر بالنظرية العالمية الثالثة بتجمع العالم بتياراته كلها في حضرة الفذافي يستمع إليه، يستوعب أفكاره، ثم يتفرق ساعياً جهده للاقتراب من النموذج الأرقى إذا نجحت ثورة وطنية تقدمية كما في نيكاراغوا، أطلق عليها الفذافي اسم «ليبيا الجديدة» (الم يقل أن الثورة في ليبيا لم تكن واجبة أصلاً؟) وإنا تحول تاجر المخدرات والعميل السابق للمخابرات المركزية الأميركية الدكتور نورديغا إلى خصم لواشنطن (تهرباً من وجه العدالة) عقد الفذافي ينما باسم

باسم «ليبيا الجديدة» (برضه!). وإذا استضافت طرابلس هنودا أميركيين يطالبون ببعض حقوقهم أسبغت عليهم لقب «لجنة ثورية»، ويحصل الأمر نفسه مع عناصر المجموعات النازية والفاشية القادمة من كندا أو غيرها. وهكذا يعود العالم، ببساطة مذهشة، إلى عناصره الأربعة: ليل قاتم، لجان ثورية، كتاب أخضر... ساعة الصفراء!

في هداية غورباتشوف

هل القذافي هو الذي يتبنى «البيريسترويكا»، أم الرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشوف هو الذي يعتنق أفكار «الكتاب الأخضر»؟

صحيفة «البرافدا» تلك وجهة نظر «دقيقة» حول الموضوع. لذلك فإنها نشرت تعليقا في مناسبة الذكرى العشرين للثورة الليبية أشارت فيه إلى منجزاتها وانتقدت بعض أخطائها وأضافت أنها «أخطاء وقعت قبل قيام القيادة الليبية بإجراء بيريسترويكا في سياستها الخارجية خلال العامين الماضيين». وفي المناسبة نفسها كتب السفير السوفياتي السابق في ليبيا أوليغ بيريسيبكين (رئيس أكاديمية الدبلوماسية في موسكو حاليا، لم يوافق القذافي على استقباله عندما كان سفيرا إلا بعد مضي تسعة أشهر على تعيينه وبعد أن طلب المقابلة بصفته مستشارا لا سفيراً)، كتب مقالا يقول فيه «أن الطريق الثالث للتنمية الذي اقترحه العقيد معمر القذافي في الكتاب الأخضر، يجمع بين طروحات الإسلام والمساواة والعدالة إلى جانب أفكار من الماركسية والقومية العربية وبعض الطروحات ذات الطابع الفوضوي وكان من تجلياتها موضوع فصل الثورة عن السلطة وتشكيل «اللجان الثورية»». أنه سفير يحاول بتواضع، أن يفهم. وهو يقدم بلغة دبلوماسية ما يمكننا اعتباره نقداً للانتقائية الفجة التي يمثلها فكر معمر القذافي كما جرى عرضه في «الكتاب الأخضر».

لكن المشكلة أن صاحب الكتاب لا يرضى بأي تواضع. لقد وضع مقدمة للترجمة الروسية لكتابه تعبر، بدقة، عن الحالة العظيمة التي يعيشها. يقول العقيد:

«أقدم لكم كتابي الأخضر الصغير بفصوله الثلاثة الذي يشبه بشارة عيسى وألواح موسى أو خطبة ركب الجمل القصيرة (شارة إلى النبي محمد)... عشت سنين في فيافي الصحراء وفجوجها الخالية حيث أفترش الأرض

«أقدم لكم كتابي الأخضر الصغير بفصوله الثلاثة الذي يشبه بشارة عيسى وألواح موسى أو خطبة ركب الجمل القصيرة».

وأغطي بالسماء... وعاصرت الآن أزمة العالم الكبرى في السياسة والاقتصاد والاجتماع... وجمعت المأثورات والحكم والبيديات ودرست التاريخ... ووجدت أن البشرية قد ألقت

الكتاب الأخضر الذي هو دليل الانعتاق النهائي من العسف والاستغلال وصولا إلى الحرية وتحقيق السعادة... إن الثوريين الذين اعتنقوا نظرية كارل ماركس... اعتنقوها دون تعصب لأنها العلمية... يعتنقون اليوم البيريسترويكا والكتاب الأخضر لأنه الحل العلمي والنتيجة العلمية في العلاقة الجدلية (!) بين المذاهب السابقة وحل لتأزمها المعاصر... كل الناس ألفوا الكتاب الأخضر ولكنه مبعثر في أمثالهم وأشعارهم وأحلامهم كما كان القرآن مبعثرا في أوراق الشجر والعظام والجلود وجمعه عثمان، وكما كانت التوراة مبعثرة في الألواح. أنا فقط جمعت هذه المبعثرات الخالدة ورتبتها في ثلاثة فصول باسم الكتاب الأخضر لون الربيع. لون العشب... لون السماء (!)... لون الجنة»

من العلم إلى الأشعار والإصلاح، ومن العلاقة الجدلية إلى البيديات والمأثورات ومن التوراة والإنجيل والقرآن إلى لون السماء الذي أصبح أزرق. يبدو أن البشرية كانت مبعثرة إلى أن أوقف القذافي «ركوب الحمار ورعي الغنم» وخرج من «فيافي الصحراء» ليقوم بعملية التوليف العظيمة هذه. لا يستطيع أحد أن يتنكر لهذا الكتاب لأنه مشارك فيه بشكل أو بآخر. يريد القذافي توريث الجميع. وهو، إذ يضع نفسه في مصاف الأنبياء، «يتواضع» إلى حد القول أنه لم يفعل أكثر من ترتيب ما همست به البشرية منذ وجودها الأول.

قد لا يكون الإمام الراحل الخميني أكثر وعيا بقضايا العالم ومشاكله من «الوعي الصحراوي» الذي يملكه القذافي، ولكنه بالتأكيد أكثر تواضعا منه.

... وهداية الخميني لغورباتشوف

عن الخميني، قبيل وفاته، أن يوجه رسالة إلى هذا المسكين ميخائيل غورباتشوف يعرض عليه فيها دخول الإسلام. الرسالة طويلة لكننا سنحاول اختصارها. يؤكد الخميني أن أكبر ضربة نزلت بالاتحاد السوفياتي «هي محاربة الله والدين في المجتمع». ويعترف بغورباتشوف بأنه يحاول إصلاحا. لكنه يحذر قائلا: «من الممكن أن تميلوا إلى خيار العالم الغربي وما يتوهم من جنان خضر فيه مدفوعين بنتائج الأساليب الخاطئة والسياسات المنحرفة لأقطاب الشيوعية السابقين في المجال الاقتصادي. من الممكن أن يحدث

لديكم ميل كهذا، ولكن الحقيقة هي في مكان آخر، لأن العالم الغربي مبتل أيضاً بنفس ما ابتلت به الماركسية اليوم من وصول أساليب تعاملها مع القضايا الاقتصادية والاجتماعية إلى طريق مسدود الواجب هو التوجه نحو الحقيقة الواقعية، إن العلة الأساسية لمشاكل بلدكم لا تكمن في مشكلة الملكية والأزمة الاقتصادية وقضية الحريات، إن علتكم الأساسية هي في فقدان الإيمان الحقيقي بالله، ويمضي الخميني رامي الشيوعية في «متأخف التأنيخ» ناسباً إلى غوريكسوف أنه أنزل بها «ضريبة قاضية» داخلها معه في سجل إيدولوجي حول إمكانية أن يدخل المعقول «المدرك بالعقل دائرة العلم حتى لو انعدم إدراكه بالحس»، ويسبق الخميني على غوريكسوف فيمتنع أن يزج «في تعقيدات مسائل الفلاسفة وتسعياتها» خاصة الإسلاميين منهم، فيضرب له أمثلة من نوع «التمثل الحجري المنحوت على شكل إنسان»، ويوجه إليه النصيحة التالية:

«إذا رغبت في التحقيق في هذا الموضوع فيمكنكم أن تأمروا المختصين بهذه العلوم أن يراجعوا إضافة إلى كتب الفلاسفة الغربيين مؤلفات الفارابي وأبي علي بن سينا رحمة الله عليهما في «حكمة المشائين» ليتضح أن قانون العلة والمعلول هو معقول وليس محسوساً، كذلك يمكنهم الرجوع إلى كتب السهروردي، رحمة الله عليه، في حكمة الإشراق، واطلبوا من الأساتذة الكبار أن يراجعوا أسفار الحكمة المتعالية لصدر المتألهين رضوان الله تعالى عليهم»

ولا أتبعكم أكثر، فلا أتطرق إلى كتب العارفين لاسيما محيي الدين بن العربي وإذا شئت للاطلاع على مباحث هذا الرجل العظيم فيمكنكم أن تختاروا عدداً من الأذكياء من خبائركم الذين لهم باع طويل في أمثال هذه المباحث وترسلوهم إلى قم ليطلعوا، بالتوكل على الله، وبعد عدة سنين، عن العمق اللطيف المنزّل المعرفة والبعث غاية البعث، ومحال بدون هذا السفر الوصول إلى هذه المعرفة»

الواضح أن الخميني يجعل غوريكسوف إلى كتب الفلاسفة المسلمين لا إلى كتبه هو، وأنه يقدم بدوره فيدعو إلى دين يؤمن به ولو أنه يظهر جهلاً كبيراً بأسباب الأزمة في الاتحاد السوفياتي أو غيره، أمّا القذافي فإنه يعتبر نفسه فوق هؤلاء الفلاسفة جميعاً، وفوق الخميني طبعاً، ويجعل كتابه في مصنف الكتب المقدسة التي يجتهد المفكرون في تفسيرها والدعوة إليها، وهو، فضلاً عن ذلك يتحدث إلى عالم (وعن عالم) بجهل جهلاً مؤكداً ولا يدعي صلة به إلا صلة الدعوة إلى تغيير»

عندما قال القذافي في البرلمان التونسي أن الشاعر الإنكليزي شكسبير عربي الأصل واسمه «الشيخ زبير» لم يكن مأزحاً فلو أراد التنكيت لما أعاد الكرة مرة وثانية، لقد قال ما قاله وهو يعتبر أنه حسم الجدل حول الميزة الحضارية بين البريطانيين (حيث هم الآن) والعرب (حيث نحن الآن) وأكد تفوقنا الكاسح، ثقافتنا وعلمنا وتقننا وديمقراطيتنا عليهم.



زخم المقاومة الوطنية في جنوب لبنان

سمير قصير

في شرين الأول
١٩٨٤، نشرت
«الوعد دبلوماسيك»
الفردية مقالاً
لسمير قصير عن
جبهة المقاومة
الوطنية اللبنانية.
هذه ترجمة
عربية له.

لكنها كانت «في مستوى عمليات
الستين المضامين من حيث الجهد المنظم
والنهجي» والعملية كناية عن هجوم
على موقع اسرائيلي على الطريق بين
صيدا وصور في محيط بلدة العاقية.

بُنية سرية لا مركزية

يفصح الاختلاف في الأرقام على الطريقة
التي تعمل بها «جمول» أحيانا لا يعلن
عن العمليات بسبب مشكلات التواصل
بين قيادة الجبهة التي يبدو أنها متمركزة
في بيروت ووحدها القتالية لكن ربما
كان ثمة سبب آخر يتعلق بالطابع السري
للجبهة نفسها التي تضم مجموعات
صغيرة عديدة تعمل باستقلال واحدها
عن الأخرى أكثر مما هي عاملة في حركة
واحدة متراصة تلك البنية التي استطعت
ملاحظتها منذ الأشهر الأولى، تقسر لنا
لم يتمكن الاسرائيليون من تفكيك الجبهة
ورغم الحملات التي أعقبت كل عملية، ورغم
توقيف عدد من الناصرين، يبقى أن ثمة من
المقاومين وقفوا في الأمام أو استشهدوا
اتكوا لمواجهة حيث إن خسائر الجبهة لم
تخطئ الثلاثين عملية خلال سنتين.

لا يمكن قياس تطور «جمول» وفق
المقاييس الكمية فقط رغم أن الكتمان
والالتزام المزروعة على الطرقات هي
العمليات الأوفر عدداً فقد باتت ويمكن
وحدها أن تُنفذ اليوم عمليات أكثر
تعبقداً كما فعلت في آذار الماضي في

إسماعية الشيخ وأغب حرب الذي ما لبث
أن اغتيل بداية العام ١٩٨٤. تضامنت
مع جيشيت أخرى مجاورة وحركات
منهجرة في أنحاء مختلفة في البلاد لم
تتوقف التعبئة المنخفضة للاسرائيليين
في الجنوب بمناسبة الذكرى الأولى
للاجتياح في حزيران ١٩٨٣، أعلن
اضراب عام شمل معظم أنحاء الجنوب
وكان موجهاً أيضاً ضد اتفاق ١٧ أيار
الموقع بين حكومتَي إسرائيل ولبنان
والذي أسقط بعد ذلك.

خلال شهر آب وحده من ذلك العام
شُجعت ٧٤ عملية مسلحة ضد الجيوش
الاسرائيلية وعملياته المحلية، وزاد عدد
العمليات التي نفذتها «جبهة المقاومة
الوطنية اللبنانية» (جمول) على الألف
عملية. تختلف الأرقام من مصدر لآخر.
سجلت اسبوعية منظمة العمل الشيوعي
في لبنان، «بيروت المساء» (في ٤ حزيران
١٩٨٤) أن «جمول» نفذت ألف عملية
بين ١٦ أيلول ١٩٨٢ - وهو تاريخ
انسحابها خلال الاحتلال الاسرائيلي
لبيروت - و ٢٧ أيار ١٩٨٤، من
جبهة تقول نشره الحزب الشيوعي
اللبناني باللغة الفرنسية «لبنان المنكسر»
في عددها لشهر ايلول، بأن العملية رُم
ألف وقعت في ١٤ آب الماضي، ونمضي
النشرة قائلة بأن العملية الآف - وهي
هجوم على حاجز اسرائيلي على الطريق
بين صيدا وصور - لم تكن استثنائية

بعدما وقع في أيدي الاسرائيليين ثمرة
ناضجة في حزيران ١٩٨٢، تحول
جنوب لبنان بسرعة إلى مستنقع يتخبط
فيه «أدري جيش» في الشرق الأوسط.
منذ بضعة أشهر تواتر عمليات المقاومة
بمعدل هجومي في اليوم الواحد لم
تراجع التعبئة الشعبية رغم استخدام
المحتل لرسائلته الهامة في مجالات القمع
والتوقيف الاعتباطي الطويل والعقوبات
الجماعية والإزعاج والإغلاقات المتكرر
للمطرق الوحيدة المؤدية إلى المنطقة
على العكس من ذلك أبحج القمع التعبئة
الشعبية ولا ذكيف لنا أن نفسر أن
المقاومة المسلحة هي اليوم موضع تضامن
متنام ونفعل، بعدما انطلقت وسط جو من
المبالاة حتى لا نقول العداوة.

وهو هو الاحتلال بعدما ساندته
أغلبية شعبية على اعتباره أنهى مرحلة
من القوض المسلحة والعنف اليومي
سريعاً ما بات مرغوباً بعد أشهر قليلة
من إطلاق النضال المسلح، اندلعت
التظاهرات الشعبية في العديد من قرى
المنطقة، ولم تدخل في الحسبان القرى
التي كانت خاضعة بشكل دوري لحصار
خاسر الحلوسية دير خاؤون النهر، معركة
والعديسة إلخ. بلغ هذا التحول ذروته
عام ١٩٨٣، حين اندلعت «الثقافة
الجنوب» كما سميت الصحافة اللبنانية
وجزه من الطبقة السياسية حين اضريت
خربة جيشيت بأكملها من أجل تحرير

مرقا صيدا، فبعد إطلاق النار على دورية انسحب المقاومون، ثم فجروا لقما أثناء مرور دورية هزعت لنجدة الأولى، بعد نصف ساعة وبينما الجنود الاسرائيليون يقتسمون السوارح المجاورة، ظهر المقاومون ليهاجموا المدرعات الاسرائيلية من جديد، إن جراً بمائلة تكشف الثقة بالنفس التي اكتسبها مقاتلو المقاومة اللبنانية، وبالتحديد سهولة انتشار التنظيم وسط الشعب ان توضع المقاومة المسلحة وشمولها مناطق لم يكن يصلها العمل المقاوم إلا قليلا من قبل دليل آخر على قوتها والتطور. كانت المقاومة منذ الحريف الماضي معصورة في الطريق الساحلي ومنطقة صور، ثم في صيدا، حيث تكثف العمليات اجبر الاسرائيليون على استبدال وحدات المجندين باللواء غولاني المحمول جوا وهو اللواء الأشهر في الجيش الاسرائيلي ولكن دون إحراز اي نجاح يذكر. تضاعفت العمليات في الشهرين الماضيين في المناطق الداخلية، وتعددت في الشريط الحدودي الذي يسيطر عليه جيش سعد حداد منذ ما قبل العام ١٩٨٢، اي في مرجعيون - حاصبيا ومنت جبيل.

مسلسل القمع

ارتبط القمع جزئيا بزيادة حدة المقاومة المسلحة ذلك ان معتقل انصار، حجر الزاوية في النظام القمعي الذي أنشأه المحتل، لم ينتظر ولادة «جمولة» ليمتلئ بمعتقلين لبنانيين كان من المفترض ان يساهم ذلك المعسكر في «مسك» الجنوب، وان يكون «سيف ديوقليس» المصطلح فوق رؤوس «سكان» المنطقة ليعثمهم على الانصياع للادامر الاسرائيلية استطاعت تلك الوسيلة تحقيق بعض النجاحات في البداية خصوصا مع «انقلاب» بعض المعتقلين وتعاونهم مع الاحتلال، واشهرهم

المدعو ابو عريضة في صيدا، الذي قضى في المعتقل عشرة أشهر. لكن تلك الوسيلة فقدت فاعليتها تدريجيا مع «سيطرة المعتقلين على حياتهم في السجن» وزرعهم روح المقاومة فيه ليعزلوا المعتقل في النهاية الى ما يشبه المنطقة المحررة والمحرمة على السجائين انفسهم والحقيقة انه بعد تبادل الاسرى بين اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية في تشرين الثاني ١٩٨٣، اشتكى الاسرائيليون مرارا من ان عددا من المعتقلين المحررين انتقلوا إلى العمل السري وشاركوا في المقاومة المسلحة. ثم ببق معتقل «انصار» خارجا لفترة طويلة خذرت اللجنة الدولية للصليب الأحمر انه كان يحتوي في بداية آب ١٩٨٤ على ٨٥٠ معتقلا، اغلبيهم من اللبنانيين وهذا يعني ان نسبة إشغاله مرتفعة جدا، لأنه في أيار من ذلك العام ثم يكن يشغله سوى ٥٢٠ معتقلا. لكن ذلك المعتقل لم يكن سوى المستوى المتوسط في النظام التأديبي للاحتلال الذي سماه «مراقب غربي» نظام الاحتجاز في الثلاث مستويات، يحتوي المستوى الأول على مراكز احتجاز في صور وفي النبطية، حيث يقع المركز في مبكي شركة «الريجي» (شوهدت هناك نسك معتقلات ايضا) وفي صيدا، حيث يوجد مركز في كفرخالوس وآخر في مار الياس (والارجح ان هذا الأخير يديره متعاونون محليون مع الاحتلال) وكانت خثرة الاحتجاز في تلك المراكز اقصر من تلك التي يمضيه المعتقلون في «انصار» لكنها يمكن ان تتكرر بشكل لا مثله ثم بعد استطيع المرء ان يحصي عدد الأشخاص الذين يعتقلون يوما، ويخرج عنهم في اليوم التالي او الذي يليه، ليعاد توقيفهم من جديد بعد اسبوع، إلخ. اما المستوى الثالث فيضم السجن داخل اسرائيل خصوصا «سجن» «عتليت» و«المجيدو» ويتحدث مندوب المنظمات

الإنسانية الذين استطاعوا التحقيق في الجنوب عن «الفرضات تعذيب» لصعوبة جمع الأدلة بسبب امتناع المعتقلين السابقين، من ضحايا التعذيب عن الكلام وهو أمر مفهوم قليلا. لا تنحصر الآلية القمعية للمعتل بالسجن الكيفي دون مسوغات قانونية فقط إذ إن القمع يعتمد على حصار كامل للجنوب منذ انسحاب الجيش الاسرائيلي من جبال الشوف في أيلول ١٩٨٣، ثم بناء خط «دفاعي» لمنع التسلسل وعلى ما يبدو، لم يكن الخط معكنا كما أراد ان يؤوله بعد ذلك، قامت السلطات المحتلة ب«تقنين» المرور على الطريق الوحيدة المؤدية إلى المنطقة عند معبر باطر - جزين، المغلقة في اغلب الأحيان حتى مع وجود التصريح الضرورية، يجب على المسافرين أن ينتظروا أياما كاملة، في ظروف صعبة لفتح المعبر، المخصص فقط للمسنة. ويجب على شاحنات البضائع الانتظار أيضا ودفع ضريبة تبلغ ٥٠٠ ليرة لبنانية مقابل كل يوم انتظار، ما يزيد بستة اضعاف كلفة النقل، وبالتالي سعر مبيع البضائع، بعد نهاية آب ١٩٨٤، عدل الاسرائيليون قواعد اللعبة فصاروا يفرضون نقل البضائع من الشاحنات الآتية من المناطق المحتلة إلى أخرى في المنطقة المحررة، او بالعكس. إن الظروف المهيئة التي تراقق عبور المواطنين على تلك «الحدود» الداخلية قد تسببت بحوادث عدة، فخلقت القوات الاسرائيلية النار، مرات عدة، على حشد يتظاهر، أو أشخاص يحاولون عبور نهر الزهراني، لكن حصار الجنوب يزداد شدة إذ يعجز الاسرائيليون اللبنانيين المسيحيين استخدام الطريق البحرية خمس مرات في الأسبوع في قوارب تنقل بين صيدا واللواتي التي يسيطر عليها حزب القوات اللبنانية في المنطقة المسيحية (في جونية او «الحوض

الخامس» في مرفأ بيروت).

رغم «أعادة التوازن» الى تحالفاتها اللبنانية - مع وصول موشيه أرانز إلى وزارة الدفاع - وهي إعادة التوازن التي ما لبثت ان أدت إلى «حرب الجبل» (عام ١٩٨٣) - تستمر اسرائيل في منطقة مساندة «القوات اللبنانية» في منطقة جزين، شرقي صيدا، وفي إقليم الخروب ذي الاكثريّة السنيّة، التي لم تنسحب منها القوات الاسرائيلية. ويجري الآن توزيع السلاح في تلك المنطقة استباقا لانسحاب اسرائيلي جديد.

تبقى القوة الأساسية التي يمولها الجيش الاسرائيلي هي «جيش لبنان الجنوبي»، وريث «جيش لبنان الحر» الذي أسسه سعد حداد الذي توفي العام الماضي. وقد عهدت مسؤولية الجيش إلى الجنرال انطوان لحد، وهو ضابط احتياط في الجيش اللبناني مقرب من كميل شمعون (مثله مثل سعد حداد). بعد فشل تجربة «الحرس الوطني» ومحاولة إنشاء «جيش شيعي» نتيجة المعارضة الحازمة لـ«المجلس الشيعي الأعلى» وحركة أمل، سعت اسرائيل لتوحيد مجموعات المتعاملين معها في «جيش لبنان الجنوبي». ويضم هذا الأخير رجالا من كل الطوائف، مع اكثريّة مسيحية طفيفة (٦٠ في المئة)، والجيش مكلف بالمهام الامنية، خصوصا داخل مدينة صيدا حيث يقيم الحواجز ويفرض الضرائب على الطرقات وفي مرفأ صيدا حيث يفرض ٢٠ ليرة لبنانية على كل طن من البضائع المحملة او المفرغة و٢٥ ليرة لبنانية على كل سيارة وشاحنة تحمل من المرفأ. كذلك، يفرض الجيش المذكور رسما قدره ٥ في المئة على المعاملات في فرع وزارة المال في المدينة. وهو يفرض أخيرا ضريبة دخل قيمتها ٥ في المئة على المواطنين. وذلك بالطبع دون احتساب الخوات.

المطلوب من «جيش لبنان الجنوبي» حسب مشيئة راعيه، أن يلعب دورا

مهما كان الجيش الاسرائيلي في حال انسحابه الجزئي. لكن، لا يبدو واضحا كيف سيستطيع مواجهة المقاومة خصوصا أنّ الجيش الاسرائيلي نفسه يواجه صعوبات في ذلك المجال. ويبدو أنّ هناك امكانية، في المدى القصير، لانسحاب من صيدا حيث يعيش في المدينة وجوارها نصف سكان جنوب لبنان، أي حوالي مئتي ألف شخص، وهي المكان المنطقة الأمثل لخوض المقاومة المسلحة. وفي حال انسحابها من عاصمة الجنوب السنيّة، ستجد اسرائيل نفسها وجها لوجه مع الجمهور الشيعي. ولكن لا يبدو واضحا ما اذا كانت اسرائيل مشغولة بهذا الاحتمال نظرا الى تاريخها في اثاره الثغرات الدينية حتى حين تكون ضمن تجمعات سكانية معادية لها. الهجوم على كبار علماء الدين الشيعة، والاستفزازات الدينية (مثلا التفتيش بواسطة الكلاب البوليسية داخل المساجد) هي بالكاد ثمرة الجهل، خصوصا بالنسبة لقوة تتمتع بالخبرة التي تتمتع بها اسرائيل في احتلال الأراضي.

الحقيقة ان احتلال جنوب لبنان قد اتخذ مظهرا مطردا على انه قضية شيعية. على الأرض، يحمي علماء الدين المقاومة الشيعية باصدار فتاوى شرعية تدين التعاون مع العدو أو تبيح تصفية المتعاملين. وفي بيروت، يشغل السيد نبيه بري منصب وزير دولة لشؤون الجنوب. وقد قرر في خريف ١٩٨٤ صرف رواتب لعائلات المعتقلين البالغ عددهم ٨٥٠ معتقلا في معتقل «أنصار». ورغم أنّ الدولة هي من تدفع لن ينسى احد ان القرار اتخذه قائد حركة أمل. في الحقيقة، تسير الأمور كما لو أنّ الجنوب قد جرى تلزيمه لحركة أمل، ضمن واقع الاعتراف الضمني بالاستقلالية الذاتية للطوائف المختلفة التي ترسخت خلال مؤتمر لوزان في آذار الماضي (١٩٨٤). ترافق ذلك مع مشاركة أكبر لحركة أمل

في المقاومة المسلحة. وفي حال الحديث عن منافسة في هذا الصدد، فهي تنحصر في الطائفة الشيعية، وتضع أمل في مواجهة المجلس الشيعي الأعلى.

إن التوازن الجديد في لبنان يكرس التجزئة الطائفية دون ان يترك المجال لأي قوة سيطرة توحيدية عدا تلك التي تمارسها سورية. تتمتع اثنتان من الطوائف، الموارنة والدروز، باستقلالية شبه كاملة، خصوصا في ما يتعلق بـ«جيشهم» و«مناطقهم» وادارتهم الداخلية، علما ان الميليشيات تؤمن لقمة العيش لعدد كبير من العائلات. وقد عانت الطائفة السنيّة من مجمل الحرب، وكذلك من رحيل المقاومة الفلسطينية. ولكن بفضل التحالفات التي عقدها رشيد كرامي، أحد اقطاب الطائفة ورئيس الوزراء الحالي، مع سورية، وخصوصا بسبب الدور الكبير الذي تلعبه المدن الكبرى في حياة البلاد حيث الوزن الديموغرافي والاقتصادي، لم تتعرض الطائفة السنية لخسارة كبيرة على الصعيد السياسي، ولو تقلصت استقلاليتها قياسا الى الطوائف الاخرى، حيث ان مناطقها خاضعة للجيش السوري وزبائنه المحليين في طرابلس، وللعيش الاسرائيلي في صيدا، وهي تتعرض للتحدي الشيعي في بيروت.

أما بالنسبة للطائفة الشيعية، فقد فرضت نفسها أخيرا على شركائها بما هي شريك كامل في «الصيغة اللبنانية». وقد تمت وحدتها، منذ بداية الثمانينات، تحت ضغط حركة أمل وتعرزت مؤسساتها، ما زاد من تماسكها الداخلي. ولا ينقص الطائفة سوى الأرض، لأن ضاحية بيروت الجنوبية ليست مناسبة لسد ذلك النقص. يجري الاعتراف المتزايد بالجنوب بما هو يخص الشيعة. على أنّه حين يصبح تحرير الجنوب قضية شيعية فسوف يعجز التحرير عن ان يكون رافعة فعالة لاعادة توحيد البلاد.



سيناريو فيلم «أجل الامهات»

مارون بغدادي

مشروع فيلم ١٦ ملم ملون - ٢٠ دقيقة - المخطوط العامة للسيناريو

هذه ترجمة عن

الفرنسية لنص

سيناريو الذي

وضعه مارون

بغدادي لقيامة

عن شهداء منظمة

العمل الشيوعي في

لبنان عام ١٩٧٧.

الاغنية المضمنة في

الفيلم هي «أجل

الامهات» من شعر

حسن العبدالله

والحنان وغناء

مارسيل خليفة وقد

سقى الفيلم على

إسم الاغنية كتب

مارون عن عملية

اخراج هذا الفيلم

«أشعر يأتي معني

جدا بهذا الفيلم...

ربما لأنني اخرجته

ولأنني صعدته يدملي

وشغفتني... يحب... انا

واع لتأثيره السياسي

ولا أهميته بالنسبة

للمنظمة. لكن هذا

الفيلم هو فيلمي

جزئيا ايضا لأنني

أحسسته يروحي

وأفكرته بعيني...»

١ • دورية مقاتلين في الجنوب

الفكرة هي تصوير قبضة من المقاتلين الشيوعيين عشيّة معركة أو عملية عسكرية لا تاريخ ولا مرجعية مادية واضحة. تحقيق بصوت سينكرون. موضوع المقاتلات: «لماذا نقاتل؟ ولماذا نموت؟»

٢ • مقابلات مع لمس الشهداء

من خلال عدة مقابلات مع أهالي الشهداء - آباء وأمهات وأشقائه وشقيقات وجيران وأصدقاء - يجري رسم صورة لمقاتل نموذجي من مقاتلي منظمة العمل الشيوعي.

مقابلة صوت سينكرون الموضوع: «من هو [الشهيد]؟ ماذا كان يعمل؟ ماذا كان يحب؟» الجانب الانساني.

٣ • فوتومونتاج لصور الشهداء

تصوير بوسيلة «تروكا» trucau وبالتأثيرات الخاصة وبالاعتماد خصوصا على [تقنية] الثلاثي المتسلسل - fondu - enchainé وتظهر بلون «سبيري» أغنية شعبية غنائية تصور كلماتها نضال الشيوعيين.

الميزانية

٢٠٠,٠٠٠ - ٢٥٠,٠٠٠ ليرة تتضمن

بنوع خاص:

فيلم ١٦ ملم ملون

مواد - كاميرا، ناغرا (صوت) وعلمسة

مكتبة (مواقع)

فريق تقني: مصوّر، مهندس صوت،

كهربائيون (إضاءة)

مختبر: تجميع، نيفاتيف

مونتاج إيجاي

توليف

تسجيل موسيقى

مونتاج سليمي

سحب نسخة رقم صفر

يجب ان تتم الاعمال المخبرية في

بأرسن لسيبيون

+ طبيعة الموضوع لن تسمح باللجوء

الى استوديوهات بعلبك التي يسيطر

عليها الكتائبون

+ سحب النسخ الملونة الخاصة

مارون بغدادي

وقت أغنية

جون برجر

ولد في لندن ١٩٢٩.
حكواتيه روايته كاتبه
سرحيه نافه ورسام
قيل عنه انه من الكتاب
الاكثر غوطا في العالم
خلال الخمسين سنة
الاجيرة أعماله «جذوة»
في الشكل وفي الاجلاد
الفرجية والسياسية
من دراساته في التصوير
والفن جيش برجر
ويجمل في قرية فرنسية
مخيرة في جبال
اللب حيث استوحى
شخصيات واحداث
ثلاثيته الروائية عن حيلة
الفلاحين بعنوان «في
كدهم». صدرت مؤخرا
«مخبرات من اعماله»
بعنوان «عجيم جيب».
صدر ليجون برجر
بالعربية
«وجهات في النظر»
(دمشق، ١٩٩٠) «طرق
في الرؤية» (دمشق
١٩٩٤)
«ضجاح ميكاسو واخفاقه»
(بيروت ٢٠١٠)
«من عتبة الى كسافيه»
(بيروت ٢٠١٠)



العزبة رنداء

إني اشاهد صور تماثيلك الاخيرة وهي مؤثرة ومنغلة قدر
ما هي المنحوتات التي شاهدتها بالحجم الطبيعي في رام
الله لستين خلتا اتخيل ان التماثيل الجديدة في حجمها
الطبيعي موجودة في قريتك مجدل شمس التي صارت
«عاصمة» هضبة الجولان المحتلة بعدما محا الاسرائيليون
مدينة القنيطرة.

اني اكرر هذه الواقعة التي تعيشونها ليل نهار لا لسبب
الا لأن الشخص في حجمها الطبيعي، بأيديها واقدامها
والوجه تعبر اياها تعبير عن اقصى انواع الحرمان انها تجسد
حيوات محرومة من موطن قدم وجرت من عنوان وحكم عليها
ان تكون أيدا في الامكان السكن الوحيد الذي تملكه هو
أجسادها والطرق الوحيدة التي لها هي أيديها والأرجل
تسكن مجموعة تماثيلك الجديدة «يلا يشارك» وأفترض ان
العنوان يشير جزئيا الى سرقة المكان تلك وإيادى السكن هي
شخص تنظر ارضا لتقف عليها وتمشي عليها وتستلقي
عليها الا انها أكثر هدوما من شخصك السابقة والهدوم
بضائع من استحالة ان تتعرض مأساتها للنسيان.

من اين يأتي هذا الهدوم ليس من الاستسلام الغضب
ضد الظلم الذي يسبب آلامهم حاضرا ايدا ولا الهدوم ناجم
عن تعب انه هدوم مليء بالطاقة المكثوبة انه شكل من
اشكال تحمل المحنة فمن اين تأتي طاقة الاحتمال هذه؟

شاهدت مؤخرا في مسرح بياريس عرضا قدمه ثلاثة
راقصين وثلاثة ممثلين موضوعه ايضا عذاب الشعب
الفلسطيني ونضاله كان المسرح مزدحما والعرض يلعب
عنوان المسرحية «المحسوس» لم يخف المشاهدون تأثرهم
الواضح وهم يغادرون القاعة ومع ذلك فاحتلال اسرائيل
غير الشرعي للضفة الغربية وضمتها القدس الشرقية
بتفسيان دون موانع وسوف يستمران يلا هوادة وفي كل



ورجلين وثلاث اقدم وتحفظان مع ذلك
بكرامتهما

ما السني بغيره «وقت اغنية» هو ان
احتجاجك وكرامتهما والاعتراف بحمتها لم
تعد امورا مؤقتة او طارئة، وانما باتت متحفة
ومستوعبة الآن في ادراك انساني مشترك.
وقصة هذه الشخصيات ناقصة ومكتملة في آن
معاً. وهذا لا يتاح الا في «وقت اغنية»

لنتصور ان كل الاحداث المؤدية الى معنة المرائين
الواقفين تحصل كما قد حصلت (وكما هي حاصلة الآن)
تم يسدل عليها حجاب يغيبها كلياً ويطبق عليها الصمت
ويجري استيعابها سوف نكون إنذاك ازاء انتصار اللاعننى
- او انتصاره المؤقت اقله، لأن ما احد يستطيع ان يقطع
اسان التاريخ

لم تتغير فماتلك بأي شكل من الاشكال الظروف التي
تعيشها تلك النسوة واولئك الرجال ان ما تحققت لا اهمية
له ولا عواقبه ومع ذلك فلا انت ولا شخصوك تعاون الآن
انتصار اللاعننى

في «وقت الاغنية» تتوجد العدالة من جديد، ويجري
الاعتراف مجدداً بالكرامة وتلقى البطولة ما تستحقه من
تكريم، يرسم «وقت اغنية» هذين القوسين () اللذين ينتهيان
الى الحاضر والماضي والمستقبل، ومن ذلك الادراك تثبث
ملقحة الفنان على الاحتماله كما يقول محمود درويش في
قصيدته «لاعب النرد»

«لا اقول: الحياة بعدك هناك حقيقة»

وخيلية الاحتماله

بل اقول: الحياة، هنا، ممكنة»

لعل ملقحة الاحتماله التي اكتشفها فنانون من امثالك،
واستلهاهم ما سميت «وقت اغنية» بعض الدلالات
بالنسبة للممارسة السياسية في ايماننا هذه.
في عالم متعولم تهيمن عليه قوى السوق التابعة



ليلة مثل الفرقه مسرحيتها يالزخم ذاته من اين تأتي ملقحة
الاحتماله هذه؟

قبل ان احاول جواباً على السؤال بعض الملاحظات عن
لمارسه الفن والممارسة السياسية عندما يكون الاثنان معنيين
بالقضايا ذاتها في كل فضال «سياسي» يشتغل الفن بطريقة
مؤدية أكثر بما يشتغل بطريقة مباشرة، الضغط الذي يمارسه
الفن، والدعم الذي يقدمه من طبيعة اخرى إذا ما قيس
بالضغط والدعم اللذين ينتجهما الفعل السياسي المباشر، ان
هذه الاعمال السياسية أكثر تحديداً ومثلاً المجازفات التي
تتكبد الفن معني بما يسبق الاعمال وما يليها لهذا فنادراً
ما يزعم الفنان انتصاراً سياسياً او يحتفل بانتصار سياسي
عندما يكون الهدف من النضال السياسي هو التغيير او
شق مسار جديد، بدعم الممارسة الفنية هذا النضال وهي
على مسافة بعيدة خلف خطوط النضال الاممية ولكن
عندما يكون الهدف السياسي المباشر هو المقاومة يتقدم
الفن ويغترب من الخطوط الاممية

تساعد هذه الملاحظات على تفسير لماذا الفنانون - عدا
عن مخلوقات «السوق» بينهم وهم كثر - يكتسبون شيئاً من
الصبر تجاه النتائج المباشرة للافعال السياسية، غير أن هذا
ليس يكفي لتفسير ملقحة الاحتماله التي أتحدث عنها تفسيراً
كاملاً.

تسكن الاعمال الفنية في الزمن وفي الزمن تعرض تجرية
تختلف عن معظم الاحداث اليومية المحيطة بها قبل العمل
الفني وخلالها، ندخل في ترتيب زمني مختلف هو زمن
أسمىه «وقت اغنية» مع ان التسمية تنطبق بالقدر ذاته على
الاعمال المرتبة الصامتة.

يفتح «وقت اغنية» قوسين () في مجرى الزمن اليومي
فندخل «المعني» و«المستمع» داخل القوسين، حيث لا توقع
لشيء ولا حاجة لشيء خلا التشارك في اغنية والاغنية هنا
هي اقتراح وهي حصيلة في آن معاً وهي أيضاً نداء وجواب
والم وعزاء إن فماتلك تعيش في ما أسميه «بداة اغنية»
غني عن القول ان هذا لا يزيد شخص فماتلك صماته،
ولا ينتقص شيء من فساده العذاب الذي تعانيه لا تزال
المرائين الواقفتان تتشاركان في جذع واحد وثلاث أهد

وندا مداح

فنانة سورية،

مجلد غمس،

الجولة للمجلد.

درست الفن

بجامعة دمشق.

عرضت أعمالها

في دمشق وبيت

لحم ودم الله

ومجلد غمس.

للمراسمالية المثالية، ويسوده التلاعب عبر وسائل الاعلام
وتتحكم فيه عبودية التسليق وخرافات النزعة الاستهلاكية
فقدت أحزاب المعارضة السياسية التقليدية وتحالفاتها كل
صدقته وعفا الزمن عن برامجها وإنسدت آفاق رؤيتها
السياسية واحتل المتلاعبون الفراغ الناجم عن ذلك وهم
يكيفون الناس لكي يرتضوا العبودية للأبي المبشر، ثم
يأتي جنون الارتياب (البارانويا) ليحل محل أي هدف خلاقي
مسترك أو مشروع جمعي، إن الإنسان يعيش الآن للعظمة،
لحظة لحظة

إن سياسات المقاومة والمعارضة الجديدة سوف تكون
متنوعة وعفوية ومعلية وكونية في أن معاً، لكن المشترك
بينها هو المبدأ الأخلاقي الذي يقول إن الاستسلام
للاستكانة في وجه ما يتعرض له العالم يعادل إنكار إنسانية
الإنسان وصُرْم صلات القرى التي تصلنا بالموتى والاحياء
والذين لم يولدوا بعد، لن يخلو الأمر من هزائمه ولن يكون
ثمة انتصارات نهائية، فالنضال هو في صميم البشر غير أن
النصر متضمن سلفاً في أفعال المعارضة المتشككة وهكذا
يمكن القول إن النضال الجاري يعني اطاعة «همة أغنية» في
الوقت الذي نواصل فيه اتخاذ قراراتنا وتدير الكيفية التي
يها نعيش حيواتنا

شكراً على الضور،

جون



أسامة بن لادن لا يقيم هنا

حميد دباشي

استاذ الدراسات
الايرانية والادب
المقارن في جامعة
كولومبيا، نيويورك.
من اعماله: «جد
الاعتراق: المعرفة
والقوة في زمن
الارهاب» (٢٠٠٨).
صدر له بالعربية:
«المقطعة فخرية»
«السيدما الايرانية»
«ماضي حاضرا»
«مستقبل دمشق»
٢٠٠٢. ويصدر له في
فيضان ٢٠١٢ كتاب
عن «الربيع العربي».

تتطلبه في اربعين دقيقة تقريبا، على
الرجل فتقتاله/تفقد فيه حكم الاعلام
وتسرق جثمانه الذي قيل انه غسل
على الطريق الاسلامية والقي به في
بحر مجهول.^١
لم يمض وقت طويل على توزيع
تلك الصورة بواسطة «البيت الابيض»
حتى كانت محطة «سي إن إن» تعرض

الذين يشكلون فريق الامن الوطني
تبعه تجمعوا لمساعدة «عملية
جيوينمو» وهي تتوالى فصولا في
يث حي من «ايوت آيكن» (ياكسكان)
حيث قوة خاصة من فرقة SEALs
«سيلز» التابعة للبحرية الاميركية
تهاجم المجمع الذي جرى تعيينه على
انه موقع أسامة بن لادن وحيث «سوف

قد تكون الصورة اشد وطأة عندما لا
نراها وانما تتخللها وهي تنعكس على
الذين يشاهدونها.
لنتوقف لأخذ مثال زاخم لواحدة
من الصور الاكثر ايقونية لما صار
يسمى «صورة غرفة العمليات» في
«البيت الابيض» حيث الرئيس أوباما
وكبار مساعديه المدنيين والعسكريين



١ لملاحظة صورة
غرفة العمليات،
وفرازة «مايك سي»
إيدان، عليه راجع
What's on the
Room Photo
Reveal About Us
(CNN, 5 May 2011)
للوقوف على الموضوع
<http://and.cnn.com/2011/05/05/01/tonicphoto/>
Black on photo
national security
want ر. م. أ. س.

بلحظتها اذا ما دعت الحاجة) أقل أهمية بكثير من حقيقة وجودهم هناك. سيان عند معلق سي. ان. ان. اكانوا يشاهدون مباراة كرة قدم او مسلسلا تلفزيونيا. فذلك لن يغير في الامر شيئا. المهم هو ما نشاهده نحن، لا ما يشاهدونه هم. وإذ نساق لمشاهدة المشاهدين، يجري حرف تركيزنا ليس فقط عن مشاهدة ما يشاهدون، وانما نمنع استباقا ايضا من تخيل ما يشاهدونه وما يجذب تحديقهم. وهكذا تلتقي «صورة غرفة العمليات» مع تعليق السي. إن. إن. لاداء وظيفة الشرك والطعم لصرف نظرتنا عن نظرتهم، فتنحرف أعيننا بحيث تنظر الى صورة مسطحة بدلا من النظر الى التجويف المقعر للذين تصوّرهم الصورة. فما من واحد من الحاضرين في الصورة يتطلع الى آلة التصوير، وهو ما يقوم به الناس عادة عندما يأخذ أحدهم لهم لقطة. هكذا كانت عدسة مصوّر «البيت الابيض»

اميركا، فهو الغاضب وقاطع الطريق، اي الرجل الذي عليك ان تعبر الى الرصيف الآخر من الطريق لتتجنبه... ولكن في صورة «غرفة العمليات»... تلقى الرجل الاسود بما هو حامي اميركا». (المرجع ذاته) في هذه القراءة، يقودنا تعليق السي. إن. إن. للنظر الى ما ينظر اليه الجالسون في غرفة عمليات «البيت الابيض»، ويحفزنا للنظر الى الناظرين، الى عرقهم وجنسهم وتنوعهم، بما هي علامات على سياسات تقدمية تجري في اطار التاريخ الاميركي، وتنم عن درجة التقدم التي حققتها الرجل الاسود والنساء البيض في ارتقائهم الى تلك الغرفة وبالتالي عن مستوى التسامح التي بلغه المجتمع الاميركي. فما يقوم به هؤلاء الرجال والنساء هناك (مشاهدة بث حي لتنفيذ عملية اغتيال، بحضور القائد العام للقوات المسلحة الاميركية ليعطي التعليمات للحظة

مشهدا لـ«صورة غرفة العمليات» أدى الى تركيسها، ليس فقط بسبب اتساع عدد مشاهديها على شبكات الاتصال الاجتماعية وانما ايضا لأن المؤرخين والبحاث الآخرين قرأوا الصورة على انها دلالة على تغيرات استثنائية في «البيت الابيض» وبالتالي في المجتمع الاميركي من حيث العرق والجنس ومساائل اخرى متعلقة بهذا وذاك. «للتو، ارتقت الصورة الى مصاف الصور الكلاسيكية. ضربت الارقام القياسية لعدد المشاهدين على «فليكر». هي صورة فتانة توحى قدر ما تكشف... وقد ركّز معظم المعلقين على طابعها التاريخي. أوباما يحدّق بالشاشة متجههم الوجه، وزيرة الخارجية هيلاري كلنتون تكّم فمها لكبت ردة فعلها. اننا في البؤرة المركزية لجبروت الولايات المتحدة العسكرية وهي تطارد الدّ أعدائها وتقضي عليه. ولكن إذ نلقي نظرة

أعمق على الصورة، تصوير صورة تاريخية بطريقة أكثر دقة. انها لقطة تصوّر مدى التغير الذي طرأ على مواقف هذه الامة تجاه العرق والنساء والزهو الرئاسي، بشهادة العديد من البحاث والمؤرخين... فخلال الفترة الاطول من التاريخ الاميركي، كان ينظر الى الرجل الاسود على انه خطر يتهدد سلامة



على إعدام أسامة بن لادن، فتقودنا الى مشاهدة ما يشاهدون، لا الى ما يريد لنا مصوّر «البيت الابيض» ومعلق السي. إن. إن. ان نشاهده تستخدم فرح ناز أمرالله المموجة المسموحة لتقودنا الى اللوحة المعجوبة في الشريط الفعلي الذي يصوّر عملية الاغتيال، وتقل أمرالله الواقع البديهي لما تسمح الصورة برؤيته مرفقاً بتمثله الباطني لما تكشفه تلك الصورة لكي يتجلى امام الذين صوّرتهم [الصورة] بعبارة اخرى، بصريح «البيت الابيض» بشبهة لواقع، لما هو مشاهد، فتحوّله أمرالله الى شبهة لتمثّل الامرئي للمعجوب، لما

وبالتذكّر هي ردود فعل الجمهور البديهي في هذه الصورة اننا لن نشاهد فيلماً عن العملية فلمه جرى تأجيل الحدث الفعلي الى وقت لاحق، لسبب اخر، فبسبب القيود التي فرضها «البيت الابيض» علينا ان نشاهد الحدث لا بالعينات وانما بالعين اولئك المتجمعين في تلك الصورة في «البيت الابيض» وبناء على حركات أجسادهم التفصيل ليست مهمة، يجب ان نؤمن بأن العملية «العسكرية» قد حصلت لمجرد وجود تلك الصورة، فذلك الصورة قد حلت محل الفيلم والوثيقة او محل صورة فوتوغرافية للعملية العسكرية او لجثمان بن لادن، بتوجب علي ان

حجائية، وستأرا، وتوبها يؤدي العكس تماماً لما يفترض بألة التصوير ان تؤديه ان تظهر وتكشف وتعرض، بالعكس، فألة التصوير هنا تعصب أعيننا ان نظامها البصري هو نظام اغتصابه غير ان لهذه الصورة «كعب أخيل»، اننا نظر اليها المرء بعناية، دون ان تعرف نظره بنة المصور، وانما ظل متجذبة الى بنة الصورة، ومن البديهي ان امراً كهذا لن تلعبه سميات العرق والجندر في الولايات المتحدة الاميركية في مقالة مختصرة للمدونة والصحفية الإيرانية، فرح ناز أمرالله، تلقى مثل هذه القراءة بالتحديد، قراءة تسمح بها مقارنة «صورة غرفة العمليات»



تمنع الصورة مشاهدتها ولكنها تكشفه بفضل وظيفة «سيمائية ارفع» فيما يتعدى تقاد نظرة فرح ناز أمرالله السيمائية اعتقد انه اخرى بنا ان نقارن «صورة غرفة العمليات» بصورة أيقونية لبن لادن وشركائه في كهف (حوالي العام ٢٠٠١) والارجح في باكستان^٢ بنقل فيلم «شيرين» السجل

أؤمن ان بن لادن قد قتل بمقتضى تلك الصورة والبيان الرسمي الصادر عن الحكومة الاميركية وبناءً على انعكاس عين بن لادن الممثلة على يوبو عيني الموظف الكبير في «البيت الابيض» ان قراءة فرح ناز أمرالله عدسة تصحيحية تقلب قراءة السي. إن. إن رأساً على عقب وتوجّه انتباهنا نحو تحديقه المشاهدين في ما يشاهدون

يفيلم «شيرين» لعباس كياروستامي (٢٠٠٨) حيث لا نشاهد فيلماً وانما نشاهد مجموعة من الناس تشاهد فيلماً، هذا ما تقوله فرح ناز أمرالله: «تذكّرني هذه الصورة [صورة غرفة العمليات] بفيلم «شيرين» لعباس كياروستامي، فالخرج إما انه لم يرد لنا ان نشاهد فيلماً او ان الفيلم لم يكن لنا يال بالنسبة اليه الهام والجدير بالتحليل

٢ راجع:

Abd al-Jazairi
Ben Laden's
Pleasure of Ben
Laden's Corpse"
على الموقع:
hepeshanet.org
blogspot.com

٢ مشاهدة هذه الصورة
في شرة لعدة
الجزيرة، لقطرة
راجع هذا الرابط:
hepeshanet.org
blogspot
only2009/06/ama
bin-laden-in-cave
with-hood.html



السميائي الى نمط كينارد سميائي المميز من الواقعية السيميائية الذي سميت به «الواقع التطبيقي»^٤ فأتينا توسطينا فيلم «شبرين» نستطيع ان ننقل «صورة غرفة العمليات» الى نقيضها السيميائي عندما نقارنها بصورة أسامة بن لادن فأبعا مع شركائه في كهف ياغفانستان ففي تلك الصورة الايقونية نشاهد ابضا أسامة بن لادن وشركائه المقربين (كانهم صورة المرأة لشركاء الرئيس أوباما) وأنظارهم شائعة عن آلة التصوير ولكن مع ان أسامة وشركائه ينظرون هم ابضا الى شيء يقع خارج اطار الصورة، الا انهم ليسوا يشاهدون شيئا بعينه، بقدر ما يلقون تعديفة ضجرة وتأملية على شيء بعيد، ناه عن لعله موضوع تأمل ميتافيزيقي في أيديته أو نقطة لا عودة منها، يتوجهون اليه ان أوباما وشركاؤه يشاهدون عملية اغتيال قيد التنفيذ؛ اما أسامة وشركائه فيلقون نظرة على الأيديته، على ما قد يسميه جيمز «المعني المطلقة» ليس يملك أسامة المقدرة التكنولوجية ليشاهد الاعمال الارهابية المتهم بأنه أمر بها، وهي قيد التنفيذ يستطيع ان يتخيلها فقط اما أوباما فإنه يتباهى بالآلة العسكرية القرائية الموضوعية بأمرته، بحيث لا يحتاج لأن يتخيل أي شيء، انه يعاين عملية الاغتيال التي أمر بها وهي قيد التنفيذ «الحقيقي» هناك كما في «الزمن الحقيقي» لا يمكن تخيله في لا حقيقته «كهف يحققون ذلك»^٥ هو السؤال المزعج والحل يقين أسامة الميتافيزيقي في مقابل ألعاب أوباما التكنولوجية الواقع هو ما يعبر عن نفسه بواسطة التعديفة الموارية في عيون أوباما والتشويل هو ما تلقاه في عيني أسامة الخفيضتين.

وإذا كان لنا ان نفكرن بين الصورتين في السجل الرمزي نرى

ان أوباما، بما هو رئيس الولايات المتحدة الاميركية، يؤه نفسه بحيث لم يعد يحتل مركز القوة والجاه، لكي يعد نفسه أفضل الاعداد لخوض الحرب السرية والتجارية انه يشبه مدرب كرة قدم أكثر مما يشبه كائن الفريقه بعبارة أخرى، لكي يقتل أوباما أسامة كان عليه ان يصير هو أسامة هكذا فإن تجميع كبار مستشاريه في «غرفة العمليات» بصيرها شبه الكهف، انها الكهف حيث الامبراطور يقدّم المتمرد وهكذا فإن الخلط المعتاد للذبيح الاخير الاميركيين بين الاسمين [أسامة وأوباما] يكتسب هنا معادلا بصريه لقد أصبح أوباما هو أسامة، وتأكيدا على ذلك يقدّم أوباما أسامة على نحو موارب تماما مثلما تفعل آلة التصوير لمصور البيت الابيض، التي تقع على زاوية انحراف ٣٥ درجة من السانحة التي يشاهدها الحضور، ولعلها تبعد ٢٥ درجة عن كاميرا كينارد سميائي وهي تصوّر لقطات مقرية من فيلمه «شبرين»^٦

انقلاب زلوية النظر

إذ يتحول «الامر والتحكم» للامبراطورية على نحو صميمي الى نموذج لتنظيم «القاعدة» نصير شهودا لانقلاب كامل لاحداث الحادي عشر من ايلول حيث تنفذ عملية اغتيال خارجة عن القانون لشخصية ايقونية في حرب غير متكافئة اسمها المسفر «ارهاب»^٧ يصح الافتراض بأن أسامة بن لادن ثم يشاهد احداث الحادي عشر من ايلول من خلال كاميرا مركزة على خوذته يحتملها محمد عطا شاهدها، إن هو شاهدها في التعديفة البعيدة التي نشاهدها بلبثها في صورة الكهف تلك، كأنها يشاهد العملية في عين ذكره ولكن كما في نشاط مغيلة أسامة كذلك في المشاركة المستكنة لأوباما في التكنولوجيا الطاغية، يتشارك الاثنان في تجاوزهما الحدود الافتراضية للام

واللدولة - الامنة ان تجاوز أوباما السيادة الوطنية لباكستان، او تغافله عنها ليس مؤشرا بالتأكيد على نهاية الدولة - الامنة انه انتهاك لها، مثلما انتهكها محمد عطا ومجموعته، وقد تم الربط بينه ومجموعته وبين اسم أسامة بن لادن لاحقا في السردية الاميركية الرسمية «التي يشكك فيها» يعنف أصحاب نظريات المؤامرة الاميركيون ثم جاء الانتهاك عن طريق فريق «سبلز» التابع للبحرية الاميركية بقيادة أوباما بصنفته القائد العام للقوات المسلحة مستسغا في الواقع ما قد جرى سابقا على نطاق أوسع في العدوان يقبلة اميركية على أفغانستان وعلى العراق وفي الغاء القبض على صدام حسين واعدامه ان انقلاب المجاز هذا، حيث «نصير» أنت عدوك لكي نهزمه، يؤدي في معانيه العسكرية، المعنى ذاته الذي تؤديه السيميائية عندما نضع «صورة غرفة العمليات» الى جانب صورة أسامة بن لادن وشركائه في الكهف الشهير، فنسمح بإدخال لقطة متقاطعة تجمع الطرفين المتحاربين في البعد الثالث للشبه بينهما

في «صورة غرفة العمليات» تلقى ان صممة أوباما وعينيه المصممتين الهادفتين تعكس تعديفة أوباما البعيدة وتسطعها فتقضي على الافتراض بوجود مركز وأطراف في امبراطوريتهم هكذا يتحول رئيس الولايات المتحدة سوريا الى «الارهابي» الذي يريد إسداء الهزيمة له ان الحرب غير المتكافئة التي تنتج من تلك الصورتين وتظهر من خلالها قد أصبحت حالة «سيميائية ايقونية تتقضى من ذاتها لذلك نعم، إذا، ثمة ما يعجز المقارنة بين «صورة غرفة العمليات» وبين فيلم «شبرين» لعباس كينارد سميائي، مثلما تقترح فرح ناز امرالله ولكن يحصل ذلك من خلال تعديفتين منعرفتين ومتبادلتين

٤ راجع الفصل عن كينارد سميائي في Hamid Dabestani, Masters and Metaphors of Iranian Cinema 2007.

٥ هذا هو كليب، على يوتيوب، يحتوي على الشظايا من أسامة وقبلا من قبل منجي الفيلسوف كين: <http://www.youtube.com/watch?v=2R4WIP270>

الإغفال للذات العاملة هو حيث الوجه الشوري لـ «الاس مينيناس» ينبع باكتشافات الخيانة المتبادلة التي يرتكها كل نظام معرفي (وهو اكتشاف طوره ادوارد سعيد لاحقاً في كتابه «الاستشراق» عندما طرح ان مذهب «الاستشراق» هو الذي يصيرك «شذوذاً» ان شاغل خوكو في «الكلمات والأشياء» هو كيف يمكن لثلاث «سرديات علمية – علم الطبيعة (البيولوجيا) والاقتصاد والاسنيات – بما هي ثلاثة أقطار من نظام معرفي – تفرض بالضرورة وجود ذات تسمى «انساناً» معطاة سلفاً وقد إنجذب خوكو لـ «الاس مينيناس» لانها نظام بصري دمر سائر الأنظمة البصرية إذ حجبت نفسها وحالت دون مشاهدتها على انها نظام بصري. وهكذا صار مذهب خوكو يعد البصري المعادل لـ «الاس مينيناس» في العلوم الاجتماعية ويمكننا ان نحتاج ايضاً بالقول ان ديلاسكرز حقق في العام ١٩٦٤ ما حققه برنست في القرن العشرين بطرح ذكرته المسرحية عن «البعاد» يطرقه مشابهة، تشر «الاس مينيناس» المنظومة البصرية المسيطرة لكن بيت القصيدة هنا انها تفعل ذلك من خلال طرح امكانية مقترحة على وجود علة منظومات

ينم عن تفكير مبكر لمنظومة التمثل البصرية بما هي أداء يميز للمنظومة المرئية حيث التطبيق المألوف بين الواقع والتمثل يتحول جغرافياً ويتعدى على مستويات متعددة في منظومات من هذا النوع تنبني على معرفة مسبقة (او ما يسميه طوماس كيون «بارانام») تتطهر الحقيقة لا لكونها يدها بذاتها وانما لكونها منبئة في منظومة معرفية او دورة تأريكية في خرائطهم الواقع عبر هذه المنظومة بصير القراء كائنات مجهول انفسها تقريباً، يعلمون اشياء خفية عنهم فوائدهم، او يدعة اكبر ينصبون حدود معرفتهم بانفسهم يختم خوكو قراءته لـ «الاس مينيناس» بان يقترح الآتي: «لعله يوجد في لوحة ديلاسكرز تقديم التمثل الكلاسيكي، اذا جاز التعبير، وتعريف المبنى الذي يقتضيه لنك والاكاديمي يتولى التمثل تقديم نفسه هنا بكل عناصره بصوره، والعيون التي يتعرض عليها، والوجوه التي تستظهرها، والحركات التي يستدعيها ولكن وسط هذه البعثة التي هي ملهمة وبعثة تجري امكاناً في الآن فائده، يوجد خراج جوهري يجري التشديد عليه حكماً من كل صوب انه الاختفاء الضروري لما يشكل اساسه – للشخص الذي يشبهه والشخص الذي هو مجرد شبهة في عينه وما يجري تجاهله هو هذه الذات عينها هي لا تتغير، كما هو التمثل وقد نمر اخيراً من العلاقة التي كانت تفجر عليه صار بمكنه ان يقدم نفسه بما هو مثل في شكله الصليبي»^٦ ان هذا

واحدة (الصورة) عن طريق انتهاك الدولة – الامة، حيث أدينا بصير هو أسامة، ويختلط فيها المركز والاطراف مع التحكم القانوني ومعاينة جينيفه التي يلقى بها كلها من النافذة اما الصورة الاخرى (فيلم «شيرين») حينطبق عليها ما قاله جان لوك غودار ثات مرة عن عباس كياروستامي من انه قضى على السينما بواسطة كاميرا تلتقط صور المشاهدين بدلاً من ان تصور قصة مد في الحليكة انحل الواقع التخيلي الى ازدواج بين واقع وتخييل وبالتالي الى صميم السياسة بين امبراطورية واطرافها، بين الامبرالية والارهاب، وبين أسامة وأريامد. فلتعد الآن الى «الربيع العربي» لنزيد في تعقيد «صورة» غرفة العمليات وصوره أسامة وشركائه المقاتلة لها فخرراً الصوريين ليس من خلال فيلم «شيرين» لعباس كياروستامي وانما بالفكرنة بحالة ارفع وأكثر تعقيداً هي لوحة دييتو ديلاسكرز «الاس مينيناس» (الوصفقات)

«الربيع العربي» في عين فيلاسكرز وبيكاسو

منذ ظهورها عام ١٩٦٦ كانت هذه اللوحة موضع جبهة واسعة مدعشة من القراءات الثاقبة للعلاتك الطبقية المتعددة التي تتبعها بين الفنان واللوحة وموضوع تعديق الفنان وتعديتها نحن المشاهدين وتعديق شخوص اللوحة تمة توازن متقاطع لعدة سجلات على كافة تلك المستويات من هو الذي يشاهد المشاهد؟ هو السؤال الذي نحول الى حدث ثوري في تاريخ الفن الاسيائي.

ان احداث قراءة لـ «الاس مينيناس» – وهي لاغراضنا هنا الاشهر والاكثر دلالة – هي خراءة ميشال خوكو الذي يفتتح كتابه «الكلمات والأشياء» (١٩٦٦) بتفسير مفصل لهذه اللوحة

٦ من أجل معرفة ذلك انظر الى: Jonathan Brown, 'Vanguard Painter and Conductor' (New Haven, CT: Yale University Press, 1988) 249.

٧ Michel Foucault, 'The Order of Things: An Archaeology of the Human Sciences' (New York: Vintage, 1994): 16.





بصرية أخرى مختلفة ومتصارعة

ان نسخة بيكاسو عن «الأس مينيناس» (١٩٥٧) تزيد من تعقيد اللعب البصري مع التمثيل ذلك ان «الأس مينيناس» بيكاسو تريناً مجاهية وجاهية أكثر جفيرة واكتمالا مع المشاهد في العالم الخارجي أي في العالم الواقع خارج النظام البصري للصورة ذاتها، ومع العالم الفيزيقي في مستوياته المتقاطعة المتعددة التي يزدهر بيكاسو تعقيداً أكثر مما فعل فلاسكيز، ثم، انطلاقاً من هذه المجاهية الوجاهية، تعرض لنا اللوحة جغرافياً جديدة، وتويعرافياً جديدة للمشاهدة حيث تتزعزع ثقة فعل التماهي بنفسه نأهيك بقدرته على تطمين سواء في صيغتها الأصلية وفي تعبئة بيكاسو التكرمية لها، وبفضل استبطانها الواقع نحو الداخل، تتحرك «الأس مينيناس» هي ذاتها نحو الخارج وهكذا يتبدل الواقع والتمثيل الواقع، فيشكل الواقع والوهم سجلاً واقعياً تخييلياً واحداً.

اننا اليوم ورثة سيميائية الطيف، الأكثر تلاعباً بأية صورة تعرض أمام ناظرينا لغرض اقناعنا بهذا الشيء أو ذاك ومثلما الامبراطورية الهلامية التي يسعى أوياما لقيادتها والعنف الابقوني الذي مثله أسامة يستنسخ واحدهما الآخر، كذلك فالانتفاضات الثورية المفتوحة التي نشهدها من المغرب الى ايران ومن سورية الى اليمن، تتعدى روتينية النظام المعرفي وتطرح جغرافية جديدة لانتاج المعرفة تتجاوز قراءتين متناقضتين لنظرتين مستبكتين في سياسة بلاس متماثلة - هي ذلك الخليط الكارثي بين «الارهاب» و«الحرب على الارهاب»، فإذا كان معمر القذافي اعطى روتينية سياسة البلاس موطي، قدم في أفريقيا الشمالية، فإن نيبا اغتيالاً، إعدام أسامة بن لادن محاولة أخرى لجز

- ٨ وقد حظي في هذه المراجعة بما هي صورة تحول من المعاني المعاني للدار، هي مكني جسم من مكونات العزلة، الضيقة، راجع الفصل عن كايو داني في Hamid Dabestani, Mimesis and Masterpiece of Iranian Cinema, op.cit.
- ٩ الحرب للموحش، للتعود منا هو الحرب القوي للتعول بالمثل القايي، ويرونيو اسم ذاك، اياقي من الهند الحرة، وايت ايد معنلة على اسم آخر مايك برطاني غادر لهذا
- ١٠ انظر صورة لش مينيلي بيكاسو (١٩٥٧) في <http://www.guardian.co.uk/andd/gy2006/jun06/shopping>

على تسميتها المنطقية وتساءل نزوة من نزوات سغرية التاريخ ان تحمل «عملية جبرونيمو» في أبوت أباد الاميرالية الاميركية الهلامية الى closure حيث غاكرته الكولونالية البريطانية^٨ ان استهتار أسامة وأوياما بالسبابة الوطنية في أفغانستان وباكستان والعراق ثم في ليبيا - ولجوعهما الى الاغتيالات المستهدفة اكان اغتيال بن لادن في ابوت اباد ام ابن القذافي واحفاده في طرابلس، هو تحديدا للخطبة التي ألقت بها الاميرالية بصورتها العنصرية صورة «القرب المتوحش» على الكرة الارضية في لحظة تعيد فيها جغرافية التعور رسم خرائطها من جديد ان العالم كله، في عين المغيلة العسكرية للولايات المتحدة، يستمر في التشبه به «القرب المتوحش» من خلال عملية جبرونيمو وهدية انقلت من عقابها واخذت تتعدى سلطانها، الا ان أسامة بن لادن كان خدعة حيلة ذال «القرب المتوحش» يبقى متوحشاً ذلك ان كرامة متعددة قد رسمت خريطته وهي تبشر الآن المطالبة به على عكس سير هاتين النظرتين التسيكيتين نظرة أوياما المتحصرة، ونظرة أسامة الزائفة، تشكل الانتفاضات الثورية نضالاً مفتوح الاحتمالات غير معسوم النتائج يتكشف على انه اشبه

الاحداث المتوالية الى الخلف الى نظام «عرفي مألوف» ومثلها المعادلة السطحية التي قامت بها الجمهورية الاسلامية الايرانية لتسمية ما يجري في العالم العربي بأنه مجرد صدى للثورة التي حدثت في ايران لثلاثين سنة خلت فانا اضطرت الجمهورية الاسلامية ان تتجاهل «سورية لكي تسطح يتلك الملاحظات» كان على أوياما ان يتجاهل البحرين واليمن، مثلما كان على أسامة بن لادن ان يصرف كل شيء على انه مؤامرة دبرتها السي.اي. أي والعربية السعودية وهي بما التهمة التي اطلقها بعض المثقفين الاميركيين والعرب على «الحركة الخضراء» الايرانية عندما انطلقت في حزيران ٢٠٠٩، وهو ما يفعله الآن بالنسبة ل«الربيع العربي» ان أوياما في «كهفة» يقلد أسامة في كهفة تحولات الاميرالية الاستيطانية الى امبراطورية لا استيطانية، والقوة الفكرية الهلامية صنعت كائنات آلية (روبوتات) من البشر من خلال التحكم السياسي في الوقت فانه تقريباً عندما صارت فيه كل القواعد العسكرية عديمة الصلاحية وتعيداً بفضل انتفاضات ديوقراطية تضطر الامبراطورية الى التبشير بها داخل بلدانها ولا تطبيقها في «غربها المتوحش» وهكذا تعثر «عملية جبرونيمو»

بنظرية باختين عن تعدد الاصوات في الرواية منه بيقينية السردية الملحمية على طريقة الخميني او جمال عبد الناصر. تستند هذه الانتفاضات الثورية الى واقع - تخيلي سيمائي حيث الوقائع التاريخية والالوهام التحررية تلتقي وتتزوج لتؤلف قواعد لغة جديدة. ولكن ها نحن قد دخلنا صورة لاس مينيناس سيرا على الاقدام او ندعو فيلاسكيز وبيكاسو وجوقة شخصياتهما للانضمام الينا والخروج من المتاحف. فلا في السخرية غير المتكافئة ولا في التماهي المزيف لأوياما مع أسامة، ولا في النظرة المعكوسة التي يلقيها عباس كيأروستامي، تكمن جغرافية التحرير بل هي كامنة تحديدا في المنظومات البصرية المفككة في لوحة «لاس مينيناس». ان أسامة وأوياما سجيننا النظرة القاتلة التي يتبادلانها، وهما غافلان كليا عن العدسات التي يتسلل منها الواقع بلا رحمة، كما تبين لاس مينيناس، فيما عباس كيأروستامي يغلق ببساطة باب التماهي السينمائي إغلاقا محكما بأن يوصله الى خاتمة موارد، حيث نصير نشاهد المشاهد، وحيث السينما بما هي سيميائية مفتوحة تنقلب الى دورة مقفلة من الانغماس في الذات، منظوية على نفسها ومنحطة في أن معا. إن المهمة التي يواجهها امثالنا من المبحرين في جغرافية التحرير الجديدة هذه تتعدى تفكيك النظام البصري الى التمكن من فن قراءة توغرافيا الهوية والاخرية المستجدة. قد تبدو المهمة متحذقة او مشوشة للوهلة الاولى، ولكن ثمة منهجية حتى في الجنون كما يرينا رويويون كبار أمثال فيلاسكيز وبيكاسو. كيف يمكن اكتشاف جُزُر المقاومة الجديدة ضد بحر من المياه المتلاطمة؟ بأن نعين مواقع المقاومة العينية لنظام المعرفة المسيطر والمستمر، وان ننتقي من لحظات تقلل ذلك النظام مساحات تمكن

١١ المصدر ذاته، ص ١٤.

Guy Debord, ١٢
The Society of
Spectacle, New York:
Zone, (1995: 12).

الجغرافية الجديدة من ان ترسم خرائطها وتنداح عليها، فلنقلب زاوية النظر رأسا على عقب، ولنسحب النظام البصري المخرب والتخريبي الى العلن، حيث نقف نحن، نحن الانسانية الهشة جمعاء، فنجتاز الخط غير المرئي - وهو المحو اصلا - ونصير جزءا من الصورة - فنتجمع جميعا فنسمح بإرتسام الصورة الكاملة وندعوها الى ان تصير واقعا.

مغادرة المشهد

لم يعد أسامة موجودا. وكما بين غي ديبور في «مجتمع المشهد» (١٩٦٧)، تطرح الانظمة البصرية حالة من اللاواقعية الزامية تصير منبتا لعالمها الشعوري. هنا المنبت هو في لا مكان وفي كل مكان - من شاشات الكمبيوتر ولوحات الاعلانات وصولا الى وسائل الاعلام المكتوبة والبصرية - كلها تحلم الواقع في احلام يقظة، فنصير نحن أدوات مصيرنا في صالة المرايا هذه. تصير الصور السجل الاول والاخير لواقع نظن اننا موجودون فيه، وتنتقل صنمية السلعة هنا الى الطور الثاني حيث نتسلع، وتتضمن عملية إخضاعنا. ليست السلعة هي المهمة، ان صورة السلعة هي ما يهم الآن، ما يهم هو وهم الواقع، وشبهة الخضوع. لم يكن ديبور يسعى وراء اي تحليل بصري للمرئي، فالمرئي بالنسبة اليه - المشهد - صار هو الواقع ذاته. «ليس المشهد مجموعة من الصور، الاخرى انه العلاقة المجتمعية بين الناس التي تتوسطها الصور»^{١١}، وإذ تتوسط الصور العلاقة المجتمعية بين البشر، يصير البشر أنفسهم صورا. وهكذا «لا يمكن للمشهد ان يوضع في مواجهة مجردة مع النشاط الاجتماعي المحدد، ذلك ان الفصام بين الواقع والصورة سوف يبقى موجودا على جانبي مثل هذا التمييز. هكذا فالمشهد هو نتاج النشاط الحقيقي مع انه يقلب الواقع رأسا على عقب»^{١٢}.

تبدو كل زوايا النظر هذه وظيفية وبنوية. كان أسامة آخر صورة قُدر لها ان تقصّ مضاجع العرب والمسلمين والشرقيين، صورة وجب على كل عربي ومسلم وشرقي ان ينتهكها لكي يصير آدميا. لقد فرض علينا جميعا ان نشبه أسامة بن لادن، الا اذا أثبتنا اننا لا نشبهه: اي اننا لا نحن عرب ولا مسلمون ولا شرقيون (اي ان نكون بيضا). كان أسامة بن لادن نظاما بصريا فُصل على مقاسنا. وعندما تشاهدون الناس في شوارع تونس ومصر وسورية وليبيا او ايران يمزقون صور بن علي ومبارك وبشار الاسد والقذافي او علي خامنئي، فاعلموا انهم يمزقون ايضا صور أسامة بن لادن. لاحظوا تسارع الاحداث، والسرعة التي يتغير بها العالم: حُكم بن علي تونس لاربع وعشرين سنة، وحكم مبارك مصر لثلاثين سنة، وحكم القذافي ليبيا لاثنتين واربعين سنة. ولكن قبل ان ينتهي صيف العام ٢٠١١ كان هؤلاء الطغاة الثلاثة في السجن او فارين من وجه العدالة او قتلى في مدة لا تتعدى ثمانية اشهر. طغاة آخرون - بشار الاسد في سورية، علي عبدالله صالح في اليمن، حمد بن عيسى آل خليفة في البحرين، وكل العشيرة السعودية في العربية السعودية، وعلي خامنئي في ايران، الخ. - متشبثون بالسلطة بواسطة العنف الوحشي الشاذ، ولكن ايامهم معدودة هم ايضا. لقد أطلقت قماشة لاس مينينا سراحنا فانطلقنا راکضين من المتاحف الى الطريق ننشد «الشعب يريد إسقاط النظام»!

صورة عن صورة «قَبْلُ الصَّبِيِّ حِذَاءُ الضَّابِطِ»

أسامة محمد

«مخرج سينمائي
سوري آخر أفلامه
«صندوق النسيان»
فالت أفلامه
جوائز اولي في عدد
من المهرجانات
العربية والعالمية»

سافر قطار درعا.

ساعد خالي جونا.

في حقاوت سامي ساعات.

(فرس قراءة للمرحلة الابتدائية)

قَبْلُ الصَّبِيِّ الدَّرْعَاوِيُّ الْمَرَاهِقُ
حِذَاءُ الضَّابِطِ أَوْ مُخْطَرِ الْأَمْنِ أَوْ
الْمُسَاعِدِ أَوَّلًا !

لا قدرة لدينا على معرفته أو التأكد من
هويته فهو يُعَرِّفُ عَنْ نَفْسِهِ بِالْحِذَاءِ
ففي الصورة التي بصورها الفاعل
لا يظهر منه إلا الحذاء حذاء الأمن.
والكاميرا تنظر من عل إلى الأسفل
لأن المراهق يركع هناك ليَقْبِلَ الحذاء
فيعود للحياة.
الحياة حذاء.
حذاء الأمن يوايه الحياة.

في المشهد بطلان: مراهق وحذاء
المراهق شديد الوضوح لدرجة الثري.
هُوَ هُوَ. لا أعرف اسمه
البطل الثاني حذاء.

هكذا يُقدِّم نفسه في فيلمه
أن تمنح الفرصة اليوم لنسأل الصبي
المراهق عن أحلام البقطة ما الذي
تغيب ليلة البارحة؟ حين حاول النوم
آخر مرة، قبل دخوله هذه الجهنم؟
هل شاهد نفسه يقبل حبيبته كما
فعلنا جميعاً؟

لا نستطيع سؤاله ولن يُجيبنا عن
قُبْلَتِهِ الْمُحِبَّةِ.

لمن كان يود أن تكون القُبْلَة؟
الصبي المراهق عار إلا من توشيليه
وَرُغْبِهِ ودهشته بدأ خارجاً من
هير وشيمه يبحث عن يدٍ جديد
للحياة عليها لا تنتهي هُنا
حين يَضَعُ المراهق رأسه على المِخْطَعة
يُوقِظُ قُبْلَتَهُ مِنْ نَوْمِهَا وقد وعلى
الأغلب لا يُفَرِّطُ بِهَا لأحد
وإذا كان مقمصاً يُمَوِّنَاتِ الأخلاق
والخلق وثيل العرب وغروبهم
وأشعارهم فلسوف يُغَيِّثُ القُبْلَة الأولى
لمن أحب أو يُحِبُّ أو سَيُحِبُّ. ومعها
سيعرفها سيكتشف القُبْلَة ويد الحياة.
لم يعلم الفتى أنه سيخون الحياة
والحب والاعتدال والحبيبة والقُبْلَة
وسيُقبل الحذاء

وعارياً حتى من الأخطاف يقبل الحذاء
مراهق عار يُقْبِلُ حذاءه
البطل الثاني في المشهد حذاء يقبل
القُبْلَة يقتصب قبْلَة الصبي حُلْمَ البقطة
الحذاء (كود) الشخص الثاني، مُوجِزُهُ
وتجربته الأمني والقمني
مراهق مُحِزُّدٌ مِنَ الْأَمَانِ يَقْبِلُ
حذاء الأمن.

حين يتراجع المراهق إلى الزاوية يكون
قد ترك القُبْلَة على الحذاء فُقْدَهُهُ
ويكون بلا قُبْلَة.
حين شاهدت ما شاهدت، رأيت أنه

رأيت في الصبي أنه وقبِلْتُ معه الحذاء
هذه هي السينما غير النخبوية الموجهة
للجماعة. تصل قلب المشاهد وعقله
وأحاسيسه على الفور وبلا صعوبة
سينما مباشرة ولكنها مليئة بالمجازات
مليئة بالصور التي تتوالد من الصور
وحتى أنها بالنهاية تطرح سؤالاً وجودياً
السينما رسالة البس كذلك؟
أنا وصلتني الرسالة واعتقد أنها في
لحظة ما تسميه بقطة الضمير وصلت
كل سوري من درعا إلى قلمسלו مرورا
بدموم وحمص السوري. والساحل
واعتقد أنهم جميعاً عدا بعض
الأحذية لم يشعروا إلا بالعكر والجريمة
الصورة وحدها كافية ليُخْرِجَ
البشريون احتجاجاً على الحذاء.

هل يمكن لجماعة أو لأخرى لأسرة أو
لجارتها لفرق أو فرد آخره لائتي وذكر،
أن يُنْقِصَ على الاتفاقي على هذا العار.
وفي استفتاء البقطة آخر النهار،
حين يضع السوريون رؤوسهم على
وساداتهم المعطرة بالفلوكلين هل يمكن أن
يُصَوِّرُوا للحذاء؟
هذا هو حُلْمُ يقظتي: التصويت على المِخْطَعة
هل يمكن أن تُنْقِصَ المَكُونَاتِ السورية
حول هذا؟

هل يمكن أن تنسى هذا المشهد؟
الجواب نعم
أنا نفسي نسيت. صحيح أنه يقظني

لاكتب الآن في الثالثة والنصف فجراً،
ورغم أنني قُبلت الحذاء مع الصبي...
لكنني نسيت.
ففي المشهد التالي كان القتل.

في المشهد التالي كان الشاب محملاً
من ساعديه وساقيه، وكان يطير فوق
وجه الأرض مثل «الغلابير» في
فيلم الغلابير.

لم يمت «الغلابير» في الفيلم لأنه فيلم
الشباب السوري كان يطير وكانت
الأرض تتسحب من تحت ظهره وكان
يسال ولا يسأل.

كان مستغرباً ومثد هشا، ربما كانت هذه
أول مرة يموت فيها بسورية.

أول مرة ينظّم. يشاهد الآخر الموت.
كان ينظّم للحياة، لم ينظّم بالموت.
نظّم بموته. استشهد. مات.

وكان كل ما يفعله مُنقذوه هو المساعدة
على تسليمه الهوية الجديدة.. الشهادة.
ثم، في عذبة الدنيا، فُتح فخونا ووجهه.
لم يظهر أي من المشهدين في نشرة
الأخبار الوطنية.

الشاشة الوطنية لم تبث روح الشاب
الشهيد.

فالشباب في باطن النشرة هو الذي
عَدَّ وعاشَ الوطن.

هل يمكن أن تُقسّم المكونات السورية
حول هذا؟

هل يمكن أن تنسى هذا المشهد؟
الجواب: نعم.

أنا نسيت المشهد...

شاهدته حياً في جنازته.

في ذوي الـ «سلمية» سلمية من
«البوتوب».

في ذوي الـ «حرية» حرية من
«البوتوب».

الـ «حرية» صورة الشهيد الحي.

الـ «سلمية» صورة الشهيد الحي.

لا صورة للشهيد «...»

على الشاشة الوطنية

في التلفزيون الوطني قُتل الشاب على
يد مَن يُدعى بالوطن.

ولأن القاتل مجهول، أصبح القتل
مجهولاً.

حُذِفَ الشهيد من المشهد واحتلَّ
القاتل مكانه. ولأن القاتل غامض لا

صورة له فقد أصبح لغزاً. حُلَّت الكلمة
مكان الصورة كما في السينما الحديثة.

بدأت خلايا الكلمة تتكاثر حتى
صارت صورة لا صورة لها اسمها

العصاة. وراح المشهد الرسمي ينفخ
فيها من روجه ويوقد جمر المخيلة

الجمعة والخوف الجمعي، ليثبت كل
صورة المجهول على هوى خوفه.

الصورة مقابل الصورة.

الخوف مقابل الحرية

ثقة من حشا صورة الشاب الشهيد
بالصورة المخيلة للعصاة.

الخوف استبدل بالخوف الخوف، ونام
على وسادته.

هل يمكن لأحد أن ينسى صورة الروح

وصوتها في آخر تنفس لشباب سوري
كان يستلقي فوق تراب كلمة غامضة
هي الوطن؟

يمكن لأحد.

يمكن، لأن العصاة تُطلق الرصاص
على أحلام البقطة.

لأن أحلام البقطة ليست حرة
ولن تعرف الحرية إلا بالحرية.

ما الذي يحصل حين يقوم السوريون
باستفتاء ضمائرهم على الوصاة؟

هل ثمة من يصوت لقتل شاب بصرغ
الحرية واليسلم ووحدة الوطن؟

هل ثمة من كان سيجيب بنعم على
«فسيوك» الوصاة؟

ما الذي تتوقع للغالبية الوطنية أن
تقوله قبل أن تغفو؟

هل تؤيد قتل هذا الشاب؟

كان لابد للصورة المضادة أن تكبر

وتراعى وتتجيب العصاة، لتخترق السؤال
وتزيك الضمير. وتبدأ الاستفتاء الحي.

وحسب لا تنهار الصورة التجبئة للقاتل
الغرافي، كان لابد من نحو صورة

القتيل وملاحه، اسمه، أسماء أحبته
وحكاياته، خفة ذمه أو ثقافته، لون

عينيه ومظهره المفضل

هل حَدِّثَ الجندية وابن؟ هل تعرف
على رفاق من كل سورية؟

لهذا ينادي بالوحدة الوطنية؟

يُتَذَكَّرُهم ويشتاقهم ويثق بهم.

لهذا كان لا يجب أن يظهر على

الشاشة لأنه لا بد سيرجح الاستفتاء
الليلي للضمير.





كُلُّ الشهداء السوريين شهداء كلِّ
سورية
السَّامِية تُعْتَقِلُ جَنَامِينَ الشهداء
شهداء الاستفتاء الأول، في قُبُورِها .

طالبوا الحرية والمتخوفون منه الموالون
والمعارضون والمترددون، تتعرَّف في
نتائجه على عُدة أبا كانت النتائج .
الفساد لا يريد استفتاء سلمياً بشأن
الفساد والأجهزة الأمنية لا تريد استفتاء
سلمياً بشأن حصانتها ودرصاتها ولا
استفتاء بشأن اعتقال الجرحى وتعذيب
الجرحى وحصار الجرحى .
فلا استفتاء في ظلِّ السلم قد يُجمَع
الغالبية من كلِّ الأطياف في «واحد»
الوحدة الوطنية ودولة القانون
القتل قُتِلَ استفتاء للاستفتاء
فَقَاتِلْ أَيَّ أَحَدٍ يُمكن أن يقتل أيَّ أحد .

لا توجد جريمة كاملة
صورة القاتل مُحْفَبة في نسخته
المُخفية
إنها اللغة السَّمْع بَصَرِيَّة للسَّامِية
الرسميَّة
المقاطع المَحذوقة
المواطنون الغُرل الشهداء
السَّامِية عُشَّكَتْهُمُ مُجَاهِد كي لا يكون

لهذا تُعَدُّ الرقابة صورته . كل
صوره . صورته في الد (سلمية)
وصورته في الد (الحرية) وتُلصَق
مكانها صورة «اللغة» عن قاتل مَنِيَّ
للمجهول يقتل أي أحد

في المشهد البَصَرِيَّ الرَّسْمِيَّ لا يظهر
الشهداء
ولا يظهر القتل
اللغة تُصنِّعُ صورَها
صورة الخوف

قُتِلَ المتطوعون السلميون خوفاً
دُعُوهُمُ مع أجساد شهدائهم .
لم يُقْبَل الخوف فكرة نهايته فجَدَّد
شبابه بمنسطق الخوف بالقتل .
القتل خائفه لا يريد استفتاء لا يريد
التعددية في «الواحد واحد واحد»
يريد الآخر واحداً يُقْتَلُ الحذاء
القتل عُثُودِيَّ تُعَدُّهُ بِصنْع تعددية
الضحايا وتعددية الخوف
القتل يقتل استفتاء يُشارك فيه الجميع

١٤٥ كتب مترجمة صادرة عن سورية
سليمان تقي الدين

١٤٦ إريك هوريلوم، كيف نغير العالم؟
دايز صناع

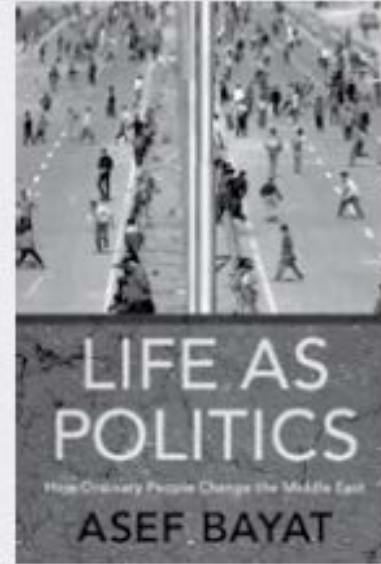
١١٧ آصف بيات، الحياة بما هي سياسة
نوبار هوفسيبيان

١٤٩ سلاوي اسماعيل، الحياة السياسية
في أحياء القاهرة الجديدة
كامل مهدي

الناس العاديون في السياسة آصف بيات

نوبار هوفسيبيان

أستاذ مشارك في
العلوم السياسية
والعلاقات الدولية
جامعة تكساس
(كاليفورنيا) الولايات
المتحدة، آخر
مؤلفاته «فكرين
الدولة الفلسطينية
التعليم وبناء الهوية
الوطنية» (٢٠٠٨)



آصف بيات: الحياة بما هي «سياسة» كيف
يغير الناس العاديون الشرق الأوسط
٢٠١٠.

Assef Bayat: *Life as Politics:
How Ordinary People Change the
Middle East*, Stanford, California:
Stanford University Press, 2010.

«الحياة بما هي سياسة» لآصف بيات
مجموعة معاولات نشرت سابقاً
خلال العقد الأخير بنجم عنها سرد
متساقط يركز على الحياة اليومية بما
هي محور التغيير الديمقراطي في المجالات
الاجتماعية والسياسية والاقتصادية
في الشرق الأوسط الحديث تتعدى
مقاربة بيات المنظورات «الاستثنائية»
وال«استشراقية» (مقولة هانتنغتون
عن «صدام الحضارات» مثلاً) التي
تختزل الشرق الأوسط الى منطقة
مرصوفة البنيان في كيان «ساكن»
اساساً وبالتالي شائن (ص ١٣) تنظر
تلك المقاربات الى الشرق الأوسط
وفق مقاييس الاستمرارية التاريخية
بدلاً من مقاييس التغيير التاريخي
من هنا عملها على تقييد الدور
النابض بالحياة الذي تلعبه الحركات
الاجتماعية والاقتصادية السياسية
او الاستغفاني منه لذا يحتاج منظور
«الاستثنائية» بأن التغيير يمكن بل يجب
ان يأتي من خارج ما دامت المنطقة
تفتقر الى حوامل التغيير والى تحدي
الامر الواقع المتكلس الذي تعيشه

نشر كتاب بيات العام ٢٠١٠
عشية الانتخابات العربية التي بدأت
في تونس وانتقلت الى مصر وما بعدها
ينقسم الى ثلاثة اقسام: الاحركات
الاجتماعية، سياسات الشارع والشارع
السياسي، ويختتم بمعالجة حول

المسارات بعد الإسلامية يزودنا المؤلف بـ «مبادئ تحليلية نقدية لتلك رموز التيارات والعمليات التاريخية التي أدت إلى الانتفاضات العربية ولتعيينها بالعين». يعرف سياسات الاحتجاج و«الاحركات» الاجتماعية بما هي «المحركات الأساسية لانتاج تغيير في معنى في الشرق الاوسط» (ص ٤٥). وي طرح ان الثورة الإيرانية العام ١٩٧٩ هي الفكرة في السياسات الإسلامية ويخلص تحليله إلى يزود ما يسميه «البعد الإسلامي» التي تمثل حالة ومشروعاً في أن يعد يمثل هذا المشروع جهداً لدمج الدين مع الحقوق، والايان مع الحرية والاسلام مع التحرر، ويسعى إلى قلب اركان الاسلام رأساً على عقب بالتشديد على الحقوق بدلاً من الواجبات، وعلى التعدد بدلاً من الصوت المرجعي الواحد، وعلى التاريخية بدلاً من النص المقدس الجامد، وعلى المستقبل بدلاً من الماضي» (ص ٢٤٣). والحال ان المكونات المتنوعة لـ «البعد الإسلامي» تدمج الاسلام مع الاختيار والحرية الفرديين كيف يصل يات إلى مثل هذا الاستنتاج؟

تأثير اقتصاديات العولمة

كان لاقتصاديات العولمة وقعها العميق على المجتمعات بعد الكولونيالية إذ افتتحت مساراً مزدوجاً الاندماج بالسوق العالمي، والتهميش الاجتماعي للفقراء وابناء الطبقة الوسطى المدينين على امتداد الشرق الاوسط في عهد النيوليبرالية، تفقد الدولة قدرتها على ممارسة السياسات التوزيعية ولكنها لا تزال تسعى للحفاظ على احتكارها غير المتنازع عليه للسلطة وللفساد. يسمي يات تلك الدول «الدول الرخوة» التي فقدت القدرة على فرض السيطرة الكاملة من

هنا تعجز الدولة عن حل المشكلات الناجمة عن التمدين المتسارع كازمة الاسكان وتشغيل الفقراء والتضخم في عدد السباسب في المقابل، يأخذ الفقراء أمورهم بأيديهم يخلقون الاعمال في القطاع غير الرسمي الذي يعيد عن رفاهية الدولة والسوق الرسمية معاً، ويتديرون السكن عن طريق احتلال الاراضي وتعميرها. ان اعمال فقراء المدن هذه ليست تعادل سياسات الاحتجاج «ولكنها» سياسات تصحيح من خلال الاعمال المباشرة والمتنوعة» (ص ٢٠٠). وهكذا يمكن النظر إلى فقراء المدن في القاهرة وطهران وسائر مدن المنطقة على انهم يشكلون «الاحركات» لأنهم يساهمون في

«في عهد النيوليبرالية، تفقد الدولة قدرتها على ممارسة السياسات التوزيعية، ولكنها لا تزال تسعى للحفاظ على احتكارها غير المتنازع عليه للسلطة والفساد».

«اعمال جماعية لأغلب غير جمعيين» (ص ١٤). هؤلاء الاقتراد المهاجرون من الريف ينزلون إلى الشارع ويعتلون الارصفة لتنمية اعمالها في التجارة الصغيرة. وهم ينجحون هكذا في خلق اقتصاد خارجي وغير رسمي لتأمين بقائهم على قيد الحياة. يعرف يات تلك الممارسات فقراء المدن تلك على انها «الانتهاك الهادئ للاحوال العادلة». يمنح الفقراء المدينين بعض القوة للتأثير على حيواتهم وبالتالي التأثير في سياسة الدولة

لاكتناء اعمال الاحركات والاقوال لا يرتضي يات محدود التحليل البنيوي الشامل لكي يفهم المشاعر الجمعية للناس العاديين (الاحركات) يرسم تغوّم اقوالهم وممارساتهم

اليومية المعبر عنها في الفضائات العامة بالذات غير أن هذه التعبيرات ليست موجودة في ياتات الاحزاب السياسية او الجماعات الدينية الرسمية يتبينها مما يجري في الفضائات العامة يومية يستمع ويسجل ما يسمع في سيارات التاكسي والحافلات والمتاجر وعلى الارصفة وفي التظاهرات الجماهيرية ان أصف يات هو الاتوغرافي المديني السياسي ياتياً.

ان النضالات اليومية او مدى الاعمار لـ «العنفيد الاجتماعي» هي بالنسبة ليات «تقدم الطاقية» هي بالنسبة ليات «تقدم الناس العاديين الصامت والمديد ولكنه المتوسع باستمرار» (ص ١٥٦). وتضم تلك العنفيد الاجتماعية المهاجرين واللاجئين والعاطلين من العمل والعاملين بدوام جزئي وسكان المساكن غير الشرعية والباعة على العريات واطفال السوارع وسواهم من ايند القطاعات المهمشة وقد تمت تلك العنفيد معاً جزئياً بسبب وقع العولمة الاقتصادية او السياسات النيوليبرالية

يتقوم الانكس العاديين الدولة بطريقة هادئة بضيقون غرقاً إلى يوتهم دون ترخيص رسمي من الدولة ويعتل ملايين الباعة اماكن مدينية متميزة لبيع منتجاتهم دون حيازة رخص لذلك وموظفو الدولة واصحاب المهن الحرة يستشعرون الانكس السلبية للنيوليبرالية هم ايضا. فمثلاً، يلجأ الاساتذة إلى اعطاء الدروس الخصوصية فيخلقون بالتالي شبكة من نشاطات التعليم الخاص غير الشرعي الواسع النطاق. كانت تنتج حوالي ثلاثة مليارات دولار سنوياً في مطلع الالفة الثالثة اي ما يعادل ٢٥٪ من مداخيل الاسر المصرية (يات ص ٥٧ - ٥٨). وليست تشكل هذه الممارسات «سياسات احتجاج يل هي سياسات تصحيح» تسعى أولاً إلى

اعادة توزيع المنتجات الاجتماعية وتسعى ثانيا الى الاستقلال الذاتي الثقافي والسياسي «عن قواعد ومؤسسات الدولة وعن الانضباط الذي تفرضه» (ص ٥٩). ولعل الالم هو انه يمكن فهم النضالات الفردية لتلك الجماعات على اتم وجه بما هي نضالات من «اجل نبيل المواطنة المدنية ومن اجل تحويل البيئة الحضرية» (ص ٥).

«فن الحضور» وقوته

يعرف بيّات دور العناقيد الاجتماعية المختلفة على انه ممارسة «فن الحضور». يتم ممارستها عن «قوة حضور» تتجلى في قدرتهم على «فرض الارادة الجمعية بالرغم من المصاعب، بالتحايل على العقبات، واستخدام ما تيسر من الوسائل، واكتشاف فضاءات حرية جديدة لكي يسمع المرء صوته ويُرى ويحسّس الآخرين بوجوده ويحقق ذاته» (ص ١٢٢) ويركز بيّات هنا بنوع خاص على النساء والشباب وعلى سياسات المرح المرتبطة بالفنيتين. لقد غذى الاسلام النشاطية النسائية في الشرق الاوسط. يلاحظ بيّات ان النساء في جمهورية ايران الاسلامية، تستمد حقوقها من النصوص والتلاوات الاسلامية. الا انهن يردن ايضا تعاطي الرياضة وتأمين اعمال اكثر ثباتا ومتابعة الدراسة والاستماع الى الموسيقى «والزواج بمن يختارنه ورفض اللامساواة الخطيرة بين الجنسين» (ص ١٠٣). تلك افكار تتبناها نساء يحتلن وظائف عامة. الا ان المقاربة المجردة للنساء الاسلاميات تفشل في تمكين رغبة المرأة من الاختيار الشخصي داخل اطار اسلامي. في ذلك الاطار، ظهرت النسويات البعد - اسلاميات لتقديم تأطير بديل. فقد

«الجسم الرئيسي من الشباب يجمع بين الصلاة وبين تنظيم الحفلات الراقصة ومشاهدة الصور والأفلام الإباحية مثلما يجمع بين الإيمان والمرح».

أمنت اللاهركات النسائية اصلاحات لافقة في مجالات التعليم والتشغيل وقانون الاسرة. فمثلا، جرى الحد من تعدد الزوجات الى حد لافق، وجرى أبلسة زواج «المتعة» (بيات ١٠٧). ومن خلال «فن الحضور» و«الانتهاك الهادئ» انتزعت النساء تنازلات من الدولة والحال انهن قد خزن «القسمية التقليدية بين الرجل بما هو العام والمرأة بما هي المجال الخاص»، وتحوّلن الى لاعبات عامات من خلال قوة حضورهن. في مطلع التسعينات من القرن الماضي، نشأت تلك الحركة بما هي حركة اجتماعية وليدة ما لبثت ان لعبت دورا هاما في تعبئة النساء خلال انتخابات حزيران/ يونيو ٢٠٠٩ وفي «الحركة الخضراء» للحقوق المدنية والسياسية. ذلك ان الحركات الاجتماعية، بفضل كونها علنية ومكتشوفة، اوفر حظا في ان تتعرض للقمع الرسمي. ومع ذلك، «تبقى اللاهركات هي الخيار النقدي الاوفر، لأنها جهود جمعية متوالية، ومرنة، ومبشرة ومع ذلك قادرة على الانتهاك» (ص ١١٤).

ابرزت انتفاضات العام ٢٠١١ اهمية الشباب بما هو طاقة مهمة وقابلة للفعل من طاقات الالتزام السياسي والاجتماعي. يجادل بيّات بأن الشباب مقولة اجتماعية حديثة وانهم ظاهرة مدنية بالدرجة الاولى: «المدن، بما هي مواضع للتنوع والابداع والتواري تقدم للشباب فرصا لاستكشاف شخصيات بديلة

يتماهون بها وخيارات بديلة وتوفر لهم مسارات بديلة للتعبير عن فرديتهم» (ص ١١٩). وبما هم منخرطون في لاهركات، يخلق الشباب شبكات في ما بينهم ويعبرون عن انفسهم من خلال الازياء (البلوجينز والتي شيرت). وهؤلاء الشباب متدينون اساسا. ولكن بيات يلاحظ ان «الجسم الرئيسي من الشباب يجمع بين الصلاة وبين تنظيم الحفلات الراقصة ومشاهدة الصور والأفلام الاباحية ومثلما يجمع بين الإيمان والمرح» (ص ١٣٣). ويؤكد مارك ليفاين بدوره تلك الملاحظات في كتابه الخلاق «معدن الاسلام الثقيل: موسيقى الروك، المقاومة والصراع على روح الاسلام، ٢٠٠٨». فلا عجب إذا ان يستمتع بعض الشباب المؤمن بموسيقى الروك، وباحتساء المشروبات الكحولية، وبالسعي الى المغامرات العاطفية. فالحال ان هؤلاء الشباب يحاولون الملاءمة بين شبابهم واسلامهم، «عن طريق ظروف سياسية واقتصادية، تشكل السمة الرئيسية للبيئة الشبابية المسلمة».

ابتداء من اواسط سنوات الالفين، تمكن الشباب المصري - مستقويا بوسائل الاتصال الاجتماعية - من ايميل و«بلوغ» وخصوصا فايسبوك - من ان يكتسب القوة على التعبئة الجمعية. غير ان هذه القوة لم تمارس في الشارع وانما مورست على شاشات التلفزة. تشابك شبان يقارب عددهم السبعين الفا لتأسيس «حركة ٦ ابريل». لم تقتصر مشاغلهم على مطالب شبابية، فقد نظّموا الحملات ضد الفساد والقمع السياسي والركود الاقتصادي والمحسوبية. وبدلا من ان ينتظروا الفرص السياسية السانحة، سعوا الى استيلائها.

سياسات المرح

المرح منظومة من المساعي المرحية تتضمن الرياضة والمزاج والرفصص واحتساء المشروبات الكحولية جماعياً والفن والموسيقى والجنس باختصاره المرح «معجاز للتعبير

عن الفردية والعفوية والخفة يحتل فيه المرح المركز الرئيسي» (ص ١٣٨). يخصص بيات فصلاً تحتاً لسياسات المرح يتساءل «لماذا يحمل الاسلاميون الطهرانيون كل هذا العداء تجاه المرح والفرح» (ص ١٣٧) في الثمانينات من القرن الماضي كان الطلبة الاسلاميون الذين «سيطروا على المدن الجامعية يمنعون انعقاد حفلات العزف الموسيقي ومساهمة المسرحيات ويحاولون منع الاختلاط بين رجال ونساء الى هذا حرّموا الرفص والموسيقى الكلاسيكية منها والسعي على حد سواء بل ان جماعات اسلامية متشددة عملت على اغفال حوانيت الفيديو وصالونات الحلاقة اعتبروا ان كل هذه النشاطات مناقية للثقافة الاسلامية ووصف الملحق الاسبوعي لجريدة «الاهرام» الثقافي التي يرتادها الشباب على انها «اوكر للمخدرات والمشروبات الروحية والرغبات الجنسية والزيجات العرقية» (ص ١٤٠) تشارك الدولة مع السلطة الاخلاقية السياسية الاسلامية في الخوف من المرح لانه يسمح بالتعبير الذاتي الذات المجتمعية الحية. لذا فبدأ ترك المرح دون ضبط فسوف يهزب السلطة العقيدية ويشكك بالتالي في شرعيتها من هنا ان الخوف من المرح هو في حقيقته «خوف من الخروج عن الاطار الفكري الذي يوظف سيطرة انماط معينة من السلطات الاخلاقية والسياسية ويديها» (ص ١٤٥).

بعد العديد من الاختبارات، تحتاج المذاهب الإسلامية إلى أن تعيد اختراع ذاتها بالتشديد على التدين وعلى الحقوق في آن معاً.

استعدادات الانتفاضات

العربية للعام ٢٠١١ كافة عناصر المرح من خلال الموسيقى والرفص والرسم والتصوير والكثير غيرها كان لكل انتفاضة شعراؤها الشعبيون الجوالون مثل رامي عصام في القاهرة وقد صرح رضا الزيز وهو احد مؤسسي الفضاء المغربي «للمعدن الثقيل» [منوع من موسيقى الروك عتيق ومدون] «اننا نعزف موسيقى المعدن الثقيل لأن حياتنا باتت معدنا ثقيلاً» وهو يعني بذلك ان حياتهم فاسية وان الفساد يستشري والركود الاقتصادي يتفاقم واللاتسامح يتراكم في العراق تشكلت فرقته «اكراسيكوتا» للمعدن الثقيل ويمكن فهم ارتفاع اصوات موسيقاهم ونبرتها الغاضبة كمحاولة منهم لاغراق اصوات الدولة القمعية المدوية تشارك تلك الامثلة الهامسية لاقاء الضوء على حاجة الشباب الى الهرب من قساوة الحياة لكي يتغلبوا مستقبلاً بدلاً افضل.

من خلال فن الحضور والانتهاك الهائلي والشارع السياسي اسهمت الاحركات الاجتماعية في توسيع الفضاء العام للتعبير والاحتجاج. ويعتقد بركات ان الشهور الاسلامية لا مستقبل حقيقياً لها. ويتوقع بدلاً من ذلك نمو «انعسارات بعد اسلامية» قد يبدو هذا الزعم غريباً نظراً لنتائج الانتخابات في تونس ومصر. اومع انه يرى الى البعد اسلامية على انها حالة ومسرد في آن معاً «لكنها ليست معادية للاسلام ولا هي لاسلامية او علمانية» (ص ٢٤٣).

فيعد العديد من الاختبارات تحتاج المذاهب الاسلامية الى ان تعيد اختراع ذاتها، بالتشديد على التدين وعلى الحقوق في آن معاً. وما من شك في وجود غرائز متناقضة، غير ان الحديث الدائر الآن في تونس كما في مصر هو سرديات عن بناء الدولة واعادة تنظيمها تتجمع عند فكرة تأسيس «دولة مدنية» ان حركة النهضة في تونس وجماعة الاخوان المسلمين في مصر تؤسسان شرعيتهم الآن على الديمقراطية والحقوق والدستورية مثلما تؤسسلها على السريعة وهذا ليس نهاية الطريق بل البداية.

بصرف بيات السؤال عن الملازمة بين الاسلام والديمقراطية بدلاً من ذلك يتساءل «كيف وفي اية ظروف يمكن للمسلمين ان يجعلوا الاسلام يعتنق الروح الديمقراطية» (ص ١٢٤٢) من خلال تعبئة الممارسات اليومية على امتداد الشرق الاوسط برسم تغوّم الطائفت المتوافرة للاحركات الاجتماعية كما للحركات الاجتماعية من اجل بناء مجتمع قائم على حقوق الافراد هذا انجاز كبير. والقصة لا تنتهي هنا ذلك ان اصف بيات قد اغنى فهمنا للتعبير في الشرق الاوسط من خلال تركيزه على الحياة اليومية.

الحياة السياسية في أحياء القاهرة الجديدة

سلوى اسماعيل

كامل مهدي

اقتصادي من
الحرقاء جامعة
اقتصاد، اكتوبر

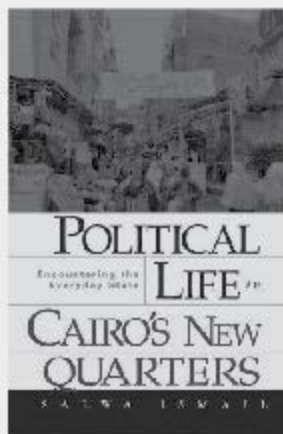
صدر هذا الكتاب لسلوى اسماعيل
أستاذة العلوم السياسية في كلية الدراسات
الشرقية والإفريقية في جامعة لندن العام
٢٠٠٦ بناء على بحوث ولقاءات أجرتها
الباحثة خلال عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠١ في
في يولاي الدكتور، أحد أكبر الأحياء
الشعبية الجديدة في حاضرة القاهرة
الكبرى وفي أحياء شعبية أخرى.

لم يحظ الكتاب باهتمام متناسب مع
أهميته العلمية والمعرفية والسياسية أيضاً
بالنسبة للقارئ العربي، وهي أهمية تتزايد
مع قيام الثورات والانتفاضات العربية
والثورة المصرية بشكل خاص، لأنه يعنى
بفهم الحياة السياسية ضمن جغرافية
المكان والحالة الاجتماعية المحددة في
أحياء شعبية يقطنها جمهور شعبي واسع
عملت أجهزة الدولة وخطابها الرسمي
السائد على تهميشه سياسياً بعدة طرق
منها فرض السلطة بالقوة واستخدام
مراكز النفوذ الاجتماعي المحلي والتفسير
المبهم لمواد القانون وتطبيقه الاعتيادي
واعتماد قيم ومعايير فئوية متحيزة، وفوق
كل ذلك إهمال الخدمات الأساسية والبنية
التحتية وتحويل حاجة السكان وسعيهم
للمحصول على متطلبات العيش الأساسية
إلى وسيلة احتكارية للتسلط عليهم.

السيطرة على المكان

وإن يقدم الكتاب وصفاً وتحليلاً
مفضلين للحياة السياسية في ذلك

سلوى اسماعيل، الحياة السياسية في
أحياء القاهرة الجديدة - وجهها لوجه
مع الدولة اليومية، ٢٠٠٦.
Salwa Ismail, *Political Life
in Cairo's New Quarters:
Encountering the Everyday State*,
Minneapolis, 2006.



الحبي الشعبي الواسع الفقير، فإنه يلقي الضوء على العلاقة المركبة بين الدولة والمجتمع المحلي، فالقمع الصارخ والقوة الاعتباطية التي تفرضها الدولة من خلال أجهزتها المتشعبة واستخدامها كأمر هيبتها (أو ما تسميه اسماعيل «نزول الدولة إلى الأرض») في التعامل مع تفاصيل حياتية يومية بسيطة ليس هو الشكل الوحيد للعلاقة بين الدولة والمجتمع، إلا أنه يتم عن مشروع لحكم بوليسي كلاسيكي في الأحياء الشعبية في إطار المشروع النيو ليبرالي للدولة، وينعكس مشروع الحكم هذا في الكيفية التي تواجه بها الدولة تبعات تفشي البطالة واضمحلال فرص الاستمرار في التعليم وحالة الإحباط العام لدى المواطنين والشباب منهم بشكل خاص عن طريق إحكام السيطرة على المكان واللجوء إلى حلول أمنية يجري فرضها وفقاً لمعايير طبقية واجتماعية ومن الإستراتيجيات الأمنية تهدف إلى سيطرة الدولة على من تعتبرهم خارج نطاقها ظاهرة تقييد الحركة داخل وخارج الحبي ووضع فئات من سكانه تحت طائلة «الاشتباك والتعري» أو تحت طائلة المساءلة عن أوضاع تتعلق بنمط حياتهم ونشاطهم العام ففي المناطق ذات الكثافة السكانية العالية يفتح ضيق المكان الحياة الخاصة على الحيز العام ويجعلها عرضة للاضطدام الدائم مع التواجد الأمني وتورد اسماعيل أمثلة من مقابلاتها مع سكان الحبي عن مداخلات واعتقالات تجري قرب المقاهي أو لمجرد تواجد الشباب عند مداخل الحارات وفي ذات الوقت، فإن الحبي كما تصفه اسماعيل ينزوي في عزلة جغرافية خلف خط سكة الحديد وترعة مياه وعقبات أخرى تزيد من عزلة السكانية وتبعيته الاقتصادية وتتوكل بالحركة ينه

وبين مراكز المدينة المسورة والمرتبطة بالاقتصاد المعولم وهي عزلة تمن الدولة في تعميقها عن طريق التحكم بمداخله واعتراض الشبكات وغيرها أثناء الانتقال منه إلى الخارج. هنا نلقى أهمية تأكيد الكتاب على المكان بكونه معادناً أساسياً لممارسة السلطة والحياة السياسية فأحد الأسئلة المركزية التي يواجهها الكتاب هو البحث في «كيفية تأثير الخصائص المادية للموسم والاجتماعية والاقتصادية والمعاني الرمزية والثقافية للأحياء الجديدة على شبكة العلاقات السلطوية ككل بين سكان الأحياء والدولة» (ص ١١٨) وتستخدم «ملوى اسماعيل مفهوم «المكان» بمعنى الواسع الذي يشمل على العلاقات بين الأهالي أنفسهم وعلاقاتهم مع الدولة ومع ما هو خارج المكان، وتؤكد في الوقت نفسه أهمية الجغرافية المادية للمكان كما تتجسد في الحيز الاجتماعي المحدود يعود مادية وتاريخية وتنظيمية هذه المنهجية القائمة على أساس مركزية المكان تعني أن فهم ممارسة الحكم في إطار اجتماعي اقتصادي ثقافي تاريخي محدد لا يتطابق مع الإطار الرسمي للدولة والحكم، وذلك ما ينعكس أيضاً على وعي سكان الأحياء المعنية فعلى حد تعبير إحدى «ميدات الحبي»: «هنا ما فحس دولة، هنا في نفس عيشة في دولة غير الدولة» (ص ١٣٨) ويقابل هذا الوعي الشعبي خطاب «سياسي وإعلامي رسمي» يسم الأحياء الجديدة بالعشوائيات محملاً التعبير معاني الانحراف والجريمة والتخلف ومرراً بذلك الفرض والقمع الخارجي وتبعث اسماعيل في الهوة بين الموقف والخطاب الرسميين والموقف والخطاب الشعبيين بالإشارة إلى صعود الحركات الإسلامية المستندة في أواخر

الثمانينات وأوائل التسعينات وهيمتها على أحياء شعبية عديدة كحبي إمباي مثلاً وثم تعرضها للقمع السلطوي. وتشير إلى تحركات الأهالي في مواجهتهم القمع الرسمي المرتبطة بين خصائص الفتوة التاريخية والبطولة الحالية كذلك يناقش الكتاب كيف أن التسريع والخطاب الرسميين حول البطولة رفعها إلى مصنف الخطر على الأمن القومي في الوقت الذي اتسعت فيه الاستعانة الرسمية بمن يعتبرهم «سكان الأحياء» (البطولية) في السياسات والممارسات السلطوية.

تعدد أجهزة الضبط البوليسية

ويحكم تاريخ نشوء الأحياء الجديدة المعنية وتوسعها السريع في إطار علم من النهج النيو ليبرالي للسياسات الاقتصادية والاجتماعية ومن النمو الاقتصادي تابع للمراكز المالية العالمية تتعرض نظم التخطيط الحضري والإدارة البيئية مع حاجات والمخط الحياة في المناطق المعنية (وفي الأحياء الشعبية القديمة ولو على نحو مختلف) وهذا ما يضع المؤسسات والأجهزة المعنية مبدئياً بالتطوير والتنظيم الإداريين ويتوفر الخدمات في موقع الخصومة والتضاد مع المجتمع المحلي ينعكس ذلك على الدور السياسي للتشكيلات الإدارية المختلفة التي تتخذ طابعاً بوليسياً وتولي اسماعيل أهمية كبيرة لتنوع وتشعب الأجهزة البوليسية العاملة في تلك الأحياء قبل الإضافة إلى البوليس الأمني هناك البوليس الصحي وبوليس التموين وبوليس الخدمات كالكهرباء وغيرها وهناك بوليس للطرق وبوليس للأخلاص أيضاً، وهذه كلها أجهزة تدخل في نبض الحياة اليومية لأهالي المناطق الشعبية وتطبع المنطق السائد للحكم وطبيعة سلطة الدولة وعلاقتها

بالمواطنة. وتقول اسماعيل إن الدولة في تلك المناطق الشعبية الجديدة لا تستطيع ممارسة سلطتها على المكان عن طريق حكم المحكومين لأنفسهم بأنفسهم لأن ذلك لا يتماشى مع افتراضاتها عن طبيعة الأفراد وعن طبيعة المجتمع في تلك الأحياء، ذلك أن عملية نشوء الأحياء تحول دون تلك الإمكانية (المقدمة ص ٣٠).

تفرد اسماعيل جزءا مهما من الفصل الأول حول نشوء حي بولاق الدكرور لتحليل أهمية الطبيعة التلقائية غير الرسمية لنشوء الحي على أرض كانت تعتبر زراعية حسب التصنيف الرسمي، جرى تحويل استعمالاتها تجاوزا ودون شمولها بالتخطيط الحضري والبنى التحتية والخدمات الأساسية. وهكذا نجد أن عملية إخضاع المنطقة لقواعد البناء وتنظيم المكان واستعمالاته وإدارة الخدمات فيه قد انطبعت بطابع التضاد بين الأهالي والأجهزة الحكومية. ويبيّن الكتاب كيف أن هذا التضاد يعود أيضا إلى تراجع دور الدولة الاقتصادي ونقضها للعقد الاجتماعي بينها وبين الأهالي الذي كان قائما في فترات سابقة.

فعلى عكس الأحياء الشعبية التي نشأت في حقبات مضت لأجل خدمة مشاريع الدولة الاقتصادية، والأحياء التي نالها نصيب وافر من البنى والخدمات العامة والتي وفرت قاعدة شعبية قوية للنظام السياسي خلال اتساع دور الدولة التنموي والاجتماعي، فإن بولاق الدكرور والأحياء المماثلة التي نشأت مع الحقبة النيولبرالية بقيت في وضع هامشي تابع في الاقتصاد الرسمي كما هي في السياسة الرسمية. وفي نفس الوقت، تبين اسماعيل أن تراجع الدولة عن جل دورها في تقديم خدمات الرعاية

الاجتماعية وتركها إلى تكافل المجتمع الأهلي والنشاط الخيري وثيق الارتباط بطبيعة النظام السياسي وبالمفهوم الليبرالي للمواطنة وحقوقها وبالتكوين الاجتماعي للطبقات والفئات المتنفة الجديدة. هكذا فإن نقل الرعاية الاجتماعية إلى النشاط الخاص بشقيه التجاري والخيري يرتبط بعملية تكوين جديدة لمواطنة تستمد نموذجها من «اعتبار المسؤولية الفردية والمبادرة الشخصية والاعمال الحرة أرقى المبادئ والقيم الاقتصادية والتي يفترض أن ترشد ذواتا جديدة مبهورة أشد الانبهار بالنزعة الاستهلاكية العالمية» (المقدمة ص ٢٠).

القروض الصغيرة وتوازن القوى بين الجنسين

ويربط الكتاب بين هذا التكوين الأيديولوجي وبين ترويج البنك الدولي ووكالة التنمية الدولية الأميركية وغيرهما من المؤسسات الدولية لمشاريع القروض الصغيرة وخاصة تشجيع النساء على ولوج هذا الطريق. ولا تختلف استنتاجات البحث الميداني الذي أجرته اسماعيل بين نسوة بولاق الدكرور حول هذا الموضوع عن استنتاجات الكثير من البحوث الجادة الأخرى التي خلصت الى أن تلك القروض لا توفر نقلة إيجابية نوعية في حياة النساء المعنيات وحياة أسرهن. إلا أن ما يضيفه الكتاب في هذا المجال هو الفهم المتكامل لهذا البناء الأيديولوجي ولمغزى تشجيع تلك القروض في المناطق الشعبية ولدورها السياسي وآثارها بما في ذلك ما يخص علاقات النوع الاجتماعي.

ويفرد الكتاب جزءا مهما من فصله الرابع للتفاعل بين الواقع الاجتماعي العام والعلاقات بين الرجال والنساء. فدخل المرأة الحياة

العامة بشكل واسع في مجتمع ذي ثقافة ذكورية، قد فرضه كل من الحاجة الاقتصادية للأسر وواقع الذات الذكورية المجروحة بقسوة والمهانة جراء تعامل أجهزة الدولة مع الرجال والشباب منهم خاصة. ويناقش الكتاب بإسهاب التداخل بين الوعي الاجتماعي الذكوري وإعادة تشكيل الموروث الثقافي والديني في ضوء هذا الواقع وفي ضوء إثبات الذات النسوية. ويظهر التوتر في أساليب مراقبة السلوك العام للمرأة من قبل الشباب على شكل معركة مع التحولات الاجتماعية وكتعبير ملتبس عن حال الذكور في دولة بوليسية، تنتهك هي الأخرى مجال الحياة الخاصة.

وهكذا نجد أن الحضور المتواصل للشرطة بأشكالها المختلفة المذكورة اعلاه والتوتر وإنعدام الثقة بين التشكيلات الأمنية وبين المجتمع المحلي، أمر مرتبط بكل من الاقتصاد السياسي للبلاد وبالحياة الاجتماعية المحلية في الأحياء الشعبية. وتستنتج اسماعيل أن حضور الشرطة المتواصل في الحي يهدف السيطرة على الناس عن طريق التأثير الرمزي والسياسي وأساليب التأديب والمراقبة. وتخلص الكاتبة الى أن السلطة السائدة في الأحياء الشعبية الجديدة لا تقوم على فهم ليبرالي للمواطنة، بل على ثنائية المشروعين البوليسي والليبرالي للحكم حسب التصنيف التاريخي للفيلسوف الفرنسي فوكو وما يتطلبه من استكشاف لفهم لمغاير لما يحمله كل من المشروعين حول الفرد والمجتمع. وتدعو الكاتبة الى أن «الإنباه إلى منطق كل من اهتمامات ومفاهيم وأساليب الحكم يشجعنا على طرح أسئلة من نوع مختلف حول طبيعة سلطة الدولة» (المقدمة ص ٢٦).

نور الوجهاء

وتبين الباحثة أن الدولة البوليسية تمارس سيطرتها أيضاً من خلال العلاقة بين أجهزتها وبين الفئات المتنفذة في المجتمع المحلي والتي تستمد بدورها بعض نفوذها عند طريق علاقاتها بأجهزة الدولة نفسها وقدرتها على التوسط بينها وبين الأهالي. إلا أن لهؤلاء الوجهاء دور أكبر في تنظيم جوانب من الحياة الاجتماعية للمحي وفي التوسط بين الأهالي أنفسهم وغالباً ما يكون الوجهاء هم أنفسهم من المتنفذين في الحياة الاقتصادية للمحي يشكلون ركناً أساسياً من التشكيلة الطبقية فيه. ونادراً ما يمنع وجودهم وتدخلهم العنف والصراع بين الشرطة وقطاعات واسعة من الأهالي والسبب منهم خصوصاً وبالتالي فإن العلاقة ملتبسة وغير مستقرة في ظل فشل نمط النمو الاقتصادي العام في معالجة أوضاع الأحياء الشعبية بحيث إن إمكانية الانفجار واردة دائماً بالرغم من أساليب الضبط المركبة والمتداخلة مع المجتمع. وتشمل الباحثة في أكثر من مكان في الكتاب ويشكل خاص في خاتمة في إمكانية أو احتمال قيام مقاومة، بل وثورة، مصرية في ظل اتساع الأحياء الشعبية المهمشة وممارسة الحكم عن طريق التدخل السُمولي للشرطة. تشير الثورات ضد الاستبداد في العالم العربي السؤال حول إمكانية ومتطلبات بناء نوع جديد من السلطات ويمكن الاستنتاج من كتاب «ملوى اسماعيل أن الثورة ضد طغيان الأجهزة الأمنية تشكل بذاتها مشروع تغيير اجتماعي سياسي جنري، وهو أهم بكثير من الإصلاح الإداري والمؤسسي ومن قيام نظم انتخاني جديد.

رثمة ملاحظة حول منهجية البحث حيث إن جهد الباحثة في هذا المجال

يستحق التقدير والتقدير فهي قد جمعت بين الاطار الفكري الرصين والاهتمام بدراسة الدولة والحكم في علاقتهما المباشرة مع الأهالي في الأحياء الشعبية من خلال الربط في ما بين الواقع السياسي المعاش على الأرض والتغيرات والظواهر والسياسات الاقتصادية والاجتماعية الكلية واتبعت الباحثة منهجية البحث الميداني من خلال زيارات متكررة لمنطقة البحث وإجراء عدد كبير من المقابلات مع فئات مختلفة من سكان الحي واستقاء معلومات واسعة من مصادر أخرى متنوعة بما في ذلك معاصر تعقيقات البوليس والقوانين ذات الصلة ومراجعات المحاكم والتفارير الصحفية ويستند الكتاب أيضاً إلى فريض من الدراسات الحضرية التي تمكن من المقارنات والاستنتاجات حول تطور المدينة تقلت كلها من معرفة الباحثة العميقة بتاريخ المدينة وواقعها الاجتماعي والسياسي.

سورية: آليات الاستبداد وعوامل تفككه

سليمان تقي الدين

مؤرخ وكاتب من
لبنان، أمين علم اتحاد
الكتاب اللبنانيين

يعرض سليمان تقي الدين في هذه المراجعة أربعة كتب عن سورية لأكاديميين من بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية صدرت مترجمة عن دار رياض الرئيس للكتب والنشر. ومع أن الكتب صادرة كلها منذ عقد من الزمن إلا أنها تقدم خلفية مفيدة لفهم آليات تشغيل النظام السوري.

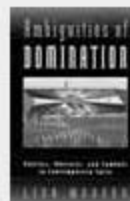
ليزا وادين؛

مراوغات السيطرة

تتناول وادين مسألة «شرعية النظام» في سورية رغم تحفظها على نظرية الشرعية لتجد أن النظام امتلك شعبية وأشرك جمهوره في الموافقة على القرارات السياسية الخارجية المتعلقة بمناعة ضغوط أميركا وإسرائيل وتسلط وادين عن استخدام ويوند هينبوش مفهوم النظام البويرتي بالنسبة لنظام البعث استناداً إلى تحليل ماركس عن «نظام سلطوي يغيب الثورة ويكون فوق الطبقات ويسرق على تشكيل الدولة الجديدة والانتقال من النظام الانتقالي إلى نظام حداني معقد» لكنها لا تجد في هذا النوع من التأويل أو التفسير السوسيولوجي غابته خفي ترى «أن ظاهرة تقديس الأسد هي استراتيجية للسيطرة قائمة على المطاوعة بدلاً من الشرعية» ينتج النظام «المطاوعة» (فرض الطاعة) من خلال المشاركة الإيجابية في أشكال الامتثال الزائفة الجليية، سواء لأولئك الذين يخترعون هذه المظاهر وأولئك الذين يستهلكونها وتعمل ظاهرة تقديس الرئيس حلقظ

ليزا وادين، «السيطرة الغامضة، السياسة الخطابية والرموز في السياسة السورية» ترجمة نجيب غضبان، دار رياض الرئيس للطباعة والنشر، بيروت ٢٠١١.

Lisa Wedeen, *Ambiguities of Domination: Politics, Rhetoric, and Symbols in Contemporary Syria*, University of Chicago Press, Chicago, 1999.



الأسد كآلة ضبط تفرز سياسة الخداع العام التي يتصرف المواطنون خلالها كما لو أنهم يحترمون قائدهم.

صحيح أن الابدولوجيا البعثية المستخدمة في مشروع قداسة السلطة والرئيس هي بيئة تعبوية تعريضية لكنها «مغفورة في الممارسة السياسية» (التوسير، هول) ولينين أيضاً هو القاتل - بعد ماركس - أنه تصبح للأفكار قوة مادية حين تسيطر على أذهان الجماهير. تترافق شغفنة السلطة مع انتاج «نخبة» هي التي تشكل عصب المشروع، فالانضباط والعقاب (فوكو) هما آليات تكنولوجية تستخدمهما السلطة في تأكيد حضورها الطاغية عبر الاستعراضات العامة والدائمة وليس العقاب كما في حال السجناء السياسيين إلا وسيلة من بين عدة وسائل، بل أن العقاب لا يعود ضرورياً حين تصبح القداسة حصاراً شاملاً للمجتمع ينفي الخصوم ويزيلهم عند الضرورة.

تذكر وادين فكرة مهمة عن أن السياسة ليست فقط الصراع على السلطة المادية، بل هي أيضاً مناقشة حول العالم الرمزي وحول إدارة المعنى والاستحواد عليها.

ربما كانت هذه الفكرة مفتاحية لفهم صراعات الجماعات (الطوائف) الاثنية، القبائل، العوائل (الأحزاب) حين تقوم بتأويل التاريخ مثلاً أو بمصادرة الثقافة العامة (أو الإرث الثقافي) لوضعها في خدمة طرف من الأطراف هكذا يتحول كل إنجاز تاريخي إلى رصيد في خدمة هذا الطرف دون سواء ويتم الاستيلاء على مسميات ومعاني الأشياء عبر التماثلي والصوري واللافتات وأسماء المؤسسات الحكومية وغير الحكومية.

في أسس السيطرة هناك دائماً نقطة انطلاق يتكثف حولها المعنى الأخلاقي. ترى وادين أن الرئيس حافظ الأسد قد

أصبح في هذا المجال «منفذ لبنان» منذ تدخله العسكري والسياسي فيه عام ١٩٧٦. يتخذ الحدث طابعاً أسطورياً في المشروع العام الذي سوف يمتد في ما بعد إلى مقولة استقرار «سورية وتميمتها» وتحدثتها والدفاع عن القضية القومية وعدم التنازل عن الحقوق الوطنية.

لكن السلطة الشخصية لا تدور في فراغ بل تجري بين متنافسين ينجذبون نحو الشخص الذي يلعب دور الحكم فتعيط القيادة الشخصية نفسها بمتزافين متنافسين لكي تحكم سيطرتها على الجهاز الحاكم أما الصورة التي يُقدّم بها الرئيس فهي صورة الأب الوطني. وقد بدأت صيغة الأبوّة للشهداء والمواطنين وغناصر الجيش مع حرب تشرين ١٩٧٣. وتقدم وادين نماذج حيّة من إغادات المواطنين عن حلول الأب الأعلى (الرئيس) محل الأب الطبيعي في مسار حلول القداسة محل الوظائف الاجتماعية والإنسانية الأخرى. هناك طبعاً سياسة اخضاع الخصوم والتي يتم من خلالها إجبار المساجين على توقيع تعهدات بعدم القيام بأي نشاط مناهض للسلطة، وإقرارهم بشرعيتها ومعاسنها وإعلان الولاء لها. ولكن في سياسة الاخضاع المنظم هذه يتولى

المواطنون أنفسهم اخضاع بعضهم بعضاً بالخوف من السلطة العليا حتى لو كانوا لا بصنفون هذه الطاعة أو بالأحرى لا يفتنعون بها إنها «جمهورية الخوف» كما في كتاب المنفي العراقي كنعان مكبة عن نظام صدام حسين

يقابل «سياسات الضبط هذه سياسة «التفريس» أو تسريب للقطب واللكبته تشرح وادين بالنماذج كيف يستخدم التلفزيون والسينما والأعمال النقدية السياسية «كصمام أمان» وتضرب على ذلك الأمثلة من مسرحيات (غوار الطوشي) لدريد لحام ومحمد الماغوط أو من خلال الكاريكاتور (علي فرزات) أو بعض الأفلام والنكات. كل هذه التقنيات تسمح بهوامش للاحتفاظ بالشهد الإجمالي الذي هو رسوخ وثبات السلطة القائمة.

كارستن ويلاند:

الإصلاح بدلاً من السلاح

يبدأ ويلاند نصه من لحظة انتقال السلطة بعد وفاة الأسد الأب إلى الأسد الابن عندما مارس وزير الدفاع مصطفى طلاس كل الضغوط والتهديدات على نقيب الرئيس عبد الحليم خدام لتوقيع المستندات المؤدية لتولي الرئيس بشار السلطة كانت تلك أولى إشارات صراع النفوذ بين الأسد وخدام عدل الدستور وتولي الرئيس بشار السلطة لكن فراغاً كبيراً وقع حاول ملأه الابن ببطء شديد يرى ويلاند أن المرحلة الأولى

كارستن ويلاند، «سورية: الاقتراع أم الرصاص؟» والعلمانية في المشرق» ترجمة حازم نهار ومراجعة رضوان زيادة، دار رياض الرس للكتب والنشر، بيروت ٢٠١١.

Carsten Wieland, Syria: Ballots or Bullets. Democracy, Islamism and Secularism in the Levant, Cune Press, Seattle, 2006.



قد اتسمت بضعف شخصية الرئيس ووصمته بأنه غير واقعي ويرى الأمور بصورة وردية. فيما يرى آخرون أن عهد الأسد الابن كان بداية تحول كبير لأن ديناميات النظام قامت على وجود مركز سلطة واضح. في السابق كان الحكم بيد شخص، أما الآن فتمة كثيرون يحكمون. وكان الناس يغمزون في المقاهي من «أن السلطة اليوم في أيادي الأشباح»، ويبدو أنه في عام ٢٠٠٤ تخلص الرئيس من مجموعة النافذين حوله (رئيس الأركان حكمت الشهابي و٤٥٠ ضابطاً تم استبدالهم) فوطد موقعه في النظام. وفي مؤتمر الحزب عام ٢٠٠٥ خاب أمل الذين توقعوا قرارات إصلاحية ولا سيما إنهاء حالة الطوارئ وإقامة التعددية السياسية وإلغاء احتكار البعث للسلطة وإصلاح القضاء وفتح أبواب الحرية. كذلك حصل تغيير داخل الحلقة الضيقة للنظام فأبعد عبد الحليم خدام لمصلحة فاروق الشرع، وأمسك أحد المتشددين الايديولوجيين (محمد سعيد بخيتان) مركزاً أمنياً أساسياً وبقي في قيادة الحزب القطرية.

يرى ويلاند أن جزءاً من شرعية النظام يقوم على الخوف والتخويف من الأسلمة تعقب ثورة عنيفة من المحتمل أن يمولها المتشددون السعوديون بدولارات النفط. ويشكل هذا الخوف ورقة رابحة بأيدي العلويين الحاكمين ومؤيديهم العلمانيين. ويلحظ ويلاند وجود ميليشيات تلعب دوراً مهماً في الاعتداء على المعارضين بوحشية وهي مكونة من فروع العائلات المحيطة بأقطاب السلطة القلقة على خسارة النظام. منذ العام ٢٠٠٠ كان خطاب الرئيس محبطاً حين قال بضرورة وجود اتصال بين البرنامج السياسي والبنية الاجتماعية معتبراً أن سورية لا تستطيع أن تسلك طريق الديمقراطية الغربية. وقد حاول النظام أن يحذو حذو الصين في

اعتماد نظام من التحرر الاقتصادي دون أن يرافقه الإصلاح السياسي. وفي ذلك العام ٢٠٠٠ ذاته، نشطت المعارضة في المجتمع المدني عبر بيان الـ ٩٩ الذي طرح برنامجاً متكاملاً للإصلاح. لكن النظام مارس سياسة القمع على هؤلاء المعارضين وأصدر قانون الإعلام للعام ٢٠٠١ الذي كان بمثابة خطوة هائلة إلى الوراء. كذلك جرى إبعاد عدد من الوزراء ذوي الاتجاه الاصلاحى. وفي عام ٢٠٠٤ انفجرت أعمال عصيان في أوساط الشعب الكردي وهدد النظام كل حركة سياسية تنشأ خارج إطار الجبهة الوطنية بالقمع. فرضت المسألة الكردية نفسها كتحدٍ جدي. حاول النظام على الطريقة العراقية أن يحدث تغييراً ديموغرافياً بين العرب والاكراد في المنطقة الشمالية مواصلاً السياسة المعتمدة منذ العام ١٩٦٢ بعدم احصاء أكثر من تسعين ألف كردي في تعداد السكان. هكذا يوجد حتى الآن عشرات الآلاف من الاكراد المحرومين من الجنسية السورية.

أما القنبلة الاقتصادية الموقوتة فتتجلى في شراء النظام لشرائح من رجال الأعمال والطبقة الوسطى بديلاً من الإصلاح؛ والاستثمار في السياسة الخارجية بدلاً من الاستثمار في التنمية الاقتصادية. تذهب العقود الهامة إلى كبرى العائلات الموالية وإلى أعضاء عشيرة الرئيس (الهاتف النقال، وكالات السيارات، الخ) والمحسوبة مستشيرة في امبراطورية ابن خال الرئيس، رامي مخلوف. إلى ذلك يحتشد ثلاثية ألف شاب سنوياً في سوق العمل بينما لا يوفر النظام في القطاع العام أكثر من عشرين ألف فرصة عمل سنوياً. ويقال أن ١١ إلى ٣٠ بالمئة من السوريين يعيشون تحت خط الفقر المدقع، يسكن معظمهم في الأرياف وعلى الحدود التركية - العراقية.

تزايدت عزلة سورية الاقتصادية والسياسية فراحت تبحث عن شركاء لتحالفات مستقبلية على أسس براغماتية عوضاً عن الايديولوجيا، وافتتحت عملية التقارب مع تركيا في هذا الاتجاه. واستمرت سياسة النظام في ممارسة التضييق على الحريات. وصرح معارض سوري عام ٢٠٠٥ بأن المعتقلين السياسيين قد بلغ عددهم ألفاً وخمسمائة معتقل و ٧٥٠٠ من الجماعات الإسلامية.

ولقد عارضت الجماعات الإسلامية الرئيس حافظ الأسد منذ إقرار دستور ١٩٧٣ حين فرضت عليه ذكر الشريعة كمصدر من مصادر التشريع. وقد واجه النظام احتجاجات الإسلاميين في ١٩٧٦ وفي ١٩٨٢ (حماء) لكن ظاهرة انتشار الحركة الإسلامية ظهر بوضوح في ٢٠٠٥. في المقابل، ظهرت العلمانية في سورية مع ارتفاع مد القومية العربية، لكن المجتمع ظل ينظر إليها على أنها من بدع ثقافة غربية غير الملائمة لمسار المجتمع العربي. غير أن الأنظمة القومية استخدمت العلمانية أداة للنخب ذات التعليم العالي لشرعنة حكمها ولم تلتزم بها كركائز فكرية وسياسية كما هي حال العلمانية الغربية. والعلمانية البعثية انبثقت عن ثقافة التسامح في المجتمع العربي وقبول المكونات التعددية الدينية دون أن يطاول ذلك التعددية السياسية. وعندما تولى الرئيس حافظ الأسد السلطة رئيساً عام ١٩٧١ جاء في ركابه الكثير من العلويين من الأرياف لتقوية مواقعهم في السلطة وحاول أن يعطي بعداً علمانياً أكبر في الدستور لأن ذلك يخدم في استجلاب دعم ولاء الأقليات الأخرى. وهو الأمر الذي كان يثير حفيظة الإسلاميين بشدة. وقد لجأ هؤلاء إلى استخدام تحريض طائفي لا ديني بوجه النظام. فالإسلاميون

لا يعادلون في الثقافة الدينية بل يستعملون سياسة براغماتية معادية لاحتلال ضباط وموظفين علويين موقع العمود الفقري للنظام وقد مارسوا سياسة الاغتيال ضد تلك الكوادر العلوية. وبفرد المؤلف حيزا كبيرا للبحث في ايدولوجية النظام. ينطلق من ان النظام السوري بضغ صورة الأسد في قلب خريطة العالم العربي نسبيا اليه الدور المركزي القوي لتوحيد الأمة في الوقت الذي استحال فيه حتى انجاز تعاون بين حزبي البعث الحاكمين في العراق وسورية ويستشهد ويلاند بمقولة بينديكت اندرسون القائلة بأن الأمم «مجتمعات متخيلة» رغم القوة المؤثرة للوهم الذي يصبح حقيقة على المستوى الاجتماعي ويؤدي الى نتائج سياسية فالعروية التي حملها البعث وكانت مستمدة من ثقافة غربية رحيمة تحولت في المواجهة مع الغرب الفرنسي والانكليزي الى ثقافة معادية وقطعت اتصالها العضوي بهاتين الثقافتين

والحال انه مع وصول البعث إلى السلطة تحولت العروية الى نزعة للادجية على نطاق واسع وإلى مجرد ايدولوجيا تيررية وذخيرة من العبارات الدعائية وقد شكل احتلال العراق نهاية لهذه العروية عندما سقط البعث ولجأت الدول العربية الى تحالفات تجاوزت الاطار العربي (سورية وايران) ليس هذا وحسب بل لأن السياسة السورية عانت من تناقضات متزايدة حتى أن حزب البعث تحول إلى جماعة تعاونية تضم كل الاتجاهات بما في ذلك الإخوان المسلمون ولم تعد الايدولوجية مهمة فيه

يقدم النظام السوري الحشوف من الإسلاميين عذرا لتأخير افتتاح البلاد علما انه كان من الممكن لحركة ربيع دمشق ٢٠٠٠ - ٢٠٠١ ان تشكل مبخلا لتعاون النظام مع العلمانيين إلا أنه أضاعها فقامت المعارضة عام ٢٠٠٥

بخطوة في اتجاه توحيد خطواتها من خلال «إعلان دمشق» (١٦ تشرين الأول ٢٠٠٥) وقد شاركت في اجتماع لندن كل جماعات المعارضة من حركات المجتمع المدني والنشطاء الأكراد والمسلمين المعتدلين والإخوان المسلمين دعا «إعلان دمشق» إلى «عقد اجتماعي جديد» دستور ديمقراطي واعتبار المواطنة أساس الحقوق والادوار والتعددية والتداول السلمي للسلطة وحكم القانون والمساواة بين المواطنين دون تمييز وتميزت مرحلة ما بعد ٢٠٠٥ بالتعاون بين العلمانيين والليبراليين والعرويين والإخوان المسلمين الذين غيروا من اسلوبهم وخطابهم وأعلنوا التزامهم بالديمقراطية والدولة المدنية حسبما أعلن زعيمهم علي صدر الدين البياتوني من لندن غير أن هذا لا يعني غياب الحركة السلفية ونصرياتها المفعمة بالكراهية ما يجعل عدد من المثقفين في المعارضة السورية حذرين جدا من حكم الإسلاميين. ويعتقد بعض المثقفين أن الفرصة متاحة أكثر للإسلاميين مقارنة بسلطات المعارضة لغزوتهم على استخدام المؤسسات الدينية ولا سيما الجوامع وتقديم الخدمات لجمهورهم

من جهة ثانية فإن النظام السوري قد اغتسم كل فرصة متاحة خلال السنوات الثلاثين الماضية لخلق حالة ضبابية من الدعاية المعادية لإسرائيل وهكذا بالموازاة مع المتطرفين في إسرائيل عزز النظام الجو لخلق عضيات كبيرة أمام السلام بين شعوب المنطقة. ويرى ويلاند أن النظام السوري لديه ملف لدى الوكالات العالمية لمكافحة الإرهاب وهو يدعم جماعات إسلامية تمارس العنف مع انه لا يتفق معها ايدولوجيا (كحماس) كما شاركت سورية بترويد المقاومة العراقية بالسلاح. وقدرت بعض المعلومات عدد المتسللين من سورية

إلى العراق يتعدى ١٥ ألفا كذلك تدعم دمشق «حزب الله» الشيوعي في خاضرة إسرائيل بفرصة احتلال الجولان ويدين الرئيس الأسد للشبيعة يفتوى الامام موسى الصدر الذي أكد إسلامية الطائفة العلوية عكس قضاها من السنة الذين يعدوهم مهرطقين وتعامل سورية بوجهين مع أميركا فهي أحنت رأسها لاحتلال العراق ومن جهة ثانية دعمت الحركات المقاومة ضد الاحتلال. وهي من جهة اخرى عقدت مفاوضات مع إسرائيل وأيدت استعدادها للعمل الذي رفضته القيادة الإسرائيلية لكن أميركا ظلت إلى عام ٢٠٠٥ تنظر إلى دور سورية في لبنان كدور إيجابي في هذه الدولة الهشة مغالقة اتساع دائرة الإرهاب. وسين خرت أميركا إخراج سورية من لبنان عقب اغتيال رئيس الوزراء رفيق الحريري واتهام دمشق بالضلوع فيه نخرج من النظام أركان أقوياء منهم رئيس الأركان العامة للقوات المسلحة حكمت الشهابي ورجل الأمن الذي سيطر على لبنان لفترة طويلة اللواء غازي كنعان

وحين بدأت المعارضة تنشط في دمشق تلقت سورية إشارات أميركية متناقضة. شكك المعارضون السوريون من دعم واشنطن لتيارات إسلامية على حساب العلمانيين وما يفلق السوريين هو شكل التعبير الحتمي من داخل أو من خارج وبخلص ويلاند أن لدى بشار الأسد الفرصة للقيام بحركة إصلاحية من فوق تدعمها الأقليات والعلمانيون المتوجسون من الحركة الإسلامية. أما الثورة العنيفة فلي تكون في مصلحة التيار المدني ولا في مصلحة الغرب ولكن استنتاج ويلاند تطور بعد ٢٠٠٦ فإذا به يعلن أن نظام بشار يمر بمرحلة انكماش وأن المشهد أصبح أكثر كآبة بعد تواتر عمليات القمع السياسي

رايموند هينبوش:

صراع الريف مع المدينة

يتأجج رايوند هينبوش حكرة: أن التغيير السياسي كان موعوداً تحت حكم الرئيس بشار الأسد ولكنه يستمر سلفاً بالقول أن مسودح بشار هو «عصرنة الاستبدادية» أي تحسين عمل النظام وتوليد تنمية اقتصادية لضمان قاعدة النظام على أن يتوافق ذلك مع تحسين الإنارة والمحاسبة والمشفقة ومكافحة الفساد لكن بشار خيب آمال أولئك الذين انتظروا منه ديمقراطية الحمية السورية وأنه في مؤتمر الحزب عام ٢٠٠٥ أخلل التفكير الاقتصادي على نظرية «اقتصاد السوق الاجتماعي» ما يؤكد المسار بالتحول إلى اقتصاد السوق.



رايموند هينبوش، «سورية: ثورة من فوق»، ترجمة حازم بهار، مراجعة رضوان زائدة، دار رياض الريس للكتاب والنشر، بيروت ٢٠١١.
Raymond Hinnebusch, Syria: The Revolution from Above, Routledge, London 2001.

يعتقد هينبوش أن الشعبوية السورية التي انتصف بها حزب البعث هي نوع من الفاشية التي استرخت الطبقة الوسطى وجمعت من حولها في السياق السوري الأقليات الطائفية إذ لا تقوم سلطة النظام السوري على الإكراه وحده بل على توسيع القاعدة الشعبية من خلال التنظيم الشعبي الذي هو حزب البعث، ولا يمكن فصل سيطرة الفاشية في الشرق الأوسط عن سياق الحروب الوطنية والنزاعات الدولية على المنطقة هذا النموذج الذي يزعم

أنه سبق طريقاً ثالثاً بين الاشتراكية والرأسمالية فلم فعلاً بيناء رأسمالية دولة للانتقال من الانتعاشية ولكن مع توسيع دور الدولة الرعية على حساب التطور الرأسمالي الانتعاشية لم تكن السياسات التي اتبعتها الضباط الذين لعبوا الدور الأكبر في المتغيرات سياسات طائفية ولكنها وجدت موضوعياً في الفئات الريفية الفقيرة والمهمشة، وبصورة خاصة في الأقليات، مادتها الاجتماعية الأساسية التي أعطت حزب البعث تلك الشعبية ويصف هينبوش جزءاً مهماً من تاريخ سورية السياسي على أنه صراع بين القوى الريفية والقوى المدنية بمخلف البرجوازي وعائلاتها الثرية.

لكن الأسد الأب الذي ضيق حلقة القوى المشاركة له قد استخدم الشعبية العائلية والطائفية وبعض شرائح التكنولوجيا والنخب المدنية لإمساكها في السلطة ولحق بهؤلاء جزءاً من حماية ورعاية مصالح البرجوازية المدنية. وفي اتجاه إقامة السلطة المركزية الاستبدادية اعتمد الرئيس الأسد على الضباط العلويين في المراكز الأمنية الحساسة لكي يؤمن لنفسه نخبة موفقة حتى ضد خصومه من الشركاء في الأقليات الذين ساعدوا في وصوله إلى السلطة لكنه اعتمد بعض الوجوه المدنية الحزبية السنية لشبك علاقات أوثق مع البرجوازية السنية في المدن. ويرى المؤلف أن الاستياء من الهمنة العلوية يظل المصير الأساسي لعدم شرعية النظام باعتباره أن هذه الجماعات تحظى بامتيازات واضحة وتنتصر على نحو يظهرها حقوق القانون وفي عهد الأسد الأب شاركت المؤسسة الحزبية في صنع القرار على المستوى الاقتصادي الاجتماعي والخدمي والإداري لكنها لم تكن الطرف المقرر في السياسات الأمنية والخارجية وقد ساهم الحزب

في مد خطوط التواصل مع القاعدة الشعبية وفي تجنيد النخبة السياسية الجديدة التي كانت في معظمها تكتنير بيروقراطية الدولة ويعتقد (هينبوش) أن الأسد استمر نفوذه على قاعدة الدولة الرعية (القطاع العام والمساعدات العرعية) والاشتغال على الهوية السياسية العرقية، القومية العلمانية التي توفر المساواة بين المجموعات المنهية.

أنشأ النظام طبقة جديدة من خلال هيمنة الدولة على الاقتصاد وشكلت النخب العسكرية والمدنية النواة الأساسية لهذه الطبقة لكن استراتيجيته هذا النظام التي أدت إلى تعميق جذور الطبقة الجديدة أخذت تتآكل مع تعاطف النظام السلطوي والتعيز الريفي والطائفي للسلطة والفساد والفوارق الاجتماعية، ما قوى اتجاه الإسلام السياسي كديولوجية بديلة تطعن بشرعية البعث وقد سيطرت النزاعات العرقية - الإسلامية خلال السبعينات والثمانينات إلى أن استخدم النظام التحولات الإقليمية في صالحه وخاصة مع اتفاقية كامب ديفيد ووجه ضربة مدمرة لقوى المعارضة الإسلامية كانت ثورتها في حمص (١٩٨٢).

ويصف هينبوش السياسة السورية من الستينات حتى التسعينات التي استثمرت على الهوية العربية الوحيدة وعلى قضية فلسطين ليصل إلى أن السوريين قد بدلوا يركزون على هويتهم السورية ويعيدون تحالفات تضمن أمن النظام في الصراع الإقليمي من خلال علاقاتهم بيران دول أدى ذلك إلى خروجهم عن استراتيجيته التفضيل العربي ويعتقد هينبوش أن الأسد ركز على توازن القوة مع إسرائيل واستخدم لذلك استراتيجية سورية الكبرى ضد إسرائيل الكبرى ما مكنته من إعادة بناء قوة سورية واستقرارها. وفي هذا السياق استمر الأسد تدخله في لبنان منذ العام ١٩٧٦ ولاحقاً دعمه للمقاومة الإسلامية فيه وفي خلاصة رأي هينبوش

أن سورية استطاعت أن تحافظ على موقعها في ظل الحرب الباردة والتوازنات الدولية لكنها اليوم لا تستطيع أن تحافظ على الموقع نفسه بعد أن فقدت جزءاً مهماً من شرعيتها العربية وعليها أن تواجه لحظة التكيف مع العولة اقتصادياً وسياسياً.

ستيفن هايدمان:

الدولة ضد المجتمع

يتميز ستيفان هايدمان عن معظم الباحثين في سورية المعاصرة في أطروحاته الفائلة أن الاستمرارية السياسية للنظام السوري لا تأتي من مرونة النظام وقدرته على التكيف بقدر ما هي ناجمة عن عوامل أخرى، وبصورة رئيسية الإكراه فالنظام لا يبدو كونه أداة لقرص السلطة وضمان تدفق موارد الدولة إلى تحالف اقتصادي - طائفي معين وبالدرجة الأولى حلفائه الاضيق التي هي الحلقة العلوية ذلك أن هايدمان يؤكد أن الطائفية والقمع ليستا العنصرين الأساسيين بل هو يبحث ما وراء هذه السيطرة في الاقتصاد السياسي أن قيام الدولة بالسيطرة على الاقتصاد وتوسيع مؤسساتها أدباً إلى إجماع الرأسمالية فيها وفي تلخيص كثيف لحجم التغيرات التي أحدثتها البعث (١٩٦٣ - ١٩٧٠) يقول إنها

ستيفان هايدمان «السلطوية في سورية، صراع المجتمع والدولة» ترجمة عباس عباس، مراجعة ضوان زبيدة، دار رياض الريس للكتاب والنشر، بيروت ٢٠١١.

Stephen Heydeman,
Authoritarianism in Syria:
Intuitions and Social Conflict,
1946-1970, Cornell University
Press, 1999.



أحدثت تحولاً ثورياً في الدولة والمجتمع والاقتصاد، إذ استكملت قيادة البعث تهميش طبقة الاقطاع وقضت على النفوذ السياسي للرأسماليين وأسست قطاعاً عاماً يسيطر على ثلاثة أرباع الاقتصاد الوطني، وعززت النموذج القمعي النفاذوي للتعينة الاجتماعية والاندماج الاجتماعي وأرست نظاماً تسلطياً شعبياً في الهيكليات والمؤسسات البيروقراطية للدولة معبدة تكريس الدولة على أنها «القوة الكلية الوجود في التنمية».

ويعتبر صعود الأسد إلى السلطة مرحلة قمع للرؤيات المتناحرة حول طبيعة الدولة السورية التي ظهرت منذ الاستقلاله فقد أعاد البعثيون هيكلة دينك مؤسسات الدولة والمجتمع غير توسيع حجم الدولة وتعميق تدخلها في الاقتصاد والمجتمع من خلال التأميم بناء جهاز مؤسسي ضخم لإدارة القطاع العام السيطرة على تداول رأس المال والسلع وتحديد الملكيات الزراعية وترسيخ الممارسة الراديكالية الشعبوية وقد واجهت الدولة الحركة الاعتراضية السيرجوانية ثم الحركة الإسلامية والحقت التنظيمات النقيية العمالية والفلاحية والشعبية والمهنية بسيطرتها وقد ارتكزت نظرية الأسد على أن غياب الرأسمال الأجنبية والانغلاق الاقتصادي يوفران أفضل السبل للتنمية ولكن منذ انهيار الاتحاد السوفياتي، بدأت هذه السياسات تتعرض لضغوط تدفع نحو المزيد من الانفتاح الاقتصادي وليس فقط الليبرالية الانتقائية.

لكن هذا الكتاب الذي يتناول تاريخ سورية الحديث إلى عام ٢٠٠٠ قدم مؤلفه الطبع العربية بالتأكيد على أن بشار الأسد استفاد من عملية بناء المؤسسات وتوسيع الدولة التي قام بها والده ولقد استفادت سورية بما عرفت بالاستقرار الذي وفره النظام منذ العام ١٩٧٠ بوصفه قطعة مع اضطراب السياسة السورية

والانقلابات والنزاعات السابقة لكن الرئيس بشار يواجه اليوم مضاعفات وتداعيات تطور النظام الاقتصادي الاجتماعي وسرور معارضة التيارات الإسلامية وضغوط البرجوازية السورية من أجل توسيع الحيز الليبرالي واندماج الاقتصاد السوري بالسوق العالمي. أما محاولات الرئيس السوري التحديث السلطوية فلا تأخذ مداها في ظل سياسات قمع النشطاء الديمقراطيين منذ بداية ٢٠٠٦. وخلاصة المؤلف أن محاولة النظام التكيف الجديدة للتعليد على عزله المتزايدة تبدو قاصرة عن تجديد شرعيته بل هي غير مجدية نظراً لأداء الرئيس بشار الأسد الهزيل على هذا الصعيد.

خلاصة

تكاد هذه الكتب تكون أطروحة واحدة عن سورية في ظل حكم الحزب الواحد والزعيم الواحد وتقدمس السلطة وأدوات ووسائل هذا التقديس والاستبداد اللاعبي للديمقراطية والمترج فوق مجتمع تلفعه رياح الإسلاموية وتكشف علمانيته عن شكل من أشكال الحكم الطائفي يستعصي النظام الذي قام في سورية على فكرة الإصلاح من فوق التي جاءت مع تسلل الرئيس بشار الأسد السلطة ليكون الإصلاح الموعود مزيداً من انغلاق السلطة على نفسها على دائرة ضيقة من النخبة الحاكمة وليكون الانفتاح الاقتصادي وليرة الاقتصاد مقيدة لتداعيات اجتماعية سليمة أما كتاب السلطوية الأشمل في معالجته لتاريخ تطور حكم البعث فهو أكثر تحليلاً لمكونات المجتمع السوري الاجتماعية وللتناقضات هذا المجتمع وحيد في نظام سياسي يستعيد شكلاً من أشكال الشعبوية ذات ركيزة أساسية هي الضبط الأمني الذي من خلاله تعيد السلطة ترتيب المجتمع وتشكيله.

التاريخ لتغيير العالم

فايز صبيح

فلاح وعالم اجتماع
ومترجم الرمن

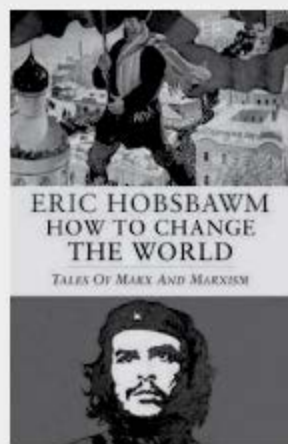
تمهيد

بعد خمس وسبعين سنة من وفاة
ماركس، كان ثلث الجنس البشري يعيش
في ظل أنظمة تحكمها أحزاب شيوعية
تدعي أنها تمثل أفكاره وتحقق تطلعاته
وما يزال أكثر من عشرين بالمائة منها
قائمة حتى الآن، مع أن أحزابها الحاكمة
- مع استثناءات طفيفة - أجدت تهرات
مشيرة في سياساتها. ومجمل القول إنه لو
كان تمة مفكر ترك بصمة عظمى لا تحمي
على القرن العشرين، فبذلك كارل ماركس
وما عليك إلا أن تعبر إلى مقبرة «هايتيت»
التي تضم رفات كارل ماركس وفريتر
«سينسر» في ضريحين متقاربين على نحو
يشير الاستقراب. وعندما كان كلاهما
على قيد الحياة، كان هريتر يُعد أرسطر
عصره. بينما كان كارل مجرد شخص
يعيش على السطح الأسفل من ثلة
هائبة يتدبر ويقيم أركه بفضل معونة مالية
من صديقته أما اليوم، فلا أحد يعرف أن
«سينسر» برقد في تلك البقعة بينما يتواجد
الحجاج المستنون من اليابان والهند لزيارة
ضريح كارل ماركس، ويصير الشيوعيون
الابرايرين والعراقيون المنفيون على أن
يُبدوا تحت ظلاله».

بهذه العبارات المشوية ببعض
الغلو، يستهل المؤرخ البريطاني
العالمي إريك هوزياكوم كتابه الأخير.
وقد استمد المؤرخ الماركسي العالمي
هوزياكوم عنوانه من إحدى مقولات

كيف نغير العالم حكايًا ماركس
والماركسية ٢٠١١
الكاتب إريك هوزياكوم
مراجعة فايز صبيح

Eric Hobsbawm: *How to Change
the World: Tales of Marx and
Marxism*, Little, Brown, UK, 2011.



كثرت ماركس الماثورة في رده على معاصره الفيلسوف الألماني لودفيغ فيورباخ الذي درس على هيجل ثم تحول في ما بعد عن المثالية الفلسفية وركز على أهمية الدراسة العلمية للصفات الإنسانية. انتقد فيورباخ اللاهوت المسيحي في كتابه «التفكير حول الموت والحياة» (١٨٣٠)، إلا أنه مع ذلك وضع قيمة عالية للدين؛ لأنه رأى أن الدين قد عبر عن تصور الإنسانية لجوهرها الحقيقي، وعرض فيورباخ هذا الرأي في كتابه الضخم «جوهر المسيحية» (١٨٤١) ورأى أن الفلاسفة، أمثال هيجل، لهم نظرة تجريدية مبالغ فيها عن الطبيعة الإنسانية وقد فاتهم أن يدركوا مغزى المعاناة المادية الصلبة ومع أن هذه الآراء أثرت على ماركس، إلا أن الأخير ومفكرين آخرين هاجموا فيورباخ، لأنه اكتفى بالآراء النقدية لحالة البشر، ولم يتصرف بشكل مباشر لتعديلها وقد أوجز ماركس انتقاداته في إحدى عشرة نقطة اسمها «الطروحات حول فيورباخ» التي يقول في الفقرة الأخيرة منها: «لقد اقتصر الفلاسفة حتى الآن على تفسير العالم بأشكال مختلفة؛ بينما المهم هو تغييره» من المؤكد أن هوبز يؤول لم يكن في هذا المقام يرمي إلى تخليد ماركس أو تأييد الماركسية غير أن ما يرمي إليه على الأرجح هو ما اختتم به مقدمته هذه بقوله: «في أوائل تسعين الأول أكتوبر ٢٠٠٨، عندما أعلنت صحيفة «فايننس» تايمز» بالبنط العريض في الصفحة الأولى: «تسنيج الرأسمالية» (١) لم يعد ثمة من شك في أن ماركس قد عاد مرة أخرى إلى مسرح الحياة العامة وهو لن يفتأ المسرح طامعاً ظلت الرأسمالية العالمية تعني أقصى موجة من التخطيط والتأزم منذ أوائل الثلاثينات من القرن المنصرم

ومن جهة أخرى، فإن من المؤكد تقريباً أن ماركس القرن الحادي والعشرين سيكون مختلفاً كل الاختلاف عن ماركس القرن العشرين» في صدره لهذا الكتاب الذي يضم بين دفتيه ستة عشر فصلاً ونحو خمسمائة صفحة يقر هوبز يؤول بأن الجانب الأكبر من محتوياته يمثل سلسلة من الدراسات والمعارضات التي قدمها على مدى نصف القرن الماضي في مناسبات شتى بلغات غير الإنكليزية، كالإيطالية والألمانية، أو وضعها كمقدمات لبعض أعمال ماركس مثل «الفرودنرست» [المخطط العام للتكوينات الاجتماعية قبل - الرأسمالية] أو إنغلز مثل «وضوح الطبقة العاملة في إنكلترا» أو كليهما مثل «اليان الشيوعي» والموضوع الوحيد عن مفكر ماركسي بعد ماركس وإنغلز يدور تحديداً حول أنطونيو غراسي الذي خصص له فصلين من هذا الكتاب وقد رجعت هذه الدراسات وتحذرت وتوسعت لتكون الآن في متناول القراء الناطقين بالإنجليزية عموماً، وبصورة خاصة على حد تعبير هوبز يؤول. «القراء الذين يبدون اهتماماً خاصاً بماركس والماركسية، وبالتفاعل بين السياق التاريخي من جهة ونسوة الأفكار وأثارها من جهة أخرى» ويضيف المؤلف أن المناقشات حول هذه المسألة «ينبغي أن لا تنحصر في سجل «مع» أو «ضد» وهو القضاء السياسي والأيدولوجي الذي هيمنت عليه تيارات شتى من الماركسيين وخصوصهم؛ ذلك أن الماركسية كانت خلال المائة والثلاثين عاماً المخيبة قضية معجزة في الأوساط الفكرية في العالم الحديث، مثلاً كان لها جزاء قدرتها على حشد القوى الاجتماعية حضور كاسح، بل حكم أحياناً في تاريخ القرن العشرين [وذلك يدعو إلى التفكير في مستقبلها ومستقبل البشرية في القرن الحادي والعشرين»

وفي هذا السياق يلاحظ هوبز يؤول أن سقوط الماركسية الرسمية السوفياتية قد حرر ماركس من الانطباع العلم السائد الذي ماى بينه وبين الليبنينية نظرية وأنظمة الحكم الليبنينية ممارسة وغداً واضحاً كل الوضوح أن ثمة أسباباً عديدة ووجيهة تدعو إلى أن يؤخذ في الحسبان ما قاله ماركس عن العالم. ومن النقاط الأبرز في هذا المجال أن العلم الرأسمالي المعولم الذي تكشف في تسعينات القرن العشرين كان على أكثر من وجه، وبصورة قاطعة لا وراء فيه مماثلاً للعالم الذي توقعه ماركس في «اليان الشيوعي» وتوضح ذلك في رد الفعل العام سنة ١٩٩٨ الحافل بالغوران في الاقتصاد العالمي، في ذكرى مرور مائة وخمسين عاماً على صدور ذلك الكتاب «ومن المفارقات أن من أعاد اكتشاف ماركس لم يكن الاشتراكيون بل الرأسماليون؛ إذ كان الاشتراكيون في حالة من الإحباط حالت بينهم وبين الاستفادة من تلك المناسبة»

الماركسية في عصرها وآثارها
في القسم الأول من «كيفية تغيير العالم» يتقصى هوبز يؤول المنابع التي استلهم منها ماركس وإنغلز أفكاراً أسهمت في بلورة منظورهما حول الاشتراكية؛ بدءاً من فلسفة روسو المساواتية ونظرة برودون الملكية بوصفها «سرققة» وتعليل فورييه لقضية العمل وانتهاءً بتصورات كل من أوبن و فيورباخ للفلسفة المادية ويشير هوبز يؤول إلى أن الاشتراكية الماركسية تختلف عما قبلها في ثلاث نواح مهمة على الأقل؛ فهي تقدم نقداً شاملاً للرأسمالية؛ وتعمل الاشتراكية بوصفها مرحلة أساسية في سيادة التطور التاريخي؛ وتحدد طبقة البروليتاريا بوصفها هي الفاعل والعامل الأساسي للتغيير الثوري (ص ٤٤) ويؤكد هوبز يؤول أن الاشتراكية

١ في معرض حديثه في «دقات السجن» عن «الهيمنة الثقافية» و«المثقف العضوي»، يميز غرامشي تمييزاً استراتيجياً بين نوعين من الحرب أو النضال: «حرب المواقع» و«حرب المناورة» أما الأول، فهي كمنهج فكري وثقافي تفوضه القوى الثورية المعادية للإمبريالية من أجل خلق ثقافة بروتليارية تتصدى فيها للنسق القيم الأهلوية الأصلية للهيمنة الثقافية التي تمارسها البرجوازية. وتستعقم الثقافة البروليتارية من الوعي الطبقي، وتتولى مهمة تعليم النظرية الثورية والتحليل التاريخي، وبالتالي تيسر التنظيم الثوري في أوساط الطبقات الاجتماعية. وعندما تتكامل حرب المواقع تلك بالنصر، يكون الزعماء الاشتراكيون قد تمسكوا بالسلطة السياسية والتأييد الشعبي الضروريين للبدء بشن حرب المناورة السياسية لتحقيق الاشتراكية الثورية.

٢ نسبة لعهد الملكة فكتوريا في بريطانيا، ١٨٣١-١٩٠١.

الماركسية لم تقتصر على أن تحل محل المفاهيم البديلة الأخرى أو تعلن نهايتها فحسب، بل تجاوزت ذلك لتطرح برنامجاً سياسياً مؤثراً يتناغم مع الأوضاع التاريخية التي كانت سائدة آنذاك، وما زالت تميز أيامنا هذه على حد كبير.

ويتحول هوبزباوم بعدها إلى التمعن في أفكار ماركس وإنغلز حول عدد من القضايا المحددة ويستعرض عدداً من النصوص المتصلة بها، ومنها، على سبيل المثال لا الحصر، نظرة ماركس المتعددة الأبعاد والجوانب للدولة بوصفها أداة تخدم مصالح الطبقات الحاكمة ولكنها لا تمثل تلك الفئات بصورة مباشرة. كما يتطرق إلى أهمية السياق العالمي للحشد الثوري. وينوه بدراسة ماركس للتكوينات قبل - الرأسمالية ولكنه يعتبرها «أولية ومنقوصة». كما يشدد هوبزباوم على ضرورة النظر إلى «أوضاع الطبقة العاملة في انكلترا» لانغلز و«الغروندريسه» وغيرها من الكتابات الأخرى من حيث أهميتها في تبيان مراحل التطور الفكري لدى هذين المفكرين وبوصفها مؤشرات على تصوراتهما حول الرأسمالية الصناعية في القرن التاسع عشر. أما «البيان الشيوعي»، فهو، على حد تعبير هوبزباوم، أكثر من مجرد وثيقة ماركسية أو سياسية «كلاسيكية»، بل هو، من الوجهة التاريخية، تصوير لنزعات النظام الرأسمالي التخريبية الشرسية، ودعوة لحفز وتجييش الشغيلة الذين يمثلون أغلبية سكان المعمورة، وتنظيمهم جماعياً لإنهاء استغلال الأقلية للأكثرية، وخلق مجتمع جديد تسوده العدالة.

جدلية الاستمرارية والثورة

ومع أن هوبزباوم يخصص فصلين قصيرين للحديث عن أنطونيو غرامشي في القسم الثاني من الكتاب، فإنه يرى أن نظرية الأخير حول

«الفعل السياسي» ما زالت عظيمة الأهمية في أيامنا هذه للمعنيين ببلورة الاستراتيجيات الثورية الرامية إلى التجسيد الواقعي لهذا المجتمع. وهو يعتبر غرامشي «المفكر الأكثر أصالة في الغرب منذ عام ١٩١٧» (ص ٣١٦) لأنه، أساساً، استطاع أن يطرح الاستراتيجية الثورية «كما هي في واقع الأمر، وليس كما ينبغي أن تكون من الوجهة النظرية» (٣٢٦)، ولأنه اعتبر أن الاشتراكية لا تعني مجرد الملكية الاجتماعية والتخطيط للتنمية الاقتصادية فحسب، بل تنطوي كذلك على مواصلة النضال لتحويل السلوك الاجتماعي وخلق شعب جديد «يكون، في آن معاً، نفعياً وتجسيدا مجدداً للماضي» (٣٣٠). ويرى هوبزباوم أن ملاحظات غرامشي حول دياكتيكية الاستمرارية والثورة، وحول «حرب المواقع» ينبغي إعادة طرحها مجدداً كاستراتيجية نضالية قبل، وخلال، وبعد الانتقال إلى الاشتراكية، لأنها، شأنها شأن أعمال ماركس وإنغلز ذات صلة وثيقة بالمداولات المعاصرة.

في القسم الثاني من الكتاب، يتتبع هوبزباوم الآثار التي تركتها كتابات ماركس وإنغلز وانتشارها على نطاق واسع في أوساط الحركات الماركسية، ويرى أن تلك المؤلفات، على الرغم مما وجهه النقاد لهذين المفكرين، قد أسهمت بصورة عميقة في تشكيل المشاهد والتضاريس الفكرية والسياسية في العالم أجمع منذ أربعينات القرن التاسع عشر. وبعد أن يؤكد هوبزباوم وجهة نظره من أن «الأثر السياسي للماركسية هو، دوناً شك، الإنجاز الأهم الذي حققه ماركس من الناحية التاريخية» (٣٤٧)، يقوم بدراسة موسعة للنقد الذي وجهه في القرن التاسع عشر إلى ماركس وإنغلز «النقاد الفكتوريون»^٢ الذين تقبل

معظمهم نظرية ماركس حول «القيمة»، واستشهدوا بأرائه حول البطالة، وأعربوا عن تقديرهم لتفسيره التاريخي لنشأة النظام الرأسمالي. كما أن النقاد الفكتوريين لم يشككوا في دوافع ماركس، ولا في أصالته أو نزاهته؛ واستعاضوا عن ذلك بالتحدث عنه بـ«نبوة ازدرائية» (٢٠٧). غير أن تلك اللهجة التحقيرية لم تمنع أعمال ماركس وإنغلز من التأثير البالغ إبان التوسع الكبير الذي شهدته الحركات العمالية والاشتراكية في الثمانينات والتسعينات من ذلك القرن خلال «الأممية الثانية».

الرأسمالية ليست الحل

ويوضح هوبزباوم في فصل لاحق أن عدداً من الماركسيين الجدد في ثلاثينات القرن العشرين قد استهوتهم أعمال ماركس المتوافرة آنذاك خلال أزمة «الكساد الكبير» في النظام الرأسمالي والمناعة الظاهرية التي كان الاتحاد السوفياتي يبديها تجاه الركود الاقتصادي. إلا أن هوبزباوم يشير، بحق، إلى أن جمهرة من العمال عدلوا عن السعي لتحقيق الثورة البروليتارية خلال تلك الفترة وكرسوا جهودهم لإحلاق الهزيمة بالنازية. ويضيف هوبزباوم أن الماركسية في الخمسينات والستينات من القرن الماضي قد ابتعدت عن الحركات والأحزاب العمالية وغدت ترتبط أساساً بأوساط المثقفين. وقد حفز نشر الأعمال غير المعروفة أو غير المتوافرة سابقاً على قيام تيارات متعددة في نطاق الإطار الماركسي، وأسهم في إرباك «الماركسية الرسمية». غير أن انحسار الماركسية بلغ في الثمانينات والتسعينات حداً أصبح النفوذ الماركسي معه أثراً بعد عين؛ بل إن ماركس، خلال «السنين العجاف» للماركسية في أواخر القرن العشرين كان يعتبر، في أحسن الحالات، مفكراً

مرفولا، وفي أسوأ مسؤولا عن موجة التطهير والتصفيات الستالينية وقطائع الكولاك، والاستغيارات السوفييتية (كي. جي. بي) (١٣٨٥) وعلى الرغم من هذا وفاته فإن هوزيام ما زالت تملأ الأمال العريضة بمستقبل الماركسية، وإن بصور مختلفة عما كانت عليه ففي الفصل السادس عشر الأخير من «كيفية تغيير العالم» المعنون «ماركس والحركة العمالية القرن الطويل» يعرب عن اعتقاده بأن أزمة عام ٢٠٠٨ الاقتصادية، بوصفها «المحافل اليميني لانهيار جدار برلين» قد قدمت اليركان الحاسم والدليل القاطع على أن الرأسمالية لا تمثل الجواب الوافي على مشكلات الإنسانية (١٤١٤) يضاف إلى ذلك أن السوق لا يستطيع أن يقدم حلا للمشكلات الكبرى التي تواجه البشر في القرن الحادي والعشرين، وقد أثبتت الدول النيولبرالية أنها لا تساعد إلا نسفا اقتصاديا استغلاليا تنتفع منه الغلة القليلة على حساب الكثرة الكاثرة ومع ذلك فإن الطبقة العاملة لم تكن، كما نكهن ماركس، «حقارة قير» الرأسمالية كما أنها على حد تعبير هوزيام لم تتحول إلى قوة ممتدة فكرة على إحداث التغيير الاجتماعي الثوري.

الابتهاج بـ «الربيع العربي»

رأى أفراح هوزيام في تشخيص جانب من الأزمة التاريخية التي تواجهها الرأسمالية، غير أن «كيفية تغيير العالم» يطرح من الأسئلة أكثر مما يقدمه من إجاباته وإذا كانت ثمة من إجابات، فإنها قد تتمثل في أحاديث صحفية وتلفازية أدلى بها في الآونة الأخيرة بعد صدور «حكايا» ماركس والماركسية» في شهر شباط/فبراير عام ٢٠١٠، وبعد سلسلة من التطورات والانتفاضات والمنعطفات المؤثرة التي شهدتها وما يزال يشهدها العالم والعالم

العربي منذ مطلع عام ٢٠١٠.

سنستخدم هنا لوصف هوزيام مصطلحا ابتدأ في الإعلام الفضائي العربي (ما ابتدأه إن إريك هوزيام كان وما يزال) «شاهدا على العصر» بكل ما يعنيه هذا المصطلح من معان ودلالات مراقبة لأحداثه ومعابها ومعالها لتطورات ومعابها على مشاهدته وتقليباته ولا يد أنه شهد سلسلة التظاهرات الاحتجاجية والاعتصامات والانتفاضات والثورات التي ما زالت فتاح بعض العواصم والحواضر العربية مطالبة بالحرية والخير والكرامة مثلما تتصاعد مطالبا في أثينا وعواصم أوروبية أخرى وتحتل دول سترت ومراكز المال والأعمال في أرجاء العالم منددة بالفساد والبطالة واللامساواة ففي مقابلة تلفزيونية مع ال «بي بي سي» في كانون الأول/ ديسمبر الماضي حول ثورات «الربيع العربي» أعرب عن الانسراح والارتياح «والابتهاج العام لأنني اكتشفت مجددا أن يوسع الناس أن ينزلوا إلى الشارع ويتظاهروا، وسقطوا الحكومات».

يُروى عن لينين أنه كان يعتقد أن الواقع الفعلي يظل أكثر تعقيدا واستعصا على أي تصور نظريه وحين نعن النظر في المفولات المطروحة في حديث هوزيام مع مراسل ال «بي بي سي» أندرو وايتهد فإننا قد نعتبرها إرفاضا للفصل السابع عشر التكميلي الغائب لكتيب «كيفية تغيير العالم» لأنها تعكس تحولا فكريا واضحا في المنظلفات المعهودة لهذا المفكر الماركسي العريق الذي أُرُخ للثورات، وعُثق الجانب الأكبر من سننه الخمس والتسعين في ظلها أو في ظلالها أو في الدعوة لها.

فخلالنا لما تنبأ به وراهن عليه ودعا إليه ماركس والماركسيون القدامى وهو منهم، يعلن هوزيام أن «عمليات الحشد الجماهيري الأكثر فاعلية في

أيامنا هذه إنما تبدأ في أوساط طبقة وسطى جديدة معدنة - ويخاضة من الجسم الطلاي الأخذ بالتضخم [س] في بلدان تمثل الأجيال الشابة فيها أغلبية السكان، وتكون فيها التعبئة الجماهيرية أكثر سبرا باستخدام التقنية الحديثة وإذا كان ثمة من ثورات بعد الآن، فإنها لا بد أن تحدث على هذا النحو، وعلى الأقل في أيامها الأولى، حيث يخرج الناس ويتظاهرون في الشارع مطالبين بما هو حق لهم».

ويعتد هوزيام مقارنة بين ثورات «الربيع العربي» وثورات عام ١٨٤٨ التي انطلقت من فرنسا وسرعان ما انتشرت في يقاح إمبراطورية الهابسبورغ الأوربية ويقول إن الأخيرة فشلت خلال عامين على المدى القصير ولكنها نجحت جزئيا على المدى البعيد حين أسفرت عن إصلاحات ليبرالية جملة ولكنها فقدت أُنذاك طابعها الثوري المعهود وقد يكون ذلك هو المال الذي ستهي إليه الثورات العزيمية ويسير إلى الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩، التي كانت مخرجاتها الأيديولوجية مختلفة كل الاختلاف عن المدخلات التي أسهمت في إشعالها أول الأمر، فكان من نتائجها النهائية تهميش أولئك الذين قدموا تنازلات للإسلام دون أن يكونوا إسلاميين، بمن فيهم الإصلاحيون والمليرون والشيوخيون.

وفي هذا السياق يخلص هوزيام إلى القول بأن «الربيع العربي» قد غمره بالفرح والتفاؤل من ناحية وبالتخوف من ناحية أخرى، من أن تكون الغلبة فيه آخر الأمر للإسلاميين على الطريقة الإيرانية.

وغني عن البيان أن الكثيرين يشاركون إريك هوزيام مشاعر الفرح والتفاؤل هذه، وتساورهم الهواجس والمخاوف نفسها على حد سواء.

مصائر الهيمنة الأميركية: ملاحظات عن عقيدة وعن واقع

نوام تشومسكي

علم لغوي وفيلسوف
وناشط سياسي
معيد لمعاشقوسين
للتكنولوجيا
الولايات المتحدة
اختير «المنقذ»
الأكثر نفوذا في
القرن العشرين»

مرصوفة لا ترحم تعتمد بالدرجة الأولى على وسائل خفية لتوسيع دائرة نفوذها، وإذا ما نجحت المؤامرة في تحقيق أهدافها في لاوس وفيتنام، فإن البوابات سوف تفتح على مصرعها، وفي مناسبة أخرى زاد في التعذيب من «أن المتكلمين، والأتانيين، والمجتمعات الرخوة سوف يطأحون مع حطام التاريخ ووحدهم الأقوياء». سوف ينجحون في البقاء على قيد الحياة، وكان في تلك المناسبة يتأمل في فشل العدوان والارهاب الأميركيين في «سحق استقلال كوبا، ما إن بدأ الاحتجاج بتصاعد بعد نصف دقيقة من السنوات حتى تنبأ برنارد فوله وهو مؤرخ عسكري معترف واختصاصي في شؤون فيتنام، ولا ينتمي إلى فريق «الحكماء» قال: «فيتنام ما هي كيان ثقافي وتاريخي مهيمنة بالفناسة الرفيع يوت بالمعنى الحرفي للكلمة تحت ضربات أكبر آلة عسكرية أطلقت على مساحة من الأرض بذلك الحجم في التاريخ». وكان يشير أيضاً إلى جنوب فيتنام. وعندما انتهت الحرب بعد ثماني سنوات مرعبة كان التبار الرسمي من الرأي العام منقسم بين الذين يصفون الحرب بأنها «فضية نبيلة» كان بإمكان كسبها بالمزيد من الدباب، وفي الطرف المقابل النقاد الذين يرون إليها على أنها «خطأ» أثبت أنه بأعلى الكلفة بحلول العام ١٩٧٧ بالكاد أثار الرئيس كارتر أي انتباه عندما شرح أننا لسنا مدنيين لفيتنام «بلجي دين» لأن «الدمار كان متبادلاً».

دروس حرب العراق

هذه دروس ثمينة لا يأمنا هذه، عدا تذكيرنا بأن الضعفاء والمهزومين وحدهم مطالبون بتقديم الحسابات عن جرائمهم. درس أولي لكي نفهم مجريات الأمور، علينا أن ننتبه ليس فقط إلى الأحداث الحاسمة في العالم الحقيقي، التي غالباً ما يتغلبها التاريخ، ولكن أيضاً لما يعتقد الزعماء ونخبه أصحاب الرأي مهما اختلفت بألوانهم ودرجات أخرى إلى

المناسبات الدالة نادراً ما يجري الاحتفال بها، والهجوم الياباني على القاعدة البحرية الأميركية في «بيرل هاربر» خير مثال على ذلك. أهمل غيرها أيضاً وغالباً ما نستطيع أن نتعلم دروساً ثمينة من تلك المناسبات لما ينتظرنا الآن في الواقع. اننا الآن عاجزون عن الاحتفال بالذكرى الخمسين لقرار الرئيس جون ف. كيندي شن العدوان الأكثر تدميراً وأجراماً لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية غزو جنوب فيتنام وتآكل كل الهند الصينية مغلفاً ملايين القتلى وأربعة بلدان محتاجة وضعفاً لا زالوا يزادون عدداً بسبب الآثار البعيدة المدى لزخ جنوب فيتنام يكفد المواد الكيميائية الحاملة للسرطان، المعروفة آنذاك وقد استخدم لتدمير غطاء الأرض النباتي وإزالة المزروعات الغذائية ومع أن الهدف الرئيسي كان جنوب فيتنام إلا أن الغزو توسع شمالاً، ليبلغ المجتمع الفلاحي البعيد في لاوس الشمالية إلى أن وصل كمبوديا المدينة التي تساقطت عليها قنابل تساوي الكمية المذهلة لكل العمليات الجوية التي نفذتها القوات الحليفة في منطقة المحيط الهادئ خلال الحرب العالمية الثانية. ما في ذلك

بالكاد أثار الرئيس كارتر أي انتباه عندما شرح أن الأميركيين ليسوا قدينين لفيتنام «بلجي دين» لأن «الدمار كان متبادلاً».

فيتنام ثريتان تم ذلك تنفيذاً لأوامر هنري كيسنجر التي قالت «[أخضروا على] أي شيء، بطير أو أي شيء، يتحرك» وهي دعوة للإبادة الجماعية نادرة في سجلات التاريخ قبل من هذا يأتي في الذاكرة، ومعظمه كان بالكاد معروفاً في ما يتعدى حلقة ضيقة من النخبة.

عندما شن الغزو الخمسين سنة خلت، أثار اهتماماً ضعيفاً إلى درجة أن جهوداً قليلة بذلت لتبريره. بالكاد تجاوزت خطاب الرئيس [كيندي] العاطفي أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة حيث حذر قائلاً: «اننا نواجه عبر العالم مؤامرة

جانب شطحات الوهم التي يجري انتاجها لتخويف الجمهور وتعبئته (ربما كان يؤمن بها البعض من «سجناء» بلاغتهم) يوجد ايضا تخطيط جيوسراتيجي مركّز على مبادئ عقلانية وهو تخطيط بطل مستقرا عبر فترات طويلة لأنه متجذر في مؤسسات راسخة وفي مشاغل تلك الفترات يصح هذا على حالة فنتنام ايضا. سوف اعود الى هذا الموضوع مكثفيا هنا بالتشديد على ان العوامل الدائمة في نشاطات الدول عادة ما تكون مخفية على نحو جيد.

حرب العراق حالة دالة جرى تسويق الحرب لدى جمهور مرعوب على الانس المألوفة من الدفاع عن النفس ضد خطر مرعب يهدد بقاء البشرية: «المسألة الوحيدة» أعلن يوش ويلبر، هو أن صدام حسين سوف ينجح برامجه لتطوير اسلحة الدمار الشامل. عندما يلقي سؤال وحيد الجواب القلطي بنزاع خطاب السلطة بلا كبير جهد الى «حنينيا الى الديمقراطية» فيمثل الجمهور المتعلم وسير في الركب، وهذا كله من باب الروتين لاحقا، عندما تعلم التكتم على حجم الهزيمة الاميركية في العراق، اعترفت الحكومة ببدء ما كان واضحا منذ البداية خلال العامين ٢٠٠٧ و ٢٠٠٨، اعلنت الادارة رسميا ان اتفاقا نهائيا يجب ان يوفر للولايات المتحدة قواعد عسكرية والحق في شرّ عمليات ميدانية وان يمنح المستثمرين الاميركيين موقع الامتياز في قطاع الطاقة النزي - وهي مطالب ما لبثت ان تغلت عنها في وجه مقاومة عراقية وقد اخفي هذا كله بعناية عن الجمهور الواسع.

اذا اخذنا في الاعتبار هذه الدروس، يفيد الفاء نظرة على ما يجري التشديد عليه في مجالات السياسة والرأي الرئيسية في هذه الايام نكتفي بالمجلة الاوفر سمعة من مجالات المؤسسة الحاكمة، «فورين أفيرز» التي يقول عنوان غلاف عددها في كانون الاول/ديسمبر ٢٠١١ بالخط العريض «هل قضى الامر بالنسبة لاميركا؟» يدعو المقال الى «الانسحاب» من «مهمات انسانية» في الخارج تستهلك ثروة البلد بغضد وقف الانحدار الاميركي الذي بات يشكل الموضوع الرئيسي في خطابات العلاقات الدولية. يرافقه في العادة ملحق يقول ان القوة تنتقل الى الشرق الى الصين وربما الى الهند ايضا.

المقالان الرئيسيان هما عن اسرائيل - فلسطين الاول يتوقع مسؤولين اسرائيليين كبيرين، معنون «المشكلة هي الرفض الفلسطيني» لا يمكن حل النزاع لأن الفلسطينيين يرفضون الاعتراف باسرائيل دولة يهودية، علما ان الفلسطينيين منسجمون في ذلك مع الممارسة الدبلوماسية المألوفة وهي ان يجري الاعتراف بالدولة وليس بأي قطاع يميز

في داخلها وما مطلب الاعتراف هذا الا وسيلة جديدة لردع خطر تسوية سياسية سوف تفسد اهداف اسرائيل التوسعية. الموقف المقليل يذلل عنه يروفسور اميركي بعنوان «المشكلة هي الاحتلال» وعنوانه الفرعي «كيف ان الاحتلال أخذ في تدمير الأمة» اية امّة؟ اسرائيل طبعاً، ويظهر المقالان التوازي تحت عنوان «اسرائيل المحاصرة».

اما عدد كانون الثاني/يناير ٢٠١٢ فينطوي على دعوة جديدة للحرب الجوية ضد ايران فورا، قبل ان يغترب الادان يحذر المؤلف «من مخاطر الردع» ويعلم في الوقت ذاته ان «المتشككين في العمل العسكري عاجزون عن تقدير مقدار الخطر الحقيقي الذي تمثله ايران النووية بالنسبة لمصالح الولايات المتحدة في الشرق الاوسط وما يتعداه». تفترض توصيات هؤلاء المتشككين القائمة ان العلاج اسوأ من المرض - اي ان نتائج هجوم اميركي على ايران سوف تكون بسوء النتائج المترتبة على تحقيق ايران مطامعها النووية، ان لم تكن اسوأ. لكن هذا افتراض خاطئ، على حد قول الكاتب الحقيقة ان ضربة عسكرية ترمي الى تدمير برنامج ايران النووي، اذا ما أدبرت بعناية سوف توفر على المنطقة والعالم خطرا حقيقيا ونعشن على نحو دراماتيكي وضع الامن الوطني للولايات المتحدة على المدى البعيد.

بحاجج آخرون ان الاكلاف سوف تكون باهظة، حتى ان البعض في القطب الآخر يشير الى ان الهجوم سوف يشكل انتهاكا للقانون الدولي - ومثله موقف «المعتدلين» الذين يلقون دورا التهديدات باستخدام العنف منهكين بذلك ميثاق الامم المتحدة.

هل من انقاذ للانحدار الاميركي؟

فلنراجع هذه المشاغل السائدة واحدة واحدة. الانحدار الاميركي حقيقي، مع ان الرؤية الكارثية تعكس المنظور المألوف للطبقة الحاكمة الذي يقول ان اي شيء ما دون السيطرة التامة يعادل الكارثة الشاملة فعلى الرغم من المرئي لا تزال الولايات المتحدة القوة المسيطرة عالميا الى حد كبير، ولا منقحس لها في الافق المرئي وليس فقط من المنظور العسكري حيث تتسلطن الولايات المتحدة وحيدة.

لقد سجلت الصين والهند نموا سريعا (وان يكن شديد التباين) الا ان هذه وتلك لا تزالان في عداد البلدان الفقيرة جدا. تعانين من مشكلات داخلية ضخمة لا تعلي منها بلدان الغرب والصين هي الآن المركز الرئيسي العالمي للانتاج الصناعي، ولكنها كذلك بصفتها الي حد كبير مصنعا تجميع يعمل الصلاح البلدان الصناعية المتقدمة الموجودة على اطرافها وللشركات العربية المتعددة الجنسيات

وهذا دور معرّض لأن يتغيّر مع الوقت. توفر الصناعة أساسا للتجديد، وللاختراقات أحيانا، كما هي الآن الحال في الصين. والمثال الذي أثار إعجاب الخبراء الغربيين هو استيلاء الصين على السوق العالمي النامي للوحات الشمسية، ليس بسبب رخص اليد العاملة ولكن بسبب التخطيط المتساق والتجديد المتزايد ابتكارا.

الا أن الصين تواجه مشكلات جمة. بعضها ديموغرافي، كتبت عنه مجلة «ساينس» (العلم) كبريات الأسبوعيات الأميركية. تبين الدراسة أن نسبة الوفيات تراجعت على نحو حاد في الصين خلال العهد الماوي «أساسا بسبب التنمية الاقتصادية والتحسينات على التعليم والخدمات الصحية، وخصوصا حركة الصحة العامة التي أدت إلى انخفاض حاد في الوفيات جراء الأوبئة». توقف هذا التقدم مع افتتاح الإصلاحات الرأسمالية في السنوات الثلاثين الأخيرة، وإذا نسبة الوفيات تتصاعد منذ ذلك الحين. ثم أن النمو الاقتصادي الأخير في الصين قد اعتمد أساسا على «الوفرة الديموغرافية»، أي على العدد الكبير جدا من نسبة السكان

«يجب أن نكفّ عن الحديث عن أهداف غامضة وغير حقيقية مثل حقوق الإنسان، ورفع مستويات المعيشة والتحويل الديمقراطي». ويجب أن نتعاطى بواسطة مفاهيم القوة الصريحة» دون أن «تعوقنا الشعارات المثالية».

الذين في سنّ العمل. «على أن فرصة جني فوائد هذه الوفرة قد تنسُدّ عما قريب» يصاحبه «تأثير عميق على التنمية»: «أن فائض امداد الأيدي العاملة الرخيصة، الذي يشكل أحد العوامل الرئيسية وراء المعجزة الاقتصادية الصينية، لن يعود متوفرا».

وما الديموغرافيا إلا واحدة من المشكلات الجادة العديدة التي تنتظر الصين، أما بالنسبة للهند فالمشكلات أصعب بكثير. لا تجمع الأصوات الخبراء المرموقين على القول بالانحدار الأميركي. تنفرد «الفايننشال تايمز» دون سائر وسائل الإعلام الدولية بأنها الأكثر جدية ومسؤولية. وقد خصصت مؤخرا صفحة كاملة للتوقعات المتفائلة بأن التكنولوجيا الجديدة لاستخراج الطاقة الأحفورية في شمال أميركا قد تسمح للولايات المتحدة بأن تحقق الاكتفاء الذاتي في الطاقة، فتحافظ بالتالي على هيمنتها الكونية لقرن إضافي من الزمن. ولكن لا ذكر هنا لنوع العالم الذي سوف تحكمه الولايات المتحدة جراء الحدث السعيد، وليس بسبب نقص الأدلة.

في الوقت ذاته، تفيد «وكالة الطاقة الدولية» بأنه مع التزايد المتسارع للإصدارات الكربونية جراء استخدام المحروقات الأحفورية، سوف يبلغ العالم حدود السلامة بحلول العام ٢٠١٧ إذا استمر العالم في الاتجاه السائر فيه حاليا. «الباب ينغلق»، يقول كبير اقتصاديي «الوكالة»، «وسوف ينغلق إلى الأبد في القريب العاجل». قبل ذلك بقليل أصدرت «دائرة الطاقة» في الولايات المتحدة أحدث الإحصائيات عن الإصدارات الكربونية التي «قفزت إلى رقم قياسي» هو أعلى من السيناريوات الأكثر تشاؤما التي توقعتها «الندوة الدولية عن التغير المناخي». لم يفاجأ العديد من الصحفيين بذلك، بمن فيهم برنامج التغير المناخي في «معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا» الذي يحذر منذ سنوات من أن توقعات «الندوة الدولية عن التغير المناخي» محافظة جدا. إن مثل هذه الانتقادات لتوقعات «الندوة» نادرا ما تصل إلى الرأي العام.

باختصار إن الانحدار الأميركي قابل للوقوف إذا تخيلنا عن الأمل بعيش يليق بالبشر، وهذا التخلي هو التوقع الأرجح نظرا لتوازن القوى في العالم.

«فصل ثروائنا عن فقر الآخرين»

إذا وضعنا هذه الأفكار المزعجة جانبا، ترىنا نظرة مقرّبة إلى الانحدار الأميركي أن الصين تلعب بالتأكيد دورا كبيرا فيه مثلما فعلت خلال ستين سنة. فالانحدار الذي يثير هذا القدر من القلق ليس ظاهرة جديدة. إنه يعود إلى نهاية الحرب العالمية الثانية عندما كانت الولايات المتحدة تسيطر على نصف ثروة العالم وتمتّع بأمن لا يضاهى وبالتوسع على المدى الكوني. وكان المخططون مدركين بالطبع للتفارق الكبير في نسبة القوة ومصممين على المحافظة عليه.

صيغت الفكرة الرئيسية بصراحة باعثة على الإعجاب في مذكرة حكومية رئيسية العام ١٩٤٨. المؤلف واحد من مهندسي «النظام العالمي الجديد» يومها، رئيس «موظفي التخطيط السياسي في وزارة الخارجية»، السياسي والأكاديمي المحترم جورج كينان، المصنّف في فئة «الحماة» المعتدلين داخل بيئة المخططين. لاحظ كينان أن الهدف السياسي المركزي هو الحفاظ على «موقع التفارق» الذي يفصل ثروتنا الضخمة عن فقر الآخرين. لتحقيق ذلك، نصح بما يلي «يجب أن نكفّ عن الحديث عن أهداف غامضة وغير حقيقية مثل حقوق الإنسان، وعن رفع مستويات المعيشة والتحويل الديمقراطي» ويجب أن «نتعاطى بواسطة مفاهيم القوة الصريحة» دون أن «تعوقنا الشعارات المثالية» عن «الغيرية ومنفعة العالم». ومع أن كينان كان يشير بنوع

خاص الى آسيا الا ان ملاحظاته قابلة للتعميم، مع بعض الاستثناءات، على جميع المشاركين في المنظومة الكونية التي تديرها الولايات المتحدة. ومفهوم يوضح ان «السعرات المثالية» يجب استعراضها بشكل يركز عند توجيه الحديث الى الآخرين المفترض بهم الترويج لتلك السعرات، من فيهم الطبقات المثقفة.

افترضت الخطط التي اسهم كينان في صياغتها وتطبيقها ان الولايات المتحدة سوف تسيطر، بداهة، على نصف الكرة

تحقق أهم انتصار في الهند الصينية العام ١٩٦٥ عندما نجح انقلاب عسكري مدعوم أميركيا بقيادة الجنرال سوهارتو في أندونيسيا في تنفيذ مذابح واسعة النطاق شبيهتها «السي. أي. إي» ذاتها بجرائم هتلر وستالين وماو... قضى الانقلاب على خطر الديمقراطية إذ دمر الحزب الجماهيري العريض الذي يمثل الفقراء.

الارضية الغربي، والشرق الأقصى والامبراطورية البريطانية السابقة (بما فيها) موارد الطاقة التي لا تضاهى في الشرق الاوسط، وعلى ما يمكن السيطرة عليه من آسيا الاوروية وخصوصا مراكزها التجارية والصناعية لم تكن تلك اهدافا غير واقعية نظرا لتوازن القوى السائد لكن الانحدار وقع فجأة.

مطاردة «الغبروسات»

عام ١٩٤٩ اعلنت الصين استقلالها، وهو حدث معروف في الخطاب الغربي وفي اميركا بصفتها «خسارة الصين» رافقته الاتهامات والتزاعمات المبررة حول تعيين المسؤول عن الخسارة، والاصطلاح ذو دلالة فالمرء لا يخسر الا ما يملكه والافتراض الضمني هنا ان الولايات المتحدة تملك الصين شرعا ومعها معظم الاجزاء الباقية من العالم، وهو ما افترضه عمليا معظم راسمي السياسات بعد الحرب العالمية الثانية.

شكلت «خسارة الصين» الخطوة الكبيرة الاولى في «انحدار اميركا» ترتبت عليه نتائج سياسية كبيرة، احداها القرار القوي بدعم جهود فرنسا لاستعادة مستعمراتها السابقة في الهند الصينية، بحيث تبقى تلك المستعمرات من «الحسرات» هي ايضا، غير ان الهند الصينية لم تكن شغلا رئيسيا على الرغم من مزاعم الرئيس آيزنهاور وامثاله عن مواردها الغنية كان الشغل هو «نظرية الداما» التي يجري الاستهزاء بها عندما لا تسقط أحجار الداما، ولكنها تبقى

مبدأ موجهها للسياسة لأنه مبدأ عقلائي الى حد بعيد وان كان لنا ان نتبنى صيغة هنري كيسنجر، قلنا ان منطقة تعصى على السيطرة قابلة لأن تتحول الى «غبروس» سوف «ينشر العدوى» مسجعا الآخرين على الاقتداء بتلك المنطقة. في حالة فيتنام كان الخوف هو ان يعمدي «غبروس» التنمية المستقلة اندونيسيا، التي تملك موارد غنية حقها والخوف ان يؤدي ذلك باليابان - وهي «حجر الداما الاكبر» حسب تسمية مؤرخ آسيا المرموق جون نورد - الى «التكيف» مع آسيا مستقلة بما هي مركزها التكنولوجي والصناعي في منظومة قد تتفقت من قبضة القوة الاميركية. وسوف يعني ذلك ذعلا ان الولايات المتحدة قد خسرت حقبة المحيط الهادئ من الحرب العالمية الثانية، وهي الحرب التي خاضتها لصد محاولة اليابان تأسيس مثل هذا «النظام الجديد» في آسيا.

اما طريقة معالجة هذه المشكلة فكانت واضحة تدمير «الغبروس» و«تلقيح» المعرضين لأن يصابوا به في حالة فيتنام، كان الخيار العقلاني هو تدمير اي امل في تنمية مستقلة ناجحة وفرض الدكتاتوريات القاسية في الجوار. نقلت تلك المهمات بنجاح - مع ان للتاريخ حيله هو ايضا - فيها ان شرقي آسيا تشهد الآن وضعها مشابها للذي كان يخشى منه سايقا، لحربة واشنظرة.

تحقق أهم انتصار في الهند الصينية العام ١٩٦٥ عندما نجح انقلاب عسكري مدعوم اميركيا بقيادة الجنرال سوهارتو، في تنفيذ مذابح واسعة النطاق شبيهتها «السي. أي. إي» ذاتها بجرائم هتلر وستالين وماو. المجزرة البشيرة المروعة» كما وصفتها «نيو يورك تايمز» تناقلت صعافتها التبرار السائد في اميركا اخبارها بدقة ويعبر غير ملجوم كانت «شعاع نور في آسيا» حسب ما كتب المؤلف الليبرالي جيمس رستون في «نيو يورك تايمز» قضى الانقلاب على خطر الديمقراطية إذ دمر الحزب السياسي الجماهيري العريض الذي يمثل الفقراء [الحزب الشيوعي الاندونيسي] واخلك دكتاتورية سوف تراكم واحدا من أوسع سجلات الانتهاك لحقوق الانسان في العالم وفتحت نروات البلاد واسعة امام المستثمرين الاجانب فلا عجب بعد كل تلك الارتكابات الرهيبة وخسرتها اجتياح تيمور الشرقية الاقرب الى الجريمة يعق الانسانية، ان ترحب إدارة كلنتون يسوهارتو العام ١٩٩٥ بما هو «رجل يروق لنا».

وبعد سنوات من أحداث ١٩٦٥ المروعة، فُكر ملك جورج ياندي، مستشار ادارتي كينيدي وجونسون للامن الوطني، أنه من الحكمة انهاء حرب فيتنام في ذلك الوقت. وقد قضى علي «الغبروس» تقريبا وامكن إعادة «حجر الداما» الرئيسي الى مكانه معززا بدكتاتوريات مدعومة من

الولايات المتحدة على امتداد المنطقة.

وقد اتخذت اجراءات مشابهة بانتظام في امكنة اخرى من العالم. كان كيسنجر يشير الى خطر الديمقراطية الاشتراكية في تشيلي. ذلك الخطر الذي قضى عليه في تاريخ آخر منسي، ما يسميه الناس في اميركا اللاتينية «١١ نوفمبر الآخر [تشيلي ١٩٧٣]» الذي فاق الـ «١١ نوفمبر [نيويورك ٢٠٠١]» الذي يُحتفل به في الغرب عنفا ومرارة. فُرضت على تشيلي دكتاتورية وحشية هي جزء من وباء القمع القاسي الذي انتشر في كل ارجاء اميركا اللاتينية وصولا الى جنوبيها في ظل حكم دونالد ريغان. كذلك أثارت «فيروسات» مماثلة قلقا كبيرا في امكنة اخرى من العالم، بما فيها الشرق الاوسط، حيث خطرُ القومية العلمانية غالبا ما قضّ مضاجع المخططين البريطانيين والاميركيين ودفعهم الى دعم الاصولية الاسلامية لمجابهته. استمر الانحدار الاميركي على الرغم من تلك الانتصارات. بحلول العام ١٩٧٠، كانت حصة الولايات المتحدة من الثروة العالمية قد انخفضت الى ٢٥٪ واستقرت

«عام ١٩٧٠ انخفضت حصة الولايات المتحدة الأميركية من الثروة العالمية من ٥٠٪ إلى ٢٥٪»

عندها تقريبا، وهي حصة جبارة ولكنها أدنى بكثير مما كانت عليه في نهاية الحرب العالمية الثانية. حينها كانت العالم الصناعي «ثلاثي القطب»: أميركا الشمالية المتمحورة حول الولايات المتحدة؛ وأوروبا المتمحورة حول ألمانيا، وشرق آسيا، المنطقة الصناعية الأكثر دينامية، المتمحورة حينها حول اليابان وقد باتت تضم الآن المستعمرات اليابانية السابقة: تاوان وكوريا الجنوبية والصين مؤخرا.

خطر الديمقراطية الحقيقية

في الوقت ذاته تقريبا دخل الانحدار الاميركي مرحلة جديدة هي مرحلة الانحدار المسبب ذاتيا. افتتحت السبعينات تغيرا ملحوظا في الاقتصاد الاميركي إذ نقل المخططون، في الدولة كما في القطاع الخاص، الاقتصاد الى القطاع المالي والى تصدير الصناعات الى ما وراء البحار، مدفوعين جزئيا بانخفاض معدلات الربح في الصناعة المحلية. خلقت هذه القرارات دورة مقفلة صارت فيها الثروة شديدة التركز (على نحو دراماتيكي في الـ ١٪ من السكان) وانتجت تمركزا عاليا في السلطة السياسية، وبالتالي في التشريع، ما ادى الى دفع الدورة الى الامام بواسطة السياسات الضريبية والمالية، تحرير الاسواق والتعديلات الهيكلية، والتغيرات في

قواعد حاكمة مجتمعات الشركات الكبرى سمح بتراجم ارباح ضخمة في جيوب المديرين التنفيذيين، وما شابه. في تلك الاثناء، استنقعت غالبية الاجور الحقيقية، ولم يستطع الناس تدبّر امورهم الا بزيادة اعباء العمل على نحو حاد (فيما يتعدى اوروبا) وبالديون غير المغطاة وبانفجار الفقاعات المالية منذ ايام ريغان، ما أنتج ثروات دفترية لا تلبث ان تتبخر حين تنفجر الفقاعات (فجري تعويم المرتكبين بأموال دافعي الضرائب). في موازاة ذلك، ازداد النظام السياسي تمزقا فيما اندفع الحزبان الى البحث عن تمويلهما في جيوب كبريات الشركات المجمعّة مع ارتفاع أكلاف الانتخابات، وارتقى الجمهوريون الى مستوى المهزلة والديمقراطيون (وقد باتوا في معظمهم من صنف «الجمهوريين المعتدلين» السابقين) لاحقون في ركبهم.

«الفشل عن سابق تصور وتصميم» هو عنوان دراسة أخيرة لـ «مؤسسة السياسة الاقتصادية» التي كانت المصدر الرئيسي للاحصائيات الموثوقة عن تلك التطورات خلال سنوات. وعبرة «عن سابق تصور وتصميم» دقيقة لأن ثمة خيارات اخرى كانت متاحة. و«الفشل» ذو اساس طبقي كما تشير الدراسة ذاتها. إذ لا يوجد فشل عند اصحاب القرار. بل ان السياسات فشلت بالنسبة للاكثرية العريضة - الـ ٩٩٪ كما يظهرون في مخيّلة حركة «احتلال وال ستريت» - وللبلد، وقد إنحدر البلد، وسوف يستمر في الانحدار في ظل تلك السياسات. احد عوامل الانحدار هو نقل تصدير الصناعات الى ما وراء البحار. فكما تبين الأمثلة السالفة الذكر، توفر الطاقة الصناعية الاساس والحافز للتجديد وللارتقاء الى مراتب أرقى من حيث الحداثة في الانتاج والتصميم والابتكار. وهذه ايضا يجري تلزيمها لما وراء البحار هي ايضا، فهذا ليس إشكالا بالنسبة لـ «رؤساء دواوين المال» الذين يتصاعد دورهم في رسم السياسات، ولكنه يشكل مشكلة للشعب العامل وللطبقات الوسطى، وكارثة محققة للاكتر اضطهادا، الافارقة الاميركيين، الذين لم يتخلصوا ابدا من تراث العبودية وآثاره البشعة والذين تبخّرت ثرواتهم الضئيلة اصلا بعد انفجار فقاعة الإسكان في العام ٢٠٠٨ التي اطلقت الازمة المالية الاخيرة والاسوأ الى الآن.

في تلك الاثناء، تستمر «الحسائر» في التصاعد في غير مكان. في العقد الاخير، اتخذت أميركا الجنوبية خطوات ناجحة للتحرر من السيطرة الغربية، لأول مرة منذ ٥٠٠ سنة، وهنا وقعت خسارة جسيمة. فاتجهت المنطقة نحو الاندماج، وبدأت في مواجهة البعض من المشكلات الداخلية الرهيبة التي تعاني منها مجتمعات تحكمها نخبة أوروبية، في معظمها، تشكل جزرا صغيرة من الثروات

الكبيرة وسط يعر من اليوسه وقد تعمرت تلك البلدان ايضا من كل القواعد العسكرية الاميركية ومن املاءات «صندوق النقد الدولي» وظهرت منظمة جديدة، CELAC (مجموعة دول اميركا اللاتينية والبحر الكاريبي) تضم جميع بلدان نصف الكرة الارضية عدا الولايات المتحدة وكندا. اذا ما تسنى لهذه المنظمة ان تعمل، سوف تشكل خطوة اضافية في مسار الانعقاد الاميركي، فيما كان يعتبر على الدوام «الحديقة الخلفية» للولايات المتحدة.

والاخطر من ذلك هو خسارة بلدان الشرق الاوسط وشمال افريقيا التي نظر اليها المخططون منذ الاربعينات بما هي «مصدر مذهب للقوة الاستراتيجية وواحد من اعظم الجوائز المادية في تاريخ العالم» ان السيطرة على احتياطي الطاقة في تلك البلدان سوف يسمح بهسيطرة مكيمة على العالم، حسب تعبير اندر، مستشار روزفلت النافذ. انا تبين ان توقعات قرن من الاكتفاء الذاتي الاميركي في الطاقة قائم على الموارد الشمال اميركية كانت ولقبة، فسوف يتراجع مغزى السيطرة على الشرق الاوسط وشمال افريقيا الى حد ما ولكن ليس بمقدار كبير. ذلك ان الشاغل الرئيسي كان على الدوام هو السيطرة اكثر منه الوصول الى الموارد مهما يكن. ان النتائج المتوقعة المذكورة اعلاه تنذر بالسوء الى درجة تجعل من النقاش مجرد قرين اكاديمي.

اللازمة الغربية المقدسة هي أن إسرائيل تسعى إلى مفاوضات دون شروط مسبقة وهو ما يرفضه الفلسطينيون. العكس هو الادق. إن الولايات المتحدة وإسرائيل تضعان شروطا مسبقة والأدهى أنها مصوغة بحيث تضمن أن تؤدي المفاوضات إما إلى الاستسلام الفلسطيني وإما إلى لا نتيجة.

«الربيع العربي» وهو تطور آخر ذو اهمية تاريخية قد يعمل على التحل «خسارة» اميركية جزئية في منطقة الشرق الاوسط وشمال افريقيا. سعت الولايات المتحدة وحلفاؤها جاهدتين لمنع هذه النتيجة، بمقدار من النجاح الى الآن. والتزمت «سياساتها» تجاه الانتفاضات الشعبية التزاما دقيقا بالتعليمات المهودية: تأييد القوى الاكثر استعداا لتقبل النفوذ والسيطرة الاميركيتين الدكتاتورين الانثرون يعطون بالتأييد ما داموا يحسبون بالسلطة (كما في الدول النفطية الرئيسية) وعندما لم يعد هذا ممكنا، يتخلون عنهم ويعادلون ترميم الانظمة القديمة قمر المستطاع (كما في

حال تونس ومصر) اما السياق العام فمألوف: سوموزا ودوقا ليه، ماركوس، «موتو»، «سوهارتو» والعديدون غيرهم في حالة واحدة، ليهية تدخلت القوى الاميركالية الثلاث بقوة للمشاركة في انتفاضة اللاطاحة بدكتاتور زيفي لا يوحى بالثقة فأكفحة المجال امام ما هو متوقع من تمكين السيطرة على موارد ليبيا الغنية (النفط اساسا، ولكن الماء ايضا وهو ذو اهمية خاصة بالنسبة للشركات الفرنسية المجتعة) وصولا الى امكان انشاء قاعدة لـ «القيادة الاميركية لافريقيا» (وهي محصورة الآن في المانيا) والى حد الاختراقات الصينية لم تكثر المفاجآت من حيث السياسات.

الاهمية الحاسمة هنا هي خفض خطر الديمقراطية الفعالة يكرس فيها الرأي العام نفوذا يارزا على السياسات وهنا ايضا لم يتعد الامر الروتين، كما هو متوقع. ان نظرة الى «استطلاعات الرأي العام التي نظمتها الشركات الاميركية في بلدان الشرق الاوسط وافريقيا الشمالية تغستر بسهولة الخوف الغربي من الديمقراطية الحقيقية حيث يكرس الرأي العام نفوذا وارزا على السياسات.

اميركا واسرائيل في مواجهة سائر العالم
ان اعتبارات مشابهة تقود مباشرة الى الشاغل الرئيسي الثاني الذي يعالجه عدد «فورين افيرز» المذكور اعلاه: النزاع العربي - الاسرائيلي حيث يتجلى الخوف من الديمقراطية على اوضح وجهه في يناير ٢٠٠٦ جرت في فلسطين انتخابات شهد المرابطون الدوليون انها كانت حرة وعادلة كانت ردة الفعل الفورية للولايات المتحدة (ولاسرائيل بالطبع) وقد لحقت اوروبا بما يتهدد، هي فرض عقوبات فاسية على الفلسطينيين لانهم صوتوا في الاتجاه العظم ليس في ذلك اي تجديد انه منسجم مع المبدأ العام - اللامبدي - الذي تعترف به الاكاديمية الرسمية للولايات المتحدة تؤيد الديمقراطية اذ، فقط اذ، كانت نتائجها متوافقة مع اهدافها الاستراتيجية والاقتصادية، تلك هي الخلاصة الكثيرة التي يخلص اليها طوماس كروزر، عضو المدرسة النيو ريقانية والباحث الاكثر حذرا وتجيلا بين معلمي مبكرات «الترويج للديمقراطية».

على نطاق اوسع يمكن القول ان الولايات المتحدة قد فالت جبهة الرخص في اسرائيل-فلسطين الخمس وثلاثين سنة حائزة التوافق الدولي الذي ينادي بتسوية سياسية وفق شروط معروفة الى درجة لا تستدعي تكرارها. واللازمة الغربية المقدسة هي ان اسرائيل تسعى الى مفاوضات دون شروط مسبقة وهو ما يرفضه الفلسطينيون. العكس هو الادق. إن الولايات المتحدة واسرائيل تضعان

شروطا مسبقة والادعى انها مصوغة بحيث تضمن ان تؤدي المفاوضات إما الى الاستسلام الفلسطيني وإما الى لا نتيجة. اول هذه الشروط المسبقة هو ان تكون المفاوضات تحت رعاية اميركية، أي بما يشبه المطالبة بأن تشرف ايران على المفاوضات في النزاع السني-الشيوعي في العراق. ان مفاوضات جادة هي مفاوضات تجري في رعاية طرف حيادي، يفضل ان يحظى باحترام دولي، كالبرازيل مثلا. وسوف يكون غرض المفاوضات حل النزاعات بين متخاصمين: اميركا واسرائيل من جهة ومعظم العالم من جهة ثانية. الشرط المسبق الثاني هو ان تكون اسرائيل حرة في توسيع مستوطناتها غير الشرعية في الضفة الغربية. نظريا، تُعارض الولايات المتحدة هذه الافعال، ولكنها تعارضها بأن تربت برفق على معصم اسرائيل فيما تستمر في تزويدها بالدعم الاقتصادي والدبلوماسي والعسكري. عندما تقدّم الولايات المتحدة اعتراضات محدودة، تستطيع وقف اعمال البناء بسهولة كما كانت الحال في مشروع E ١ الذي يلي «القدس الكبرى» بمعالیه أدوميم، ويقطع الضفة الغربية عمليا بالنصف، وهو ذو اولوية عالية جدا بالنسبة للمخططين الاسرائيليين

عندما احتل الجنرال النبي القدس، خلال الحرب العالمية الأولى، لقي التحيات في الصحافة الوطنية الأميركية بما هو ريشار قلب الأسد وقد إنتصر في الحروب الصليبية أخيرا وطرد الوثنيين من الأرض المقدسة. فكانت الخطوة التالية هي عودة «شعب الله المختار» إلى «أرض الميعاد».

(على اختلاف اطياهم) لكنه أثار بعض الاعتراضات في واشنطن، بحيث اضطرت اسرائيل الى اللجوء لاجراءات مراوغة لتنفيذ المشروع بالتقسيم.

بلغ ادعاء المعارضة مستوى المهزلة في شباط/فبراير الماضي عندما صوّتت ادارة اوباما على قرار لمجلس الامن يدعو الى تنفيذ السياسة الاميركية الرسمية (مع اضافة ملاحظة غير مثيرة للجدال تقول ان المستوطنات ذاتها غير شرعية، مع فصل ذلك عن موضوع التوسع). منذ ذلك الحين قل الكلام عن وقف توسيع المستوطنات، المستمر باستفزاز مقصود. وهكذا فيما استعد ممثلون اسرائيليون وفلسطينيون للاجتماع في الاردن في كانون الثاني/يناير ٢٠١١، أعلنت اسرائيل عن اعمال بناء جديدة في بسغات زيتيف وهار هوما، وهي مناطق من الضفة الغربية اعلنت اسرائيل انها ضمن منطقة القدس

التي جرى توسيعها الى ابعد حد، وضمها وبناء المستوطنات فيها وإنشاؤها بما هي عاصمة اسرائيل، وكل هذا في انتهاك صريح لاوامر مجلس الامن. اما الاجراءات الاخرى فتواصل تنفيذ المشروع الاكبر وهو مشروع فصل ما سوف يتبقى من بور للادارة الفلسطينية في الضفة الغربية عن المركز الثقافي والتجاري والسياسي للحياة الفلسطينية في القدس السابقة. ان تهميش الحقوق الفلسطينية في السياسة والخطاب الاميركيين ليس عصيا على الفهم. فالفلسطينيون لا يملكون الثروة ولا القوة. وهم لا يقدمون شيئا تقريبا لما يشغل السياسات الاميركية، والحقيقة انهم قيمة سلبية فيها، لانهم عنصرا زعاج يحرك «الشارع العربي». اما اسرائيل في المقابل فحليف يُنكل عليه. انها مجتمع غني يملك صناعة تكنولوجيا متقدمة معظمها مخصص للاغراض العسكرية. ولعقود من الزمن، شكلت اسرائيل حليفا عسكريا واستراتيجيا قيّما جدا، خصوصا منذ العام ١٩٦٧، عندما قدّمت خدمة جلي للولايات المتحدة والعربية السعودية بتدويرها «الفيروس» الناصري فتأسست «العلاقة المميزة» مع الولايات المتحدة على الشكل المستمر منذ ذلك الحين. واسرائيل ايضا مركز نام للاستثمارات الاميركية في التكنولوجيا المتقدمة. فهذه والصناعات الحربية وثيقتا الارتباط في البلدين.

كي لا ننسى العوامل الثقافية

عدا هذه الاعتبارات الاولى المتعلقة بسياسات الدول العظمى، ثمة عوامل ثقافية لا يجوز اغفالها. ان «الصهيونية المسيحية» وجدت في بريطانيا والولايات المتحدة قبل ولادة الصهيونية اليهودية بزمان طويل وشكلت ظاهرة بارزة في اوساط النخبة مع ما يترتب على ذلك من مترتبات سياسية (بما فيها وعد بلفور الذي تغذى منها). عندما احتل الجنرال ألنبي القدس، خلال الحرب العالمية الاولى، لقي التحيات في الصحافة الوطنية الاميركية بما هو ريشار قلب الاسد وقد انتصر في الحروب الصليبية أخيرا وطرد الوثنيين من الارض المقدسة. فكانت الخطوة التالية هي عودة «شعب الله المختار» الى «أرض الميعاد». عندما وصف هارولد ايكس، وزير داخلية روزفلت، الاستعمار اليهودي لفلسطين على انه انجاز «لا قرين له في تاريخ الجنس البشري» كان يعبر عن رأي مشترك لدى تلك النخبة الاميركية. وتلقى مثل هذه المواقف مكانا لها بسهولة في العقائد «القدّرية» التي شكلت عنصرا قويا في الثقافة الشعبية والتخبوية منذ تأسيس الولايات المتحدة: الايمان بأن لله مخططا مرسوما سلفا للعالم وبأن الولايات المتحدة تنفّذه بقيادة ربانية، كما عبّرت عن ذلك لائحة طويلة من الشخصيات القائدة.

الى ذلك فإن المسيحية الانجيلية قوة شعبية رئيسية في الولايات المتحدة اما في الاطراف، فتمتدح المسيحية الانجيلية «الخلاصية» بانتشار شعبي واسع، تعزز مع قيام دولة اسرائيل العام ١٩٤٨، على اعتبار ان كل الدلائل تشير الى ان «نهاية الزمان» و«العودة الثانية» للسيد المسيح) باتا وشيكن ولقد تعاطمت اهمية تلك القوى في عهد رونالد ريغان حين تغلى الجمهوريون عن الادعاء بأنهم حزب سياسي بالمعنى التقليدي للكلمة لتكريس أنفسهم في وحيانية «معلقة موظفة في خدمة نسبة مئوية ضئيلة من كبار الاغنياء وقطاع كبريات الشركات المجمعة غير ان هذا الجمهور الصغير الذي يخدمه الحزب المعتاد تأسيسه لا يمكنه توفير الاحصاءات في الانتخابات، فكان على الجمهوريين الالتفات الى مكان آخر فكان الحزب الوحيد هو تعبئة التيارات الموجودة اصلا، ولكنها نادرا ما عملت بصفتها قوة سياسية منظمة التفتوا في المقام الاول الى «الاصليانيين» المدافعين عن اميركا البيضاء البروتستانتية (الاصلية) الذين يرتعدون خوفا وحفدا، والى العناصر الدينية التي تعتبر متطرفة بالمقاييس الدولية ولكن ليس بالمقاييس الاميركية ومن نتائج ذلك تبجيل نبوءات تورانية مزعومة، لا تؤدي دعم اسرائيل وغزواتها وتوسيعها وحسب وانما تؤدي الى الحب السعوف يا اسرائيل، بما هي اللب الآخر للتعالم الدينية التي يتعين على مرشعي الحزب الجمهوري ان يتعلموها علما ان الديمقراطيين لاحقون بهم هنا ايضا.

انا وضعنا هذه العوامل جانبها لا يجوز ان ننسى ان «المدى الانغلو سكسوني» - بريطانيا ومتفرعاتها - تكون من مجتمعات استعمارية استيطانية نهضت على رماد السكان الاصليين الذين تعرضوا للقمع او للابادة، ولا يد ان هذه الممارسات السالفة كانت صعبة اساسا او حتى ملئية «للمسيحة الالهية» في الحالة الاميركية بناء عليه يعطى «ابناء اسرائيل» بالتعاطف الغريزي ذاته عندما ينتهجون هذا النهج الاستعماري الاستيطاني اباء، ولكن المصالح الجيوستراتيجية والاقتصادية هي الغالبة في المقام الاول والسياسات ليست مغفورة في حجر.

«الخطر الإيراني»

لنلتفت اخيرا الى القضية الثالثة من القضايا الرئيسية التي عالجتها مجلة المؤسسة الحاكمة المذكورة اعلاه «خطر ايران» ترى النخبة والطبقة السياسية اليه على انه الخطر الرئيسي الذي يهدد النظام العالمي عموما وإن يكن ليس هذا ما تراه الاوساط الشعبية تبين استطلاعات الرأي في أوروبا ان اسرائيل هي الخطر الاول على السلام العالمي وفي بلدان

الشرق الاوسط واغريقيا الشمالية، تشارك اسرائيل في تلك المرتبة مع الولايات المتحدة الى درجة ان ٨٠٪ من سكان مصر، عشية انتفاضة ميدان التحرير، كانوا يشعرون بأن المنطقة سوف تكون اوفر امنا فيما لو امتلكت ايران الاسلحة النووية، علما ان هؤلاء السكان كانوا يعلنون معارضتهم للنظام الابرائي مع ذلك وبناء على الاستطلاعات ناتية تبين ان ١٠٪ فقط يعتبرون ايران خطرا عليهم، وذلك خلافا للدكتورين ولكن هؤلاء حساباتهم الخاصة في الولايات المتحدة، قبل الحملات الدعاية المكثفة على امتداد السنوات القليلة الماضية، كانت اكثرية السكان تلتقي مع معظم سكان العالم في تأييد حق ايران في تخصيب اليورانيوم بما هي دولة موقعة على اتفاقية منع انتشار الاسلحة النووية، حتى في يومنا هذا، لا تزال اكثرية عريضة من الناس تؤر استخدام الوسائل السلمية مع ايران بل ان نسبة معارضة شديدة للاشتباكات المسلحة فيما لو نشبت حرب بين ايران واسرائيل ان ربع الاميركيين فقط يعتبرون ايران شاغلا اميركا اصلا، ولكن ليس بالامر الجديد ان تلقى مثل هذا الفجوة، بل الهوية، بين الرأي العام والسياسات المعتمدة.

لماذا ينظر الى ايران على انها ذلك الخطر الجسيم؟ نادرا ما ينقش هذا السؤال مع انه لا يصعب العثور على جواب عنه علما بأننا لن نعر عليه كما العادة، في التصريحات المعمومة الجواب الاوفر املاكا استنادا الى المرجعية هو الجواب الذي يقدمه البنتاغون وأجهزة الاستخبارات في تقاريرهما الى الكونغرس عن حالة الامن الكوني، وهي تقارير تقول ان ايران لا تشكل خطرا عسكريا ذلك ان انفادها العسكري قليل جدا حتى بمقاييس المنطقة، وهو ضئيل جدا بالمقاييس الى الولايات المتحدة ثم ان لايران قدرة متواضعة على نشر قواتها، وعقائدها الاستراتيجية دفاعية مصممة بحيث ترد اجتياحا ما خلال مهلة تسمح للدبلوماسية بالتدخل وتقول التفكير ايضا ان تطوير ايران للأسلحة النووية جزء من استراتيجيتها الدفاعية وما من محلل جاد يصدق ان الملاحية الحاكمين توافقون الى ان يروا بلدهم وممتلكاتهم تتبخر امام أعينهم، وهي النتيجة الفورية لمجرد اقترابهم من اعلان حرب نووية وبالكاد نمة حاجة لذكر اسباب اهتمام القيادة الإيرانية بالردع في ظروف كهذه ما من شك في ان النظام الابرائي يشكل خطرا جانا على شعبه، والاسف انه ليس النظام الوحيد في هذا المجال على ان الخطر الرئيسي على اميركا واسرائيل هو ان ايران قد تشكل رادعا لممارستهما العنف يعرته والخطر الآخر هو ان الابرائيين يسعون بوضوح الى نشر نفوذ الى العراق وافغانستان وما يتبعاهما ان هذه الافعال «غير الشرعية»

تسمى أفعالا «مخلّة بالتوازن» (بل ما هو أسوأ من ذلك). في المقابل فإن فرض النفوذ الأميركي بواسطة القوة على نصف الكرة الأرضية يساهم في «استقرار» والامن، وفق عقيدة تقليدية عمن يمتلك العالم.

منطقي جدا ان تجري محاولة منع ايران من الانضمام الى الدول المنتجة للأسلحة النووية، بما فيها البلدان الثلاثة التي ترفض توقيع «معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية» وهي اسرائيل والهند وباكستان، اي البلدان الثلاثة التي ساعدتها الولايات المتحدة على تطوير أسلحتها النووية ولا تزال تساعدنا. ليس من المستحيل مقارنة هذا الهدف - منع ايران من حيازة السلاح النووي - بالوسائل السلمية. احدى المقاربات التي تحظى بتأييد دولي كاسح، هي اتخاذ خطوات جادة نحو انشاء منطقة خالية من السلاح النووي في الشرق الاوسط تشمل ايران واسرائيل (وتنطبق ايضا على القوات الاميركية المعسكرة هناك) والافضل ان تمتد تلك المنطقة لتشمل جنوب آسيا ايضا. ان تأييد مثل هذه الجهود من القوة بحيث اجبر ادارة اوباما على الموافقة الرسمية عليها، ولكن مع تحفظ يقول بعدم وضع برنامج اسرائيل النووي

لم يطرأ تحوّل كبير على مبادئ السيطرة الأميركية، لكن القدرة على تنفيذها قد انحدرت على نحو ملحوظ مع توزع مصادر القوة في عالم يزداد تنوعاً.

تحت رقابة «الوكالة الدولية للطاقة النووية» وان لا يطلب من اية دولة (والمقصود الولايات المتحدة) الاعلان عما تملكه من معلومات عن «التسهيلات والنشاطات النووية الاسرائيلية، بما فيها المعلومات المتعلقة بنقل المواد النووية الى اسرائيل في الماضي». الى هذا، يوافق اوباما على موقف اسرائيل القائل ان اي مقترح من هذا النوع يجب ان يكون مشروطا بتحقيق السلام الشامل اولا، وهو السلام الذي تستطيع الولايات المتحدة واسرائيل تأجيله الى ما لا نهاية.

الخطر الأكبر

لا حاجة إلى القول ان هذا المسح لا يصل الى مستوى استنفاد الموضوع. من بين العناوين الرئيسية غير المطروقة هو انزياح السياسات الاميركية نحو محور آسيا - المحيط الهادئ مع اضافات جديدة الى منظومة القواعد العسكرية الضخمة قيد التأسيس في جزيرة جيجو قبالة الشواطئ الكورية وفي شمال غرب أستراليا وهي جميعا عناصر في سياسة «احتواء الصين». وعلى صلة وثيقة بكل هذا

موضوع القواعد الاميركية في اوكيناوا، التي تلقى معارضة قوية من السكان منذ سنوات عدة، وتشكل مصدر أزمة دائمة في العلاقات بين الولايات المتحدة واليابان. لقد كشف المحللون الاستراتيجيون الاميركيون ان افتراضاتهم الاساسية بالكاد طرأ عليها اي تغيير، إذ يصفون نتيجة البرامج العسكرية الصينية على انها «معضلة أمنية» كلاسيكية حيث البرامج العسكرية والاستراتيجيات الوطنية التي يراها مخطؤها على انها دفاعية ينظر اليها الطرف الآخر على انها «هجومية». (بول غودوين، معهد السياسات الخارجية). نشأت المعضلة الامنية هذه حول السيطرة على البحار المقابلة للسواحل الصينية. تنظر الولايات المتحدة الى سياساتها الرامية للسيطرة على تلك المياه على انها «دفاعية» فيما تراها الصين على انها تهديدية؛ وفي المقابل، ترى الصين نشاطاتها في المناطق المجاورة على انها «دفاعية» فيما تنظر اليها الولايات المتحدة على انها تهديدية. لا يمكن تصوّر ان مثل هذا النقاش يمكن ان يدور حول المياه الاقليمية الاميركية ولو بالخيال. وهذه «المعضلة الامنية الكلاسيكية» تكتسب معناها مجددا على افتراض ان للولايات المتحدة الحق في السيطرة على معظم اجزاء العالم، وان الامن الاميركي يتطلب ما يقارب تحقيق السيطرة الكونية المطلقة.

لم يطرأ تحوّل كبير على مبادئ السيطرة الامبريالية، لكن القدرة على تنفيذها قد انحدرت على نحو ملحوظ مع توزع مصادر القوة في عالم يزداد تنوعاً. النتائج كثيرة. على انه من قبيل الاهمية القصوى ان نأخذ في الاعتبار - مع الاسف - ان ما من هذه النتائج يرفع الغيمتين الداكنتين اللتين تخيمان على كل ما يتعلق بالنظام الكوني: الحرب النووية والكارثة البيئية، وكلاهما يهدد العيش اللائق للجنس البشري بالزوال بالمعنى الحرفي للكلمة. بل العكس صحيح. الخطران داهمان ويزدادان خطورة.

«حركة البدون أرض» البرازيلية نموذج عن حركة اجتماعية لعصرنا

جاكلين عطوي

مواليد الهلالية
لبنان (١٩٨٧)،
تعمل في برامج
انتمية في المخيمات
الفلسطينية.

«حركة البدون أرض» هي، اليوم، واحدة من أبرز الحركات الاجتماعية في أميركا اللاتينية، وربما في العالم. تأسست رسمياً في العام ١٩٨٤، وأضحى لها اليوم فروع في ٢٢ ولاية من أصل ٢٧ ولاية برازيلية، وتزيد عضويتها عن مليون ونصف المليون مواطن. هدفها حل مسألة الأرض والاصلاح الزراعي. الا انها تذهب إلى أبعد من ذلك بالتزامها دوراً فاعلاً في التأسيس لمجتمع أكثر عدالة وتقدمية، عبر تعهدها بالحفاظ على البيئة، والتمكين الجندري، وتأمين السكن اللائق وحقو الامية وديمقراطية التعليم وتعميم التأمين الصحي. والأهم دورها في نشر الأمل والتفاؤل بعالم أفضل.

المسيحية عنوانها الرئيسي لتحقيق العدالة الاجتماعية باسم يسوع المسيح وجهت النضال الحاد لنفدها ضد الدور التقليدي للكنيسة الكاثوليكية في دعم ملاك الأرض والمسيكين بالسلطة والمال إلى التواطؤ مع الدكتاتوريات العسكرية وقد ذهب هذا التيار إلى تشريع حمل السلاح ضد الاحتلال الاجنبي والحكم الظالم، واستشهد عدد من رجال الدين والسلاح يدهم في حركات غوارية عدة خلال تلك الفترة في الستينات والسبعينات من القرن الماضي ومن الضروري الإشارة إلى «اللجنة الرعوية للأرض» (تأسست في العام ١٩٧٥) التي إلى طبيعتها اللاهوتية، أدت دوراً هاماً في تنظيم نضال الفلاحين وتأمين وحدتهم «بشكل من الأشكال» يمكن فهمها كنقد فاتي للدعم الذي أمدته الكنيسة الكاثوليكية في السابق للنظام العسكري، خاصة في ما يتعلق بالفلاحين».

سنوات القمع العسكري إلى تفكيك روابط الفلاحين، وتنظيمات الطلاب والعقالات التي شرع عليها النظام «بجونا وحسب» وسجن قادتها، وأخضع كوادرها وأعضائها للتعذيب ونفاهم ولم تنتج التظاهرات ضد النظام العسكري في العام ١٩٦٨ إلا المزيد من القمع الذي مارسته الحكومة مصدرة المرسوم رقم ٥ الذي منع كافة أشكال النقد والمعارضة التي تستهدف الحكومة وأخضعت الصحافة المراقبة وكتمت الأفواه وسيطرت الشرطة والاستخبارات العسكرية بصرامة على حياة الناس.

حركة متعددة الاستلهامات

خلال ستينيات القرن الماضي نشأ تيار واسع في أميركا اللاتينية بين رجال الدين والعلمانيين الكاثوليكين في أميركا اللاتينية سمي «اللاهوت التحرري» شكّل مقارنة نورية للمدانة

على الرغم من أن التاريخ البرازيلي قد شهد نضالاً طويلاً من أجل الأرض، وتحديد الإصلاحي الزراعي فإنه لم يشهد يوماً حركة بالقوة والقدرة التأثيرية على مستوى الإنجازات والعديد اللتين تميزت بهما «حركة البدون أرض» حتى يومنا هذا. ويعود ذلك إلى السياق التاريخي والسياسي الذي نشأت فيه الحركة، كما إلى المؤشرات الاجتماعية والمناطقية التي أدت دوراً بارزاً الأهمية في صالحتها.

بين العامين ١٩٦٤ - ١٩٨٤، عرفت البرازيل، كما مختلف أرجاء أميركا اللاتينية، مناخاً قمعياً وحسباً في ظل الدكتاتوريات العسكرية «استأثر العسكر بالسلطة في العام ١٩٦٤، استجابةً لمخاوف النخبة البرازيلية المتأثرة من تنظيم فقراء البرازيل ومطالبتهم بالإصلاح الزراعي ويعتقدون واسعة (عقال الريف)» أدت

١. آريستو وفلورنسيو
٢. جوف بد سيبيل
٣. ونزارو م. فينلير،
٤. يرفا جين: «عمل
٥. حركة ليدون أرض»
٦. والنضال من أجل
٧. أرض في هورلزل (مق)
٨. يواو: «مؤسسة بريسو
٩. فبراير ٢٠٠٥»

تستحضر «البدون أرض» الدعوات المهدوية لدى الديانات الشعبية المتأصلة تاريخيا في الأرياف البرازيلية الفقيرة قدر ما تستلهم تشي غيفارا وروزا لوكسمبرغ وساندينو وإميليانو زاباتا ونلسون مانديلا.

ليست «حركة البدون أرض» حركة اجتماعية عادية، بل حركة متكاملة الاهداف تستحضر ايضا الدعوات المهدوية لدى الديانات الشعبية المتأصلة تاريخيا في الاريايف البرازيلية الفقيرة، بما فيها في الاطراف الشمالية الشرقية، قدر ما تستلهم شخصيات ثورية بارزة مثل تشي غيفارا، وروزا لوكسمبورغ، وساندينو، وإميليانو زاباتا، ونلسون مانديلا، وكثيرين غيرهم من المناضلين الذين شكلوا مثالا يحتذى في الحياة والالتزام. تأثرت كثيرا بتعاليم المربي باولو فريري (١٩٢١ - ١٩٩٧) ومنهجه التربوي الرامي الى تحويل التعليم من اداة امتثال وقهر للمضطهدين الى اداة تحرر ذاتي وممارسة للحرية والحوار وتعميم القيم العدالة الاجتماعية والانسانية. القمع العنيف الذي مارسته الحكومة أنتج موجة مضادة واستعدادا من الشعب للتوحد وكسر الصمت. المعارضة والانشقاقات الداخلية في النظام، بدأت تثقل الحكومة. وقعت أحداث كثيرة في نهاية السبعينيات - إضرابات العمّال، اجتماعات هامة يعقدها رجال الأعمال للمطالبة بالحرية السياسية، وصناعيون بارزون ينادون بالديمقراطية، ويبقى الأبرز بينها، إضراب عمّال النقل الشهير في العام ١٩٧٨. ورغم اعتبار تلك المرحلة العسكرية، حتى من قبل نقّادها، فترة ازدهار اقتصادي، إلا أنها عمّقت الهوة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد خلال عشرين سنة. فقد جنى مستثمرون كبار ثرواتهم بأقصى درجات الاستغلال ليد العاملة ذات المهارة المتدنية وظروف الحياة البائسة، والأجور التافهة. في ظل تلك المؤثرات، لم

يعد بوسع الازدهار الاقتصادي أن يبرر القمع الاجتماعي، مثلما فعل خلال سنوات سابقة. ولم يعد بوسع الحكومة أن تتجاهل مطالب الشعب، إذ لم يعد الفقير يخوض حربه وحيدا من أجل العدالة الاجتماعية، بل أن شخصيات وقوى إيديولوجية بارزة نهضت لتطالب بالديمقراطية، وبحياة أفضل للجميع. في أواخر السبعينيات، اعتمدت الحكومة سياسة التخفيف من الضغوط الامنية وتحقيق الانفتاح السياسي، بهدف تأمين الاستقرار للنظام. سمحت مرحلة الانفتاح تلك («أبرتونا» بالبرتغالية) بصعود و/أو عودة عدد من المنظمات والاحتجاجات التي تعرّضت سابقا للقمع.

خيمة واحتلال قطعة ارض

تعود نشأة الحركة إلى حدث تأسيسي وقع في ٧ أيلول / سبتمبر العام ١٩٧٩، عندما احتل فلاحون مزرعتي مكالي وبريلانتي في ولاية ريو غراندي دو سول في جنوب البرازيل. كان ذلك إبان حقبة الحكم العسكري. مع ذلك، عجزت الحكومة عن مواجهة ثورة عدد من العائلات التي أجلت من اراضيها الى أراض غير منتجة، وقد أثمر ثباتها وإصرارها على الاحتلال في بلوغ الهدف المنشود. فبعد فترة طويلة من المماطلة، أعيدت العائلات الى اراضيها أخيرا. شكلت تجربة مكالي نصرا نفسيا هاما بالنسبة إلى الفلاحين المحرومين من الأرض، «عززت ثقتهم بأنفسهم، وأثبتت لهم أنهم، بالتنظيم والنضال، قادرون على الفوز بالأراضي ضمن ولاياتهم»^٣. وتمثلت واقعة أخرى سبقت البزوغ الرسمي لـ«حركة البدون أرض» في تداعيات إنشاء المخيم الذي اشتهر

باسم «مفترق ناتالينو»، نسبة إلى اسم المناضل من حركة «البدون أرض» الذي بادر إلى إنشاء مخيم بدائي على الطريق بمحاذاة أرض شهدت تاريخا طويلا من النزاع على ملكيتها واستخداماتها. خلال فترة زمنية بدت قصيرة مقارنة بالتوقعات، جمع هذا المخيم حوالي ٤٦٩ عائلة التحق افرادها به ليحققوا حلما بامتلاك قطعة أرض صغيرة. أتى رد فعل الحكومة على إنشاء المخيم عنيفا وقمعا، فشنت وحدات الشرطة عددا من الهجمات عليه، وأعتقل الكثيرون، وهدد كثيرون، بهدف استيعاب الحركة. إلا أن الناس الذين حافظوا على روح معنوية عالية نظموا أنفسهم وشكلوا شبكة من لجان تدبير شؤون المخيم وتفاوض الحكومة. وفاز المخيم بدعم ما يزيد على مئة جمعية غير حكومية. وقد حافظ هؤلاء المستوطنون على ثقتهم بأنفسهم، وعلى تفاؤلهم بقدرتهم على تحقيق أهدافهم، رغم كل ما واجهوه من صعوبات على مستوى الطقس، والتحديات الصحية، ونقص المياه الصالحة للشرب وما يستتبع ذلك من أوبئة.

لم تهدف تلك التظاهرة إلى فرض الإصلاح الزراعي فحسب، وإنما أيضا إلى التمرد على القمع السياسي الذي عاشته البلاد على مدى ١٧ عاما. كما أن الناس المطرودين من خيمهم، واجهوا صعوبات عند محاولة العيش في المدن، وبهذا المعنى، فإن الحادثة قد شكلت تحديا أمامهم، ما دفع بهم إلى المقاومة من داخل المخيم، والانخراط في أشكال مختلفة من النضال من أجل الأرض، ضمن مناطقهم. ما شكل السياق الاجتماعي لنشوء «حركة البدون أرض»، بحسب ستيديل.

إلى العامل الاجتماعي، ألقى ستيديل الضوء على العامل

تعرف البرازيل أكبر هوة بين الأغنياء والفقراء في العالم.

٤ ج.ب. سيليبوب. م
فونديج. ١٧.

٥ ج. فليوروج. بريس
جريدة المير
الإحصائي في أمريكا
الغنية - ١٨١.

الايديولوجي الذي ارتبط بالعمل
الرعيه خاصه على مستوى
الكنيستين الكاثوليكية والموريتية
فبدلاً من القول «انتظروا» وسوف
تفوزون بالأرض في الجنة» كان
الخطاب قد تحول إلى «عليكم أن
تنظموا أنفسكم لتعاربوا وتعلموا
مساكنكم هنا على الأرض».

أما العامل الأخير فمرتبط بالوضع
السياسي، وما شهدته البلاد آنذاك من
نضال هدفه التحول إلى الديمقراطية
مع حلول ربيع العام ١٩٨٣، كانت
النتائج الإيجابية للتحركات الشعبية
الشبيهة قد انتشرت في البلاد نكسرة
معها التفاؤل والأمل بامتلاك الأراضي.

لم تعد الحركة معدودةً بجنوب البلاد
وإنما شهدت انتشاراً واسعاً، وسجلت
براغماتية في العمل تشكّلت حول
إيديولوجية واحدة عنوانها «حركة
العقال اليدون أرض» وبعد عام
عقد المؤتمر الوطني الأول للحركة في
كوريتيبا، في ولاية بارانا الجنوبية
حضره ألفان ومثلاً رجل وثلاثمائة
امرأة، انتدبهم الأعضاء في ثلاث
وعشرين ولاية.

عدالة اجتماعية شاملة

مع أنها انطلقت من مفهوم النضال من
أجل الأرض، إلا أن أعضاء الحركة
تواخفوا على وجود قضايا أخرى هامة

لا يجب تمييزها عن النضال من أجل
الأرض والعدالة فتمحورت الفكرة
الرئيسية حول ضرورة إجراء إصلاح
زراعي وتغييرات اجتماعية إلا أنها
شملت أيضاً حماية أراضي السكان
الأصليين والخروج بضمانات لتلك
الحماية، وترسيم حدودها أضف إلى
ذلك مسائل تتعلق بحماية الطبيعة
ومواردها الطبيعية، ما دفع بالكاتين
فلتمبير وبنراس إلى اعتبار فلاحي
أميركا اللاتينية «متأثرين بخلط
من الماركسية الكلاسيكية، وبفكر
مرتبط بالبيئة وقضايا الانتماء الإثني
والجنسية في آن معا» ذلك أن الحركة
تشجع على تنمية دور النساء في العمل



واحد في المئة من المالكين حوالي أربعين ألفا - يمتلك ٤٦ في المئة من الأرض، تقدّر بحوالي ٣٦٠ مليون هكتار. و٣٪ من السكان يسيطرون على ٧٥٪ من الاراضي المروية.

والمجتمع وعلى التمكين الجندري وتدافع عن حقوق السكان الأصليين.

وقد صاغت الحركة أهدافها كالتالي:
- ضمان العمل لجميع العمال الريفيين «البدون أرض» على قاعدة التوزيع العادل للأراضي ولرأس المال الاجتماعي. وإنتاج محاصيل جيدة النوعية، ومنخفضة الكلفة، تؤمن الغذاء السليم لجميع أفراد الشعب.

- ضمان الرعاية الاجتماعية، وتأمين ظروف حياة أفضل، في إطار من العدالة، لجميع أفراد المجتمع البرازيلي، تكون الأولوية فيه للعمل، والأشد فقرًا.
- تأمين ديمومة العدالة الاجتماعية، والحقوق المتساوية، اقتصاديا وسياسيا، واجتماعيا، وثقافيا، وروحيا بين المواطنين.

- نشر الممارسات الإنسانية والقيم الاشتراكية في العلاقات بين المواطنين، من خلال رفع الظلم الاجتماعي والديني والجندري.

- خلق ظروف موضوعية لمشاركة المرأة في المجتمع، بضمان الحقوق المتساوية للجميع.

- الحفاظ على الموارد الطبيعية والسعي لتأمين ظروف تعافيا.

- تأسيس الصناعات الزراعية، والصناعات بشكل عام، كمحاور أساسية في تنمية الأجزاء الأكثر تهميشا في البلاد.

- ضمان الوظائف لكل الراغبين بالعمل في الأرض.

التنظيم والتمويل

ترابط الحركات في أميركا اللاتينية في ما بينها، وتعتمد في نشاطها على حركات أخرى مجاورة. أما التنظيم البنوي في «حركة البدون أرض» فيقوم على خطوط واضحة تحدد القيادة ومسؤوليات القطاعات، في كافة الأقسام والوحدات. ويتم انتخاب القائد

ديمقراطيا، وتوكل إليه مهمة تمثيل جميع الأعضاء، والحفاظ على الانضباط والقانون بينهم. وتنظم الحركة ضمن منتدى خاص بالولاية أو المنطقة، ينتدب ممثلين عن كل منها إلى المؤتمر الوطني. أهم جسم تمثيلي في الحركة هو «هيئة التوجيه الوطنية». تتشكل تلك الهيئة من ٢١ عضوا من جميع ولايات البرازيل، تقريبا، يتم تعيينهم واختيارهم ديمقراطيا، بعد فوزهم بنسبة لا تقل عن خمسين في المئة + ١ من الأصوات في مناطقهم. تجتمع تلك المنتديات بوتيرة فصلية أو سنوية، لتناقش مشاكلها، واختلافاتها، وتحديد جدول أعمالها، واتخاذ القرارات.

والحركة، ككيان مستقل وشديد التنظيم، تعتمد بالدرجة الاولى على وسائلها الذاتية للتمويل، تضاف إليها الهبات. وعندما سأل مسؤول العلاقات الدولية فيها جيرالدو فونتييس، عن التمويل والمساعدات المالية التي تتلقاها الحركة، شرح أنه لا يوجد مصدر واحد للدخل تعتمد عليه: «أولا، هناك مساهمات الشعب، أو أعضاء الحركة المستقرون في أراضيهم، وهي تساوي نسبة خمسين في المئة من الدخل، يتم جمعها من تسويق المنتجات الزراعية»^٦. أشكال أخرى من التمويل تتأتى من الهيئات الشخصية، من أموال الحكومة، أو الحملات، حسبما يقول. وقد بيعت أوراق اليانصيب لشراء مقرّ للحركة. مصدر آخر للدخل تؤمنه «المنظمات غير الحكومية» التي تغطي نسبة عشرين في المئة من التمويل، لـ«مشايخ محددة، كبناء مدرسة، نعرضها على الحكومة، وإذا لم تبد اهتماما بها، نعيد عرضها على المنظمات غير الحكومية الدولية»^٧. يأتي مصدر آخر للدخل من شراكات مع حكومات المناطق أو المقاطعات أو

الحكومة الوطنية، في قضايا محددة، مثل الحملات الخاصة بالأمراض المنقولة جنسيا أو «الأيدز»، ولا يأتي هذا الدعم بشكل مادي، وإنما كاستثمار في التجهيزات اللازمة، يغطي نسبة تقارب العشرين في المئة أيضا من الميزانية. إلى ذلك، تؤمن شراكات مع المجتمع نسبة تقارب الخمسة في المئة، ويؤمن بيع الأغراض كالقبعات والقمصان والأعلام والأكواب والأقلام والشارات، التي تحمل جميعها شعار الحركة، نسبة ماثلة.

أشكال النضال والمقاومة

احتلال الأرض هو مصدر قوة الحركة وأداة ضغطها الأساسية. وعلى عكس ما يراه كثيرون، فإن «الاحتلال» بعيد كل البعد عن العنف والفعل التمردى، وإنما هو فعل يتم بسلمية، وبناء على استلزام دستور البلاد ووفق درجة عالية من التنظيم، ويأتي كخطوة استراتيجية في خطة طويلة الأمد تقضي باكتساب الأرض بالنضال بناء على حق الجميع في الارض، وليس بالتسول.

ويؤكد ستيديل أنه «من دون الاحتلال، لا يمكننا أن نبرهن أن القانون إلى جانبنا»^٨. فالمصادرة ليست متاحة إلا بواسطة الاحتلال. «لا يطبق القانون إلا في ظل مبادرة اجتماعية، تلك قاعدة القانون... يأتي القانون بعد العامل الاجتماعي، ولم يسبقه يوما. العامل الاجتماعي في الإصلاح الزراعي هو الاحتلال، مطالبة الشعب بالأرض، بحيث يمكن تطبيق القانون»^٩.

أكثر من ألف وخمسمئة عملية احتلال أنجزت، ويتوقع المحللون إنجاز عمليات كثيرة جدا في المستقبل. ومع أنها تكللت بالنجاح، ووجدت أكثر من ثلاثمئة وخمسين ألف عائلة الاستقرار في الارض، يبقى من المجدي التذكر

٦ جيرالدو فونتييس، مقابلة خاصة، ٢١ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٦.

٧ المصدر ذاته.

٨ ج. ب. ستيديل وب. م. فرناندينز، ١١٥.

٩ المرجع ذاته، ١١٥.

الآن ذاته، توجيه المستوطنين وتبليغهم على نحو متواصل بالإجراءات التي يتم اتخاذها. وتولى تلك اللجان أيضا مسؤولية توزيع أفرادها على قطاعات لا تخصص، مثل الصحة والتعليم. تعتبر المسيرات والتظاهرات الشهيرة التي تنظمها «حركة البندون أرضي» في مختلف أنحاء البرازيل، منادية بالثورة ضد النظام السياسي في الفترة ١٩٩٥ - ١٩٩٩ من أقوى أشكال التعبئة في المجتمع المدني بشكل عام ويمكن لتلك التظاهرات أن تتخذ شكل الصيام والإضراب عن الطعام والاعتصام أمام المؤسسات

الأشخاص الذين سينفذون عملية الاحتلال. وعلى الرغم من توغّر الناس يكثر، إلا أن الإجابة عن هذا السؤال تبقى صعبة، لأن عمليات كثيرة تشعر بالخوف وانعدام الأمان تجاه قرار مصيري كهذا، وتخشى أن ينتهي بها الأمر إلى الانتظار لسنوات بلا قطعة أرض. هناك يبرز دور جهاز تنسيق الحركة في إزالة الهواجس، وتقديم المعلومات كاملة وبعد تعديد هوية الأشخاص الذين سينفذون عملية الاحتلال وموقعها وموعدها الزمني، تعيين لجنة تكون وظيفتها متابعة المفاوضات مع الحكومة، وفي

أن الحكومة والملاك المتنفذين واجهوا «البندون أرضي» بالقسوة والعنف متهمين إياهم بتهمة «الارهاب» الجاهزة. وقد وقعت مجازر عديدة قُتل فيها كثيرون وسُجن كثيرون واختفى كثيرون. لا يتم احتلال الأرض عشوائيا. هي عملية معقدة، تخضع لألية عمل منظمة، يبدأ من خطوة ليست بالسهلة وهي اختيار الأرض. إذ يجب الاستناد إلى عمل الباحثين أو إلى بيانات حكومية فكونية، لتعديد ما إذا كانت ملكية أرض كبيرة تلتقي وظيفتها الاجتماعية أم لا. وبعد اختيار الأرض، يبرز السؤال حول



حركة البدون ارض : المبادئ

«حركة البدون ارض» تنظيم فريد من نوعه لكونه حركة اجتماعية شعبية يقول مبدؤها الاول بأن ابوابها مفتوحة لجميع المهتمين بنشر أفكار الحركة والمساهمة في تحقيق استراتيجياتها، إلى جانب الأعضاء الأساسيين من الفلاحين والعمال الزراعيين. المبدأ الثاني هو توزيع العمل. ويقضي بتخصيص الفرد بالمهمة التي يجيد أداءها، على أن تكون ضمن نطاق اهتماماته وتخصصه في الحركة.

المبدأ الثالث هو الانضباط، بصفته سلوكاً قائماً على الترابط ما بين مجموعة من القواعد، يجب على أعضاء الحركة احترامها والخضوع لها طوعاً لحفظ النظام وتأمين الاحترام للجميع.

المبدأ الرابع والخامس يتعلقان بالتعليم وبناء الشخصيات. تبذل الحركة جهوداً كبرى وتفتاناً

عظيماً على هذا المستوى. فقد تولت نحو الامية الخمسين الفا من البدون ارض خلال الاعوام ٢٠٠٢-٢٠٠٥. وهي تملك جامعة خاصة بها في ولاية ساو باولو مسماة على اسم المفكر الماركسي فلورستان فرناندس. ويدرس نحو ١٥٠ الفا من التلامذة في مدارسها الابتدائية والثانوية على أيدي ٣٨٠٠ مدرّس. يركّز المبدأ السادس على وسائل النضال الشعبي، إذ لا شيء يمكن تحقيقه من دون التعبئة الاجتماعية والفعل.

يشدد المبدأ السابع والأخير على أهمية التواصل والتفاعل مع أعضاء قاعدة الحركة وإيلائهم موقعا في صناعة القرارات فلا يمكن لأحد أن يكون مطلّعا على حاجات الناس أكثر من الناس الذين يعيشونها ويختبرونها.

الطريق، كشكل من أشكال الاحتجاج. تسع تلك المخيمات ما بين خمسمئة وثلاثة آلاف فردا. وقد تستمر مدة التظاهرات واعمال التخيم دون انقطاع الى أربعة أعوام قبل تحقيق اهدافها.

خطة جذرية للإصلاح الزراعي

يعيش أكثر من ثلث البرازيليين – البالغ عددهم الاجمالي حوالي ستين مليون نسمة – في فقر مدقع، بأقل من دولارين في اليوم الواحد. وتفيد معلومات بأن «البرازيل تعرف أكبر هوة ما بين الأغنياء والفقراء، في أي أمة قابلة للقياس على الأرض»^{١٠}، وهي هوة تتعمق أكثر فأكثر. «بحسب مؤشر جيني، فإن البرازيل تسجل أعلى نسبة تركّز للملكية الأرض في العالم.

الحكومية واحتلال المنشآت العامة، بقصد فضح تقصيرها عن القيام بواجباتها على الملأ وإجبارها على الخوض في مفاوضات.

إلى ذلك، يضاف إنشاء المخيمات في العواصم أو المدن الكبيرة، وأمام المصارف، للاحتجاج على الرأسمالية ونقص الدعم الذي تؤمنه تلك المصارف لتحرير القروض وتأمين الموارد لـ «حركة البدون أرض». ومرحلة التخيم هي المرحلة الأخيرة في «الاحتلال» وهي تقضي باستيطان أعضاء من «حركة البدون أرض» في مساحة محددة من الأرض. يمكن لتلك المساحة أن تكون مزرعة اعتبرت قابلة للحياة تبعاً لقواعد دستور الإصلاح الزراعي، أو يمكن أن تكون مستوطنة متمركزة إلى جانب

١٠ ب. فرنانديز، المسألة الزراعية، بحث حول «حركة البدون أرض»، ١٦.

١١ جواو بيدرو ستيديل، حوار، «كتائب البدون أرض: حركة البدون أرض البرازيلية»، «ليو لفت ريفيو» مايو/يونيو ٢٠٠٢.

حيث نسبة واحد في المئة من المالكين – حوالي أربعين ألفاً من أهم أصحاب مزارع المواشي – تمتلك نسبة ٤٦ في المئة من الأرض، تقدّر بحوالي ٣٦٠ مليون هكتار^{١١}. الى هذا يمكن ان يضاف ان ٣٪ من السكان يسيطرون على ٧٥٪ من الاراضي المروية. في سياق الكبت والنبذ هذا، وجدت «حركة البدون أرض» الدعم والحماسة الشعبين الواسعين للمثابرة من أجل قضيتها. لا شك في أن السبيل إلى تقليص الظلم الذي تشهده البلاد يكون في تلبية حاجات فقراء الريف من خلال إصلاح زراعي، وهي مهمة بدت مستحيلة في مواجهة المعارضة المتأصلة التي أبدتها أقلية صغيرة من ملاكي الأرض النافذين.

بذهب أعضاء «حركة البدون أرض» إلى أبعد من امتلاك مجرد قطعة أرض، فهدفهم هو النضال من أجل الحقوق والمشاركة والمساواة والحصول على دور لائق للفلاحين في المجتمع، ويبدو ذلك جلياً في عدم رضا الحركة عن برامج توزيع الأراضي الذي تنفذته الحكومات المتعاقبة فيالنسبة إليها، الإصلاح الزراعي العامل هو إصلاح ينقلب على النظام الأبوي المترسخ في مقاربة الأرض، ويفرض نظاماً جديداً لا يضمن حقوق الفلاحين فحسبه وإنما يضمن لهم أيضاً طروداً متكاملة تتيح تطوير إنتاج السلع والخدمات.

يعتبر مفهوم الأرض والملكية جانباً مركزياً وهاماً في خطة الإصلاح الزراعي التي تتبناها الحركة في «حركة البدون أرض»، وأوضحه في استغفاتها بمفهوم الملكية الخاصة في مخيمات الحركة لا يحصل أحد على صك ملكية للأرض، وإنما على الحق بالعمل والاستثمار في الأرض، ولا يمكن لحركة البدون أرض أن تباع الأرض، لأنها ليست ملكاً لها، وإنما هي ملك «المؤسسة الوطنية للاستيطان والإصلاح الزراعي»، تتمسك الحركة بهذا المبدأ بشدة، إذ تقبل الحكومات إلى التخلص من الأرض ومن عبء مسؤولياتها، لكن الحركة تشدد على أن المباشرة في استثمار الأرض وفلاحتها هو الذي يجب أن يعطي الحق في الحصول على اعتمادات مالية^{١٢}.

الخلاف مع لولا وحزب العمال

إن انتهاء الحكم الديكتاتوري العسكري وضعت الحكومات المنتخبة عتقاً طياً مسألة الإصلاح الزراعي على أجندتها السياسية إلا أن ذلك لم ينتج تغييرات أو نتائج بارزة على صعيد مسألة الأرض.

تقيد آخر الاحصائيات بأن نسبة التمركز في ملكية الأراضي لم تنخفض عملياً ومع الانكماش الديكتاتوري، وغلبة اليمين على الحكومات، وغياب التقدم باتجاه خطة إصلاح زراعي متماسكة انتقلت سياسة «حركة البدون أرض» إلى العمل على إيصال حكومة يسارية إلى السلطة فنجح «حزب العمال» أخيراً في الوصول إلى الحكم بقيادة أنيسيو لولا دا سيلفا (٢٠٠٣ - ٢٠١٠)، بعد عشرين عاماً من النضال وما من شك في الانجازات التي حققتها حكومات حزب العمال بقيادة لولا وفي مقدمتها النجاح تحقيق معدلات عالية من النمو الاقتصادي - جعلت من البرازيل الاقتصاد الثامن عالمياً - ورفع مستوى الأجور (الحد الأدنى للأجور) في أن معداً إلى هذه فكانت سياسات لولا من إنشال نحو عشرين مليون برازيلي من حالة الفقر غير أن حكومة لولا لم تق بأكمل الوعود التي قطعتها من حيث توزيع الأراضي على أكثر من ٤٣٠ ألف أسرة بدون أرض، فبعد «مضي سنتين من الحكم لم تكن الحكومة العمالية قد وزعت أكثر من ٦٠ ألف قطعة أرض»

إلى هذا، أخذت حركة البدون أرض على سياسات حزب العمال إعطائها الأولوية للاسواق الخارجية ولتقسيم العمل الدولي على حساب السوق المحلي، والتركيز على النخبة المتعككة بالصكوات الزراعية وتجميد أعمال احتلال الأراضي من قبل العمال الريفيين البدون أرض، والتقصير في السياسات الاجتماعية التي يفيد منها صغار المنتجين والعمال الريفيون والسكان الاصليون.

عام ٢٠٠٥ نظم البدون أرض مسيرة فلاحية عارمة من أجل الإصلاح الزراعي إلى العاصمة برازيليا أجبرت المسيرة لولا على لقاء وفد من الحركة بعدما امتنع عن ذلك منذ بداية ولايته

كرر الرئيس البرازيلي وعده بتوزيع الأراضي واستمع إلى مطالب الوفد بشأن توسيع الخدمات الاجتماعية وتأمين المزيد من المساكن، حققت حكومة حزب العمال المزيد من توزيع الأراضي على الفلاحين البدون أرض، ومن جهتها تمسكت «حركة البدون أرض» بدورها في التعبئة والعمل المباشر - أي حركات الاحتلال - ضد النظام الرأسمالي النيوليبرالي المترسخ الذي يعاصر البلاد وذلك رغم اتهامات «الارهاب» تترى عليها من أوساط رجال الأعمال والصعانة المحافظة واليمينية على المستوى الوطني، انتقلت من تأييدها حزب العمال إلى التحالف مع «حزب الاشتراكية والحريّة» الصغير والمتواضع الامكانات، المسكك حديثاً من منسقين عن حزب العمال وعلى القدر ذاته من الأهمية يأتي التحالف على الصعيد الوطني مع حركات اجتماعية أخرى وكان للحركة دور كبير الأهمية في توحيد جهود الحركات الاجتماعية الكثيرة والنقابات الاشتراكية في البلاد بقصد تعزيز نمو الحركات الجماهيرية واللائت أن البدون أرض دعموا ترشيح ديلما روسف التي اختارها لولا خليفة له في رئاسة الجمهورية وعدهم هذه بالإصلاح الزراعي وفق صيغة ملتبسة تعتبر حقاً من «حقوق الإنسان»

بصعب التنبؤ بما يخبئه المستقبل للحركة نظراً لتسارع وتيرة التغيرات الوطنية والدولية ولكن، كيفما أتى الفصل التالي من التاريخ البرازيلي فلا شك في أنه «سيكون لأعضاء «حركة البدون أرض» دور هام فيه»

١٧١ «منظمة دول عدم الانحياز» تاريخ
الأحلام في دول الجنوب
فيجاي براساد

١٥١ وثائق الخارجية الاميركية عن
التدخل العسكري السوري في
لبنان ١٩٧٦

من الوثائق الرسمية الاميركية التدخل العسكري السوري في لبنان، ١٩٧٦

تهبت تقارير وكالة ويكيليكس الى اهمية الوثائق الرسمية الاميركية كمصدر للمعلومات والابحاث والتحليل عن السياسة الخارجية للولايات المتحدة. ننشر فيما يلي خمس وثائق اميركية عن التدخل العسكري السوري في لبنان في ربيع-صيف العام ١٩٧٦ بعثها المبعوث الاميركي الى لبنان دين براون (نيسان-حزيران ١٩٧٦) الى رئيسه وزير الخارجية الاميركية هنري كيسنجر اضافة الى محضر اجتماعين مخصصين للبنان لاعلى هيئة امنية في البلاد، «مجلس الامن الوطني».

لم يفرج بعد عن برقيات كيسنجر الى براون ولا عن جيمع برقيات هذا الاخير الى كيسنجر. مع ذلك فملك ان نعرف الكثير من افكار ومواقف ومقترحات كيسنجر في اجتماعي «مجلس الامن الوطني» المذكورين اعلاه كما في مذكراته التي صدرت العام ١٩٩٩.

غني عن القول ان هذه الوثائق لا تختصر كل المصادر المتعلقة بمهمة دين براون والتدخل السوري في الازمة اللبنانية. ثم ان المصدر الاميركي هو مصدر واحد من عدة مصادر رسمية متعلقة بتلك الحقبة ليس اقلها المصادر الرسمية الاسرائيلية والسورية ناهيك عن اطراف كانت على صلة وثيقة بالاحداث اللبنانية مثل فرنسا وبريطانيا والاتحاد السوفيتي. ما نقدمه أدناه مساهمة نظن انها تلقي اضواء جديدة على حقبة هامة من «حرب السنتين» (١٩٧٥-١٩٧٦) علها تحفز على توسيع دائرة المصادر والمراجع وتعميق التنقيب والبحث، اضافة الى دورها في استثارة النقاش والنقد.

تقديم

اللبنانية العام ١٩٧٥. في كانون الثاني/يناير ١٩٧٦
إمتدحت الادارة الاميركية المبادرة السياسية السورية
لحل النزاع في لبنان ولكنها كانت لا تزال تعارض «أي
تدخل عسكري خارجي» حسبما أعلن كيسنجر في مؤتمره
الصحفي يوم ١٤ يناير ١٩٧٦. قبل ذلك بيومين، أعلن
مصدر مصري رسمي ان مصر لن تقف مكتوفة الايدي فيما
لو حصل تدخل عسكري سوري في لبنان. وفي ٢٨ منه
أعلن وزير الدفاع الاسرائيلي اسحق رابين انه اذا دخلت
رحلات عسكرية سورية الى لبنان سوف تتحرك وحدات

عندما كان وزير الخارجية الاميركي هنري كيسنجر يشرف
على سياسة «الخطوة خطوة» التي اعتمدها مع مصر إفتتاحاً
لمسار أدى الى اتفاقية السلام المصرية-الاسرائيلية،
لفت نظره اعلان الرئيس حافظ الاسد في مقابلة على
ال «بي بي سي» عن استعدادة لتسوية مع اسرائيل تكرسها
اتفاقية سلام. ومعلوم ان كيسنجر كان شديد الاهتمام بإدراج
سورية في عملية السلام وهو صاحب المعادلة الشهيرة «لا
حرب في الشرق الاوسط دون مصر ولا سلام دون سورية».
لاحق الفرصة مع مباشرة دمشق الوساطة في الازمة

عسكرية اسرائيلية يتجهز نهر اللباني

يوم ٢٢ يناير وقع رئيس الجمهورية سليمان فرنجية ورئيس مجلس الوزراء رشيد كرامي في دمشق اتفاقاً سمي «الوثيقة الدستورية» من أبرز بنودها إعادة توزيع الحصص الطائفية وتعزيز صلاحيات رئيس الوزراء (السنّي) على حساب صلاحيات رئيس الجمهورية (الماروني). أبدت الادارة الاميركية الاتفاق قيمة رفضته الحركة الوطنية التي كانت تطالب بإلغاء نظام الطائفية السياسية برمتها واعتماد قانون مدني اختياري للاحوال الشخصية تعقدت الامور عندما انسحب «جيش لبنان العربي» في مطلع آذار وأعطيه إنقلاب العقيد عبد العزيز الاحدب في ٨ آذار الذي طالب باستقالة رئيس الجمهورية سنيلا وحيداً لحل الازمة.

يوم الرابع عشر من آذار، أبلغ العماد حكمت السهلي السفير الاميركي في دمشق روبرت مورفي رغبة الحكومة السورية في ادخال وحدات عسكرية نظامية الى الارض اللبنانية بعد ان فشلت وحدات «جيش التحرير الفلسطيني»

يوم ١٨ آذار أكد الرئيس حافظ الأسد لمورفي رغبة سورية في التدخل عسكرياً في لبنان تلبية لطلب من الرئيس فرنجية.

القادمة من معسكراتها في سورية في تثبيت وقف اطلاق النار. يوم ١٨ آذار أكد الرئيس الأسد لمورفي رغبة سورية في التدخل عسكرياً في لبنان تلبية لطلب من الرئيس فرنجية واستطرد قائلاً انه يأمل ان تتولى الولايات المتحدة إنهماك اسرائيل ان لا علاقة لها بهذا الشأن العربي الداخلي. تحركت الدبلوماسية الاميركية على الخط الاسرائيلي. في ٢٣ آذار كارس، كان الجواب الاول لرئيس الوزراء الاسرائيلي الاميركي ان القوات الاسرائيلية سوف تحتل مواقع استراتيجية على الاراضي اللبنانية في جنوب لبنان في حال التدخل العسكري السوري ولكن في اليوم التالي صدرت مذكرة اسرائيلية عن مجلس الوزراء ترفض اي وجود عسكري «سوري» على الاراضي اللبنانية بفوق حجم لواء (اربعة آلاف إلى خمسة آلاف جندي) وتعلن ان اسرائيل لن تحتل حركة للقوات السورية فيما يتجاوز عشرة كيلومترات جنوبي طريق بيروت - دمشق والواضح ان ما سوف يسمى «الخط الاحمر» ارتفع قليلاً القبول بقوات نظامية يعجم لواء والتنازل عن الوجود شمالي طريق دمشق - بيروت.

كانت الاتصالات الاميركية مع كل من سورية واسرائيل لا تزال جارية والادارة الاميركية غير حاسمة في موافقتها على تدخل عسكري «سوري» كنيف الى لبنان عندما وافق

الرئيس فورد على إقتراح لكيسنجر بإيفاد السفير دهن يروان الى لبنان وتسلم شؤون سفارة الولايات المتحدة في بيروت مؤقتاً خلال الغياب المستمر للسفير غودلي الذي كان يقضي فترة نقاهة بعد عملية جراحية. وحصل يروان الى بيروت في ٣١ آذار كارس وقد أعلن الفريقان المتحاربين وقفاً لاطلاق النار تسهيلاً لمهمته وسري كيسنجر في مذكراته إنه كلف يروان بإبلي (١) تقدير الموقف (٢) تحقيق وقف اطلاق نار (٣) العمل للتوصل الى حل بناءً على وثيقة ٢٢ يناير [الوثيقة الدستورية] (٤) محاولة اتصال ما مع منظمة التحرير الفلسطينية ومحاولة فصل جنبلات عن مرفعه. واقتناعه بالحل (٥) يجب ان لا يهزم المسيحيون (٦) يجب إيفاد السوريين خارجاً [بالعنى العسكري].

يوم ٩ نيسان ١٩٧٦ دخلت وحدات من منظمة «الصاعقة» لبنان من الحدود السورية وبشرت ربح الحصار عن مدينة زحلة، وهو الحصار الذي أسهمت المنظمة القذافية المالية السورية في خوضه أصلاً على عاصمة البقاع في الوقت ذاته ظهرت ديبكات سورية داخل الاراضي اللبنانية في عنجر، على بعد بضعة كيلومترات من نقطة الحدود في جديدة بكوس وفي بكار العنصر الأبعد جنوباً إستفسر كمال جنبلات من يروان عن وجود القوات السورية خطمته يروان بأنها موجودة لتحرير طرقات البقاع وأنكر انها تشكل اي نوع من انواع الاحتلال ولا خيل له ان تأمين الطرقات لا يتطلب هذا الحجم من القوات، وعد يروان بالتحقيق في الحجم الحقيقي للقوات السورية مهما يكن، ثم يكتف يروان امه في ان يخدم التدخل العسكري السوري في السيطرة على الفلسطينيين كتب لرئيسه بقوله «اذا كان للمرء ان يفسح في المجال امام الخطط في هذا العالم الناقص، فليكن مستبعداً ان «يقرض» السوريين تطبيق اتفاق القاهرة ضد الفلسطينيين».

يوم ١٢ نيسان لايريل الفى الرئيس الأسد خطياً شرح فيه هجوماً عنيفاً على الحركة الوطنية ومنظمة التحرير واصفاً قادتها بالمجرمين الذين يبيعون ويشتررون في السياسة والنورة قبل ان يعلن تصميم بلاده على التدخل في لبنان «للمقاع عن كل مضطهد ضد كل مضطهد».

يمكن الافتراض بأن كيسنجر أبلغ يروان بأجازه التدخل العسكري السوري والتأكد من عدم اعتراض اسرائيل على ذلك التدخل، بعد الاتفاق على «الخطوط الحمراء» قبيل او في أثناء اجتماع «مجلس الامن الوطني» فكتب في يرفيته الى رئيسه يوم ١٣ نيسان يؤكد عملية البناء التدريجية للقوات النظامية السورية ويقول «اذا كان جار لبنان الشرقي لم يزحج جازر لبنان الجنوبي على نحو سافر فلا يمكن قوله الشيء ذاته عن اليسار اللبناني والفلسطينيين» مشيراً الى ان التدخل

Herl Kishner, ١
Years of Survival
(New York: Dine
Pub. Co., 1999), p.
1045.)

٢
كيسنجر، المصدر
١٠٤١ - ١٠٤٢.

الاستجابة لاستغاثة بعث بها أهالي قريتي القبيات وعندقت في عكار - القريتين المسيحيين اللتين تعرضتا لهجوم من وحدات من «جيش لبنان العربي» (بقيادة ضابط عرف فيما بعد بعلاقته بالاجهزة السورية) - وأنه أمر بدخول ٦٠٠٠ جندي سوري الى لبنان، إرتفع عددها بعد أيام معدودة الى ١٥,٠٠٠ جندي هو الرقم الذي تحدث عنه برارن أصلا عندما تحدث عن الحاجة الى ثلاثة ألوية لفرض وقف لاطلاق النار في لبنان.

اِختفى برارون في الوقت المناسب قبل ان تجري الانتخابات الرئاسية يوم ٨ آب ١٩٧٦. عشية مغادرته، ألحقت صحيفة «لوس أنجلوس تايمز» الى ان الولايات المتحدة تدعم الياس سرقيس. كذلك ترددت اخبار تفيد بأن برارون لعب دورا في اقناع الرئيس فرنحية بأن لا يحدد ولايته.

العسكري السوري سوف يتم على حساب هذين الطرفين في ٢١ نيسان/ابريل ١٩٧٦، أعلنت إسرائيل موافقتها العلنية على التدخل السوري مصحوبا بشروط: نهر الليطاني بعد انعطافه نحو البحر عند قلعة الشقيف هو «خط احمر»، واي تقدم سوري جنوبيه سوف يعتبر تهديدا لامن اسرائيل. وهو تنازل كبير نسبيا في «الخطوط الحمراء» قياسا الى كيفية تحديدها سابقا. سوف يتبين خلال «ازمة الصواريخ» في ربيع وصيف ١٩٨١ ان «الخطوط الحمراء» كانت تتضمن ايضا تحريم تخليق الطيران الحربي السوري في الاجواء اللبنانية والسماح فقط باستخدام السمات لنقل الجنود ومنع نقل اية دفاعات صاروخية جوية سورية الى الاراضي اللبنانية.^٢ وفي الابريل من حزيران ١٩٧٦ أعلن الرئيس الاسد في حضور رئيس الوزراء السوفياتي كوسيجين انه قرر

Evron, War, *عز* ٣
and Intervention
in Lebanon: The
Israeli-Syrian
Deterrence
Dialogue (London:
Croom Helm, 1987).

وثائق مهمة براون والتدخل السوري

الأمير سعود الفيصل رسالة من
 كيسنجر يشرح فيها موقفه من
 التدخل العسكري السوري.
 - برقية من براون إلى الوزير
 كيسنجر عن القضايا التي تواجه
 رئيس الجمهورية الجديد للبنان
 من حيث استعادة أمن حكومته
 وسلطتها وتحقيق الإصلاحات وإعادة
 الأعمار. برقية. وزارة الخارجية.
 مكتوم. تاريخ الإصدار ٢٠ نيسان
 ١٩٧٦. تاريخ التفراج: ٢٦ فبراير
 ١٩٩٥. كامل. عدد الصفحات ٩.

١٤ نيسان/أبريل ١٩٧٦.
— برقية براون إلى كيسنجر،
٢١ نيسان/أبريل ١٩٧٦.
— محضر جلسة «مجلس الأمن
القومي» الأميركي عن لبنان وبلدان
أخرى بتاريخ ٧ أبريل ١٩٧٦
— محضر جلسة «مجلس الأمن
القومي» الأميركي عن لبنان وبلدان
أخرى بتاريخ ١٣ نيسان ١٩٧٦
— عشرون تقريراً من السفارة الأميركية
في بيروت عن متابعة الصحافة
اللبنانية لزيارة براون تمتد من ٥
أبريل إلى ٢٦ يونيو من العام ١٩٧٦.
— رسالة بتاريخ ٦ آب من روبرت
ماكلكوكسي، مساعد وزير الخارجية
للعلاقات مع الكونغرس، إلى ادلبي
ستيفنسن، عضو مجلس الشيوخ،
تؤكد أن مهمة دين براون في لبنان
لا تتضمن اللقاء مع ممثلين عن
منظمة التحرير الفلسطينية.
— برقية بتاريخ ١٥ يونيو ١٩٧٦ من
وزير الخارجية إلى السفارة في جدة
تسليم وزير الخارجية السعودي

- بلاغ صحفي بتاريخ ٣٠ آذار / مارس عن تعيين السفير دين براون لمهمة تسلّم سفارة أمريكا مؤقتاً في بيروت خلال غياب السفير غودلي الذي يقضي فترة نقاهة في أمريكا.

- خمس برقيات مرسلة من براون إلى كيسنجر بتاريخ ١ و٤ و١٣ و١٤ و٢١ أبريل ١٩٧٦ تتعلق بموضوع التدخل العسكري السوري مباشرة. وبرقية واحدة بتاريخ ٢٠ أبريل ١٩٧٦ تتعلق بالمهام التي سوف يواجهها الرئيس اللبناني الجديد في مجالات فرض الأمن وسلطة الدولة وتنفيذ الإصلاحات وإعادة الاعمار. وقد جرى رفع السرية عنها جميعاً في العام ١٩٩٠ وهذه البرقيات هي:

- برقية براون إلى كيسنجر، ١ نيسان / أبريل ١٩٧٦.

- برقية براون إلى كيسنجر، ٤ نيسان / أبريل ١٩٧٦.

- برقية براون إلى كيسنجر، ١٣ نيسان / أبريل ١٩٧٦.

- برقية براون إلى كيسنجر،

٩ • تقدير موقف:

الموارنة يريدون أن ينقذهم السوريون

وزارة الخارجية/تلغرام/سري/نسخة ١٥/١

سري/بيروت ٢٨٦٦ ١٠٢٠٠٠ ٠٢٠٠٠

النسخة رقم ١ من ١٥.

صفحة ٠١ بيروت ١٣٢٩٧ ١٤٠٧٥٨٧

الاول من نيسان، الساعة ١٢ و ٢٨ دقيقة ١٩٧٦

من: السفارة الاميركية بيروت

الى: وزير الخارجية واشنطن، ديه سي، فلاش ٩٣٣٠ BTO

سري بيروت ٢٨٦٦

الى الوزير من بروان

الموضوع: انطباعات لولى

١. أمضيت يوماً مرهقاً ولكنه قد يكون مفيداً وأنا أتفاكر بالسميتات عبر البلد مع ملاحي طائرات سميتة (هليكوبترات) يطرون أقرب الى الارض حتى من الملك حسين سوف ابعث بتقرير منفصل عن معاناتي مع الزعماء الموارنة وقد تحدثت ايضا الى رئيس المجلس النيابي [كامل الاسعد] ورئيس مجلس الوزراء [رشيد كرامي] كما الى جمع من العسكريين من كل الرتب الممكنة واللبنانيون كما تعلم جيداً، يفتون الكلام والاطالة فيه، والجنود هنا - كثرنا ما كان معتقدهم - قد ملوا الحرب إلا أنهم عاجزون عن التعبير عن سلم يمكنه

٢. المسيحيون (ولعلني يجب ان اوضح: اعني الموارنة) خائفون ثمة الكثير من الحماسة والتبجح عن القتال الى النهاية في الجبال، اتصور ان هذا ممكن في اسوأ الاحوال لكنهم لا يريدونه يريدون ان ينقذهم السوريون! بل انهم يريدون منا ان نروج لتلك الامكانية بنشاط وبصعب عليهم بداية إدراك اننا لا نستطيع الزام الاسرائيليين بالامر هؤلاء هم طبعاً كما افشرت سابقاً اللبنايون انفسهم الذين قالوا باستمرار انه لا يحق للولايات المتحدة ان تفرض على لبنان سياسته الداخلية، واني اعتقد اضاقه الى ذلك اني قد بدأت في ابصالي فكرة تقول إن ما احد يتخذ بلد الآخر وأنه لا يمكن القاء القرارات الصعبة حول لبنان على عاتقنا على انه في حال انهيار هذا المكان أكدوا ان الموارنة سوف يبررون الامر بالقاء اللوم على

حكومة الولايات المتحدة وأقترض ان اصداقنا في أوروبا الغربية سوف يتضمنون الى الجوفقة من بين الامور التي طالبتني النظر فيها موضوع قبرة المسيحيين على الصمود السياسيون يعطون انفسهم عشرة او عشرين يوماً وقد تطول المدة انا وردت شععتات [اسلحة] كبيرة من الغربه تحدثت الى ضباط جيش ويعربة وصولاً الى درجة عماد في قاعدة جونيه انهم اقل درامية يقولون انهم مزودون بما يحتاجون وان المزيد في طريقه اليهم لدي شعور تقريبي بأنهم ليسوا في وضع معزلة مع اني لم احص كل مواردهم والارجح انهم يستطيعون الصمود الى ما لا نهاية في وجه القوات اليسارية - الاسلامية وحدها الا اننا نخش الفدائيون هؤلاء الدعم الكامل

٣. هذا الصباح عثت لي موعد مسائي مع جنبلاط. الا انه تأجل للغد لاسباب امتيقه كما قبله واحسب ان جنبلاط يريد ان يترسخ وقف إطلاق النار بحيث يعزى البند خير على خيره سوف اضعه غدا امام التزاماته حسب توجيهاتكم

٤. يوجد اهتمام كبير جداً بالمهمة التي انتديتني لها، انها تسمح للبنانيين بالتفكير في أمر آخر وهم يبالغون في اهميتها، كان لها تأثير مهدي على وضع متفجر

٥. الوضع جيد الى الآن

سري

مفرج عنها

لا يجوز استنساخها دون اذن السكرتير التنفيذي

برلون

٤ العلامة المائية -
المحررة ماري زار
وقد تملي مضمون
بواسطة علي لجيل في
٦ كانون الأول ١٩٨٠
والجري مباحثات مع
القادة لمحيرة

F010076-1871

(FISO)

Department of State
SECRET 000463

TELEGRAM

PARIS 2865 024931Z COPY NO. 1 OF 15.

ACTION 0025-00

INFO OCT-71 ISO-08 /281 M 010027

7 012208Z APR 76
FM AMEMBASSY BEIRUT
TO HQSTATE WASHDC FLASH 9330
BT
S E C P E T BEIRUT 2865

FOR SECRETARY FROM BROOK

E.C. 110521 GDS
TAGS: FINE, LE, US
SUBJ: FIRST IMPRESSIONS

NOTE REVIEW

1. General removed
transmitted to OTHROD
2. General removed
transmitted to OTHROD
3. General removed
transmitted to OTHROD
4. General removed
transmitted to OTHROD
5. General removed
transmitted to OTHROD
6. General removed
transmitted to OTHROD
7. General removed
transmitted to OTHROD
8. General removed
transmitted to OTHROD
9. General removed
transmitted to OTHROD
10. General removed
transmitted to OTHROD
11. General removed
transmitted to OTHROD
12. General removed
transmitted to OTHROD
13. General removed
transmitted to OTHROD
14. General removed
transmitted to OTHROD
15. General removed
transmitted to OTHROD
16. General removed
transmitted to OTHROD
17. General removed
transmitted to OTHROD
18. General removed
transmitted to OTHROD
19. General removed
transmitted to OTHROD
20. General removed
transmitted to OTHROD
21. General removed
transmitted to OTHROD
22. General removed
transmitted to OTHROD
23. General removed
transmitted to OTHROD
24. General removed
transmitted to OTHROD
25. General removed
transmitted to OTHROD
26. General removed
transmitted to OTHROD
27. General removed
transmitted to OTHROD
28. General removed
transmitted to OTHROD
29. General removed
transmitted to OTHROD
30. General removed
transmitted to OTHROD
31. General removed
transmitted to OTHROD
32. General removed
transmitted to OTHROD
33. General removed
transmitted to OTHROD
34. General removed
transmitted to OTHROD
35. General removed
transmitted to OTHROD
36. General removed
transmitted to OTHROD
37. General removed
transmitted to OTHROD
38. General removed
transmitted to OTHROD
39. General removed
transmitted to OTHROD
40. General removed
transmitted to OTHROD
41. General removed
transmitted to OTHROD
42. General removed
transmitted to OTHROD
43. General removed
transmitted to OTHROD
44. General removed
transmitted to OTHROD
45. General removed
transmitted to OTHROD
46. General removed
transmitted to OTHROD
47. General removed
transmitted to OTHROD
48. General removed
transmitted to OTHROD
49. General removed
transmitted to OTHROD
50. General removed
transmitted to OTHROD
51. General removed
transmitted to OTHROD
52. General removed
transmitted to OTHROD
53. General removed
transmitted to OTHROD
54. General removed
transmitted to OTHROD
55. General removed
transmitted to OTHROD
56. General removed
transmitted to OTHROD
57. General removed
transmitted to OTHROD
58. General removed
transmitted to OTHROD
59. General removed
transmitted to OTHROD
60. General removed
transmitted to OTHROD
61. General removed
transmitted to OTHROD
62. General removed
transmitted to OTHROD
63. General removed
transmitted to OTHROD
64. General removed
transmitted to OTHROD
65. General removed
transmitted to OTHROD
66. General removed
transmitted to OTHROD
67. General removed
transmitted to OTHROD
68. General removed
transmitted to OTHROD
69. General removed
transmitted to OTHROD
70. General removed
transmitted to OTHROD
71. General removed
transmitted to OTHROD
72. General removed
transmitted to OTHROD
73. General removed
transmitted to OTHROD
74. General removed
transmitted to OTHROD
75. General removed
transmitted to OTHROD
76. General removed
transmitted to OTHROD
77. General removed
transmitted to OTHROD
78. General removed
transmitted to OTHROD
79. General removed
transmitted to OTHROD
80. General removed
transmitted to OTHROD
81. General removed
transmitted to OTHROD
82. General removed
transmitted to OTHROD
83. General removed
transmitted to OTHROD
84. General removed
transmitted to OTHROD
85. General removed
transmitted to OTHROD
86. General removed
transmitted to OTHROD
87. General removed
transmitted to OTHROD
88. General removed
transmitted to OTHROD
89. General removed
transmitted to OTHROD
90. General removed
transmitted to OTHROD
91. General removed
transmitted to OTHROD
92. General removed
transmitted to OTHROD
93. General removed
transmitted to OTHROD
94. General removed
transmitted to OTHROD
95. General removed
transmitted to OTHROD
96. General removed
transmitted to OTHROD
97. General removed
transmitted to OTHROD
98. General removed
transmitted to OTHROD
99. General removed
transmitted to OTHROD
100. General removed
transmitted to OTHROD

1. I'VE SPENT AN EXHAUSTING BUT TERRIFICLY PROFITABLE DAY, JETTING AROUND THIS COUNTRY WITH CHOPPER PILOTS WHO FLY CLOSER TO THE GROUND THAN EVEN KING HUSSEIN, I'M REPORTING SEPARATELY MY TALKS WITH THE MARONITE LEADERS, I'VE ALSO TALKED TO SPEAKER OF PARLIAMENT AND PRIME MINISTER AS WELL AS WITH A HOST OF SOLDIERS OF EVERY IL. POSSIBLE, LEBANESE, AS YOU KNOW WELL LOVE TO TALK AND AT LENGTH AND SOLDIERS HERE -- OF WHATEVER PERSUASION -- ARE SICK OF THE WAR BUT UNABLE TO VERBALIZE POSSIBLE PEACE.

2. CHRISTIANS (AND I SHOULD MAKE THIS CLEAR) I MEAN MARONITES) ARE FRIGHTENED, THERE IS A LOT OF BRAVADO ABOUT FIGHTING FOREVER IN THE MOUNTAINS, I IMAGINE THIS IS POSSIBLE, GIVEN THE WORST, BUT THEY DON'T WANT THAT. THEY WANT THE SYRIANS TO SAVE THEM, EVEN MORE, THEY WANT US TO PROMOTE ACTIVELY THIS POSSIBILITY AND FIND DIFFICULTY IN BEGINNING TO UNDERSTAND THAT WE CAN'T NAIL THE ISRAELIS DOWN IN THERE, OF COURSE, AS I'VE POINTED OUT, THE SAME LEBANESE WHO HAVE CONSISTENTLY SAID THAT U.S. CANNOT DICTATE INTERNAL POLICY OF LEBANON, I THINK HOWEVER, I AM STARTING TO GET ACROSS POINT THAT NO ONE DELIVERS ANOTHER'S COUNTRY AND THAT HARD DECISIONS IN

SECRET

NOT TO BE REPRODUCED WITHOUT THE AUTHORIZATION OF THE EXECUTIVE SECRETARY

برقية براون إلى كيستجر في الأول من نيسان ١٩٧٦ عن الوضع العسكري

٢. الجيش لا يستطيع فرض الأمن ويدخل التدخل العسكري

الضباط هؤلاء لعبوا دوراً بارزاً مع هذا الفريق أو ذلك وسوف ترفضهم أكثرية الناس والعديد منهم ممن وقف على الجيد أو توارى عن الأنظار، سوف يكون موضع إستهزاء مهماً يكن، يوجد بين هؤلاء الآخرين نواة وحدة عسكرية مستقبلية يمكن أن يتم تعين جنود جدد ولكن وجود قوة من الضباط أو ضباط الصف أمر جوهري.

وزارة الخارجية/تلغرام
سري بيروت ٢٩ ٣٦ ١٧٢٠ ١٤٩٠ /صفحة ١
٤ نيسان الساعة ١٦ و ٢٢ دقيقة ١٩٧٦
من السفارة الأميركية بيروت
الى وزير الخارجية واشنطن ديه سي فوري ٩ ٣٦٩
سري بيروت ٢٩ ٣٦
[كلام مشطوب بالخبر الاسود]
الى الوزير من يروان

٥. كيف يمكن ان يتم ذلك؟ واحدة من الطرق تكون بتشكيل لجنة مشتركة لبنانية - فلسطينية - سورية نشهد اليوم محاولات لتشكيل مثل هذه اللجنة (بقية اسمية لرعي الانقلاب الأحدث) وإن إقتصرت مهمتها على محاولة توفير الأمن لكي ينعقد مجلس النواب في الأيام القليلة القادمة ليستطيع الموارنة القول انهم تمكنوا من حضور جلسة المجلس لأن قوة عسكرية لبنانية أسهمت في توفير أمن الجلسة الحقيقة الحزينة هي أن الجيش اللبناني في الوضع الحاضر لا يبدو أنه يستطيع تجميع أكثر من المشتري عنصر الذين هم تحت امره [العقيد عزيز] الأحدث لتحقيق تلك المهمة وعلى الرغم من ذلك، فمجرد تحقيق ذلك يوفر لنا الفرصة للنظر في الوضع، وتفحص ما إذا كان شغلاً، وما إذا كان يحمل دوراً للمستقبل ومع أنني متشكك، فأنا أرى يستحق النظر فيه لاسيما أن البدائل تطرح مشكلات حقيقية بالنسبة لبناء.

الموضوع: الوضع اللبناني
١. هل تستطيع الحكومة اللبنانية تجميع ما يكفي من القوة لفرض سلطتها؟ لقد طرحت عليّ هذا السؤال وأنا يدورني أطرحه على نفسي وعلى جميع الذين أتحدث إليهم، بطريقة أو بأخرى.

بديلان لضبط الأمن: وحدات مشتركة من الكتائب والفلسطينيين أو التدخل العسكري السوري.

٦. أنا نصل الى الوقائع الأكثر أساسية اللبنانيون أكثر انقساماً من ان يستطيعوا توفير الأمن الجوهري المطلوب إن إعادة بناء ما كان لهم في السابق من جيش وعسكرية وطيران ودرك وشرطة محلية (كلها) تلعب الدور ذاته جوهرياً وما من واحدة منها قادرة على قتال عدو خارجي) محاولة خرقاً لأنها سوف تكون هادئة في استخدامها لطاقة بشرية محدودة.

٢. الجواب هو «لا» في المدى القريب لقد اختفى الجيش البحرية موجودة في جونية والطيران موجود على الأرض بحراسة «جيش التحرير الفلسطيني» والجيش، إذ اختفى، انقسم الى أربعة أقسام: قسم واحد هو [قيادة أحمد] الخطيب وقد جمعه من [الجنود] المسلمين غير المنظمين، قسم آخر انضم الى الموارنة وثمة قسم منشق بقيادة زعيم الانقلاب [العسكري عزيز] الأحدث العضو السابق في هيئة الأركان وقسم لا يستهان به قد اختفى بيساطة الأمر ذاته بتطبيق على الشرطة مع التشديد على اختفائها.

بديلان لا أكثر

٧. لذلك يوجد واحد من بدلين، كلاهما يحمل مشكلات حقيقية: أولاً الأمن من خلال [وحدات مشتركة من] الكتائب والفلسطينيين (ما قريب وحدات بقيادة سورية) والقوى اليسارية قد يبدو هذا ضرب من الجنون ولكنه بصير ممكن إذا اتفق عرفات والاسد عموماً على السيطرة على اليساريين في العملية الجارية، ثم ان التعاون الفلسطيني - الكتائبي قد يبدو ضرباً من الجنون هو أيضاً لمراقب خارجي غير ان هذين الفريقين على اتصال واحدهما بالآخر وقد تنجح المحاولة.

٣. هل يمكن إعادة بنائها لا توجد طريقة مثلاً، لإنشاء جيش أو قوة شرطة فعلية خلال ثلاثة أشهر. أذكر ان هذه هي واحدة من المهمل المقترحة للتدخل السوري الأكثر تشاكاً بين اللبنانيين يقول لي ان السوريين سوف يحققون هنا لستين يوماً بعد تخفيض عدد قواتهم، قبل ان تستطيع القوات اللبنانية المسلحة تولي حفظ الأمن قد تكون المهلة اقصر ولكن ثمة مشكلاته.

٤. الاساسي في العملية هم الرتباء من ضباط و صغوف

٣ • محضر اجتماع «مجلس الامن الوطني» (٧ نيسان/ابريل ١٩٧٦)

البيت الابيض/اراشنطن

محضر

اجتماع «مجلس الامن الوطني»

التاريخ: الاربعاء ٧ ابريل، ١٩٧٦

الوقت: ٣:٥٠ بعد الظهر الى ٤:٠٠ بعد الظهر.

المكان: غرفة مجلس الوزراء، البيت الابيض.

الموضوع: لبنان

الحضور: الرئيسيون:

نائب الرئيس [نيلسون روكفلر]،

وزير الخارجية هنري ك. كيسنجر

وزير الدفاع دونالد رامسفيلد

الاميرال جيمس هولواي رئيس العمليات البحرية (الرئيس

بالوكالة في غياب الجنرال برانكون) مدير المخابرات المركزية،

جورج بوش [الاب].

حضور آخرون:

الدفاع:

نائب وزير الدفاع وليام كليمنتس

البيت الابيض: ريتشارد تشايني

برنت سنوكرفت

وليام هابلاند

مجلس الامن الوطني: روبرت أركلي

[اشارات اضافية: سري جدد تاريخ الاصدار ٧ ابريل

١٩٧٦. تاريخ الافراج عنه: ٢٥ ايار ١٩٩٩. غير

منظف. غير كامل، ١٥ صفحة]

الرئيس: ظننت انه يجب علينا ان نعقد اجتماعا ليطّلع

الجميع في «مجلس الامن الوطني» على آخر تطورات الوضع

في الشرق الاوسط، رخصوا المشكلات التي نواجهها

في لبنان. أنا دهتري نتابع الوضع بوتيرة شبه يومية ونحلل

الاحداث ونتخذ الخطوات العملية لضمان استمرار ضبط

النفوس من قبل كل الاطراف. الاسبوع الماضي، خلال زيارة

الملك حسين، ارسلنا دين برانكون لتسلم المسؤولية عن سفارتنا

والتحدث مع كل الاطراف للتأكيد على أهمية المحافظة على

وقف اطلاق النار والتوصل الى حل معتدل. وصل الى هناك

يوم الجمعة، على ما اعتقد. وهو يقابل الجميع.

كيسنجر: الحقيقة، سيد الرئيس، انه وصل مساء الاربعاء

غادر على طائرة خاصة فور موافقتك على [مهمته]. وهو

يتقافز منذ ذلك الحين يؤدي مهمته بامتياز.

الرئيس: نعم، انه يؤدي مهمته بامتياز. وقف اطلاق النار

قيد التطبيق مع ان الوضع لا يزال قلقا. والوضع معقد الى

٨. البديل الآخر هو التدخل السوري. وقد يتطلّب الأمر

٣ ار ٤ الوية اضافة الى قوات إسناد، ذلك ان قوات اصغر

حجما قد لا تستطيع معالجة التعداد الكبير في الجبهات

المفتوحة. إن بيررت تتطلب تظاهرة قوة حقيقية والكثير من

القسوة لقمع المجموعات غير المنضبطة التي تنهب رتقتل

لمجرد اللثة رحدھا.

٩. ما يجب القيام به الان هو التفكير في المستقبل. أنا

متحفظ لمتشكك بصدد قوة شرطة درليّة. غير ان المهمة

الرئيسية في المدى الطويل هي اعادة الاعمار، المتمحورة حول

اعادة بناء بنية البلد التحتية. هذا يتضمن الامن. ففي حين

لا يوجد توافق على الاطلاق هنا حول ما قد يفعله المجتمع

الدولي لوقف القتال وتحقيق السلام، فالتوافق متوافر على

ان المساعدة الخارجية ستكون مطلوبة لاعادة اعمار البلد.

ان كلاما من إده وسركيس (المرشحان البارزان لمنصب رئيس

الجمهورية) متفقان على هذا الرأي. ويريان الى ان اعادة

الاعمار الدورية تتضمن عددا واسعا من الخبراء، العديد

منهم خبراء في المشكل الامني، بما فيه حفظ الامن والخفارة

والتدريب.

١٠. ليس هذا يخرج من الورطة الحالية. على اني اعتقد

انها طريقة من الطرق للتحرك نحو المستقبل. فربما يمكن

لكونسورسيوم درلي ان يؤشر للافرقاء اللبنانيين ان الامر

يمكن توفيره ضمن اطار جهد اعادة اعمار مدعوم خارجيا.

في كل الاحوال، أمل ان تدرس الوزارة هذه الامكانية. ثمة

زراية حساسة سوريا لا بد من التبحر فيها بحذر.

١١. في الخلاصة، سيدي الوزير، لست اعتقد ان اللبنانيين

يستطيعون حل المشكلة الامنية بمفردهم. لم يستطيعوا ذلك

في الماضي وبالتالي فانهم لا يستطيعونه اليوم. يجب ان

تفكر في البدائل بعناية: ١) السماح للسوريين بأن يصعدوا

ما قد بدأه رأيي مدرك المشكلة التي سوف نواجهها في هذا

الحبار، ار ٢) دفع الفلسطينيين الى التصرف بطريقة أسرع

انتشارا مما يفعلون الان. وفي نظري ان هذا البديل الاخير

يتطلب منا التحرك، وعن هذا سوف ابرق لك غدا.

بروان

والحزب الشيوعي اللبناني يلقي بعض التشجيع من الاتحاد السوفييتي. انهم منقسمون فيما بينهم الى مجموعة اكثر اعتدالا - هي منظمة التحرير الفلسطينية (م.ت.ف.) ، هذا اذا جاز لنا اعتبار عرفات معتدلا. ثم هناك المجموعة السورية وجم راديكاليو جنبلاط جنبلاط يتلقى المساعدة من ليبيا والعراق وقليل من السوفييت والى حد ما من مصر لأن مصر غاضبة جدا على سورية.

الاصطفاف العربي غريب سورية المفترض انها تقف تقليديا في صف الراديكاليين تطور الوضع بحيث صارت تقف الى جانب المسيحيين والمسلمين المعتدلين وتحاول الحفاظ على النظام القائم. فإذا انحرف لبنان في الموجة الراديكالية فسوف يزداد تدفق السلاح من الاتحاد السوفييتي فتجد سورية نفسها محشورة بين لبنان وإيران. الاسد يريد تفادي هذا الخطر. وسورية تريد ايضا السيطرة على م.ت.ف من خلال «الصاعقة» واستبدال عرفات برجلها [زهير] محسن، وزيادة قوتها في العالم العربي. جنبلاط يميل طبيعيا الى تحطيم المسيحيين لذلك فإن دور سورية بناء جدا ويخدم مصالحنا على المدى القريب. ولكن على المدى البعيد، الخوف الاسرائيلي من التدخل العسكري السوري وجيه، لأن سورية تستطيع تدعيم قوتها خلال سنتين واحتلال موقع يمتد من لبنان عبر الاردن ويشكل خطرا راديكاليا رئيسيا تمشيا مع تقاليدنا السابقة العربية السعودية تلعب دورا بالغ التعقيد، في تأييدها م.ت.ف من اجل كبح تجاوزاتها ولكنها تعارض الراديكاليين. انها تريد ان ترى انتصارا سياسيا سوريا ولكنها ليست تريد ان تتدخل سورية عسكريا يبدو ان الاردن منحاز كليا الى جانب السوريين على الاقل اذا حكمنا على ما قاله [الملك] حسين عندما كان هنا.

الرئيس: قال لنا حسين انه يؤيد التدخل العسكري. قال ان الاردن صوّى الراديكاليين العام ١٩٧٠ ولدى سورية فرصة رائعة لاستكمال هذه المهمة الآن.

كيسنجر: سوف يكون ذلك جيدا لسنتين او ثلاث. وهو صحيح بالنسبة لجبهة الرفض وسوف يؤدي الى تحقيق الاستقرار في المنطقة كلها. ولكن فيما بعد قد ينمو النفوذ السوري اكثر مما يجب، وسوف تضطر للنعاطي مع مشكلة ضخمة.

لقد إنهارت تسوية ٢٢ يناير التي إنجزها السوريون عندما تفكك الجيش وانحاز المسلمون الى جانب الراديكاليين. هكذا أرسلت لنا سورية مذكرة رسمية تطلب فيها نصيحتنا بصدد تدخلها عن طريق وحدات عسكرية نظامية لوقف القتال واستعادة النظام. اتصلنا بالاسرائيليين الذين قالوا انهم سوف يتحركون الى جنوب لبنان اذا دخلت وحدات

حد يتحدى المنطق. ونحن ننصح كلا من اسرائيل وسورية بضبط النفس.

رامسفيلد: الوضع يستعصي فعلا على المنطق كما حاول هنري البرهنة عليه امام قيادة الكونغرس هذا الصباح.

الرئيس: جازوا مشوشي الذهن حول الموضوع، كما هي حالتهم عادة.

سنوكروفت: رجاؤنا درهم لا يزالون مبلبلين ولكن على مستوى ارقى.

«الاصطفاف العربي غريب، سورية المفترض انها تقف تقليديا في صف الراديكاليين تطور الوضع بحيث صارت تقف الى جانب المسيحيين والمسلمين المعتدلين».

كيسنجر: يجب ان يعرفوا تماما مدى تعقيد الحالة وان يفهموا ان الامر ليس مسألة دفع قوات [عسكرية] الى لبنان ببساطة. اذا كان الرئيس يحتمل ذلك سوف أستعيد التقرير الذي قرأته هذا الصباح.

الصراع على علمنة الدولة

في الاساس، توجد ثلاثة مستويات متداخلة تفعل فعلها هنا: النضال المحلي تخصيصا حول اعادة توزيع السلطة؛ النزاع بين المعتدلين والراديكاليين بما يتضمنه من تأثير القوى الخارجية؛ والاعتبارات المتعلقة بالعلاقات العربية. ان تقاسم السلطة لا يزال قائما على اساس الاحصاء السكاني للعام ١٩٣٢ الذي لا يمنح المسيحيين رئاسة الجمهورية وحسب وإنما ايضا معادلة ٦ الى ٥ في الوظائف الادارية العليا ومقاعد مجلس النواب. غير ان اجمالي السكان ليس [يقصد العكس] ١٠ - ١٥ ٪ فلسطينيا والباقي قد يكون ٦٠ ٪ من المسلمين. وهكذا فإن هذا الضغط يتراكم من اجل إعادة توزيع السلطة وهذا مستوى واحد من مستويات الصراع.

المستوى الثاني هو النزاع بين المعتدلين والراديكاليين داخل المعسكر المسلم، فالمسيحيون جميعا تقريبا معتدلون او محافظون. في الجانب العربي، يوجد جناح معتدل يريد الحفاظ على الوضع القائم، وعلى النظام القائم. الجناح الراديكالي يريد علمنة الدولة وبالتالي حرمان المسيحيين من موقعهم ودفاعاتهم. مثلما الحالة في روديسيا وجنوب افريقيا، ترى الاقلية الى تسليم مواقعها على انه تهديد لوجودها ذاته. هذه الاجنحة تتلقى الدعم من الخارج. المسيحيون يتلقون السلاح من اسرائيل، وهذا ما لا تعارضه طالما انه يساعد على الحفاظ على التوازن. والجناح الراديكالي يحظى بدعم قوي من ليبيا والعراق

سورية نظامية وقالوا انهم قد يعتزلون عددا لقل - لا يزيد عن فوج ولكن هذا كائن ملتبس - اذا بقيت القوات شمال طريق بيروت - دمشق. وهكذا اذا ادخلت سورية قوات نظامية، سوف تدخل اسرائيل وهذا سوف يقلب التوازن العربي برمته ويجبر سورية على مهاجمة اسرائيل. لن يعتزل السوريون الوقوف مكتوفي الايدي ومواجهة تهمة تجزئة البلد من اجل إقتسامه مع اسرائيل. سوف يضطرون الى الهجوم. وسوف يكون على السعوديين والاردنيين ان يؤيدوا سورية واما ان مصر خارج الصورة عسكريا، سوف تقع ككرة اذ تكتسح اسرائيل بسرعة وتسحق سورية وسوف يتدخل السوفييت ائذاك وتواجه قطع النفط.

«لم نشأ إسرائيل عن إعادة تموين المسيحيين بالسلاح واننا نؤيد أن تتولى سورية قطع الإمدادات العسكرية على م. ت. ف.»

«اذا دخل الاسرائيليون الجنوب سوف يصعب اخراجهم» لهذا كنا نؤيد الخطة السياسية السورية في ٢٢ يناير [الوثيقة المستورقة] ولكننا قلقون من إجتياح سوري وهذا ما سوف يعطينا الفرصة لتسمية علاقة ثقة مع سورية بالمساعدة على تلبية حاجاتها الحد الأدنى مرة اخرى بعد اننا البلد الوحيد القادر على الحديث مع كل الاطراف واننا مسيطرون على الوضع بطريقة جيدة للحظة الراهنة مع انه ليس مؤكدا كيف سوف يتطور هذا الوضع. لقد استخدمنا السعوديين لحث م.ت.ف. على ضبط النفس ولم نن اسرائيل عن إعادة تموين المسيحيين [بالسلاح] واننا نؤيد ان تتولى سورية قطع الامدادات العسكرية على م.ت.ف. يحرا ويرا ولم تعترض اسرائيل على تحركات البوارج الحربية السورية ارسلوا لنا مذكرة تحتج على سلاح البحرية [السورية] فرددنا ان بلدا مسؤولا عن دعم فريق من اصدقاء النزاع يجب ان يبذل كل الجهود لوقف القتال. نعلم الآن انهم مضطرون من اجل وقف لاطلاق النار. لدينا وفقا لاطلاق النار لكنه هش. نحتاج الى تسبته براون يؤدي مهمته على اتم وجه. ولكننا لا نستطيع ان نسبق السوريين كثيرا.

الحاجة الكبرى هي تأسيس سلطة مركزية، ونمة ثلاثة طرق للقيام بذلك:

واحدة ان تتوصل كل الاطراف الى اتفاق فيما بينهم وهذا مستحور فيه جدا. اثنين، ان توافق كل الاطراف على انتشار عناصر مسلحة تابعة لقوة مركزية موضوعة تحت إمرة الرئيس. وهذا يتطلب

من بحريه قركات
الاستشارة الداية
التي تركة على اسم
انصادي قتل منصب
رئيس الاصيلي
الفيروالي ١٩٩١-٢٠٠٢

من ان نتحدث الى م.ت.ف. في واحدة من تلك الاطراف. ثلاثة تسلك المزيد من القوات السورية الي لبنان بدلا من الدخول العلني لعدد كبير من القوات النظامية. لقد تعاوننا تعاوننا ونبقا مع السوريين الى الآن تحرك فوج الى طرابلس يهدوء خلال عطلة نهاية الاسبوع. وقد قطعوا طرق الامداد بالسلاح يحرا في طرابلس وسواها. وهم يفرضون بذلك الحصار على وصول السلاح الي اليساريين ارضا ويحرا. لم نن السوريين عن افعالهم ولا الاسرائيليون فعلوا. حاليا الاسرائيليون يتواطون ولكن سورية لن تستطيع ان تذهب بعيدا لن تستطيع ان ترسل قوات نظامية بأعداد كبيرة. القوات النظامية السورية [منظمة] «الصاعقة» وجيش التحرير الفلسطيني مجرد فريق من اربعة افرقاء اليسار اللبناني. م.ت.ف. والمسيحيون هم الآخرون الى الان لم يفلت الوضع من السيطرة ولكن اذا جرى تصعيد الموقف نتيجة الدخول السوري وأعقبه تدخل اسرائيلي في الجنوب، سوف تقع حرب عريضة لن تقف اسرائيل داخل الحدود فقط. ولكننا سوف نتقدم نحو نهر اللباني. وانا وصلوا الى هناك لن نستطيع ان نخرجهم منه ايدا. سوف يكون الامر مثل العام ١٩٦٧. وانا دخلوا وتمركزوا نمة احتمال كبير لاندلاع حرب كبيرة علينا التخطيط لذلك.

مخاطر اندلاع حرب وأكلافها

رأسي الشخصي انه اذا اندلعت حرب جديدة علينا ان نخمدنا بسرعة وان نستخدمها نقطة انطلاق لحل المشكلة الشرق اوسطية بمجملها. اعتقد ان حربا جديدة، تزيد احتمال تدخل السوقيات بشكل او بآخر. لن يسمحوا بسحق سورية مرة ثانية ان سمح السوقيات لبلدان عربية يسلمونها ويدعمونها ان تنهزم للمرة الرابعة. سوف بشكل اهانة كبيرة لهم. وربما ان ذلك سوف يؤدي الى نهاية الاسد والارجح ان الاردن سوف يدعم سورية عسكريا ويتعرض للسحق هو ايضا. وسوف تدعم العربية السعودية الاثنين ايضا وتقطع إمدادات النفط. وسوف تضطر مصر الى التدخل والطريقة الوحيدة لوقفها [الحرب] هو طلب وقف اطلاق نار يهسم [العمل من اجل] تسوية شاملة [للصراع العربي الاسرائيلي].

روكفلر: لن يقتصر الامر على قطع إمدادات النفط لدى العرب موجودات اميركية بقيمة عشرين مليار دولار يمكنهم سحبها. سوف يكون البتر رهيبا.

كيسنجر: تقول «غريغسيان» ان الطريقة الوحيدة ليعاقب الاوروبيون الغربيون على مستوى معيشة ضمن

«ليتول الاسرائيليون تسليح المسيحيين»

كيسنجر: في حال نشوب حرب جديدة، سوف تضطر الى ضخ قوات في المتوسط لردع السوفييتة. تقديري ان احتمال تحرك سوفييتي هو اكبر الآن مما كان في الماضي.

الرئيس: متى تجهز الخطط؟

هابلاند: يوم الثلاثاء، سيدي الرئيس، سوف ننجز تحيين للخطط نحن نستقبل الآن المعلومات الاستخبارية. لدينا خطط طوارئ بخصوص الاجلاء في سيناء ولبنان. وزارة الخارجية تعمل على خطط طوارئ سياسية ودبلوماسية. ولكن يصعب التأكد مما سوف تكونه الظروف؛ لذلك لن نستطيع ان اكون بالغ الدقة. لدينا ايضا خطط طوارئ اقتصادية مستفيضة تشمل قطع إمدادات النفط الكامل او الجزئي [كيفية مواجهة] المصاعب المالية. لقد انجزت «السي. إي. إي» للتو تحيينا لمخزون العالم الحر من النفط والنفط المنتج خارج دول «أوبك». نحن متقدمون جدا عن العام ١٩٧٣. ولدينا قوات في تلك المناطق. ونحن في حالة تأهب. ان تخطيطنا لحالات الطوارئ يتبلور بطريقة جيدة الى حد كبير.

سنوكروفت: سوف يتعين علينا ايضا وضع تقرير واحد منسق عن الوضع للحيولة دون الارتباك الذي حصل في الماضي.

كيسنجر: لقد تعلمنا الكثير. تعلم ان السوريين مدعورين من الاسرائيليين بحيث يجب استبعاد فكرة الهجوم السوري استبعادا شبيه كامل. اتنا نبالغ في اهتمام اسرائيل بدخول لبنان ولكن سورية ليست على أهبة شن حرب إن امكن تفاديها. فقط فيما لو اضطروا الى دخول لبنان ودخل الاسرائيليون ايضا. تعلمنا ايضا ان السوفييات ليسوا مهتمين بحرب. انهم يساعدون الحزب الشيوعي اللبناني بعناصر أخرى محلية، بما فيها ح.ت.ف.، ولكنهم بالجملة عامل ضبط نفس. ان الحزب الشيوعي اللبناني شديد التعارن لكن يبدو ان السوفييات ينصحون السوريين بعدم التدخل. انهم يريدون الاحتفاظ بكميكتهم وأكلها في الآن ذاته. السوفييات لا يبحثون عن المشاكل ولكنهم قد يُجبرون على التحرك بدلا من خسارة كل مواقعهم في الشرق الاوسط في حال اندلاع حرب جديدة.

سنوكروفت: رضع مصر سي.م. قد يحتاجون الى اسبوع للاستعداد وسوف تهزم سورية في تلك الانتفا.

الرئيس: متى تنتهي مهلة وقف إطلاق النار في لبنان؟

كيسنجر: يوم الاثنين لكن الامور تسير باتجاه جيد لذلك فلدينا اسبوعان. يجب ان ننشئ قوة ما ولو مؤلفة من عناصر رئيسية من اجل فرض نوع من الامن. فكرنا في منطقة حيادية ولكن كثيرة هي العناصر الاجرامية غير المنضبطة وما احد يفرض

امكاناتهم هو بفضل الودائع العربية. فاذا خرج السعوديون والكويتيون من دائرة الجنيه الاسترليني، سوف ينهار الجنيه. فاذا دخلت سورية علينا بذل جهد كبير لابقاء اسرائيل خارجا. سوف يترتب علينا ان نصوغ اقتراحا يبقو سورية شمال طريق بيروت - دمشق ونضع جدولا زمنيا لانسحابها. اذا تحركت سورية، تقضي مصالحتنا ان نحاول ابقاء اسرائيل خارجا. ولكن الافضل ان نتوصل الى حل دون ان تتحرك سورية.

للتوصل الى حل قد تضطر لطلب إذنك للتعامل مع ح.ت.ف. سيدي الرئيس. لن يكون ثمة تغيير في موقفنا من ح.ت.ف. في المسألة الشرق اوسطية ولكننا لسنا ملتزمين تجاه اسرائيل بان لا نتحدث مع ح.ت.ف. عن الوضع في لبنان حصار. قد يساعدنا ذلك بالنسبة للوضع في الشرق الاوسط.

«السوفييات ليسوا مهتمين بحرب. إنهم يساعدون الحزب الشيوعي اللبناني وعناصر أخرى محلية، بما فيها م.ت.ف. ولكنهم بالجملة عامل ضبط نفس».

الرئيس: لدينا فكرة إجلاء قبالة الشاطيء، اليس كذلك، يا رورن [كنية دونالد رامسفيلد]؟

رامسفيلد: نعم، سيدي (يقدم للرئيس خريطة تبين الموقع) كيسنجر: لسنا مضطرين لمواجهة مسألة ح.ت.ف. الآن ولكننا قد تضطر لذلك لاحقا. سوف اعود اليك حول هذا الموضوع.

الرئيس: ماذا عن جهود الوساطة الفرنسية؟

كيسنجر: انهم قطع من بنات آوى. جاؤوا الينا ناقلين طلبا سوريا ان نردع الاسرائيليين واقترحوا فكرة الضمانات الدولية. حذرناهم اتنا لا نراهن على وقف اسرائيل لكننا قلنا لهم اتنا نحتاج الى معلومات محددة حول نوايا سورية لتكون لنا فرصة لذلك. قالوا ان السوريين صدّوهم وقالوا [الفرنسيون] للاسرائيليين شيئا مختلفا تماما. إن «الكاي» [الكاي دورساي] مقر الخارجية الفرنسية [مليء بالديغوليين الذين يمارسون سياسات مكافلية رخيصة. لا ينطبق هذا على جيسكار ولكن على العديدين ممن هم حوله من حملة الاتجاهات الديغولية اللامسؤولة.

الرئيس: هل لدينا خطط للطوارئ؟

رامسفيلد: يوجد فريق عمل يجب ان يجتمع لوضع تلك الخطط سنوكروفت: لقد اجتمع فريق العمل فعلا وجرى تحيين كل الخطط العسكرية منها والسياسية والاستخبارية والاقتصادية.

الامن عليهم ان ينفذ منطقة عازلة من دون قوة مد بوش: هل تصديق ما يقوله الاسرائيليون لنا عن الوضع العسكري للمسيحيين؟

كيسنجر: تحدث بزاوية الى الزعماء المسيحيين وتحدث ملحقنا العسكري مع مسؤوليهم العسكريين. نعتقد ان بإمكانهم الصمود لثلاثة اسابيع في حال وقع هجوم جديد ولكن قد يحدث الكثير من الاضرار في صفوفهم خلال تلك الفترة.

رامسفيلد: جاءنا الملحق العسكري اللبناني طالباً السلاح والذخيرة فلنا له ان يقدم طلبه عبر القنوات الدبلوماسية الى وزارة الدفاع.

كيسنجر: ليتول الاسرائيليون هذا الامر. انهم يسلحون المسيحيين اصلاً.

رامسفيلد: لدينا حاملة الطائرات «ساراتوغا» تبعد عن لبنان مسير ٢٤ الى ٣٦ ساعة.

الاميرال هولوي: يستطيعون تقديم الدعم الجوي في غضون ١٢ ساعة.

في أسوأ السيناريوات، سوف نضطر لاستخدام بعض القوات الأميركية التابعة للحلف الأطلسي.

رامسفيلد: لدينا أيضاً «غواداكالا» وهي اقرب من ٢٤ ساعة من بيروت. الى ذلك، نستطيع استخدام النقل الجوي او النقل البحري للمدنيين او العسكريين.

افهم ان المسار المشترك بين الوكالات شغاله يجري إزاحة القبار عن الخطط وتعيينه. سوف نعمل على ان لا يكون ثمة فجوة في النقل في المتوسط بعد ان يراجع الفريق المشترك بين الوكالات الخطط سوف نتخذ اجراءات اخرى.

ستوكروث: نستطيع ان نعقد اجتماعاً ثانياً لمجلس الامن الوطني.

رامسفيلد: سوف تكون خططنا جاهزة للنظر فيها يوم الثلاثاء القادم مثلاً عن الاحتمالات العسكرية مثلاً عن دور الاردن؟

الاردن وسورية على طريق الوحدة التغييرية
كيسنجر: في آخر مرة كنت هناك شعرت ان بعضهم يميل نحو اتحاد فيدرالي بين الاردن وسورية ثمة عدد كبير من المؤشرات لاحتمال ان يتحقق ذلك ان الاردن وسورية يقتربان جداً واحدهما من الآخر لغير صالح العربية السعودية.

الرئيس: انطباعي من [الملك] حسين ان الاردن وسورية وثيقة الصلة طالما ان الاسد في الحكم لما اذا جاء فرد أكثر راديكالية الى السلطة في دمشق فسوف يتعد الاردن.

كيسنجر: ان الاردن يلعب لعبة خطيرة. انهم يقولون للسوريين كل شيء يحدث لن نستطيع ان نقول لهم ما كنا نقوله في السابق بعد الآن.

كيسنجر: انت على حق يا هنري. ان الاردن يلعب لعبة خطيرة جداً. انهم يمشون على يرض. واذا نجحوا في تحقيق تفاهم كامل مع سورية حول لبنان، فهذه مشكلة.

كيسنجر: تلك مسألة فرعية السوقيات هم المسألة الكبرى انا انتقلنا الى نزاع جديد. لن تلقى اسرائيل مشكلة مع سورية والاردن.

ستوكروث: والآن تستطيع اسرائيل ان تلتف حول الجولان من خلال لبنان ولم تعد مضطرة لتسليق الجبال.

رامسفيلد: لدينا مسألة ما اذا سوف يطلب من قواتنا المشتركة ارساء المراسي ام لا. الفارق في ذلك هو ال ٢٤ ساعة المطلوبة للوصول الى لبنان، لأنهم سوف يضطرون الى إشعال المراحل وما الى ذلك.

الاميرال هولوي: لم تعد هذه مشكلة حقيقية الآن. نستطيع تجهيز السميتات [هليكوبترات] للاجلاء في غضون ٢٤ ساعة على ان وحدة تنفيذ المهمات سوف تحتاج الى الرسو لتخفيف الضغط على افرادها. نحن فيهم «المارينز» ولكن ليس للتو. صحيح ايضاً ان الابعار يكلف أكثر من الرسو. يوجد موقع للرسو مقابل السواحل التركية الا ان سفيرنا متردد في طلب الاذن من الاتراك ونحن لا نحتاجه الآن. ولكن خذوا بعين الاعتبار ان فترة طويلة في البحر تضعف من الجاهزية بعض الشيء. نطرح الامر الى الوزير [رامسفيلد] اذا اقتضى الامر اللجوء الى الرسو.

رامسفيلد: سوف تكون خططنا جاهزة يوم الثلاثاء. هل نلتقي مجدداً الاسبوع القادم؟

الرئيس: ما هو جدول اعمالنا؟ هل سوف اكون في المدينة نشاينوي؟ سوف تكون في تكساس نهاية هذا الاسبوع ولكنك في المدينة طوال الاسبوع القادم.

الرئيس: لنعقد اجتماعاً جديداً نهاية الاسبوع القادم.

رامسفيلد: خلال حرب اكتوبر [١٩٧٣] عانينا من مشكلة مع حلفائنا في الحلف الأطلسي، لم يريدوا منعنا الاذن باستخدام أراضيهم في أسوأ السيناريوات. سوف نضطر لاستخدام بعض القوات [الاميركية] التابعة للحلف الأطلسي على انه عندما..... [عبارة او عبارات معذوفة] جاء كانوا متوترين. قد لا نستطيع الاعتماد على ايطاليا او ألمانيا في المرة القادمة ولذلك قد تضطرن خطة الطوارئ الى ان لا نوضع قواتنا في بلدان الحلف الأطلسي خصوصاً هذين البلدين.

[هنا ينتهي القسم المخصص للبنان وينتقل الاجتماع
لبحث التطورات المتعلقة بكوبا، المداخلات الاربع الاخيرة
محدرفة بواسطة سطور من النقاط]

إدخال سورية وابقاء اسرائيل في الخارج
الرئيس: دعونا نجتمع ليس بعد يوم الخميس.
كيسنجر: اعتقد ان لدينا وضعاً متحسناً وقد أجدنا السيطرة
عليه. إذا ما دخلت سورية على الرغم من جهودنا، يجب ان
نبدل قصارى جهودنا لابقاء الاسرائيليين في الخارج.
الرئيس: عندما كان حسين هناك، قدّر ان المسيحيين قد
يصمدون للأكثر من ٤٨ ساعة. وهذا ما لم يحصل.
كيسنجر: لست اعتقد ان هجوماً شاملاً سوف يشرّ على
المسيحيين. يجب ان نحافظ على موقفنا ايّاه. فلا نشرح معنى
E و E يعني حتى لا نزعج الناس بسبب وجود الاسطول
ولا نتحدث عما اذا كان ثمة من انزال للماريز ام لا. نرسل
تهديدات للآخرين ونقلّم لهم الاعذار لما سوف يفعلون او
يحجمون عن فعله. لقد كانت تحركات الاسطول مفيدة.

**روكفلر: «أليس لدينا نفوذ على إسرائيل؟ مع كل ما
نقدمه لهم، لماذا لسنا نستطيع أن نقول ببساطة
لإسرائيل أن لا تدخل؟»**
**كيسنجر: «نريد أن نبقي تهديد إسرائيل قائماً
للوّقت الحاضر».**

نائب الرئيس: اليس لدينا نفوذ على اسرائيل؟ مع كل ما
نقدمه لهم، لماذا لسنا نستطيع ان نقول لاسرائيل ببساطة ان
لا تدخل.
كيسنجر: نريد ان نبقي تهديد اسرائيل قائماً للوقت
الحاضر. انه امر صحي. ولكن اذا ما تحركت سورية يتعيّن
علينا ان نضع مصالحنا في الصف الاول.
بوش:

.....

.....

رأسفيلد:

.....

بوش:

.....

سنو كرفت:

.....

.....

TOP SECRET (U//FOUO)

-48-

President: Don't we have leverage over Israel? With all we are giving them, why aren't we simply told Israel not to go on?

Secretary: We must be very clear about Israel's demand for arms. That is healthy. That is Syria's reason. Must we insist on our leverage there?

Staff:

Secretary:

Staff:

Secretary:

President: There is something else I would like to take up today--our contingencies in action against Odeh. Where do we stand?

Secretary: The plans are not very good. We will meet on Tuesday to revise them.

President: Let's put them ready between now and Thursday.

Secretary: We can discuss all the contingency planning at once. Odeh and the Shabab fleet.

Secretary: We will be ready for serious NATO meeting the end of next week.

Secretary: We must keep our eye on the strategic concepts, our Africa policy is not being put the strategic level action could come through North Vietnamese as well as Odeh. If this principle is accepted, it would be very

TOP SECRET (U//FOUO)



Minutes of the National Security Council meeting regarding U.S. troop movement in Lebanon. The troops will try to maintain the ceasefire. White House. TOP SECRET. Issue Date: April 7, 1975. Date Declassified: May 26, 1984. Unreviewed Document. 16 pages. Reauthorized in Declassified Documents Reference System. Hampton Hill, N.Y.: Gale Group, 2007.

Document Number: DK3100102730

[Top of Page](#)

DISCLAIMER: Best copy possible from original. If legible text has been omitted, page numbers or similar to pages displayed, not original pagination.

Page 4 of 4

[View Text](#) [Page 1 of 1](#) [PDF](#) [GO](#)

[Home](#) | [Advanced Search](#) | [Help](#) | [Search Tips](#) | [About](#) | [Link Collections](#) | [Contact Us](#) | [Privacy Policy](#) | [Terms of Use](#)

1975-04-07

الصفحة ١٢ من محضر جلسة «مجلس الأمن القومي» عن لبنان وبلدان أخرى بتاريخ ٧ أبريل ١٩٧٥.

رامسفيلد: المشكلة هي المال المصروف على ساعات الايجار.

[يبقي المحضر مخصص لايحاءات تتعلق بالاعلاقات العسكرية داخل الحلف الاطلسي]

٤ • كيسنجر يتوقع سقوط عرفات ويخشى سقوط الأسد

البيت الأبيض

واشنطن

محضر معاداة

الحضور: الرئيس فورد

الدكتور هنري كيسنجر، وزير الخارجية

دونالد رامسفيلد، وزير الدفاع

يرت سنوكروفت، مساعد الرئيس لشؤون الامن الوطني

الزمان: الثلاثاء ١٣ ابريل ١٩٧٦

المكان: المكتب البيضاوي.

الرئيس: ما الذي يجري في لبنان؟

كيسنجر: ان مشكلتنا الكبرى الان هي مصر التي تريد ان

تخرج السوريين.....[كلام محذوف] عرفات

بطالك مصر ياخراج السوريين.

كيسنجر: «قد يطاح به [الرئيس الأسد] على أي حال. لقد حكم لمدة أطول من أي حاكم سابق... سوف نتفتح لنا نافذة فريدة على السلام في العام القادم».

الرئيس: كان عرفات يهاجم مصر منذ فترة.

كيسنجر: اعتقد اننا على ما يرام في مسارنا الحالي

واعتقد ان التطورات اللبنانية سوف تثبت في المدى البعيد

اعتقد ان عرفات سوف يفقد نفوذه لصالح [منظمة]

«الصاعقة» [المالية السورية بقيادة زهير محسن]

وهذا ما سوف يرفع الفيتو الذي تضعه منظمة التحرير

الفلسطينية على التشاؤمات السورية الخطر هو ان يطاح

بالرئيس الأسد.

الرئيس: ولكن اذا نجح هذا، ان يعزز ذلك من موقعه [الاسد؟]

كيسنجر: قد يطاح به على أي حاله لقد حكم لمدة أطول

من أي حاكم سابق، وانا صرح توقعي، سوف نتفتح لنا نافذة

فريدة على السلام في العام القادم

الرئيس: ان يساعد ذلك على التجديد لقوات حفظ السلام

كيسنجر: لقد تحققنا من ان الاسد خائف حد الموت

من الاسرائيليين.

الرئيس: ماذا عن الاسطول السادس؟

كيسنجر: اعتقد انه يتعين علينا ابقائه حيث هو الى حين

انتخاب رئيس لبناني جديد

DISPATCH 174 881005-2286

ACTION COPY

Department of State

TELEGRAM

CONFIDENTIAL

NODIS

NOV 1976

PAGE 01 BEIRUT 03265 1300171

16
ACTION 0003-08

INFO OCT-01 180-08 /081 W

243707

O 130722Z APR 76
FM AMEMBASSY BEIRUT
TO SECSTATE WASHDC IMMEDIATE 9502

CONFIDENTIAL BEIRUT 0260

FOR SECRETARY FROM BROWN

E.O. 11652: GDS
TASS: PINS, PINT, LE
SUBJ: PHASE ONE AND A HALF

1. ALTHOUGH WE HAVE BEEN TALKING ABOUT A SYRIAN POLITICAL INITIATIVE, WHICH WE MORE OR LESS SUPPORT, CONTRASTING IT WITH SYRIAN MILITARY INTERVENTION, AGAINST WHICH WE HAVE WARNED, IT IS APPARENT THAT MIDDLE GROUND EXISTS BETWEEN THE TWO CONCEPTS AND THAT THAT IS WHERE WE ARE IN FACT AT PRESENT. CALL IT PHASE ONE AND A HALF, OR WHAT YOU WILL, WE ARE NOW RPT NOW FACING A SYRIAN POLITICAL INITIATIVE BACKED UP BY ENOUGH SYRIAN CONTROLLED TROOPS TO BE CONSIDERED AT LEAST HALF WAY TO OUTRIGHT MILITARY INTERVENTION.

2. THE BUILD UP HAS BEEN GRADUAL, BUT THERE IS NO LONGER ANY DOUBT ABOUT IT, AND IF LEBANON'S NEIGHBOR TO THE EAST HAS NOT OVERLY DISTURBED LEBANON'S NEIGHBOR TO THE SOUTH THE SAME CANNOT BE SAID ABOUT LEBANESE LEFT AND THE PALESTINIANS. THESE GROUPS, FIRST INFORMED THAT THERE WAS NO SIGNIFICANT BUILD UP, ARE NOW FACED WITH A FACT ACCOMPLI, SOFTENED ONLY BY THE ALLEGED ASSURANCE (OBVIOUSLY FALSE) THAT THE INTERVENTION IS DESIGNED TO STRENGTHEN THE POSITION OF THE LEFT. ASSAD'S TOUGH SPEECH DRIVES FOR FAST THOUGHT THAT THE SYRIANS WILL NOT LET AMARAT OR JUMHAYAT OBSTRUCT SYRIAN ACTIONS.

BROWN

CONFIDENTIAL

NOT TO BE REPRODUCED WITHOUT THE AUTHORIZATION OF THE EXECUTIVE SECRETARY

برقية براون إلى كيسنجر، ١٢ أبريل ١٩٧٦.

٥٠ تدخل سوري ضد جنبلاط وعرفات

٦٠ لا نية للحوار ولا للاتصال لدى «الجبهة اللبنانية»

وزارة الخارجية/تلغرام

صفحة ٠١ بيريوت ١٣٢٦٥٪ ١٦٢٠٠٣٠٠١٦/

١٣ نيسان الساعة ٧ ر ٢٢ دقيقة ١٩٧٦

من السفارة الامريكية، بيررت، الى نظارة الخارجية،
راشنتنطن، فوري ٩٥٥٢

مكتوم confidential بيررت ٣٢٦٦

[عبارة محو بالحبر الاسود]

الى وزير الدولة من برارن

الموضوع: الفترة واحدة ونصف

١. مع اتنا كنا نتحدث عن مبادرة سورية سياسية، تؤيدها
الى هذا الحد، لذلك بالمقارنة مع تدخل عسكري سوري،
الذي حذرنا منه، فالظاهر انه يوجد منطقة رسطى بين
المفهومين ونحن فيها في الوقت الحاضر. سمها فترة واحد
ر نصف، او ما شئت، اتنا الآن - اكرر الآن - نواجه مبادرة
سورية سياسية مدعومة بما يكفي من القوات [العسكرية]
الواقعة تحت الامرة السورية، ما يجعلنا على الاقل في
منتصف الطريق الى تدخل عسكري سافر.

٢. تحت عملية بناء القوات بطريقة تدريجية، ولكن لم يعد

«إذا كان جار لبنان الشرقي لم يزعج جار لبنان الجنوبي على نحو سافر فلا يمكن قول شيء ذاته عن اليسار اللبناني والفلسطينيين».

هناك شك فيها، إذا كان جار لبنان الشرقي لم يزعج جار
لبنان الجنوبي على نحو سافر فلا يمكن قول الشيء ذاته
عن اليسار اللبناني والفلسطينيين، فهذه المجموعات، التي
أبلغت اول الامر انه لا يوجد حشد للقوات ذر شأن، تواجه
الآن الامر الواقع، لا يخففه الا الضمان المزعوم (وهو كاذب
بداهة) بأن التدخل [العسكري السوري] يهدف الى تدعيم
مواقع اليسار. يدعو خطاب الاسد القاسي الى التفكير
السريع بأن السوريين لن يسمحوا لعرفات او جنبلاط
بعرقلة الخطوات السورية^١

بروان

١. خطاب الذي يثيره
بروان القاه الرئيس
المدني في مهرجان
لشبيبة البحث في ١٢
نيسان الجويل ١٩٧٦،
وشن فيه هجوم ما عتفا
على الحركة الوطنية
ومنظمة التحرير واصفا
قاداتها بالمجرمين الذين
يرسحون ويشترون في
المساساة والثورة قبل ان
يطعن تصميم بلاده على
التدخل في لبنان للدفاع
عن كل مضطهد ضد كل
مضطهد ..

وزارة الخارجية/تلغرام

مكتوم

الصفحة ١ بيريوت ٣٢٩٧ ٠٣٢٩٧ ١٢/ ١٤٠٧٥٨٪

نسخة عدد ١ من ١٥ نسخة

١٤ ابريل ١٩٧٦، الساعة السابعة وعشر دقائق

من سفارة الولايات المتحدة بيررت

الى ناظر الخارجية راشنتنطن دي سي فوري ٩٥٧٠

مكتوم بيررت ٣٢٩٧

عبارة مشطوبة بالحبر الاسود

الى الوزير من برارن

الموضوع: زيارة يوم ١٣ نيسان الى جونية - انطباعات عامة

١. لدي عدد قليل من الانطباعات عن زيارتي لجونية يوم
١٣ نيسان. الاول هو الهاجس الامني الكاسح والافتناع
بأن سورية هي وحدها القادرة على توفيره يدرك البعض ان
توفير غطاء دولي للسوريين سوف يكون حذرا. معظم [الذين
قابلتهم] مقتنعون بأن الاسد «ظيف الكف» (حسب تعبير [بيار]
الجميل) ولكن بعد سنوات عديدة من العداء التقليدي الماروني
- السوري لا يزالون مرتبكين بعض الشيء تجاه هذا التطور.

٢. الانطباع الثاني هو انه يوجد تحسن الى حد ما في الثقة
[بالولايات المتحدة] مقارنة مع الوضع الذي كان قائما حين زيارتي
السابقة. قال [الاباتي شربل] قسيس، رئيس الرهبنة المارونية، انه
وجد تأييدا متزايدا [لقضية الموارنة] في اورشوا وهو العائد من
زيارة اليها. طبعاً، اسهم خطاب الاسد [في تحسين جو الثقة] كما
اسهم ايضا بتجدد زيارتي، اذا كان لي ان اصدق ما قيل لي تكراراً.

٣. الانطباع العام الثالث هو انه لا توجد رغبة حقيقية
في الحوار مع الطرف الآخر، ذلك ان هوة انعدام الثقة من
الاتساع بحيث لا يمكن تجسيرها.

٤. بالمناسبة، لعل [بيار] الجميل هو الاكثر مردنة [بين قادة
«الجبهة اللبنانية»]. قال إنه بات مستعداً الآن للاتصالات الى
اي اقتراح تقريبا يتعلق بتعديل الدستور مع انه ذات مرة
لم يكن مستعداً حتى للنقاش في اي تعديل للدستور. فإذا
ما سنحت فرصة للحوار، فليعمل الجميل سوف يكون المرشح
الابرز لتمثيل الجانب المسيحي.

بروان

وزارة الخارجية لتلغرام

مكتوم

صفحة ١ - بيروت ٣٥٤٥ - ٢٢/١٢/٢٠١٦

٢١ أبريل الساعة ١١ و٤٥ دقيقة ١٩٧٦

من سفارة الولايات المتحدة بيروت

الى وزير الخارجية واشنطن دي. سي. ٩٦٩٢

مكتوم بيروت ٣٥٤٥

[عبارة مشطوبة بالحبر الاسود]

للموضوع بعض الأفكار عن للوارنة

١. كلما أمنت التفكير في حالة الانتقادات الصادرة عن الوارنة والموجهة لاتفاق دمشق، كلما بدا لي ان الحديث الى الزعماء الوارنة من جديد وبسرعة يك أمرًا جوهريًا يجب ان نعالج ابقائهم متحيزين على المسار الذي وضع لاتخاذ رئيس جديد [للجمهورية] تبدو انتقاداتهم للوهلة الاولى على انها عقبة عكرة، لكنها تكبر مثل كرة الثلج من حيث الاهمية خصوصا انا صدقت انباء اليوم المتعلقة بشروط خريجة الجديدة للتوقيع على الاتفاقية التعاليل الماروني الناتج عن ذلك يخلق مثالا اضافيا عن ظاهرة كلاسيكية من ظواهر هذه الازمة: قابلية التردد السياسي لاحداث إنهاء أمني ذلك ان القوى النافذة من المركز [التقسيمية] خوية جدا والأهواء ملتصبة وفرض وفزع اشتباكات أكثر من ان نحصى، والمتدخلون سواء الداخلون منهم او الخارجون أكثر تواخرا من ان يردعهم اي رادع اللهم الا التطور السياسي اللاهواة فيه حتى لو كنا في احسن الاحوال في معرض المعاكسة غير مأمونة التكمج

٢. لا بد من الاعتراف بأن الشكوى المارونية من اتفاق دمشق تحمل بعض المنطق ان يرى المرء فرقتين غير لبنانيتين يعطيان الدروس في السياسة اللبنانية أمر متبر للحنق ولا شك والمساخر المسيحية حول مثل هذه الامور مفهومة على اني لا استطيع منع نفسي من التفكير بأنه يوجد جانب متعل لغضبهم فقد تدمروا سابقا من ان سورية لا تستطيع ان تجعل الاطراف اليسارية والفلسطينية الرئيسية فائتي البرنامج السوري، والآن عندما تتحرك سورية لتصلح اليسار من خلال الفلسطينيين اذا الوارنة يقرعون ناقوس الخطر هل كانوا يتوقعون حقا ان يتم ذلك دون تلطيخ سيادة لبنان الملتطخة اصلا؟ اذغ الى هذا ان اكتشافهم المفاجيء ان الفلسطينيين سوف يلعبون دورا رئيسيا في عملية حفظ السلام لا يوحى بالصدقة فقد كان للفلسطينيين دور في اللجنة المشتركة السابقة ايضا كل ما تغير هو ان الفلسطينيين هم الان اقوى وان الجيش اللبناني قد انقرط -

٧ يوم ١١ نيسان وكنت
الكتابة لعمري
ونظرة لجزر
الفلسطينية اثنا خمس
على إقراره متفاني
فلسطيني ذو جهود
ودف اشكال في الحرب
البنانية.

وهذان تطوران رئيسيان بالتأكيد ولكن الاكيد انه لا مفاجآت في هذه المرحلة يساورني شعور ان هدفا ضمنيا غير معان يمكن جزئيا وراء التذمر الماروني، مستند إما من دعد بالدعم من طرف خارجي ما او من استمرار الاعتقاد الذي لشعرون من انه يستطيع تدويل الازمة ما يجعلها اسوأ مما هي عليه

٣. اذا ما قابلت الزعماء الوارنة، ما الذي ينبغي ان اقول لهم؟ يمكن تقديم بعض النقاط المذكورة اعلاه على سبيل الصداقة طبعاً، ودون الزعم بوجود دولفغ ضمنية واستطيع ايضا ان اقول ان المسيحيين ليس عليهم ان يؤيدوا كل النقاط الواردة في اتفاق دمشق اذا كانوا لا يريدون ذلك - فقد كان [الاتفاقية] في التحليل الاخير، مجرد إعلان رأي لطرفين معنيين ولم يكن التزاما مقبدا لكافة الاطراف - على ان المسيحيين لا يجوز ان يستخدموا مثل هذا الخلاف كمناسبة لعرقلة مسار الحل السياسي ان هذا المسار لذو اهمية فائقة ان تفسيرا مغفقا لاتفاق دمشق كما قدمه شعرون قد يفيد هناك وفوق اي شيء آخر، فالمسار مفيد للمصالح المسيحية خصوصا ذلك ان استمرار القتال سوف يؤدي على الأرجح الى المزيد من التدهور في وضعهم فجاء اليسار والفلسطينيين وليس العكس على الوارنة ان يلعوا بعض الكرامة بصدد السيادة اللبنانية لفترة من الزمن ذلك ان هدف التسوية بالذات هو تحريك مسار تستعاد السيادة اللبنانية بموجبه في نهاية المطاف وانا هم في قنصهم على الاتفاق لا يفعلون غير تأخير اليوم الذي يستطيع فيه لبنان ان يرفع رأسه عاليا من جديد

٤. بالنسبة للفلسطينيين خصوصا اقترح ان نفتح الوارنة أن اقصى ما يستطيعون الطموح اليه بانتظار انتهاء النزاع العربي - الاسرائيلي هو حالة عدم اعتماد وليس حلا حقيقيا ان صيحات الهلع حول خرق الفلسطينيين للسيادة اللبنانية هو انا غير منكب طالما جرى التوصل الى تدوير قابل للنجاح اذا اعترف المرء بوجود ثغرات في هذا العالم غير الكامل، فبني لن استبعد ان يفرض السوريون تطبيق اتفاق القاهرة ضد الفلسطينيين

٥. ثمة امر آخر يتعلق بالحل المسألة ان الثاني من ايار هو تاريخ انتهاء الدورة العادية للبرلمان ويده دورته التمديدية في الشرعية المتعددة التي غالبا ما يلجأ اليها السياسيون هناك بسود شعور أن انتخابات رئاسية بعيد ذلك التاريخ سوف تكون أقل «شرعية» مما لو حصلت قبلها بغض النظر عما اذا كانت هذه النظرة صائبة ام لا، يمكن دوما استخدامها بما هي هراوة سياسية ضد الرئيس.

بروان

تعقيب

١. يثير اجتماع مجلس الأمن الوطني موضوع الاستعدادات الحربية التي تدارتها القيادة الاميركية العليا واتخذت القرارات بشأنها. يبدو من المذكرات ومن ما نعرفه عن تلك الفترة ان الولايات المتحدة اتخذت اجراءات استباقية ورقائية تحسباً لاحتمال نشوب حرب عربية اسرائيلية جديدة قد تشتمل على تطورين بارزين: الاول قطع امدادات النفط العربي لارربا واميركا وسحب الارصدة والودائع العربية منها؛ والثاني مشاركة الاتحاد السوفيتي في الحرب لمنع اسداء هزيمة جديدة لسورية.

من جهة ثانية، لا شك ان البحث في خطط إجلاء سوف يغذي رداية مؤامراتية تقول ان دين برارن جاء الى لبنان لتنظيم إجلاء المسيحيين من لبنان وتسليم البلاد للسوريين وللمسلمين من يقرأ الوثائق لن يجد انرا اذ راقعة لبرهان تدعم هذه الرداية الشائعة، لا من حيث السلوك السياسي للادارة الاميركية - الذي لا لبس في انحيازه الى «الجبهة اللبنانية» - ولا من حيث ترتيباتها العسكرية. مهما يكن، يصعب ايجاد تفسير واضح لماذا جرى تخصيص سيناء ولبنان بمهمات الاجلاء اذا كان الغرض هو مجرد اجلاء الرعايا الاميركيين فقط.

٤. هل تمت لقاءات اميركية - فلسطينية خلال الفترة التي تغطيها الوثائق؟ قال كيسنجر خلال جلسة مجلس الأمن الوطني الارلي انه قد يطلب إذن الرئيس فورد للاتصال بمنظمة التحرير الفلسطينية. تضمنت تعليماته لدين برارن ان يجري اتصالا ما بالفلسطينيين فهل إتصل برارن بمسؤولين في منظمة التحرير الفلسطينية خلال زيارته لبيروت؟ نفى الطرفان ذلك. أعلن برارن في مطلع مهمته انه لن يجتمع بمنظمة التحرير الفلسطينية ورّد ممثلو الفصائل الفلسطينية عليه بالتي هي احسن معلنين رفضهم الاجتماع به اصلا رهاجموا مهمته بنسب متفاوتة من الحدة ودفق تحليلات متباينة عن اهدافها «التأمرية» ومن جهة ثانية، أكدت رسالة مساعد وزير الخارجية للعلاقات مع الكونغرس روبرت ماكلوكسي، بتاريخ ٦ آب ١٩٧٦، الى ادلاي ستيفنسن، عضو مجلس الشيوخ، ان مهمة دين برارن في لبنان لا تتضمن اللقاء مع ممثلين عن منظمة التحرير الفلسطينية، لأن هذه الاخيرة لا تعترف بدولة اسرائيل.

٢. الوثائق ناقصة عندما يتعلق الامر بمقابلة برارن جنبلات وادم الواضح ان تعليمات كيسنجر قضت بفك ارتباط جنبلات بياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية وتوجيهه نحو التعارن مع سورية. تفيد تقارير السفارة الاميركية نقلا عن الصحافة اللبنانية ان برارن أظن في مديح جنبلات وبرنامج الاصلاح للحركة الوطنية اللبنانية في لقاء مع الفعاليات الاقتصادية. ولكن يتبين مما تناقلته الصحافة ذاتها يومي ١٢ و١٣ نيسان مدى الدهشة والارتباك اللذين ينتابان جنبلات ازاء طلائع التدخل العسكري السوري. يحسد انه يحظى بإجازة اميركية. وهو لن يصدق حجة برارن الكاذبة الذي بلغه أن دور القوات السورية التي عبرت الحدود يقتصر على فتح طرقات التموين. من جهة ثانية، يعرب جنبلات لجريدة «المحرر» (١٣ نيسان) عن خشيته من ان يؤدي التدخل السوري الى تدخل اسرائيلي. اما إده فكان سباقا الى إتهام كيسنجر بالسعي الى عقد اتفاقية سلام بين سورية واسرائيل من خلال الحرب اللبنانية (الوريان لوجور، ٢٤ كانون الثاني/يناير ١٩٧٦) وان الولايات المتحدة قررت منح سوريا لبنان بديلا عن الجولان.

٥. في مذكراته، اعترف كيسنجر بصراحة ورضوح بادره في تنظيم الدخول العسكري السوري الى لبنان والمحاولة دون تدخل اسرائيل عن طريق تنظيم «الخطوط الحمراء» الشهيرة. ولكنه في تلك الفترة من العام ١٩٧٦ كان جل همّه التموه على هذا الدور. وهذا ما تكشفه برقية من كيسنجر الى وزير الخارجية السعودي الامير سعود الفيصل،

كذبة كيسنجر

٣. يلقي محضر مجلس الأمن الوطني ضوءا كاشفا على رجه لم يظهر بالوضوح الكافي في ادبيات الازمة اللبنانية

بتاريخ ١٥ حزيران/يونيو ١٩٧٦، موجهة الى الملك خالد والامير فهد، ولي العهد تلقي الرسالة ضوءاً كاشفاً على اسلوب المراوغة الذي مارسته الدبلوماسية الاميركية آنذاك بين الاطراف العربية المختلفة يدعو كيسنجر الملك السعودي الى لعب دور في وقف النزف في لبنان والانتقال الى الحل السلمي السياسي. ويسجل عملاً اسفرت عنه الوساطة السعودية بين ممثلين عن سوريا ومصر وعن «حظ تلك الجهود من الوصول الى نتائج ايجابية» ويستمرج آراء السعوديين عن فكرة تشكيل قوة ردع عربية لوقف القتال في لبنان، متحفظاً عن مشاركة ليبيا فيها، مشجعاً على مشاركة السعودية على انه يهتم الوثيقة على وصلة من الكذب الكيسنجري الصريح حول دوره في التدخل العسكري السوري في لبنان. يقول في الفقرة F:

«نعتزف بأن لسورية دوراً مهماً تلعبه في حفظ السلام وأنه من الجوهري ان يبقى الرئيس الاسد في موقع يمكنه من لعب ذلك الدور. وكنا قلقين من ان تترتب على التدخل العسكري السوري في لبنان نتائج غير محسوبة على مستقبل عملية السلام واستمرارية في التعذيب من ان يؤدي تصاعد التدخل الى تنامي المخاطر وقد دُفِعنا إذ سمعنا ان البعض في المنطقة يشبه في أننا تعاوناً مع سورية في افعالها في لبنان لم نُسْتَشِر طبعاً يصعد التحركات العسكرية السورية ولا نحن شجعناها بل على العكس من ذلك حذرنا مراراً ضدّها في الوقت الذي نعتزف فيه بأنه توجد عوامل عديدة يتوجب على الرئيس الاسد ان يوازن بينها في اتخاذه قراراته وصحيح اننا نجحنا الى الآن في اقناع اسرائيل بأن لا تزيد في تعقيد الامور برود الافعال تجاه التدخل العسكري ولكنه من الخطأ الكبير الاستنتاج من ذلك انه كان ثمة تواطؤ من اي نوع بين الولايات المتحدة وسوريا واسرائيل كما إتهم البعض».

٦. وافقت احزاب «الجبهة اللبنانية» على التدخل السوري بعد تأكيدها من ان الحكومة اسرائيل ليست تنوي التدخل عسكرياً في النزاعات اللبنانية حينها. تكلفت الاتصالات التي اقيمت في ايلول/سبتمبر ١٩٧٥ عن طريق جورج عدوان مع السفارة الاسرائيلية في باريس، فقطعت شوطاً من التفتك في شهر آذار/مارس بالذات مع زيارة جوزيف ابو خليل الى فلسطين المحتلة، مبعوثاً من يشير الجميل ولقائين منفصلين عقداً بين نافيد كيمعي ونيامن بن البعازر (نفوذاً) مع يار يشير الجميل وكميل وداني شمعون في بيروت الشرقية. تعهد الطرف الاسرائيلي خلال تلك الاتصالات بمنح حربي الكتائب والاحرار السلاح والذخيرة

أ. راجع عن هذه الفترة
جوزف ابو خليل، قصة
الطريق في الحرب
ب. ذاتية، بيروت
فرقة الطوفان
الفرقة والفن
الطريق ٢٠٠١
Main Mahragas, Les
arts de la guerre
du Liban, Paris,
Albin Michel, 2004.

والتدريب العسكري ولكنه كان فاعلاً في عدم الرغبة في التدخل عسكرياً في الحرب الاهلية

هكذا تدخلت سورية واسرائيل في وقت متقارب في الازمة اللبنانية وافتتحتا بالتالي ما اسماء اخرون «الحوار الرابع» الاسرائيلي - السوري على الاراضي اللبنانية الذي سوف يختل خلال حصار رحلة وازمة الصواريخ» في صيف ١٩٨١ ويستدعي وساطة المبعوث الاميركي فيليب حبيب لم يترك كيسنجر مجالاً للشك في التلاقي ولو المؤقت بين مصالح القوتين الاقليميتين فكتب في مذكراته «لقد شجعنا اسرائيل على ان تمدّ المسيحيين بالسلاح حتى في وقت كانت سورية تعمل فيه - مؤقتاً على الاقل - بصفتها حامية هؤلاء المسيحيين بالذات» (كيسنجر، المصدر ذاته ص ١٠٤٢) وكانت لكيسنجر اسباب اخرى لاعلان فرحته بما انجزته دبلوماسيته في تحقيق «تقريب الجبهات المتهمة» فسورية، الداعي الرئيسي لانفراك منظمة التحرير الفلسطينية في مفاوضات السلام (التي ترفضها الولايات المتحدة) تقاتل منظمة التحرير او تمتنع عن التدخل فيما الميليشيات المسيحية تعاصر الميخيمات الفلسطينية [الانفراة الى حصار ميليشيات الجبهة اللبنانية للمخيم تل الزعتر واسقاطه والانحدار السوفياتي حليف سورية الرئيسي أخذ في الانقلاب على دمشق بسبب الضغط السوفياتي والعسكري الذي مارسه على الفلسطينيين ولم يفت كيسنجر تسجيل مفارقة ان تكون مصر «المعتدلة» هي الطرف الذي يدعم «الراديكاليين» (كيسنجر، المصدر ذاته ص ١٠٤٨) في المقابل لم تتحقق معظم توقعات كيسنجر، لم تنسب حرب المملكت ان كيسنجر كأنه كان يتمناها على أمل ان يعترض من خلالها حله الشامل للصراع العربي الاسرائيلي. ولم يسقط بأسر عرفات عن قيادة منظمة التحرير الفلسطينية لصالح «الصاعقة» ولا سقط حافظ الاسد عن الحكم في سورية هنا ايضا كانت توقعات كيسنجر الدراماتيكية اقرب الى سيناريو فيلم كايوي اميركي يتواجه فيه عرفات والاسد فيفضي واحدهما على الآخر في مبارزة فوق ركام الحروب اللبنانية

ن. طه

منظمة دول عدم الانحياز: تاريخ الأحلام في دول الجنوب

فيجاى براشاد

إلى آراء كريشنا مورتى

بدون علاقات
الدولة في كلية
تريبيتيه ولولايت
للجنة آخر كيه
«الاسم الدائنة اللون»
تاريخ العلم الثالث
من وجهة نظر
الشعب» (٢٠٠٧)
هذا الفصل جزء
من كتاب له صدر
قريبا بعنوان «الاسم
الأكثر فقرا تاريخ
ممكن للجنوب
الكوني» (٢٠١٧)

في العام ١٩٢٨، اجتمع خاتمة الحركات المناهضة للاستعمار في بروكسل خلال لقاء لعصبة مناهضة الاستعمار. كانت تلك المحاولة الأولى لخلق منصة عالمية لتوحيد الرؤيات الخاصة بحركات مناهضة الاستعمار في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. بسبب ضيق الوقت وشيخ الحرب العالمية الثانية لم يحدث أي تقدم في تلك المسألة. سينتظر الأمر حتى ١٩٥٥، في يانغون، باندونيسيا، حين أرسلت مجموعة من دول إفريقيا وآسياوية مستقلة حديثة أو شبه مستقلة، قادتها للتشاور حول برنامج عمل عالمي. أسست دينامية يانغون لـ «مشروع العالم الثالث» وهو ما بدا أنه مجموعة غير متجانسة من المطالب التي درست بدقة في مؤتمرات الأمم المتحدة، وأصبحت في العام ١٩٦١، «منظمة دول عدم الانحياز».

«يواجه العالم الثالث أوروبا اليوم باعتباره كتلة خالقة يجب أن يكون مفرغها إيجاد حل لمشكلة لم تتمكن أوروبا من إيجاد حل لها» (فراز فائز، ١٩٦٦).

مشروع العالم الثالث

إن الموجة الكبيرة للحركات المناهضة للاستعمار التي بدأت مع الثورة الهايتية (١٧٩١ - ١٨٠٤)، وأصبحت كيانا مستقلا في نهاية القرن التاسع عشر، ما لبثت أن قوّضت شرعية السيطرة الاستعمارية لم يعد من الممكن أن يقال إن القوة الأوروبية مقدّر لها أن تحكم الشعوب الأخرى. حين كانت تلك المعامرات الكولونيالية تعصل، كانت تتعرض لهجوم باعتبارها غير أخلاقية.



«مشروع العالم الثالث» للدول الأكثر فقراً المتأثرة بالحركات الشعبية وبفشل القيمة الرأسمالية: سلام، خير، عدالة.

والامتيازات التي اكتسبتها
القوى الأطلسية والقواعد
التجارية الموضوعة لحماية
تلك الامتيازات الترابية.
تعدى اقتصاديون أمثال راوول

برييس الأرجنتيني (أصبح

لاحقاً المدير العام لـ «منظمة التجارة والتنمية» التابعة للأمم
المتحدة) المؤسسات الأطلسية مثل «الغلات» (الاتفاقية العامة
للتجارة والتعرفة الجمركية) وصندوق النقد الدولي الذي
سمّاه «مؤامرة ضد قوانين السوق» وحين تولى برييس
منصبه في «منظمة التجارة والتنمية» الدراع الاقتصادية
لـ «مشروع العالم الثالث» أعلن عن الحاجة إلى «نظام جديد
في الاقتصاد العالمي» كي تعمل الأسواق بشكل صحي
ليس فقط من أجل الدول الكبرى بل أيضاً من أجل الدول
النامية في علاقتها بالأولى، انطلاقاً من تلك الرؤية العامة،
كان «مشروع العالم الثالث» يعاير لإعانة النظر بأجندة
«التجارة الحرة» ومن أجل أسعار أفضل للمسلح، ومن أجل
وجود تكتلات لإدارة بيع المواد الأولية (ومنها أوبك) ومن
أجل سياسة أكثر كرمًا في تحويل الاستثمارات والتقنيات
من الشمال إلى الجنوب، بعدما حاربتها الدول الأطلسية
في كل مكان، وجدت دول العالم الثالث ملاذاً في الجمعية
العامة للأمم المتحدة مع قرار إنشاء النظام الاقتصادي العالمي
الجديد في ١٩٧٣. كان ذلك قمة «مشروع العالم الثالث»
ثالثاً، العدالة كانت منظمة دول عدم الانحياز، التي
تأسست العام ١٩٦١، بمثابة أمانة سر - «مشروع العالم
الثالث» - تحملها مجموعة الـ ٧٧ في الأمم المتحدة. أدرك
مؤسسو المنظمة (نهر من الهند، عبد الناصر من مصر،
سوكارنو من اندونيسيا، وتيتو من يوغوسلافيا) أن جزءاً من
أجندتهم «يتعلق من دون بنية دولية أكثر ديموقراطية كان
الأعضاء الدائمون الخمسة في مجلس الأمن قد اختطفوا
الأمم المتحدة، وسيطرت القوى الأطلسية على صندوق
النقد الدولي والبنك الدولي، وأنشأت الدغلات» لتقويض
أي محاولة من قبل الدول الجديدة لإعادة النظر في النظام
الاقتصادي العالمي فكان الأمل بأن تستطيع منظمة دول
عدم الانحياز ومجموعة الـ ٧٧ الضغط على الغرب والشرق
لتوفير مساحة «سياسية للدول الجديدة» لم يتحقق ذلك،
شجى «مغير نهج» إلى الأمم المتحدة في بداية الستينات،
جاء واتسوكو، زملاءه لقبولهم بعدم المساواة داخل المنظمة
الدولية حين قال «هل «سيفي صبيان الشرقات» يشاهدون
ما يحصل من الشرقة فيما يسيطر الأعضاء الخمسة
الدائمون على النقاش داخل الأمم المتحدة؟

كان المفهوم العام لتلك الدول
الجديدة هو العالم الثالث لم يكن
العالم الثالث مكاناً جغرافياً كان
مشروعاً فائدة الدول الأكثر فقراً،
الذين تأثروا بالحركات الشعبية
وبفشل التنمية الرأسمالية، بحثوا

عن جدول أعمال خاص بهم على صعيد سياسي، أرادوا
ديموقراطية على مستوى دولي، لم يعودوا عبيد أسياهم
الاستعماريين، وأرادوا أن يكون لهم صوت وسلطة على
مستوى دولي، ماذا قال ذلك الصوت؟ تحدث عن عناصر ثلاثة
أولاً، السلام أصبح جلياً بحلول منتصف الخمسينات
وبداية الستينات أن الحرب الباردة بين القوى الكبرى كانت
كأثرية على العالم ليس فقط أن المواجهة التي تدخل
فيها العنصر النووية قد تنتهي بفناء البشر، لكن تبذير
الموارد الاجتماعية على «سباق التسلح» قد يخرّب إمكانية
التنمية البشرية بحلول الخمسينات، كانت الولايات المتحدة
الأميركية قد صرفت عشرة في المئة من ناتجها المحلي
الاجمالي على قطاع الدفاع مما أثار حنق الرئيس دوايت
أيزنهاور الذي اشتكى في نهاية العقد من نمو «المجتمع
العسكري الصناعي» لم يبق هذا المجتمع عند حدود
الولايات المتحدة الأميركية، كانت لديه طموحات كونية
أراد بيع الأسلحة لكل دولة وفرض قطاع أمني على برنامج
العمل الاجتماعي لـ «مشروع العالم الثالث»، ليس مستغرباً
إذا أن تكون المهمة الفعلية الأولى بعد تأسيس منظمة دول
عدم الانحياز في بلغراد هي إرسال نهر (الهند) ونكروما
(غانا) إلى موسكو، وسوكارنو (اندونيسيا) وكيتا (مالاي) إلى
واشنطن، وهم يحملون دعوة «المنظمة» إلى السلام، فلم
كينيدي وخورشيف الكليسيهات المعتادة، لكن لم يخفوا
من التوترات التي تعطلت مع بنك جدار برلين، والمواجهة
بين الديكتاتور في حاجز تسارلي (العبور بين الألمانيتين) لم
احتفظ «مشروع العالم الثالث» بولائه لبيان ياندونغ، الذي
دعا إلى «قوننة كل القوات المسلحة والاعتدلة وخفضها»
وتعديدها والسيطرة عليها، ومن ضمنها منع إنتاج أسلحة
الدمار الشامل، واختبارها واستخدامها وإنشاء فيود دولية
من أجل ذلك، كانت «وكالة الطاقة النووية الدولية» التي
تأسست في ١٩٥٧ ثمرة ياندونغ، وحجر الأساس في
«مشروع العالم الثالث».

ثانيه، الحيز اعترفت الأمم الجديدة في أفريقيا وآسيا
وكذلك أجندات أميركا اللاتينية المتجددة بوضوح بأن
الدول التي أصبحت تسيطر عليها كانت فقيرة، وكان أي
عمل للمضي قدماً سيواجه إرث الاقتصاد الاستعماري

مجموعة جي ٧ قررت تجنب أن تتحول الأزمة الرأسمالية إلى أزمة سياسية، إذ وجب أن تعالج على أنها مشكلة اقتصادية تقنية.

أزمة سياسية، إذ يجب أن تعالج
على أنها مشكلة اقتصادية
تقنية. كان الامر جيدا على
مستوى البلاغي المحض، لكن
لم يشكل مسكنا للأشخاص
الواقعيين في الغرفة.

هلموت شميدت، الذي كان المستشار الاشتراكي في
ألمانيا الغربية، تحدث بعده، قائلا:

«يا هارولد (ويلسون) من المملكة المتحدة، لقد تكلمت
عن الصناعات القابلة للحياة، واشرت إلى أن ذلك يستبعد
المشاريع الفاشلة. اعتبرت أن صناعة النسيج مثال على
ذلك. أنا صديق مقرب من رئيس نقابة عمال النسيج في
ألمانيا، انها نقابة لصناعة تتراجع. أمل أن لا ينقل ما أقوله
الى خارج هذه الغرفة. نظرا إلى مستوى الرواتب المرتفع
في أوروبا، لا أستطيع إلا أن اعتقد أن صناعة النسيج عندنا
عليها ان تنتهي في المدى الطويل. اننا غير قادرين على
حمايتها من المنافسة الخارجية الأرخص. ذلك مؤسف
لأنها صناعة قابلة للحياة؛ ورأس المال المستثمر في وظيفة
ما في صناعة النسيج في ألمانيا ويوازي في ارتفاعه رأس
المال المستخدم في مصانع الصلب الألمانية. لكن الأجور في
شرق آسيا منخفضة جدا مقارنة بالرواتب لدينا. ان صناعة
النسيج الألمانية قابلة للحياة، لكنها ستختفي خلال عشر او
اثنتي عشرة سنة».

بروز النيوليبرالية

هل هو توقع، او تواطؤ؟ لا يهم الامر. ما يهم هو بروز جغرافية
جديدة للنتاج، اي تفكك الفوردية الشمالية، وظهور تقنية
الصناعات اللاقطعة والكابلات البحرية، وانتشار الحاويات على
السفن، وتحولات تكنولوجيا أخرى التي مكنت الشركات
من استغلال الاختلاف في معدلات الرواتب. وفق شميدت،
يتعلق الأمر برواتب شرق آسيا.

الموضوع مألوف جدا. فهو يعتبر الأرضية لبروز
النيوليبرالية. ندرك من خلال كتب ديفيد هارفي المفيدة أن
النيوليبرالية قد اختبرت خلال أزمة بلدية مدينة نيويورك
ومن ثم جرى تصديرها الى بقية العالم عبر صندوق النقد
الدولي وتلامذته النجباء. لا تنتهي القصة هنا. ما لا يقوله
هارفي هو زوال «مشروع العالم الثالث»، وبالتالي فتح
دول الجنوب لجغرافية الانتاج الجديدة. كانت المقاومة ضد
الشركات المتعددة الجنسيات قوية الى حد كبير حتى نهاية
السبعينات، حين انطفأ «مشروع العالم الثالث» بعدما اغتالته
أزمة الديون المفتعلة. قد نتذكرون أن مركز الأمم المتحدة

كان ذلك «مشروع العالم
الثالث»: من اجل السلام، والخبز،
والعدالة. وصل على المسرح
العالمي وهو في فترة توتر. لم تكن
البيوت الداخلية للدول الجديدة
مرتبة. فإذا نقص الديمقراطية في

السياسة الداخلية، وسوء إدارة الموارد الاقتصادية وإعادة
الإعمار السطحية للمشهد الاجتماعي، تتضافر على تقييد
الدول الجديدة. ترددت الطبقات الاجتماعية القديمة أمام
الحركات الجماهيرية المناهضة للاستعمار، لكن مع تسريح
التخب القديمة، استدعت الجنرالات او السياسيين الشعبويين
اليمنيين لتكنيس الاضرار. تضرر «المشروع» بسبب تلك
النواقص، لكن لم يكن ذلك ما قضى عليه.
ما قضى عليه هو «المشروع الاطلسي».

المشروع الأطلسي

«ما من شيء مهم يأتي من الجنوب»

(هنري كيسينجر، ١٩٦٤)

في العام ١٩٧٥، اجتمع قادة الدول السبع الصناعية
في «قصر دو رامبوي» لتقرير مصير الكوكب: الولايات
المتحدة الاميركية، المملكة المتحدة، فرنسا، ألمانيا، إيطاليا،
اليابان، وكندا. كان اجتماع رامبوي أول لقاء رسمي لهم.
اهتمت مجموعة «جي ٧» بأربع مسائل، ثلاث منها اعباء
أرادوا التخلص منها:

١. الاجندة الاجتماعية الديمقراطية التي اتى أغلبهم
منها وقد أصبحت مكلفة (ليس فقط في موضوع الأجور
الاجتماعية التي توجب دفعها، بل في مسألة الأجور التي
يستحقها العمال المتململون).

٢. الاجندة الشيوعية، التي أصبحت أكثر اعتدالا، ولكنها
لا تزال قادرة على توفير بديل لهؤلاء العمال المستحقين.

٣. مشروع العالم الثالث، الذي كان مثاله الأبرز،
استخدام سلاح النفط في حرب تشرين ١٩٧٣ والمطالبة
بنظام اقتصادي عالمي جديد، قد شكلا صدمة حقيقية.

كان يجب تفكيك تلك المشاريع الثلاثة. اما المشكلة
الرابعة فكانت ذات طبيعة أكثر عمومية، وتبين أنها الحل
للمشكلات الاخرى المزعجة، انها جغرافية جديدة للنتاج.
افتتح جيرالد فورد الكلام في رامبوي بدعوى مفادها
أن الدفع الأبرز بالنسبة للقادة يجب ان يكون «التأكد من
ألا يعتبر الوضع الاقتصادي العالمي الحالي على انه أزمة
في النظام الديمقراطي او النظام الرأسمالي». وجب على
مجموعة «جي ٧» تجنب ان تتحول الأزمة الرأسمالية إلى

استخدمت أزمة ديون العالم الثالث من قبل بلدان الشمال لإصدار الأوامر من أجل تنفيذ التعديلات الهيكليّة.

كانكون العام ١٩٨١ المناقشة
تقرير برانديت السيء الصيته
حضر رونالد ريغان ومارغريت
ثاتشر لبرميان التعديدي سفر
ريغان من الاجراءات، خصوصا
تلك التي «تغلط التنمية بالتعاطف

وتعتبر أن نقل كميات كبيرة من الثروة سوف يخلق يعوكة
جديدة على نحو عجائبي» هكذا انتهى الحوار بين الشمال
والجنوب عملياً.

وهكذا تغلصت أروقة صندوق النقد الدولي والبنك
الدولي من الكينزيين والتمويين لم تعد القيادة مفتوحة
سوى للمفكرين الهامسيين والنيوليبراليين لم يعد لأستلة
التاريخ والسوسيولوجيا أي تأثير، الناتج الاجمالي العام
اصبح المتغيرة الوحيدة التي تهتم في صندوق النقد الدولي
اخلى بوهانس فيتيفين مكانه لجاك دولاروزير، وفي البنك
الدولي وتولى توم كلاوسن وأنا كروغر إزالة البقع التي
تركها روبرت مكنمارا، طردت الليبرالية من الباب العريض
بكل بساطة.

كان يجب تنظيف الأمم المتحدة أيضاً حين اعطى هنري
كيسنجر تعليماته الى دانييل موبينهان عند تعيينه مندوباً
للولايات المتحدة في الأمم المتحدة، قال له «أنا نحتاج
لاستراتيجية في المبدأ اظن أننا يجب ان ننقل تقرير الأمور
من الجمعية العامة الى مجلس الأمن، من المهم أن يبدو أننا
نمتنع باللقمة بالنفس ويجراء» أراد للولايات المتحدة أن
«تسيطر على الوكالات المتخصصة» مثل منظمة التجارة
والتمنية، والاونيسكو، وتحويلها الى «حضارة الأعمال
[البنزس]» الشماليّة

بعد استئصال تهديدات المشروع الأطلسي المؤسسية،
انتقلت الدجي (٧) لاستخدام أزمة ديون الثمانينات
لصلحتها، والرفع باتجاه نظام جديد للملكية الفكرية
والتجارية من أجل تعزيز مكتسبات الشمال ضد الجنوب.
وعند انعقاد اجتماع دول عدم الانحياز في نيودلهي العام
١٩٨٣، كان من الواضح أن مشروع العالم الثالث قد
استنفذ في وجه الهجمة الشرسة التي شنتها بلدان الشمال.
لم يتم التأسيس لاستراتيجية سياسية فعالة للتعامل
مع أزمة الديون، مع استعداد دول الجنوب تحت وطأة
الضرورة السياسية، لمقابلة ممثلي دول نادي باريس ونادي
لندن، الواحدة تلو الاخرى لتلقي اوامر تنفيذ التعديلات
الهيكليّة، وذلك لقاء تمديد آجال فروضهم دعت أصوات
اكثر راديكالية الى إضراب المدينين، لكن لم يلقى النداء أي
صدى، لم تكن المشكلة تتعلق بالدين نفسه (قالبوم مثلاً

الخاص بالشركات المتعددة
الجنسيات صرف جهد ثلاثة
عقود من الزمن لتعديد قواعد
السلوك الخاصة بتلك المؤسسات.
ثم تفكيك المركز في ١٩٩٢،
واصبح وسيطاً للشركات الكبيرة
عوض أن يكون ناظماً لممارساتها.

ان النيوليبرالية انبعت على نحو متعدد المراكز في
اجتماع «جي ٧» تأكيداً ولكن أيضاً في عواصم جرف
المحيط الهندي وفي «قطرات الجنوب» البازغة (في
البرازيل، والهند، وجنوب أفريقيا، والصين) كانت الطبقات
الحاكمة في تلك المجتمعات، شأنها شأن بنات عموميتها
الاوربية والاميركية تسعى لمدة طويلة الى التغلّي عن
الضوابط الثقافية للنزعات القومية القديمة أي متطلبات
دولة الرعاية الاجتماعية الديموقراطية في الدول الاطلسية
ومتطلبات مناهضة الاستعمار في دول العالم الثالث، في
قارات أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية وكانت جيوب
صغيرة من صناع الرأي في النخبة تكن الحقد تجاه التراث
المنهض للاستعمار، من تلك الجيوب ظهرت اجندات
ثقافية جديدة، بما فيها اعادة الحياة لمدرسة فون هابك
الليبرالية، وخاصة تلك الفائلة بوجود طرد الدولة من
النشاط الاقتصادي، فدر المستطاع، احتفلت وسائل الاعلام
الصاعدة بأفكار الفردية والنشاط الاقتصادي على حساب
أفكار التحرر الوطني الخاصة بالاشتراكية والصالح العام
كانت النخب النزقة تريد أن تنأى بنفسها عن الترامات
حقبة ما بعد الاستعمار، كانوا يريدون أن يعيشوا حسب
قول الشاعر الهندي نسيم اركيبيل:

في حفلات شواء سعيدة
يطبخون على أفران بتصاعد منها الدخان
ويصبحون في وجه الشعاعين من الباب الخلفي

كان مناسباً لهم أن دول حقبة ما بعد الاستعمار
فشلت في العديد من الطرق فاستخدموا الفشل للدفع
قدماً بأجنداتهم الخاصة انتجت تلك النخب نيوليبرالية
خاصة بها رداً على أزمة الديون نفسها التي فتحت بلدانها
لمصانع الشمال.

هكذا قضى على الحوار بين الشمال والجنوب
يعلول الثمانينات، عادت الكتلة الأطلسية وقد استجمعت
عزيمتها لتعارب ضد «منظمة دول عدم الانحياز» بضراوة
وضد أي ذكر لمنظام اقتصادي عالمي جديد، في لقاء

يوازي الدين الخارجي لكل الدول النامية ١,٣٨ تريليون دولار، مقابل ١,٢ تريليون دولار هو الدين الخارجي لفرنسا وحدها). تكمن المشكلة في عدم التناسب في القوة، حيث تقدر فرنسا على إعادة تمويل دينها عن طريق معدلات فائدة جيدة تمنحها كارتلات المصارف، مع مخاطر اقل من تلك التي تواجهها الدول الاخرى. ان الشمال يستطيع التحكم بالمصارف.

عوضا عن وجود نظام اقتصادي عالمي جديد يقوده الجنوب، وجب على دول العالم ان تعيش في ظل نظام ملكية عالمية جديدة، يقوده الشمال. غيرت جولة الأوروغواي من اتفاقية «الغات» نظام الملكية الفكرية، فأصبحت الهندسة العكسية، او نقل التكنولوجيا، غير شرعية. اصبح بإمكان الشمال وشركاته تصدير عملية انتاج السلع الى بلدان الجنوب، لكن القسم الاكبر من الأرباح الناجمة عن بيع تلك السلع سوف تستبقى بما هي إيجار للملكية الفكرية (وهو العملية التي انتجت «النمو غير المولد لفرص عمل» في الشمال، وإلى الاستهلاكية المشبعة

بالديون للقسم الأكبر من الشعب - اي عدم توازن اجتماعي الذي انفجر الآن عبر الأزمة العقارية، وسوف تنفجر قريبا عبر سوق القروض الشخصية).

في العام ١٩٨١، وصف الامين العام الجديد للأمم المتحدة، خافيير بيريز دي كوييار، الفجوة بين الشمال والجنوب على أنها «خرق لاكثر حقوق الإنسان اساسية»، وتعهد بأن تعمل الامم المتحدة لسد تلك الفجوة. المنظمة الدولية، تحت الوصاية الاطلسية اليوم، لم تفعل شيئا من هذا القبيل.

الموجة الأولى من «انتفاضات الخبز»

في فيلم محمد لخضر حمينا بعنوان «حوليات سنوات الجمر» (١٩٧٥)، يظهر نبي مجنون من المدينة ويلقي التحية على جمع من الفلاحين المتسخين. يمد لهم يده ويقول «كنتم فقراء وأحرار. أصبحتم الآن فقراء فقط!».

في ١٩٨٩، انتفض الفقراء من مدن الصفيح التي تحيط بمدينة كاراكاس ضد رفع تعرفه ركوب الباص التي سببها ارتفاع أسعار النفط. كانت تلك الانتفاضة اقوى من التي نظمت ضد صندوق النقد الدولي، أو ما عرف باسم «انتفاضة الخبز». انتشرت تظاهرات وحركات تمرد مشابهة في كل القارات، ووصلت اليوم إلى العالم الاطلسي (كما يتضح من الانتفاضات الاجتماعية في دول المتوسط، ودول

جنوب أوروبا، ومن «حزب الشاي» وحركات «احتلوا...» في الولايات المتحدة الاميركية). يجمع بين تلك الاحتجاجات خمسة مسارات على الاقل:

اولا، اجراءات التقشف المفروضة أولا في أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية باسم التعديلات الهيكلية، وأخيرا في العالم الاطلسي باسم الموازنات المتوازنة والمسؤولية الضريبية.

ثانيا، نسبة البطالة الكارثية في اطراف تلك المجتمعات، وخصوصا في الارياف حيث ألغت الزراعة الصناعية الحاجة ليد العاملة الماهرة، عبر استخدام تقانات عالية الكلفة وغير مستدامة. يتحدث تقرير منظمة العمل الدولية للعام ٢٠١١ عن نسبة مخيفة لمن هم على حافة البطالة تصل الى ٥٠,٣ في المئة. وطالبت المنظمة بعقد «اتفاق عالمي للوظائف»، يترافق مع استثمار اكبر للدولة في البنية التحتية و«تأمين اطار مراقبة

وتنظيم اقوى واكثر انتشارا عالميا للقطاع المالي، بحيث يخدم الاقتصاد الحقيقي، ويروج للشركات التنموية وللعمل اللائق والحماية افضل لمخدرات الناس وتعويضات تقاعدهم».

ومثلا يحصل غالبا في منظمة العمل الدولية، لم يحمل الاقتراح اي وزن عند بلدان الـ«جي ٧»، التي تعتبر القضايا العمالية دون المستوى.

ثالثا، سيطرة قطاع المال والعقارات والتأمين، الذي أدى بيعه الأصول باسم الخصخصة الى نسبة بطالة اعلى والى مستويات كبيرة جدا من اللامساواة الاجتماعية.

رابعا، زيادة حالات الجوع لدى مليارات من الناس. من روما، اعلنت «منظمة الأغذية والزراعة» (الفاو) أنَّ عدد الجائعين في العالم سيصل الى ١,٠٢ مليار هذه السنة. ولقد امضى المدير العام للفاو، جاك ضيوف، حياته المهنية كلها وهو يعمل في قضايا التغذية، سواء في مسألة الفستق، أو الأرز، أو

الزراعة أو المجاعة، كان ضيوف مناصرا واعيا لقضايا الغذاء والمجاعة. وحين اطلق التقرير الأخير، لم يتمالك نفسه من القول إنَّ «هناك خلطة خطيرة من التباطؤ الاقتصادي العالمي مندمجة مع ارتفاع عتيد في اسعار المواد الغذائية في عدد كبير من البلدان ما دفع بأكثر من مئة مليون انسان اضافي عن العام الماضي نحو الجوع والفقر المزمنين. إنَّ أزمة المجاعة الصامتة -

التي تطال سدس عدد سكان العالم - تشكل خطرا جديا على السلام والأمن العالميين». في ٢٠٠٨، طالت اعمال الشغب المتعلقة بالغذاء بوركينافاسو، والكاميرون، ومصر، وهائيتي،

واندونيسيا، والفلبين. وقد منعت فييتنام، والهند وباكستان

يظهر نبي مجنون من المدينة ويلقي التحية على جمع من الفلاحين المتسخين: «كنتم فقراء وأحرار. أصبحتم الآن فقراء فقط».

تصدير الحبوب خوفاً على أمنها الغذائي، فيما البلدان المستوردة للأغذية مثل اندونيسيا وكوريا ومنغوليا خفضت رسوم الاستيراد اعترفت صندوق النقد الدولي بأن أحد أسباب الثورات العربية خلال هذا العام كان ارتفاع أسعار الحيز، نتيجة نهاية «ديمقراطية الحيز» [أي دعم أسعار الحيز]. خامساً من السبب بما فيه الكفاية أن يضطر المرء أن يعيش عند حدود البقاء، لكن الأسوأ أن لا هذه الحالة ليست عامة على جميع السكان إن معدلات اللامساواة الاجتماعية بلغت أعلى مستوياتها للعصر الحديث برمتها يشير تقرير صدر أخيراً عن الأمم المتحدة، إلى أن الواحد في المئة الأغنى عبر الكوكب يملكون ٤٠ في المئة من الأصول العالمية والعشرة في المئة الأغنى يملكون ٨٥ في المئة من الأصول المالية العالمية. ويقول التقرير «لقد توقع البعض تحسن مآل لكن العقد الماضي بين زيادة في تركيز الثروة بين النخب والشركات والدول».

ثمة كلمة واحدة تجمع بين الاحتجاجات المتنوعة حول العالم هي كلمة «الانحلال» حركة «احتلوا دول» «ستريت» إلى ميدان التحرير في مصر، ومن أكواخ الصفيح في شارع كينيدي في تورين إلى قرى ولاية هاريانا الهندية يجري رفض سياسات النيوليبرالية بشكل مدور وما برز منذ التسعينات هو المقاومة أي تديد زخم سياسات النيوليبرالية الصادرة عن المؤسسات الوطنية والدولية ويشير «الجنوب العالمي» إلى سلسلة الاحتجاجات تلك باعتبارها ضد نهج الاملاك العامة وضد سلب البشر كرامتهم الانسانية والحقوق وضد تفويض

المؤسسات الديموقراطية ووعود الحدادة. إن الجنوب العالمي هو هذا الكون من الاحتجاجات وتلك الزريعة من النشاط الخلاق ولقد انتجت تلك الاحتجاجات خرقاً يصعب تعديدها تجاهه السياسي. بعضه عودة إلى الخلف، باللجوء إلى كيانات ماضوية متخيلة، أو إلى عالم مقدس وبعضه الآخر دفاعي معض يسعى للبقاء على قيد الحياة في الحاضر. ورغم ذلك يجد بعض آخر أن الحاضر لا يحتمل ويضعوننا باتجاه المستقبل.

من حوار شمال - جنوب إلى حوار جنوب - جنوب
كيف تصرف دول عدم الانحياز تجاه تلك التطورات؟ هل تمكنت من الخروج من الموقف الدفاعي الذي ميزها منذ الثمانينات؟ خلال قمة مجموعة دول عدم الانحياز في هانغوا في العام ٢٠٠٦، دعا الرئيس الفنزويلي هيغو تشافيز

إلى إنشاء لجنة جديدة تدرس الوضع الحالي وتقرّر اجندة «لا ترمي في مهب الرياح» كان يلمح إلى لجنة الجنوب، التي اطلق عملها في الثمانينات نظرية «قطارات الجنوب». رغم أن تقريرها نفسه «تعددي الجنوب» الذي نشر يوم اجتياح العراق للكويت نفسه في العام ١٩٩٠، لم يقرأ على شكل واسع. عملت «لجنة الجنوب» في مناخ غير ملائم خلال الثمانينات تجاهلتها بلدان الشمال، فجعلت من الضعف قوة إذ دعت إلى «تعاون جنوبي - جنوبي» وعرض أمنها العام مأخوذاً «مينغ وجهة نظر تقول إن «القوى الفاعلة الجديدة عليها أن توجد في الجنوب نفسها» وكان التفكير ذلك هو ما أدى إلى إنشاء مجموعة الـ ١٥ (خلال قمة مجموعة دول عدم الانحياز في العام ١٩٨٩)، ومن بعدها مجموعة «إيسا» (BISA) (الهند، البرازيل، وجنوب أفريقيا)، وأخيراً مجموعة دول «البريكس» (BRICS) (البرازيل، روسيا، الهند، الصين وجنوب أفريقيا) في العام ٢٠٠٩. وقد اعتبرت تلك البلدان على أنها قطارات الجنوب.

يقول تقرير صندوق النقد الدولي للعام ٢٠١١ إنه بحلول العام ٢٠١٦ لن تكون الولايات المتحدة الاقتصاد الأكبر في العالم تلك هي «إشارة على قدوم خريف» السيطرة الاطلسية، كما يقول المؤرخ فيرديناند برودبيل تظهر إشارات التراجع في الاساسيات الاقتصادية الضعيفة للدول الاطلسية مع اشتعال علامة الحذر الحمراء بنور ساطع فوق سيطرة القطاع المالي في الاقتصاد وتزايد النفقات العسكرية منذ العام ٢٠٠١، صرفت الولايات المتحدة وحدها ٧,٦ تريليونات دولار على حروبها على أجهزة الامن القومي الخاصة بها. يتوافق ذلك مع خلوصات كبيرة في النفقات الاجتماعية ومع زيادة الاعفاءات الضريبية للأغنياء (السنة الماضية كسب الواحد في المئة الأغنى في الولايات المتحدة متوسط خفض ضريبي يفوق متوسط دخل أكبر الـ ٩٩ في المئة البقيين). حين بدأ واضحاً أن خريف المملكة المتحدة حل على الأبواب في العام ١٩٢٥، أعلن وينستون تشرشل «أني أفضل أن أرى قطاع المال أقل كبرياء والصناعة أكثر اكتفاء» وتطبق تلك الكلمات الآن على «سيطرة التي تقارنها» «دول ستريت» و«حج السيتي» في لندن واسواق البورصة الأخرى على شريان حياة الاقتصاد الاجتماعي.

وفق توقعات صندوق النقد الدولي، ستصبح الصين أكبر اقتصاد عالمي في العام ٢٠١٦، لكن لا يبدو أنها

من حركة «احتلوا دول ستريت» إلى ميدان التحرير في القاهرة، ومن أكواخ الصفيح في شارع كينيدي في تورين إلى قرى ولاية هاريانا الهندية، يجري رفض سياسات النيوليبرالية.

تريد ان تفرض نفسها وحدها. تبدو الصين مستعدة لأن تتشارك المسرح مع دول مجموعة «البريكس» والدفع باتجاه التعددية القطبية والتنوع الاقتصادي.

لكن برنامج «البريكس» محدود لأسباب عدة:

أولا، تتبع السياسات المحلية لدول «البريكس» عموما ما يمكن تسميته «نيوليبرالية بطابع جنوبي» - أي بيع السلع والرواتب المنخفضة للعمال المترافقة مع إعادة تدوير الفائض بتحويله الى ديون لدول الشمال فيما مستوى معيشة سكانها لا يتحسن. فعلى سبيل المثال، يعاني الشعب الهندي من معدلات فقر وجوع مرتفعة، ومع ذلك نسبة النمو في ذلك البلد ترتفع باطراد. فعوضا عن تحويل الثروة الاجتماعية عبر دفعات مالية او خلق اجر اجتماعي آمن، يبدو أن الدولة تتبع نصيحة رئيس البنك الدولي روبرت زوليك بتحويل فائضها الى «مساعدة الاقتصاد العالمي ليتعافى من أزمته». هناك امر شاذ ومعييب في جعل «قاطرات الجنوب» تجرّ عربات «الشمال»، خصوصا أن «الشمال» تردد في السماح بألية تدوير جديدة خلال ازمة المديونية في الثمانينات.

ثانيا، لم يتمكن حلف «البريكس» من خلق أساس مؤسساتي جديد لسلطته الصاعدة. يستمر الحلف في المرافعة عن منظمة الأمم المتحدة اكثر ديموقراطية، ويطالب بالمزيد من الديموقراطية في صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. الا ان هذه المرافعات لم تحرز تقدما يذكر. خلال ذروة الأزمة المالية، وعدت «مجموعة الثمانية الكبار» ان تحل نفسها وان تستخدم «مجموعة العشرين الكبار» بديلا عنها. لكن نسي الأمر الآن. لم تسمح رفع حصص التصويت في صندوق النقد الدولي لصالح دول الجنوب بأن تتقدم بمشروع مشترك للمنصب التنفيذي للمجموعة الصيف الماضي.

ثالثا، لم يساهم تشكيل «البريكس» في دعم انتاج بديل ايدولوجي للنيلبرالية. تعددت الاقتراحات لإنشاء نظام اقتصادي أكثر استدامة، لكنها ظلت هامشية. تتيح «معادلة

ريو» الخاصة بـ«المعاملة المنفصلة والتفاضلية» للجنوب بأن يطالب بتنازلات من سياسات المنظمات الدولية التي يرفض الشمال بمساندتها (منها مثلا قضية التغير المناخي). ذلك هو موقف دفاعي. ولم يطرح بديل إيجابي حتى الآن. قد يبرز ذلك من الحراكات التي تبدأ من الأسفل، حيث لا يوجد شهية لترقيع نظام تراه معظم الناس على انه ساقط من اساسه.

رابعا وأخيرا، لا يملك مشروع «البريكس» قدرة على لجم السيطرة العسكرية للولايات المتحدة والحلف الاطلسي. حين تصوّت الأمم المتحدة للسماح «لدول اعضاء لاستخدام كل الاجراءات اللازمة»، كما فعلت في القرار ١٩٧٣ حيال ليبيا، تعطي شيكا على بياض للعالم الاطلسي ليتصرف باستخدام القوة العسكرية. لا توجد بدائل اقليمية لديها القدرة على العمل. تبقى قوة الولايات المتحدة كونه المدى مزودة بقواعد عسكرية على كل القارات، وبالقدرة على تسديد الضربات العسكرية في كل مكان تقريبا. لقد وهنت الآليات الاقليمية للسلام وحل النزاعات بسبب الوجود الكوني للحلف الاطلسي والولايات المتحدة. هنا تترجم القوة العسكرية الجبارة الى قوة سياسية.

وإذا نظرنا في احشاء هذا النظام، نجد أن الحلول لمشكلاته ليست جزءا منه. فمشكلاته ليست تقنية، ولا هي ثقافية كذلك. انها مشكلات اجتماعية تتطلب حلا سياسيا. ان التراتب الاجتماعي في الملكية والاخلاق والقوة، يتطلب مراجعة جذرية، من دون شك. القضية هي تحديد الاستراتيجية والتكتيكات والطريق للوصول الى مكان لا يشبه ما نحن فيه اليوم. ان «الجنوب الكوني» ساحة صراع عظيم بين تكتيكات واستراتيجيات متنوعة تطبق في الشوارع وفي اروقة الحكومات.

إنها قصة غير منتهية، قصة يجب ان تكون لها نهاية سعيدة.

أقنعة الماركسي غير الماركسي

وضّاح شرارة
كاتب من لبنان

الى زهير رحال

بنفسها و«إنتاجها نفسها» وتعددها من أفعالها وصنيعها على غير مثال «سابق أن منزل من غيب آخر. ولم يحسب ماركس نفسه على قول الشارح العتيق، لحظة في حل من «الأنوار» وميرانها. وفي صدارة الميراث «فكرة» إنسانية واحدة ومتصلة تخرج تدريجاً ولا إلى غاية ربما من ظلمات الانقياد الى غير لا يدرك ولا يحاط به ولا بأحوال العالم التي أحدثها، الى نور إيجاب ذاتي عام وجامع لا تغنى عنه على أصابعه وصناعاته، وهم أرادوها وعقلوها معاً وجميعها والخلاف هذا فريضة على مسألة لازم الأخذ والرد فيها المفالات التي ارتضت على قديم أو آخر، أو أرادت الصدور عن تلك التي وقعها باسمه كآرل ماركس، أو وسمها باسمه، أو (وهذا من خصائص «الانساب» الماركسية) احتكمت في التناول والتفكير والفعل إلى مقدمات ومنزج أحلتها محل المعايير والموازن ففردة «العمل» الماركسي أو فردة «جامع الأعمال» على خلاف فردة «العمل» الهيجلي أو الديكارتية مثلاً، مسألة أولى هي بمنزلة أصل من أصول «العمل» ومشاغله فعلى حدة من «سواد المفكرين والكتّاب والعلماء المعروفين لم ينفك كآرل ماركس ينسب «أفكار» ونهج في النظر والعمل، إلى حركة الجموع الغفل التي حمل نهج المعلن التاريخ وحوادثه وحقبه عليها وعلى «صراعتها» المبدد والقديم والمضمر، وهو ربما من أوائل من حرصوا حرصاً شديداً وملحاً على تعقب مصدر مقالاته وأحكامه ووصل هذه يتلك المصدر، أقوالاً كانت أم أفعالا وحوادث وحركات وأحوال. وبه في ملاحظات واضحة ومتواترة إلى ديونه الكثيرة – مثل دينه بـ «صراع الطبقات» الى المؤرخين الفرنسيين البورجوازيين، ودينه بمنزلة العمل من قياس القيمة الى الاقتصاديين الإنكليز، وفكرة الاشتراكية الى «المختبرات» الاجتماعية المتكاثرة

في وقت غير بعيد، لا يعود إلى أبعد من أربعة عقود، كانت تعزل مقالات ماركسيين مترجمين غير «سوفييتيين» هوى وعصبية أو إنسائيين معتدلين ووسطيين على ما سقوا على قوله أو قيل أجري على لسان المرجع نفسه ونصب وصية أو صاها (ساعة) الفصل والحق وهو يوشك أن يلاقي الوجه الكريم وأبلغ القيل هذا من يهمهم الأمر، وهم الانتصار والأشباح وأهل الصعبة والايان والاعتقاد والسنن المقتصدون أو الغالون، أن ما يعرفه القائل أو المحدث هو أنه هو، كآرل ماركس، ليس «ماركسي» أو ليس «ماركسي» (على صيغة التوكيد في معرض النفي، «لست بقارئ») وتحمل القيل هذا على رخصة تميز للذين يريدون الحفاظ على صلة رحم ونسب بمنشئ العلم أو الطريقة التعلل من الولاء المذهبي والعسكري الذي فرضته «الكنائس» الماركسية المعاصرة، وأبرزها «الكنيسة» الاشتراكية – الديموقراطية الألمانية وبأبواتها وكبار أصحاب الفتوى وأهلها الذين فآرغ المرجع بعض حججهم في أعوامه الأخيرة وقيل وفاته في ١٨٨٨. والشارح والمفسرون أؤلوا نفي الرجل انتسابه إلى مدرسة أو طريقة تعرف باسمه وتدعو إلى تقليده، وتبّت مسائل الخلاف والاجتهاد قبساً على «علم» وضعه وأكملاه، أؤلوا، رداً أو نقضاً على أشباح «الماركسية – اللينينية» الستالينية أو السوفييتية وعلى أحزابها وبيروقراطيتها هذه الأحزاب وجسم علومها المتناسك والقاطع. فذهب أحد هؤلاء الشراح والمفسرين الى ان تمام العلم المزعوم سبق القول به نسوة «علم» ماركس نفسه وهو يلازم القول بتمام التاريخ، واصلح الأضداد في «دولة حق» تدمج من غير يقية «سلطة العقل العام في كيان الجماعة المادي والعصبي» وإيجاب تمام العلم بخالف مخالفة صريحة ابتداء «الأنوار» و«سعرها» في رشد الإنسانية، وقبائرها

في أوساط حرفيي النصف الأول من القرن التاسع عشر الأوروبي والأميركي، وبـ«الوجه النشط» والمندبّر من الفعل التاريخي إلى الفلسفة المثالية الألمانية، وبـ«مهمة البروليتاريا» التاريخية إلى البروليتاريا نفسها... ولم ينفك فريدرش إنجلز، في مقالات تاريخية حقلية، شأن صديقه، يرد الحركات الاجتماعية والسياسية المعاصرة، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، على «بدايات» وأصول تعود إلى ثورة الفلاحين الألمان في أثناء الثلث الثاني من القرن السادس عشر، وحركة الإصلاح الديني البروتستانتي، وإلى الحركات العامة الإنكليزية طوال القرن السابع عشر قبيل «الثورة المجيدة» (١٦٨٨) وبعدها، وقامت الثورة الفرنسية «الكبرى» مقام المختبر التاريخي السياسي المباشر، والمعين الذي استقت فصول ١٨٤٨

و ١٨٧٠ منه بعض معالم طريقها أو طرقاتها.

فقلما وقع تاريخ المقالات والأفكار على «عمل» أو «جامع أعمال» أزهقته، على هذا القدر، مسألة مصادره ومقدماته المتحدرة إليه من أصول تقاليد سابقة، ولكن في معرض تسويق الثورة الحاسمة والباتة على «النظام القديم» وذبوله الغربية والمتناقضة، على زعم التعاليم والموجزات في الرأسمالية وتقويضها أركان «الإقطاعية». وعلى الصورة المهتزة والملتبسة

إياها، ترجح الخالفون والوارثون (الماركسيون) إلى يومنا بين مغلب كفة الاتصال التاريخي والمراكمة على كفة الانقطاع من التقاليد والأسانيد البورجوازية والديموقراطية، وبين حاسم قضية القطيعة والجدة غير المسبوقة والابتداء "البكر" (على قول الشاعر بول فرلين في معرض آخر) ومُنكر الدّين بشيء إلى زمن سالف ما لم يكن على وجه الابتكار والنسخ القاطعين. وتعصى موازنة الكفتين أو المذهبين محاولات الساعين في «الاتصال»، ومدعي التحكيم. فتسرع صفة التلقيق إلى هؤلاء وأولئك. ويدب شبه حرب أهلية في صفوف الخالفين والوارثين و«المراقبين» (من غير مدعي النسب) جميعا. والحق أن علل الحروب الأهلية، الفكرية والسياسية والمسلحة (على شاكلة انشقاقات الحركات الشيوعية الحاكمة أو المعارضة من الاتحاد السوفياتي إلى الصين وكوريا وكمبوديا وفيتنام واليمن الجنوبي...)، كثيرة.

وشطر راجح منها يعود إلى ملابسات العمل السياسي الطرفية والمحلية والاجتماعية والثقافية. ولكن انتسابها «الماركسي» المعلن يقودها، أو هو قادها على الأغلب إما إلى الطعن في مهادنة الجناح الرخو أو «الإصلاحي» و«المراجع» النظام القائم والأحوال الظالمة السائدة والموروثة، وإما إلى طعن الوسطيين والواقعيين والمتدرجين على الثوريين تهوّرهم وانقلابهم وطليعيتهم المغامرة، إلخ. ويتخلف من هذا، أي من الانتساب المعلن إلى «الماركسية»، علة شقاق تحتسب في علل الحروب الأهلية الكثيرة والمتشابكة.

وقد يُحمل على المبالغة أو على الإفراط في المجاز القول إن «الحروب الأهلية» التي أصلاها أنصار الاتصال والانقطاع بعضهم بعضا، وتبديع الجماعة الجماعة الأخرى، هي أصداء رددت، ولا تزال تردد قولة كارل ماركس التي ألمحت الفقرة الأولى إليها، وزهاهه إلى أنه هو ليس «بماركسي». وينبغي الاستدراك سريعا، والتنبيه إلى أن القولة العتيقة إنما هي بنت حرب الرجل كارل ماركس الأهلية، وترجح بين إرساء «جامع أعماله» (وانخراطه في «رابطة الشيوعيين» التي كتب وأنجز بيانها في ١٨٤٨ بعض هذه الأعمال) على تقاليد وأسانيد وسوابق عريقة ومشتركة مولودة من بشرية جامعة، على رغم تفاوتها الفعلي والعارض، وبين حمل «جامع الأعمال»، اليوم وغدا، على

جبّ التاريخ السابق و«محو» (صفحة الماضي) على ما تشدد «الأمية»، من غير رحمة ولا مساومة. والحركة العمالية الأوروبية كانت منقسمة انقسامات لا تحصى، ولا يختصرها القطبان المفترضان، الطوباوي والعلمي، أو الاجتماعي والسياسي، أو الحرفي والنقابي، أو العفوي والحزبي، أو الإصلاحي والثوري، أو الديني والتنويري، أو الخلاصي والموادع، وغيرها من أقطاب أحصى كثيرا منها البريطاني إدوارد بي جونسون في كتابه الأم «تكوّن الحركة العمالية الإنكليزية» (١٩٦٣). ولم يلبث تعاطف دور الحركة الاشتراكية - الديمقراطية الألمانية، في أعقاب توحيد ألمانيا، وتوسطها عقد الحركات العمالية الوطنية بأوروبا، أن اختصر بعض الشيء الكثرة والتنوع العماليين والاشتراكيين الغالبين إلى قطبين محورين هما قطب الاشتراكية - الديمقراطية الإصلاحية والليبرالية الاجتماعية وقطب الحركة العمالية الثوري والسياسي و«غير» الليبرالي. وحمل القطب

«تَرْجَحُ الخالفون والوارثون» (الماركسيون) إلى يومنا بين مُغْلَبٍ كفة الاتصال التاريخي والمراكمة على كفة الانقطاع من التقاليد والأسانيد البورجوازية والديموقراطية والإنتاجية ... ويتخلف من هذا، أي من الانتساب المعلن إلى «الماركسية»، علة شقاق تحتسب في علل الحروب الأهلية الكثيرة والمتشابكة.

الأول على المراجعة أو الرجوع في المعايير والمقدمات الأولى والمسلمات والاعتراف عنها والآخر على الاستقامة والوراءة المشروعة أو على النكوص إلى فجاجة مبكرة وبدائية

النقد العام

ولكن الاختصار، إذا جاز الإغضاء عن كثرة المسيرات الوطنية والمعلية ولادة أينية اجتماعية مهيمنة أو مولدة في مسرح التوسع الرأسمالي والإمبريالي، لم يفعل سوى تعميق الالتباس التاريخي الذي نشأ عن الرأسمالية وانفلاتها التكويني أو البنيوي من طور إلى طور، على ما تيم كازل ماركس وشهد التنبيه فهو أوكل إلى السيرورة الرأسمالية، وفلتيها هو حل البشرية ومجتمعاتها وعلاقاتها وسعيها في قيمة تبادل سوقية أو سلبية عامة وكلية، أي آخر لهذه السيرورة يسلطان «نقدي» ويمر على حل أو فك كل صيغ وأشكال القيم بالنفس والاعتزال والاختصار على وظيفة عملية مباشرة تتوخى المنفعة، أو تلبية الحاجة والرغبة من غير توسيط دائرة التبادل وأثناء قياسها القيم ومقارنتها (المجردة) بعضها ببعض، فالترجمة الرأسمالية العامة هي احتساب ما قيمته الجوهرية في نفسه من غير تعد إلى غير مقارن - مثل العمالة وعلاقاتها الحميمة الزوجية والأبوية والبنوية وملكيته المستقلة أو مثل الأوطان واللحمة الوطنية الجامعة بين الطبقات والنواحي والمنكفئة على إنتاجها واستهلاكها وسوقها أو العمل على وجه سد الحاجة والعبارة عن الصانع المقلد أو المبتكر، أو الفن الساعي في غاية هي تمام العبارة أو التدبير - احتساباً مقارناً في وحدة عامة فلا تستفي الترجمة الرأسمالية من الموضوعات أو من «الأشياء» أدوات والآلات وعلاقات وروابط وأفعالا وميولا وحاجات وانفعالات، إلا ما يقبل الاحتساب العام أو الشبيء العام والتوسع على الجهات والدوائر كلها نواته الأولى هي سلع عامة ومشتركة مثل الأنسجة وخاماتها أو الحبوب وتجارتها أو حتى الذهب على صفته و«سيط مبدلاته ولكن السيرورة الرأسمالية حملت «الأشياء» كلها من غير استثناء على «سلع محتملة» وعلى قيم تفر للسوق وليس لقيمة «الشيء» في نفسه أو لربع مكانته ومرتبته بالحق الأخير في تسعيرها وفي إنتاجها والاستثمار فيها وتطويرها وتوزيعها ومعاكاتها وتوليدها ورأي صاحب «رأس المال» أن السيرورة الرأسمالية تحقق «نقد» الدولة

ورأي صاحب «رأس المال» أن السيرورة الرأسمالية تحقق «نقد» الدولة والحق (والقانون) والدين والاقتصاد السياسي وانفصال الجماعات والملكية الخاصة وتقسيم العمل والثقافة من غير تهيب ولا تحفظ.

والحق (القانون) والدين والاقتصاد السياسي وانفصال الجماعات (والبهوت) معلمة والملكية الخاصة وتقسيم العمل والثقافة من غير تهيب ولا تحفظ وقوام النقد على الشككة الرأسمالية، هو جلاء انفكك تظاهر «الأشياء» أو تناولها في علمها الجديدة «الاسعري» على ما يكني «رأس المال» عن السلمي والسوقي، من سيرورة صنع التظاهر، أو الإخراج إلى دائرة التبادل فالإعماله وبقتضي جلاء انفكك التظاهر، التابت والصنفي والنفصل من «سيرورة صنعه تناول ازدواج العملية الرأسمالية، ووصف شقها ما تناول أو توضع عليه شقين أو وجهين لا يجتمعان في آن، ولا يحضران الذهن أو الفهم معاً وإذا كانت العملية نفسها، أي جملة وكلاء، سيرورة عامة تستحوذ على المرافق والأفعال والعلاقات، وقد عليها وإليها أذرعها الأخطبوطية، فإدراكها العملي والسكر هو، على وجه الضرورة، جزئي وفردى وانطباعي وصنفي، ويرسو ازدواج «العلم» و«اللايدولوجية»، أي تناول العملية التاريخية جملة وعلى وجه «سيرورة غفل أو تناولها على وجه التخصص وحملها

على «سيرورات معترقة ومعقولة» برسو الازدواج هذا في مرآة «الوعي» والإدراك، على الإثنية الرأسمالية البنيوية وسلاخها العالم «المسحور» والمقلوب من العالم الحقيقي. ولكن الازدواج الذي ينزله «رأس المال» (الكتاب والموضوع أو الشيء) من التاريخ المعاصر، وصفحته الجديدة وغير المسبوق، منزلة القلب والسواة والمعزك تنهكه النورة والبروليتاريا هي صاعبة من حيث لا يحاسب منطق النظر أو منطق التاريخ



والانتهاك الثوري فعل مزدوج ولا يعقل، على معنى العقل الذاتي. فهو ثمرة السيرورة الرأسمالية الناضجة والختامية والتمامية، أو الغائية، وهو فعل يبلغ فيه العقل ذروته، فيحرر البشرية من انقساماتها وتفاوتاتها وحدودها

وازدواجها. وعلى نحو ما تجمع الرأسمالية المجتمعات، وأقوامها ومراتبها وطبقاتها، في «مادة» متجانسة تلغي الفروق التي بدت طبيعية، تستأنف البروليتاريا وثورتها عمل الرأسمالية على «قاعدة أخرى»، على قول نشيد الأئمة كذلك. وتنفى السيطرة التفاوت والتقطع وصدارة قانون القيمة وحل محلها المساواة والمواخاة والحرية وقيم الأعمال أو الاستعمال المجانية. وتضطلع البروليتاريا وثورتها بهذا من طريق أعمال منطق داخلي، وتلقائي ذاتي، هو منطق السيرورة أو الولادة الرأسمالية نفسه. فتحرير الإنتاج من القيود السياسية القومية والطبقية والاجتماعية والتقنية، والطبيعية في نهاية المطاف، تؤدي حتما إلى وفرة عامة لا مسوغ معها للانقسام والمرتبات وتفاوت العوائد على أنواعه وأصنافه الرمزية والمعنوية والمادية. وفي الأثناء «يربّي» تحرير الإنتاج من قيوده الرعية الطبقة العاملة، وهي إذ ذاك كثرة كاثرة عددا ومعنى، على الاضطلاع بالمساواة والمواخاة والحرية. فتُمحى خصوصيتها وتحو هي انفصالها في «فعل» لم يقتصد ماركس، في تطرقه إليه، في المبالغة، ولا في جمع النقائض أو دمجها «نهاية ما قبل التاريخ»، «فك طلسم التاريخ»، «الاستواء في الذات وللذات»، «تخظيم أغلال الطبقات كلها أن تحكم البروليتاريا أغلالها»، إلخ.

فنهضت الجدارية «الماركسية» العريضة علما على توليد البشرية نفسها، وإيجابها رشدًا، أفرادا ونوعا وأنظمة حكومة وإنتاج، في سياقة انسلاخ عن الطبيعة واستتمام وتوحيج لها. ودمجت السياقة اللجية ممالك الجماعات والأمم، وروافد الموارد والمعارف، وثمرات الأيدي والآلات والعقول، وتخيلات الصور والرغبات والأحاسيس، في مجرى كوني عظيم، مجيد ومخيف. فهو يعد «الذرات» الإنسانية المتواضعة والمنسية، منذ تنبها الأول على الكون، بالقيامة والنشور، وبما يشبه العود من غير نقصان. وهو الوجه المجيد. والوجه المخيف والمحبط هو تقرير احتياج النشور والعود، قبل بلوغ اليوم الموعود إلى دماء التاريخ ودموعه الغزيرة والمرّة، وإلى خروج البشر، أفرادا وجماعات ونوعا، من جلدتهم وإهابهم ونفسيهم، عرضا وجوهرا، إلى قسوة «المادة» والسلعة وبكهما الموحش. وعلى حين يقتضي الوجه الأول الإقرار للإنسيين

لابست المناقشة الفلسفية النزاعات والخلافات السياسية على نحو «يشبه الخلاف بين الفرق الدينية واللاهوتية والكلامية و«الجمعيات الفكرية» في أوقات متفرقة من تواريخ الديانات.

الآدميين وجماعاتهم و«ممالكهم»، بحقيقة اختباراتهم وحيواتهم ومدركاتهم في الحال، أي الإقرار بالوجه الإنساني من السياقة التاريخية، يقتضي حمل السياقة على الكونية علما مجردا وعاما لا يُبلغ إلا من طريق النقض على الإنسانية وقيودها وانكفائها إلى دواخلها وطوياتها الخاصة والمنقطعة. ويؤول العلم إلى تخليص السيرورة الواحدة والمشاركة من «حدودها» الظاهرة و«المجردة»، على قول هيجلي في خطل المحسوسات، ورفعها بواسطة العلم إلى مرتبة المعقول والضروري.

وعلى هذا، لم تقتصر «صيرورة الفلسفة عالما»، على «موضوعة» أو «قضية» ألحقت بنقد بعض أعلام الفلسفة الألمانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر. فلا بست المناقشة الفلسفية المنازعات والخلافات السياسية على نحو يشبه الخلاف بين الفرق الدينية واللاهوتية والكلامية و«الجمعيات الفكرية» في أوقات متفرقة من تواريخ الديانات. وقد لا تكون الملايسة هذه أضعف وجوه أو مصادر «الجذب» في مناقشات الاشتراكيين وحركاتهم وأجنحتهم عموما، والماركسية (الكثيرة) منها على الخصوص. ولعلها مرآة من مرايا ازدواج الذي لا ينفك يُنشب في الدعوات والدعاوى الاشتراكية بين حدي التخيل المرسل والعلم المزعوم. فحين يحسب «الداعية» حزبا منظما كان أو «مثقفا» فردا (على المثال الفريد الذي نشرته الحركات العمالية والفرق الدينية الخلاصية في العالين القديم، و«فارس» والسلطنة العثمانية جزء منه، والجديد)، أنه وسيط منطق مجرد لا دافع له و«الراد عليه كالراد على الله»، بحسب إجازات اجتهد كبار المجتهدين الإماميين الإثني عشرين لنجباء تلامذتهم – حين يحسب «الداعية» هذا فإنما هو يغفل عن معين قوة الجذب والاستمالة والتصديق وهو تداعي عناصر الازدواج والترجح في السياقة الماركسية. فالوجه الإنساني، الوارث عمدا وعلنا الثقل والجهاز البشريين الماديين والحسيين والفكرين ومدرجهما في صيرورة عقلنة عامة ينتصب النوع البشري فيها واحدا ومتألها، يستظهر هذا الوجه بعلم صارم يعلق من غير خسارة ولا حيف المتعلقات «الإنسانية». فيتضاغر النازعان، الإنساني الحايث والعلمي المفاقر، على فك استغلاق السياقة التاريخية، ماضيا وحاضرا، وعلى تسديد خطو الحائر، وهو معظم الناس، وإرشاده. وهما يتضافران على هذا أن يبعثان في الأنفس الهمة على العمل والنظر، ويغديان رغبة قوية ومتجددة في الانخراط في صنع

الإنسانية أفراداً وأممًا ونوعاً مرة أخرى نفسها، وولادتها من صنيعها وفعلها راشدةً وغير معولة في فعلها على غير هذا الصنيع وتديره والتماس معانيه.

رسوم الازدواج

والحق أن ما تقدم ومز من القول بفعل أمرين أولهما أن ما بحث كثيرين على إرادة الصدور عن مقالات صاحب «الازدواجية الألمانية» و«مخطوطات ١٨٤٤» و«بؤس الفلسفة» و«البين الشبوعي» و«١٨ برومير لوي (س) يونكيرت» والمراسلات السياسية - في ستينات القرن الماضي - هو ملاحظات تفصيلية في نتائج هذه المقالات أخرجت موضوعاتها من نازرها النفسي والحدسي الحكم والعشوائي وأرستها على رسوم متمسكة، وضبطت اتصالها وانفصالها أو ظهورها وأقوالها على إبقاعات متواردة ومفهومة ونكبي الأمرين المغفلين أن المقالات هذه بلغت من بلقيتهم، ودعت من دعتهم من طريق الأحزاب والحركات

«الشيوعية» وأعلامها السياسيين المؤسسين والخالفين وقد يكون لبنين - (ستالين) - في مقدمهم وأولهم وإذا صدقت الملاحظة في شقيها يكون الباعث على الماركسية على خلاف نازع من نازعها هو نازعها العلمي، «الالاقتصادي» والمادي. ولكن الخلاف ليس تكماً ولا قاطعة، ولا يقود إلى تبديد الازدواج أو حله في وجه واحد فيخرج كارل ماركس موضوعات مقالاته من الخلط النفسي والحدسي فانه الى تغليب بعض رسوم المجتمع البورجوازي والديموقراطي (والصفحة غير متكافئتين) الجوهرية ازدواج المرء (والمرأة) مواطناً ومحتاجاً ومنتجة مكانة النزاع المحورية وحجبتها جنة الرأسمالية القاطعة، قصور البورجوازية والطبقة العاملة من بعدها عن قيادة نورتها وعن صوغ «بولتها» وأبنية «سياساتها» الترجيح المزمع بين صرم الأشكال والعلاقات الاجتماعية القديمة وبين الحفاظ عليها وإعمالها في سبيلها وأغراض جديدة، طغيان دور الأقمعة وتكاثرها التغلب بين أوقات الاستيئان والتأخر والمعاكسة، تغلب «الأبنية الفوقية» عن «الأبنية التحتية» العجز عن مكافئة المعنى المولودة من «التطور» والنمو الرأسماليين بعبارات تؤيدها دوام الهوية الشاسعة بين أهل الطبقات الاجتماعية المولودة من الرأسمالية.

وعلى خلاف تحليل الرأسمالية «وتناقضاتها» المؤدية بها إلى تفويضها الذاتي ومنقضتها شرائط دوامها وتهددها ورحلتها الممتعة (ذهنية) إلى انتعاشها الجليدي، أو ولادتها نقبضها من «أحشائها» ووضعها مولود النورة الاشتراكية ناقضها ومكتمل الخلقة ومن غير عنف ريم، على خلاف التحليل هذا ذهبت الملاحظات والحواشي السياسية والتاريخية الدقيقة الى تعقيد الاشتراطات والمسارات وتكثير المعرجات والمنعطفات والهويات، وإذا بكل ياب من أبواب المعالجة التاريخية أو السياسية التي طرقتها ملاحظات صاحب «١٨ برومير» و«الصراعات الطبقة في فرنسا»

بسنفرج عن دهاليز يفوق استيعابها ضوءها أو إرشادها المفترض ولعل عقدة العقد هي تشخيص الغرق القاطع بين المثال الرأسمالي النموذجي «الماركسي» وبين وصف «القطب» الاجتماعي والسياسي المفترض، البورجوازي وضده العملي، فعلى قدر وضوح المثال النموذجي، وعظمته وقوته على الابتكار، يتصاغر القطب

القيادي على حديث البورجوازي والعمالي وليس انتداب النورة البورجوازية (الفرنسية) المثلى ضابطاً عسكرياً (يونكيرت ثم نابليون الأول) إلى تغليبها من استيلاء معامين وأدياء مفكرين دعويين و«اجتماعيين» عليها، أو من استنفاعها في خلاقات ومنزعات على الربوع، ثم العودة الى الملكية فانتداب ابن شقيق الأول، نابليون الثالث إلى قمع الجمهوريين العلميين والوسطيين والاستواء في سنة الجمهورية قبل الانقلاب عليها وقيادة التصنيع من غير المس تقريبا بربوع البورجوازية الريفية ويغلبة الجناح الملكي والمصرفي على التصنيع - ليس هذا إلا كناية فاقعة عن معضلة السياسة والدولة في المجتمعات الجديدة وفي نهاية هذه المرحلة من المطاف الرأسمالي، في العقدتين الأخيرين من القرن التاسع عشر، أوكلت الدول الليبرالية والرأسمالية توسعها الكوني («العولمة الأولى») الى امبريالية عنيفة ومتوحشة قبعنت هذه سمات المراكمة الأولى، من مصادرة وسلب وتفتيل وترحيل واستعجال حل روابط حيوية وإزراء بسفن عمران ورسوم اجتماع قديمة وعهدت بالتوسع على وجهيه المتصلين، الخارجي والداخلي، إلى رجال مال ومضاربين مغامرين ومحتالين فاسدين وإلى فاقعين عنصريين وقتلة ومبشرين قساة، على النقبض من عقلاية إنتاجية

البوتابارتية كناية فاقعة عن معضلة السياسة والدولة في المجتمعات الحديثة. وفي نهاية هذه المرحلة من المطاف الرأسمالي... أوكلت الدول الليبرالية والرأسمالية توسعها الكوني («العولمة الأولى») إلى امبريالية عنيفة ومتوحشة.

ودنيوية هي جوهر الرأسمالية أو سائقها ومعيّارها.

فأبطل هذا ما خاله «ماركسيون» كثر النحو البياني للتطور والنمو الرأسماليين، وما بدا مترتباً على علم نمط الإنتاج الرأسمالي، وعلى دروس الثورة الديمقراطية البورجوازية في فرنسا وألمانيا (حيث أجهضت الثورة الديمقراطية) وإنكلترا (حيث انخرطت الطبقة العاملة في منظمات مهنية وانكفأت على نفسها) على الخصوص. وحيث مضت المجتمعات على نماء رأسمالي داخلي وذاتي، على رغم ثقل «الأسواق» الخارجية الظرفي، بغرب أوروبا وعلى ضفة الأطلسي الغربية، احتذت الطبقات العاملة على مثال بورجوازي وبرلماني ضيق. وفشا في صفوفها ما عابته

جمعياتها وروابطها واختباراتهما وابتكاراتهما، الاجتماعية والتنظيمية، على البورجوازية ودولتها. فحل التمثيل والتوكيل الوظيفيان محل التدبير الذاتي، وامتهان السياسة والإدارة محل التكليف الظرفي ومداولته بين المندوبين الموقتين،

والانغماس في المنافع والأسباب القطاعية محل الوجه الطبقي والمجتمعي والتاريخي العمومي. وغلبت المنازعات والعصبية القومية والوطنية على من «ليس لهم وطن» (على معنى المصالح الضيقة والجزئية والمموهة). وانقسمت الطبقات العمالية مراتب ومكانات وأحوالاً. فاستوت في الصدارة «أريستقراطية» عمالية هي حقيقة بيروقراطية عضوية ومستوطنة في العالم البورجوازي والرأسمالي وأوليات الإنتاج الحميمة. ونمت في ثنايا علاقات الأمر (السلطة) والتأطير والمراقبة، وفي دوائر الهندسة والتسويق والتخطيط والإدارة، فئات «متوسطة» جديدة، شطر منها محافظ، وشطر آخر رأى أن «الثورة» تنظيمية في المرتبة الأولى، وينبغي أن تعود عوائدها، من الأمر والمكانة ومن الأجور والضمانات، إليها هي. وهذه الجماعات لم تخرج على المثالات الاجتماعية والثقافية البورجوازية، ولا على مثال التوزيع (توزيع العوائد من غير الرجوع في الموازين). فماشت الدينامية الرأسمالية من غير تحفظ أو تشكيك في الأركان والأصول، واقتصرت على طلب شطر أكبر من «الكعكة»، على قول مبتذل. ومضت المجتمعات الرأسمالية المتفرقة على تذررها وتناثرها أفراداً خصوصيين، ومصالح فئوية متنافرة، وترجحا بين أحوال موضوعية وبين وجدانات ذاتية متأخرة أو متقدمة ومعاصرة في أوقات قليلة. وهذه كلها أعراض ما سمّاه بعض المؤرخين المعاصرين

«أزمة المراجعة» (أو «الانحراف» إذا تُرك التحفظ والوصف). وأزمة المراجعة، وهي تكني عن ميل الاشتراكية - الديمقراطية الألمانية «الماركسية» (وليس هذا رأياً في صدق النسبة، بديهة) إلى التسليم لليبرالية وأطوارها، أي للتيارات الاجتماعية، بالولاية على السياسة، وعلى الدولة. وعليه، ليست السياسة (والدولة) إلا ملحقا بالمجتمع، وتبعاً له. وأمور المجتمع، أو حكومته متروكة للسوق التي ترعى عدالة تتولى الدولة ضبطها. ويرتب على التسليم هذا الرجوع عن السعي الجماعي في القيام بتبعات الإنشاء والإيجاب الاجتماعيين - التاريخيين قيما ناجزا، والتخلي تالياً عن السياسة ونصابها وسلطانها. وشقاً المسألة، التسليم

لليبرالية الفردية وسيرورة الرأسمالية والتخلي عن أعمال السياسة وسلطانها الجماعي في الإنشاء الاجتماعي - التاريخي، هما من الأصدقاء المحتملة والجائزة لتناول صاحب «رأس المال» مصائر الرأسمالية والبورجوازية والبروليتاريا

والسياسة في العصر الرأسمالي، إذا لم يكونا من فروع تناوله هذه المصائر. فمدح «ثورة» دينامية قوى الإنتاج غير المتحفظ، والإشادة بمفاعيلها النقدية العملية وتدميرها الأبنية الاجتماعية المتحجرة، وبسبقتها استفاقة «الوعي» البطيئة والكسولة وصرامة منطقها، شُبّهت على «الماركسيين»، وعلى غيرهم، «حقيقة» الرأسمالية نفسها و«حقيقة» الرأي فيها. والاشتباه أو التشابه ليس الأول من صنفه في الموقف أو المقام هذا. فالموضوع نفسه، أي نظام قوى الإنتاج الحرة في سياقة الإنشاء الاجتماعي - التاريخي الذاتي، «خلاف»، على معنى نظر فيه صاحب «رأس المال» وجلاء على وجه تصنيف السلعة وأفيون الاعتقاد وسحر التبادل السلعي النقدي والمسرحة السياسية (وغيرها من «الأنطيات»، على قول فيلسوف معاصر قرأ بعض ملاحظات ماركس في ضوء «هاملت» شيكسبير). وأثر الخلب أو الاختلاب الأول هو تصديق اتحاد المرئي الظاهر بالسيرورة المعقدة («المتناقضة») أو المزدوجة التي حكمت إخراجها إلى المعنى والفهم.

الاختلاب والحكم

ولعل بعض معنى قوله كارل ماركس انه ليس بماركسي هو حملته النسبية إليه وإلى مقالاته، على وجه الاختلاب. والاختلاب حملّ تقلب بين الأوجه من غير قرار يقر عليه المختلب المفتون. وتصوير مقالات صاحب «رأس المال»

«ولعل بعض معنى قوله كارل ماركس

انه ليس بماركسي هو حملته النسبية

إليه وإلى مقالاته، على وجه الاختلاب.

والاختلاب حملّ تقلب بين الأوجه من

غير قرار يقرّ عليه المختلب المفتون.»

في صمورة «عصارة» ثمرات الاختيارات التاريخية الفكرية والسياسية والعملية (النضالية) المتقدمة أو الطليعية، وإليها حلة جامع الرواقد الفلسفية والاقتصادية والعلمية والسياسية النورية، وهو ما ذهب إليه فريدريك أنجلز وما زكك من بعد لينين وستالين وس. سارتر، ما نسي واثى نازح الاقتتان السلمي والذاتي النرجسي في أنه (وهما)

متصلان على أنحاء ووجوه كثيرة على ما بدا في مرآة «مجتمع الاستهلاك» لا فاطح من المغالات والآراء والأحكام فعل الإنسان والايجاب، وإعمال «ملئكة» الأفضية والمقاسية من غير معيار أو مثال أي اطرحت ملئكة الرشد المتصور، فمخلت المغالات والأفعال التي افترض ان المغالات توجهها وتفسر عليها على أفق لازم (لا يمتدى الى غيره)، على قول سارتر، وعلى مهمات ودواج موضوعية تأليا وحكما، على قول بعض الكتّاب العرب في أعقاب الزعم السارترية وبسبه اطراح الإنسان والايجاب والأفضية (الأحكام)، وهي الوجه الذي اعتنت به الفلسفات المثالية على تنويه أنجلز كذلك مرات كثيرة وأهماته النزعات المادية، اطراح السياسة في صيغتها المؤرخية الوحيدة وهي سياسة النورة أو النورة على وجه السياسة، وعلى هذا، فالمغالات الماركسية تصدر عن الظروف التاريخية صدورا ناجزا ومباشرا، وليس على الحركة النورية وهي تفترض واحدة وخلوا من تناقضات غير التناقضات النورية إلا الصموج بالمغالات وما تنبته أو تنفيه يقفوا أو أقلام «سدنتها» وكهنتها، قيادة «مذمومين» ويفترض هذا الرأي أو القول حسم الترجيح «الماركسي» بين حمل النورة ومقدماتها على نورة ناضجة ومثلثة بعصارة الواقع الرأسمالية الإنتاجية العريضة وأطوار الإنجازات الديموقراطية «الشكلية» ومغفزاتها والإراتات والرغبات السابقة، وبين حملها على «فعل» تدبير جازم وقاطع يكافئ الأحوال التاريخية المجتمعة والمؤتلفة من أفعال جزئية لا تقصى، ويتعهد الانتقال أو الخروج من حال الاضطراب والفسر إلى إطار التدبير الطوعي والحكومة الذاتية، وهو يفترض، إلى هذا وقبله ربح جواز انفكاك الفعل السياسي وسلطانه العزم على المجتمع من دائرة الممكنات المرتسمة في نفاذ أحوال هذا المجتمع، وجواز تعريف الفعل السياسي وغاياته من طريق «النظرية النورية» وأهلها وأصحاب علمها المحترفين والراشدين، ولا يستقيم الافتراض

«ويدج غرامشي أو يخلط، شأن لينين من قبل ومن بعد، الانقلاب على القيصرية، وعلى جبهة الحرب الإمبريالية، في قيام الشعب الروسي والشعوب «الوطنية» على نظام الاستبداد والمراتب الاجتماعي، ويليمس رفض الحرب المدمرة ليموس طلب سلطة السوفييات البيلشفية».

المزدوج هذا إلا يتمه أو شعبية نالته توحد المجتمعات المتفرقة والمختلفة، والأثم المتنازعة، في إطار واحد تنضجر أجزائه وانفسامته ونزاعاته ومصالحه على تشخيص «تناقضات» متصلة وسبل سياسة متواردة ومتراطة، ويجوز، منذ اليوم بل ينبغي تخطي الفيدرالية الأهمية واتلافيتها الداخلية والقارية إلى مركزية حديثة

سندع الأول التوسع الرأسمالي في مراحل الاحتكارية والمنسوجة الأخيرة، وسندع الثاني «النظرية النورية» المتجسدة في طليعة متمسكة وتجمع الطليعة أمرين: الأول «السلح» النظري، النقدي والتشخيصي الوصفي، والثاني ملايسة النضالات العمالية وهبتها ودوابها على المعنى الدقيق ثم على معنى أوسع فأوسع واستدخالها والاستيلاء عليها، واجتماع الأمرين يستوفي وجهي الترجيح العتيد ويستجيب شرطية التلقائية الداخلية والعضوية، والتدبير المدرك والجامع، ولكن الماركسية، تلك التي كان يعلم كارل ماركس في أواخر أيامه أنها ليست معتقدة ولا ملهية تخففت في مرحلتها (أو رحلتها) اللينينية من ترجمتها أي من رابطتها الأقوى والأوثق ربح «العصر» الذي صدرت عنه ونفائضه وأخداه وتليساته وعلل ديناميته الحضارية والبريرية معاً، على زعم فالتز بينامين

وليست قولة انطونيو غرامشي، مستهلا حياته الفكرية والسياسية، في النورة البيلشفية الروسية أنها «نورة ضد رأس المال»، أي الكتابه إلا قوبها على ازواج مغالات صاحب «البيان الشيوعي» ورأس المال، وإنكارا عليه والتمويه الغرامشي حقيقي، على طبائ رفعة أراغون علما على أديم فهو يفترض أن «رأس المال» ناط النورة العمالية باكتمال شرائطها الإنتاجية والرأسمالية وفي مقدم الشرائط تهاش المجتمع الطبقي، ويتأهبل الشرائط البروليتارية إلى القيام بالنورة مباشرة أي من داخل وحدات الإنتاج والاضطلاح بها كلها من غير وسيط سياسي (سلح) متريص وسريه وتاريخ العقود الثلاثة التي سبقت الانقلاب اللينيني (وهو النورة الروسية الثانية) في شقه الاشتراكي - الديموقراطي «المراجع» وفي شقه الانقلابي، نيه إلى إزمان النورة الخروج عن سكتها المفترضة، وإماتها هذا الخروج وكان صاحب الكتابات السياسية في حوادث التاريخ الفرنسي الحديث والمعاصر، منذ ١٧٨٩ إلى ١٨٧٠،

ألمانيا النازية واليهودية العدة للحرب الكونية القادمة، في حلة أزمة الرأسمالية العامة وسيطرة الاحتكارات الصناعية على السلطة وتحالفها مع البورجوازية الصغيرة المحبطة، وغيرها مثلها من التلصقات المرتجلة والعابرة.

الأقنعة والجهاز

ويخالف التمويه على التمويه هذا ما يقوم من مقالات ماركس السياسية مقام «المنهج» من غير منهجية (فليس في السياسة إجازة علامة أو «آية الله» ومرجع تقليد، على قول الأميرال دي بولنيك، الفرنسي البروتستانت، من طريق الكاردينال دي ريتس)، على ما تقدم القول. فالأدوار السياسية والتاريخية الموكلة الى الطبقات الاجتماعية، وهي مهمات المراحل في التتميط اللينيني - الستاليني الآتي، ما هي في مقالات ماركس إلا خيالات أو استعارات متشابهات يستعين بها التحليل الى قياس الانحرافات الجوهرية والضرورية. والخيالات والاستعارات هي ثمرة ما

أغضت عنه مقالات ماركس، وأغفلت تخصيصه بالمعالجة، وهو الثورة السياسية «الديموقراطية البورجوازية» على ما افترض صاحب «١٨ برومير لوي بوناپرت». ولكن إغفال التخصيص، أو السهو التام عن المسألة، لم ينجم عنه العمى عن بعض النتائج الجوهرية وأولها خلو وفاض البورجوازيات الأوروبية المعاصرة من مثال سياسي خاص ومن طاقم سياسي مناسب، ومناقضة السيرورة الرأسمالية استقرار طبقة على مكانة أو مرتبة وقيادة، ريعية حكما. فتقرير المرحلة ومهماتها، ثم تقرير الأدوار، والخلوص إلى قياس الجدارة بالدور ومهماته أو النكوص عنه وعنهما، وحمل الحوادث السياسية والعسكرية والاقتصادية على متربات لازمة عن نظام اجتماعي وطبقي متماسك، أو عن «نمط إنتاج» - وإلى التمويه على التخليط، واستيلاد الخليط سياسات مروعة لا يعذرها غدر مزعوم أو «انحطاط بيروقراطي» مباغت أو حصار وتطويق في بلد واحد...

والحق أن مقالات صاحب «البيان» انتهت الى معظم من انتهت إليهم بواسطة «روح العصر»، من طريق التمويه أو الدمج اللينيني فاللينيني - الستاليني. ولعل «الماركسية

وفي أحوال ألمانيا القومية والعمالية (منذ ١٨٤٨ الى السبعينات والثمانينات البسماركية)، ارتاع بإزاء قصور البورجوازيات الأوروبية السياسي، واستخذاءها المعنوي، وتخلفها عن قيادة السيرورة الرأسمالية وابتكار «دولتها». ولكن ملاحظته القصور والاستخذاء والتخلف لم تسلمه إلى تكليف «الطبقات الكادحة»، على قول تقارير العمل الإنكليزية، وبالأحرى إلى من ينوب عنها من غير أن تدري وعن علمها الخبيري (ثمرة التجربة)، بالثورة و«دولتها».

وإغفال الوجه الاجتماعي - التاريخي و«الجمالي» الروائي أو الدرامي من مقالات ماركس السياسية يجيز كلام غرامشي على الضدية ويعذرهما معا. وهو، على هذا، يموه على التمويه، ويدعو إلى إهماله والإشاحة عنه. فيزعم، في وقت واحد، التزام الثورة اللينينية البلشفية والستالينية من بعد (من بعد وليس معا ولا كلا وجميعا) - «ماركسية» أعمق من حرف «رأس المال» الذي يفترض نصير البلشفية اللينينية الإيطالي أن الاشتراكية - الديموقراطية

الألمانية، وأشياعها الأوروبيين المتحفظين عن إنشاء الأمية الثالثة، تتمسك به، وتنحرف حكما عن روحه وحقيقته، فيما هي، الثورة، تنفجر في بلد لم يبلغ العتبة الرأسمالية. ويدمج غرامشي أو يخلط، شأن لينين من قبل ومن بعد، الانقلاب على القيصرية، وعلى جبهة الحرب الإمبريالية، في قيام الشعب الروسي والشعوب «الوطنية» على نظام الاستبداد والمراتب الاجتماعي، ويلبس رفض الحرب المدمرة لبوس طلب سلطة السوفييات البلشفية. فيصور التمرد على الحرب وخسائرها وفظائعها وضعف كفاء قادتها، وخوضها لدواع تصددها تبعية القيصرة وأسياد الأرض و«البيروقراطية البوليسية المركزية» (ماكس فيبير) لرأس المال المصرفي - المالي وقروضه الدولية الكاسرة، يصور «غرامشي - لينين» التمرد هذا على صورة حل التناقض المركزي أو الرئيسي وإنجاز سيطرة المنتجين و«تعاونياتهم» على سيرورة الإنتاج وشرائطها العامة ومقدماتها ونتائجها الإنسانية (الأنثروبولوجية). وهذا ما يُظن أن «رأس المال»، على قوله الإيطالي، تناوله وعالجه. ويستبق الخلط اللينيني تشخيص «أمية» ستالين الثالثة السيطرة النازية على ألمانيا، ثم إعداد



- اللينينية» (هذه المرة) هي من غرائب المشبهات والاستعارات التلويحية المولودة من كونه التوسع الرأسمالي والديمقراطي الغربي وتولت «الماركسية» في هذه السبقة، أداء دور من الأدوار المسرحية الكثيرة التي حفل بها المسرح البورجوازي و«الرأسمالي» في مرآة صاحب «رأس المال» فهي دعيت، خلف أقمعة الأحزاب الشيوعية المحلية والتيارات «الديمقراطية» والحركات القومية واللينينية العممية والمنففين والتقدميين والنقديين، إلى أداء دور المراوغ «مراوغة» التلويح، أو «مراوغة العقل» بحسب الاصطلاح في بعض «المسرحيات» التلويحية الأوروبية، أو دور المقلد المدثر في بعض المكسي الأسبوية

والجنوية فتصدي الحزب اللينيني - الستاليني لإنجاز «كهرية» روسيا وملحقاتها ولاياتها - أي تصنيفها السريع من عوائد وقوائم زراعة الفلاحين في الأرياف في عهدة مندوبين حزينين و«عمالين» هم من يقابوا حرب أهلية وخارجية عنيفة، نديتهم إدارة مركزية وبيروقراطية مرتجلة إلى مهمات تقريبية تدخل الاقتصاد في الأمن البوليسي والأمني في الاقتصادي - نصب (التصدي) الحزب العتيق جهازا مفترسا يلتهم القوى الاجتماعية التي يقوم وليا مطلقا عليها، ويحول بالعرف المرسل بينها وبين استوائها وتغلغلها الاجتماعي والسياسي وتولى الحزب وهو نشأ في ابتداء أمره ليصوب، من خارج نوري ونظري مفترض تتعهد الماركسية، انحراف الطبقة العاملة صوب حركات وبرامج اجتماعية ومطلبية، قيادة انتزاع العوائد والغوائض الزراعية غصبا وفسرا ومراكمتها «الاشتراكية» الأولية وتولي قبل المراكمة الاشتراكية الأولية وبعدها، بناء الأجهزة الأمنية والإدارية و«القضائية» والتربوية والتمثيلية (الانتخابية) التي أوكل حزب ديكتاتورية البروليتاريا إليها حماية التصنيع الثقيل ومصناعة المزارعين والفلاحين على محاصيلهم وآلات عملهم وبعض مأكلمهم وطعامهم وبناء قوة عسكرية «ساحقة»

وفي كلتا الحالتين، اصطلاح الحزب الاشتراكي - الديمقراطي العمالي الروسي (الأكثري أو البلشفي) بالثورة الديمقراطية البورجوازية على القيصرية «الأسبوية» ثم

قيادته إرساء الأسس المادية للبناء الاشتراكي، كان الحزب «الماركسي - اللينيني» فاللينيني - الستاليني قناعا ساقرا لاستيلاء جهاز سياسي معترف على السلطة المطلقة في مجتمع خاو تقوم فيه الأبنية الاجتماعية الأولى أو النواتية (الأسرة، العزبة، الجماعة المحلية المستغل الحرفي...) مقام مسند مقاومة لا تطغىها السلطة المطلقة الجديدة، ولم تفلح في إنشاء ما يعمل محلها من طريق وحدات إنتاج و«الاحتاجات» إنتاج مصطنعة وحملت السلطة المطلقة (والمتعددة فعلا) الجديدة المقاومات الاجتماعية الكبيرة والمبنونة في قلب العلاقات الاجتماعية والسياسية، على مقاومة «سياسية وديبلوماسية واحدة غابقتها المشتركة هي زعزعة «السيوفيات» أو القيادة البروليتارية التي تتقدم بناء سيرة السلم والاشتراكية، وإذا كانت «البونابرتية» في مقالات ماركس السياسية والتلويحية قناع عجز البورجوازيات المتفرقة عن قيادة الدولة الجديدة، ونزولها عن القيادة إلى فريق متسلط يزعم التعالي عن النزاعات الطبقة الحادة والتحكيم فيها، وسنده أجهزة الدولة في «الماركسية - اللينينية» الحزبية تقويه على افتقار القوى الاجتماعية في المجتمعات الطرفية الملحقة بالدول الكبرى و«الحواضر» الصناعية والمالية والعسكرية والنقدية، إلى تمثيل «سياسي كثير المصائر والموارد، فيتولى بناء دولة تتمتع بالمشروعية، وتتعهد حقوق الحكوميين الشخصية المدنية والسياسية ومسؤولاتهم فيها» «الماركسية - اللينينية» قناع على قناع، وإعادة إعادة، ومراوغة على مراوغة

وليس مرد التقنيع والإعادة والمراوغة إلى تقدم الثورة المفترضة على شروطها المادية والاجتماعية، وإلى سبقها نضوج شروطها السياسية على الدوام ومن غير استثناء (جراء علاقة «الوعي» المضطربة وغير المعاصرة، واستطرادا السياسية، بالشروط الاجتماعية)، وحسب، فعامل التقنيع... الأول ربما تولته «الماركسية - اللينينية» في صيغة الجهاز الستاليني الذي رعته الأمية الثالثة ونشرته. وأداتها الفاعلة جمعها العملي «التناقضات» المتفرقة في أنحاء المجتمع الواحد، أو في كتل المجتمعات، في «تناقض مركزي» واحد، مفتعل، يتفرغ الجهاز لإنشائه وتحقيقه وخدمته أو خدمة أسطوره، معا. ومن طريق المبنى أو المثال الحزبي هذا وسع

بيروقراطيات محلية كثيرة، وراء البيروقراطية «السوفياتية»، أعمال علم الأفتنة الموهة في دمج المنازعات المتفرقة الكثيرة والمختلفة في منازعة واحدة تدور على السلطان المركزي والحاكم، وعلى خلاف البونابرتية في مقالات ماركس - حيث هي إعادة مقنعة لأسطورة مثناة تمجد طبقة الفلاحين العسكرية وفنوحاتها وإقطاعاتها وتدعى من طريق سحر الاسم والهالة إلى مساندة قيادة مفارقة واستفتائية وتعبثها في خدمة تصنيع تشارك المصارف في تمويله وعوائده مشاركة راجحة... - تفترض «الماركسية - اللينينية» الجهازية الحزب البيروقراطي

المركزي عبارة ناجزة أو مستوفية شروط العبارة عن الطبقة المحتجة ومصالحها الخاصة والعامة.

تقانة البيروقراطية

والاستيفاء، أو المطابقة، إنما يستقيم ويصدق من طريق اقتصادوية بعض مقالات ماركس الاجتماعية (أي السوسيولوجية) وتناوله «البورجوازية الصغيرة» على وجه التخصيص. فهو خلص من هجنة «الطبقة» المزعومة هذه، ومن انتفاء صفة التجانس عنها، إلى ذبذبة سياسية وإيديولوجية محتومة ولا راد لها. فجمع في باب مشترك منازع تيارات عمالية عميقة الجذور تترجح بين أنصار برودون الفرنسي، أصحاب التعاونيات الموازية على مثال

أسري واثنلافي، أخلاقي وتقليدي، وبين أنصار باكونين الطلقاء والمتربصين بصور الانضباط والإكراه، إلى المائلين مع «اشتراكية الدولة» البسماركية... وهؤلاء وغيرهم كثير، لا يستقيم جمعهم إلا بإزاء «عمال» و«عمالين» أقحاح يدمجون في كل وجميع متجانس أحوالهم الموضوعية و«وعيمهم الطبقي». فتقود الاجتماعيات التقريبية والجادة، المجردة من التنبه إلى سخرية التكرار والحياد (عن التمثيل المستوفي) الدرامية، إلى «النضال الإيديولوجي المهرص» بالتبديع والانشقاق «الأهلي» والعنف. ولا سبيل في مثل هذه المعممة، لا إلى التماس التفاوت والاضطراب في «النفس» العمالية والقويمة المفترضة ولا إلى كبح الإدانة والتكفير والحرم. فيلابس

التجسيد ومثاله الديني أصحاب العلم وأهل «وعي الطبقة» المستوفي شرائط حد الوعي وحد الطبقة معا. فيسعمهم، وهم على حالهم البروليتارية وسيمتهم الثوري، قيادة الثورة البورجوازية والرأسمالية في روسيا، وخلافة القيصرية على توسعها بأوروبا وفي القوقاز وآسيا الوسطى، وشق الحركات الاشتراكية بألمانيا وفرنسا وإيطاليا والنمسا وإسبانيا، وإضعافها إضعافا مدمرا في ألمانيا وإسبانيا والنمسا قبل الانقلاب على نهج «طبقة ضد طبقة» وانتهاج سياسة «الجبهة الشعبية» المناهضة للفاشية»

ثم الانقلاب على الغرب والفرجة على سحق الجيوش الألمانية أوروبا الوسطى وأوروبا الغربية... وتوسلت الحركات القومية بـ«الماركسية - اللينينية»، وركناها المعيار الطبقي الصارم وجمع المنازعات في منازعة «طبقة» وأهلية واحدة ومركزية يحسمها الاستيلاء التام على سلطة مطلقة، إلى تمويه حركات استيلاء وثورات تقاسم في ما بينها صدورها عن «الماركسية - اللينينية» وتقانتها وإنشاءها بيروقراطية إيديولوجية وعسكرية - بوليسية وإنتاجية أمره وطاغية. وبعض الحركات والثورات جمع إلى أعمال الجهاز البيروقراطي في مجازر ومقاتل عظيمة. ونزع بعضها، في كمبوديا الخمير الحمر، إلى الإبادة من طريق استبدال روابط الأهل والجوار بعلاقات الإنتاج، وذلك في إطار فرقة تتولى

«الماركسية - اللينينية» الحزبية تمويه على افتقار القوى الاجتماعية في المجتمعات الطرفية الملحقة بالدول الكبرى و«الحواضر» الصناعية والمالية والعسكرية والثقافية، إلى تمثيل سياسي كثير المصادر والموارد، فيتولى بناء دولة تتمتع بالمشروعية، وتتعهد حقوق المحكومين الشخصية المدنية والسياسية ومساواتهم فيها. فهي، «الماركسية - اللينينية»، قناع على قناع، وإعادة إعادة، ومراوغة على مراوغة.»

«...» اليونان برتية في مقالات ماركس السياسية والتاريخية قناع عجز اليورجوازيات المتفرقة عن قيادة الدولة الجديدة، ونزولها عن القيادة إلى فريق متسلط يزعم التعالي عن النزاعات الطبقية الحادة والتحكيم فيها، وسنده أجهزة الدولة...»

«المنظمة» (الانتقار) إنشاءه
ولعل شرط اجتماعيات
الطبقات الأوروبية هذه،
وتنصيبها على شكلة ينيات
سياسية وتاريخية كاملة الخلقه،
هو فك السيرونة الرأسمالية
ونورتها الإنتاجية من النورة
الليبرالية والديموقراطية ويعدها
الحقوقي والسياسي وعلى وجه
أنت، حملت مقالات ماركس

النورة الليبرالية والديموقراطية على قناع السيرونة أو
السيرونة الرأسمالية وحملت المجتمع البورجوازي
الليبرالي والديموقراطي على صورة موهمة ومضطربة
وموقته في انتظار جلائها الوشيك، عن المصنع الرأسمالي
الكبير ورسمه التنظيمي والإنتاجي الواضح، وترتب على
هذا، في ما ترتب، دعوة ملحة إلى تعجيل اختصار صراع
الطبقات أو الطبقتين، وإرسائه على قطبيه، و«تطهيره»
من مخلفات أو زوائد مراحل «سابقة مضللة لا دور لها إلا
حرف الوعي والعمل عن جادتهما القويمة وينبغي، في هذا
السبيل، إيجاب النزاعات السياسية والاجتماعية والحقوقية
على مثال مجرد، ونفي الالتياسات منها، ونسبة الالتياسات
يدورها إلى تزويقات وتسيبهات أهل القوة والسلطان،
وإلى تغلف الوعي عن موضوعاتكم ويخالف هذا مخالفة
حادة للمفالات الكثيرة في الانعطافات النورية المعاصرة،
وفي تعقيد العمليات الرأسمالية وتشبيك دلالاتها ومكائدها
وهو يغفل عن وقائع معاصرة عظيمة مثل نهوض الدولة
«البورجوازية» على نورتي الحريات والحقوق، واتلاف
المجتمع «البورجوازي» من الأفراد ومثال مساواتهم وشت
هذه، مجتمعة أو منفردة، في مفهوم السلطان وأركان إنشائه
معاني أبنية إجرائية وعملية طوت المفهوم السابق، وقوضت
أركانه الفوقية والفسرية، وحالت بينه وبين الجمعية (نمج
دوائر العلاقات الاجتماعية المتفرقة، السياسية والإنتاجية
والاعتقادية في مركز واحد «كلي») إلا من طريق «نورة
محاطة» يالقة العنف غالباً، وعلى هذا، فمعنى أو دلالة كيان
عمالي أو فلاحي أو بورجوازي كبير أو كيان «سياسي» أو
معلي أو أعلي، في مجتمع «بورجوازي» وفي إطار «دولة
قانون» ومعنى «هذا» الكيان أو نظيره في مجتمع «غير
بورجوازي» ليسوا واحداً ولا تصديق في الحالين اجتماعيات
واحدة، والسبب في الافتراق أو الداعي إلى الإقرار بهذا
السبب وقبوله هو ناع ماركسي: فمفالات صاحب «اليان
السيوعي» و«أ» بروميرس» جلت على نحو قاطع تغير

معاني وأنوار العوامل أو الأبنية
والهياكل «الواحدة» (النقود،
الأسرة، الأرض، التوزيع،...)
بحسب تغير «الكل» الاجتماعي
- التاريخي الذي ينطوي أو
يشتمل عليها، فهو ذهب إلى
تعريف موضوع التاريخ الأول،
والتاريخ نفسه، بانقلاب قواعد
«الأنماط» الاجتماعية، وغلبة
«أشهر» واحد ومسترك على

الظواهر تبين به معنى هذه الظواهر من نظيرها السابق في
أشهر آخر، والافتراق أو العزم على علاقات العمل بالعوامل
الأخرى وبالككل، هو جوهر التعريف والتخصيص التاريخيين
والاجتماعيين.

وبينما تنزع المجتمعات إلى التحول على مثال معلن،
وتبسم إلى الاشتراك في «أشهر» اجتماعي - تاريخي يميل
إلى التجانس من غير التغلبي عن توسيع الفروق أو تعميق
التفاوت وإثاء على مفهوس واحد هذه المرة، وفي ضوء القرن
المنصرم منذ انفجار الحرب العالمية الأولى، تبدو «سيرونة
«الماركسية» الكثيرة، والمتفرقة وجهها سابقاً من وجوه
منازع التحول، وإنما حُشِرَ النظر عن تعدد أنساب الأفكار
والافتقار من أصلا ب تُزعم مشتركة ولم يتوَلَّ أنصار
مذهب الانتشار أو الانبثا (أي الانتفاخ من يؤر إلى يؤر
من طريق الاتصال والأشهر المباشرين على مثال توارث
الديانات معتقدات «واحدة» أو على مثال استيلاء «الغولاغ»
و«انغكار» و«معسكرات التأهيل» الصينية والفيتنامية
والكورية من «الماركسية») تونق تعدها وانتشارها -
بما إسهام الأحزاب العمالية والاشتراكية الأوروبية
وبورجوازياتها المتعاطفة عددا ودورا في تعميم الجهاز
الحزبي النوري راجعاً فالحركات العمالية والاشتراكية
الأوروبية شاركت مسأركة فاعلة في استقرار إدارة رأسمالية
بيروقراطية في المصانع، وفي الوحدات والمجتمعات
الصناعية الكبيرة، ونهضت الإدارة البيروقراطية على قسمة
حادة بين «طبقة» الأميين والمنظمين والمهندسين من غير
المالكين وبين «طبقة» المنفذين والمؤمرين، وكانت الفورية
أو التابلورية (نسبة إلى هنري فور الذي صاحب مصانع
السيارات الشهير أو إلى تشارلز تابلور، مهندس الإنتاج
الأول، وقطعها العمل على خطوط الإنتاج أجزاء منفصلة
بغلها العمال آلياً، ابتعا البيروقراطية الرأسمالية الكبير،
وتكرسها غلبة السيطرة الفعلية على السيطرة «الشكلية»
وقائض القيمة النسبي على الفائض «المطلق» والبدائي

وهو استتبع، غداة الحرب الأولى وفي دوامة الأزمة «الكبرى» بعدها، سياسة أجور اجتماعية واقتصادية بالغة الأثر. فمهدت الأجور العالية، والمفاوضة على الأجور مع نقابات قوية التمثيل، وعلى تنظيم الخطوط والأوقات والتسديد والعطل والضمانات، الطريق إلى «العقد الجديد» ودولة الرعاية ومجتمع الاستهلاك.

وأكملت السياسة روزفلتية الأميركية ما ابتدأته «اشتراكية الدولة» البسماركية الألمانية، واستأنفته «رأسمالية الدولة» السوفياتية استئنافاً مروعاً، على نهج ليبرالي واجتماعي. فدمجت «الطبقات العمالية» في مجتمعاتها الوطنية، وفي دولها. وأقامت حاجزاً صفيقاً بين دائرة العمل، وتجديد عوامه الحيوية والاجتماعية، وبين دائرة الحياة العامة خارج أوقات العمل وأمكنته و(بعض) علاقاته.

واستعار لينين، منذ الأعوام الأولى من القرن العشرين، كنايات صناعية وتنفيذية للتمثيل على بنية حزبه الثوري وقيادة الاستيلاء «العمالي» على السلطة. وأوكلت الكنايات إلى الانضباط المصنعي «تربية» الطبقة العاملة الثورية وتأهيلها على طريق القيادة السياسية العامة والانقياد الحزبي. وركنا الحزب اللينيني هما، أولاً، تجريد العمل المصنعي «العامل» والثوري المحترف من بعد، من روابطه الاجتماعية الأهلية السابقة، وقطع أواصره بجماعات وأبنية تعوق سيولة قلبه بين الأسر والبلدان والمدن، وثانياً، تأهيل الثوري المحارب والمحرر من الاختصاص المهني أو الاجتماعي أو المحلي للانبثاق في ثنايا النزاعات الاجتماعية والسياسية كلها ووصلها بعضها ببعض من طريق المنظمة الحزبية المركزية. ويحاكي ركنا الحزب الثوري صنيع السيرة الرأسمالية في وجوه الأبنية الاجتماعية كلها: النواتية العائلية، والمهنية المحلية، والدولة الوطنية في دوائرها الإقليمية والدولية. وغلّق لينين قطر الدائرة بين قطب المصنع الأضيّق والأقرب وقطب الامبريالية الأوسع والابعد أرسى الحزب، أي القيادة البيروقراطية الثورية، على رسم رأسمالية عالمية مجتمعة ومتناحرة. فوسع الحزب، أي «فكرته» على مثالها «الأممي الثالث»، تعليق أصناف المجتمعات والعلاقات الاجتماعية المتفرقة، على قطر الدائرة ومواضعها كلها، ثم استعادة المواضع إلى المركز على صورة روافد فرعية تصب في قلب جامع وتصدر عنه. وليس الحزب الثوري، من خلاياه وفرقه المحلية والجزئية إلى ذروة أمانته العامة ورئاسته العالميتين إلا الضد القطبي، وكفاء «الامبريالية» العالمية،

واستعار لينين... كتابات صناعية وتنفيذية للتمثيل على بنية حزبه الثوري وقيادة الاستيلاء «العمالي» على السلطة. وأوكلت الكنايات إلى الانضباط المصنعي «تربية الطبقة العاملة الثورية وتأهيلها على طريق القيادة السياسية العامة والانقياد الحزبي.

وصورتها «الموضوعية» السالبة. فلم تلق الاممية الثالثة، وهي عقدة طرق «الماركسية» ومسالكتها إلى المجتمعات الجنوبية الآسيوية والاميركية اللاتينية والفلاحية بقلب أوروبا، عسراً في التكلم بلغة مشتركة نسبت إلى «ماركس - لينين». ومثال اللغة المشتركة المحتمل هو العملة (النقد) الرأسمالية. وكان صاحب «رأس

المال» لاحظ أن «الروح» في عبارة «روح العصر» أو «روح الأمة» أو «الحضارة»، هي «العملة» التي تحل السلع المختلفة في مادة مشتركة تجيز مبادلتها واحتساب قيمتها في ميزان مجرد واحد. فيصدق القول أن الحزب «الماركسي - اللينيني»، والنظرية الثورية المعلنة أو المضمر، روح الروح وعملة السوق الثورية المشتركة، على اختلاف مراحلها، وأداة مبادلاتها وترجمة ادوارها إلى دور واحد. والتناقض الرئيسي، والقطيعة الثورية، ودور الحزب القائد، وأوسع التحالفات، والمرحلة الوطنية الديمقراطية، إلى الطبقة العاملة والفلاحين والطبقات الوسطى الثورية (والمثقفين الثوريين)، والصراع الطبقي على الصعيد العالمي... وهي بعض مصطلح هذه السوق.

فكانت عملة السوق الثورية المشتركة البنية التحتية التي نهضت عليها حركات سياسية واجتماعية، وطنية واصلاحية، مسلحة وبرلمانية، قومية وجماعية، شعبية وطلعية، متسلطة و«ديموقراطية»، لا تحصى، ومن الألوان والمشارب كلها. واضطلعت بدور راجح في ترجمة النزعات المتباينة بل المتناقضة والمتدافعة في لغة وأبنية حديثة وعصرية. والترجمة عصرية وتحديث فعليان وشكليان. ولما كانت الترجمة عامة في «عصر» الامبريالية ثم في عصر العولمة (الرأسمالية والسوقية)، لم تعصها وتمتنع منها، للوهلة الأولى إلا «القيم» الربعية الصلبة، مثل الديانات غير الاوروبية والعصبيات والهويات القومية والعرقية والثقافية الطرفية، قبل أن تلتحق بدورها في الركب وراء أقنعة «الجهالة»، على ما نبه بعضهم، ومسرح الشعائر «التقنية» (وتقنيات الموت منها). واقتصار الاختيار على حدّي مداولة العولمة وسوقية من غير «قيم»، من وجه، و«قيم» تمتنع من المداولة وتتحصن في حُرز متاكل يطل على الحداثة وترجمتها من طريق الموت النووي، من وجه آخر، هذا الاقتصار يصيب سيرورات الأحياء في مقتل. فالهشاشة عامة، ولا يحتاج الخلاص إلا أقل من انبعاث الآلهة.

تصفية حساب مع التجربة السوفياتية تقييم ودروس

قدّمت «جمعية اللقاء» هذا النص في إطار مداوولات من أجل إعادة تأسيس اليسار اللبناني ضمن الحزب الشيوعي اللبناني وعددا من المجموعات والشخصيات اليسارية خلال العام ٢٠٠٩. لم تهمل المحاولة لكن النص «الناجي» اجتهد في التجربة السوفياتية يستحق النشر والنقاش.

الفلاحين صوّتوا للنورة بأرجلهم بما هم الفلاحون - الجنود الذين فزوا من الحرب وجاءوا لينبتوا حقهم في الأرض والاهم ان البلاشفة نجحوا في ان يقدموا انفسهم على انهم الطرف الاقوى والاصلاح لمقاومة قوى الردة المسلحة المتمثلة لبقايا النظام القيصري بقيادة كورنيلوف والمدعومة من قوى التدخل الخارجي. فقد اضطرت الحكومة المؤقتة برئاسة كرنسكي الى الاستعانة بالحزب البلشفي وبـ«الحرس الاحمر» التابع له لصد هجوم قوات كورنيلوف على بترولغراد. هزم «الحرس الاحمر» جيوش كورنيلوف ونال البلاشفة الاغلبية في مجلسها السوفياتي.

انهكمت التجربة السوفياتية منذ البداية بتنقض اساسي. انه التنافض الكامن في تعريف لينين نفسه لروسية روسية الاسمية المتخلفة اقتصاديا كانت في الوقت ذاته روسية المتقدمة سياسيا وكانت روسية متخلفة اقتصاديا لسيادة نط الاستبداد القيصري والافتقار وضعف التطور الرأسمالي والغلبة الفلاحية السكانية، ومعمورية مسألة الأرض، وصغر حجم الطبقة العاملة على الرغم من تركيزها الصناعي. وقد انعكست تلك المفارقة بين الاقتصاد والسياسة في الصيغ التي اعتمدها البلاشفة للتعبير عن طبيعة النورة وهما: «الدكتاتورية الديمقراطية للعمال والفلاحين» ولئن افترض لينين العهد النوري بأن اعلن «الآن نسرع في بناء الاشتراكية» الا انه ما لبث ان أعاد تعريف الهدف الاشتراكي بما هو «همة تنمية تعدينية في ظل سلطة عمالية وفق معادله الشهيرة: «الاشتراكية = السوفييتات + كهربة البلاد».

١ • انتصر البلاشفة في ثورة اكتوبر ١٩١٧ الروسية لأنهم تجرأوا بالدرجة الاولى على طرح مسألة السلطة لم يكن تسلم السلطة من قبل مجالس العمال والجنود (السوفييتات) ذات الاغلبية البلشفية تعبيرا عن جهوزية المجتمع الروسي لنورة اشتراكية تحل التنافض بين رأس المال والعمل. بل كان حسما لتوازن قلقى بين سلطتين: سلطة الحكومة المؤقتة ذات وجهة جمهورية برجوازية،

القيادة البلشفية رفضت التراجع عن الديمقراطية السوفياتية - المجالسية المباشرة باتجاه ديمقراطية سياسية وقانونية تعددية... حل محل الديمقراطية المجالسية نظام استبدادي فرض حكم الحزب الواحد على البلاد.

وسلطة متافسة قاعدتها مجالس العمال والجنود والفلاحين وكانت المجالس في البدء تطرح شعارات ديمقراطية جذرية معتبرة وجاذبة لجمهور واسع: اعلان الجمهورية، الحقوق المدنية، جيش وشرطة فائمان على اساس ديمقراطي، الغاء التمييز الديني والاثني وانتخاب مجلس تأسيسية غير ان التنافض بين الحكومة المؤقتة والمجالس دار مدار فضيبي الأرض والسلام فيما كانت حكومة كرنسكي تريد مواصلة الحرب. كان الجناح البلشفي يدعو الى الانسحاب كليا من الحرب الاستعمارية ومن مجازر خنادق الحرب العالمية الاولى. اما الشعار الثاني فكان شعار «الأرض للفلاحين» الذي كان يعتبر عن عميق تطلعات السواد الاعظم من الريف الروسي. من هنا معادلة لينين ان

روسيا المتقدمة سياسيا والمتأخرة اقتصاديا

٢ • «التقدم الروسي السياسي» - المتمثل بنضج القوى الثورية وتشكيلاتها المجالسية - جعل من روسية «الحلقة الازعج» في السلسلة الامبريالية. بذلك قلب لينين معادلة ماركس الذي توقع ان تقوم الثورة الاشتراكية في «الحلقة الاقوى»، وتحديدًا في بريطانيا، البلد الاوروبي الاكثر تطورًا وتصنيعًا والاقوى بين الدول الاستعمارية. مع ذلك، راهنت القيادة البلشفية المنتصرة على ان تكون ثورتها الشرارة التي تشعل الثورات العمالية في بلدان الغرب الرأسمالي الصناعي المتقدم. ولكن بعد اخفاق الثورتين الالمانية والمجرية (١٩١٨ - ١٩٢٣) وجدت روسية نفسها وحيدة وقد تقلصت حدودها بعد اجبارها على التنازل عن مساحات واسعة من اراضيها خلال «صلح بريست - ليتوفسك» مع المانيا (أذار ١٩١٨). وكانت روسية، في تلك السنوات، تدافع عن ثورتها في وجه عدوان خارجي وردات مضادة للثورة اهلية ومسلحة متعددة الاطراف. سميت تلك الفترة فترة «شيوعية الحرب» وتكبدت خلالها شعوب الاتحاد السوفياتي التضحيات الجسمية - وصلت في حالات عديدة حدود المجاعة التي قضى فيها الملايين - ثمنًا للانتصار على القوى المعادية الداخلية منها والخارجية.

عملت الستالينية على إخراج روسية من «الهمجية» بوسائل هي نفسها «همجية».

٣ • عند الخروج من «شيوعية الحرب»، صيغت السياسة الثورية على فرضية ان البنية الفوقية «المتقدمة» لروسية (السلطة المجالسية - السوفياتية - للعمال والجنود والفلاحين) تستطيع ان تجرّ البنية التحتية المتخلفة (شبه الاقطاعية والرأسمالية المحدودة التطور) نحو تحقيق مهمات الديمقراطية التنموية التحديثية وارساء القواعد المادية للانتقال الى الاشتراكية.

تمثل الطابع «المتقدم» للسلطة السياسية في كونها تجربة في الديمقراطية المجالسية المباشرة استلهمت نموذج عامية باريس سنة ١٨٧١ وتقوم على الانتخاب المباشر من قبل المنتخبين لممثلهم في الحكم مع احتفاظهم بكامل حقوقهم في مسائلتهم ومحاسبتهم واستبدالهم اذا لزم الامر دون التقيّد بمهل زمنية. لم تعمّر تجربة السلطة المجالسية طويلاً. سرعان ما انفك التحالف بين البلاشفة والاشتراكيين الثوريين، الحزب الاكثر تمثيلاً للفلاحين، واستأثر البلاشفة بالسيطرة في المجالس. هكذا افتتح عهد حكم حزب واحد ذي قاعدة عمالية مدينية بالدرجة الاولى هو الحزب البلشفي الذي بات

يختزل في ذاته التحالف بين العمال والفلاحين.

حين الخروج من حقبة «شيوعية الحرب» ارتضى لينين ان يحقق تراجعاً كبيراً الى اقتصاديات السوق في ما سمي «السياسة الاقتصادية الجديدة». سمحت الحكومة السوفياتية بعودة أشكال من الملكية الفردية الصغيرة والمتوسطة في الريف خصوصاً، واعيد تشغيل آليات السوق في مجال تصريف المنتجات الزراعية والحرفية، إلخ. على ان المفارقة الكبرى في تلك الانعطافة ان القيادة البلشفية رفضت التراجع عن الديمقراطية السوفياتية - المجالسية المباشرة باتجاه ديمقراطية سياسية وقانونية تعددية. جرى العكس تماماً. حل محل الديمقراطية المجالسية نظاماً استبدادي فرض حكم الحزب الواحد على البلاد، شديد الارتكاز على الاجهزة البوليسية والعسكرية، في الوقت الذي كانت فيه البيروقراطية تستوعب الانشط من بين كوادرات الحزب والعمال المناضلين. وبديلاً من التراجع الى صيغة ديمقراطية سياسية اكثر تواضعاً، وأنسب توافقاً مع الظروف الموضوعية لتطور روسية التاريخي، جرى اعدام الديمقراطية كلياً.

من الشرعية الثورية الى الشرعية الوطنية

٤ • بعد وفاة لينين، وانتقال مركز الثقل في الحزب والدولة لشخص ستالين والجهاز البيروقراطي، تمت تنمية روسية «المختلفة اقتصادياً» بوسائل هي نفسها «متخلفة». بعبارة ادق، عملت الستالينية على اخراج روسية من «الهمجية» بوسائل هي نفسها «همجية»، حسب التعبير اللامع للمؤرخ الماركسي البولوني إسحق دويتشر (. لاقتنارها الى المستعمرات، وبسبب خسارتها مناطق كبيرة وغنية من اراضيها في صلح بريست ليتوفسك، حققت روسية التراكم الاول لراس المال بأن أكلت من لحمها الحي. جرى تصنيع المدن على حساب الريف بواسطة حملات التجميع القسرية للزراعة والسيطرة على اسعار المنتجات الزراعية وممارسة العنف الدموي على الفلاحين. في الريف، صار العدو الرئيسي هم الكولاك، ابناء طبقة مالكي الارض المتوسطين في الريف الذين شجعت «سياسة الاقتصادية الجديدة» اصلاً على نشوئها ونموها. وقد اصابت التصفيات الريفية الدموية الزراعة السوفياتية باعاقات وتشوهات مستدامة. اما عملية التصنيع فقد ارتكزت الى قاعدتين: عسكرة العمل الصناعي والسيطرة على النقابات.

الى هذا كله، اضيف العنف والضبط البوليسي الحديدي على المجتمع ككل. وكانت التتمة معروفة على الصعيد السياسي: حل الحزب محل الطبقة وحلت اللجنة المركزية محل الحزب الى ان حل الدكتاتور محل اللجنة المركزية.

وكان للحزب النقيب الاوفر من حملات التصفية الستالينية على قاعدة ان «اغريهم اليك اخطرهم عليك» بدأت التصفيات بقبائل المعارضة البلشفية ذاتها قبل ان تشمل الحزب عموماً ففُضى لا اقل من مليون شيوعي في حملتي تصفية شملتا التيار «اليساري» في الحزب (بقيادة تروتسكي) في اواخر العشرينات والتيار «اليميني» (بقيادة يوخارين) في اواسط الثلاثينات

مع اختراع «السرعية النورية» للسلطة السوفياتية، وقد ضم دور الحزب واستنزفت الحروب والتصفيات والوظيفة السلطوية طاقاته وكوادره، ونمت على حسابه بيروقراطية اوامرية مترتبة، جمدت الستالينية شرعيتها من خلال الرعب الديموي واستدعاء الخطر الخارجي، الرأسمالي الغربي ثم الالمني النازي

في مجال الانجاز: تصنيع روسيا وتحديثها، دور حاسم في الانتصار على النازية، دعم حركات التحرر في العالم الثالث، اجبار الرأسمالية على تنازلات كبيرة باتجاه دولة الرعاية، اهتمام مميز بالحقوق والتقدميات الاجتماعية.

خلال الحرب العالمية الثانية التي تعطل الاتحاد السوفياتي العبء الاكبر من أهوالها وقدم في سبيل الانتصار على النازية لا اقل من عشرين مليون من اينائه وبناته - جرى تجديد شرعية السلطة بواسطة التعبئة والانتصار الوطنيين تحت راية «الحرب الوطنية الكبرى» دفاعاً عن «وطن الاشتراكية»

معضلة الاصلاح

● مع انتهاء الحقبة الستالينية كان النظام السوفياتي يواجه تحديات مفصلية ليس اقلها شأناً اندلاع الحرب الباردة وولادة عالم القطبين المتصارعين على الصعيد الداخلي أحبطت محاولات الاصلاح الخروتشوفية - التي استلهمت «السياسة الاقتصادية الجديدة» اللينينية في العشرينات - جراء معارضة شرسة للبيروقراطية الحزبية والادارية ادى هذا الفصل الى استنفاع النظام السوفياتي طوال مرحلة الركود البريجنيفية التي دامت نحو ربع قرن، وفي مناخ من الانفراج الدولي النسبي احتدمت أزمة العمل والحوافز وقد شكّلا وجهي الازمة الاقتصادية المتماكب للناظم السوفياتي

ان الرأسمالية تدفع الناس الى العمل وزيادة الانتاجية سلباً بواسطة سيف البطالة المصلط فوق رؤوس العمال والمأجورين، وإيجابياً بواسطة الاغراءات الاستهلاكية من جهة التي النظام السوفياتي حافظ العمل الرأسمالي فأسهم

في تخفيف البطالة الى درجة تحقيق العمالة شبه الكاملة ولو تحت غطاء من اتساع البطالة المفتحة والعمل الجزئي. فأي حافظ للعمل يجعل محل البطالة والاغراءات الاستهلاكية؟ في البدء كانت الحماسة النورية للسلطة السوفياتية هي ذلك الحافز، يرمز اليه ابطال العمل والانتاج (الستاخانوفيون)، ثم حل القمع الستاليني تدريجياً محل هذا الحافز قصار واسطة قسرية لضبط العمل، وبعد انحسار فترة الحماسة الوطنية التي اطلقتها ملحمة الحرب الوطنية الكبرى، طرح خروتشيف «الحوافز المادية» شعاراً للمناقضة السلمية بين الاشتراكية والرأسمالية، لم تنجح رأسمالية الدولة البيروقراطية في سبيل الحوافز المادية الاستهلاكية مع الرأسمالية ولا هي قدّمت لمواطنيها والعالم نطق حية بدلا عن الرأسمالية، كالذي حلم به تشي غيفارا لإنتاج «الانسان الاشتراكي الجديد» بالاعتماد على الحوافز المعنوية وعلى نمو الخطة تدريجياً على حساب السوق والتغيير الجذري للقيم السباسبية والاقتصادية والاجتماعية

● جاءت الموجة النثية من الاصلاحات التي حاولها غورياتشوف متأخرة وواحدة متأخرة لأن استراتيجية الولايات المتحدة الاميركية الجديدة، المسماة «حرب النجوم» طرحت على الاقتصاد السوفياتي تعديلات مالية لم يستطع تحمل اعبائها للعائ بالخضم الامبريالي في سبيل التسلح وكانت اصلاحات غورياتشوف واهمة اذ هي افترضت ان العالم الغربي سوف يكتفى الاتحاد السوفياتي على تفكيك اقتصاد رأسمالية الدولة، ويستقبل ايجابياً انفتاحها الاقتصادي والسياسي والثقافي على السوق الرأسمالية والغرب، واقع الامر ان الادارة الاميركية بقيادة رونالد ريغان كانت تعيش حملاً العمل من اجل القضاء على الاتحاد السوفياتي - الذي عقده «امبراطورية الشر» - ليس فقط بما هو حاجز أمام توسع السوق الرأسمالية ولكن ايضاً وخصوصاً بما هو المنقوس العسكري والنووي والمزاحم لاميركا على السيطرة الكونية ولعل ما زاد من الهاجس الامبريالي الاميركي تجاه الاصلاحية الغورياتشوفية ان سياسة غورياتشوف الرامية الى بناء مدى افليمي اوروبي تندمج فيه اوروبا الشرقية والوسطى مع اوروبا الغربية، كان من شأنه التأسيس لقوة افليمية اقتصادية وسياسية وعسكرية خصوصاً تهديداً للاحادية القطبية التي كانت الولايات المتحدة عاقدة العزم على الانفراد بها

● في حال من الركود والازمة الاقتصادية المتماكب، لعبت قضايا القوميات والاقليات دوراً حاسماً في تفجير

الاتحاد السوفياتي وعدد آخر من دول «الاشتراكية المتحققة» مثل يوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا. هنا تضافر عاملان: اولهما التمرد على الهيمنة الروسية التي أطبقت لعقود على الدول الدائرة في فلكها. والثاني سعي كل جماعة إثنية او قومية او مناطقية للسيطرة على مداها وعلى ثرواتها ومواردها الطبيعية وقدراتها الصناعية والزراعية على امل ان يؤدي ذلك الى حل مشكلاتها الاقتصادية والاجتماعية.

حتى لا تضيع الانجازات

● لا يستوي التقييم الموضوعي للتجربة السوفياتية دون التذكير بما حققته فعلا.

اولا - الاضطلاع بمهام تصنيع بلدان الامبراطورية الروسية السابقة وتحديثها وتحقيق مقادير عالية من تكافؤ الفرص والعدالة الاجتماعية في شتى الحقول التي تغطيها الحقوق الاجتماعية للمواطنين.

ثانيا - لعب الاتحاد السوفياتي الدور الحاسم في تحرير البشرية من النازية. إذ لم يكن لاوروبا والعالم الغربي بأسره ان تنتصر على النازية في الحرب العالمية الثانية لولا القدرة العسكرية السوفياتية والتضحيات الجبارة لشعوب الاتحاد السوفياتي.

وبلدان «الاشتراكية المتحققة» على الرغم من كل شيء، ان ثمة إمكانية لبناء ملامح مجتمع جديد، ليس قائما على مبدأ الربح وتقديس السوق والملكية الفردية، مجتمع يحقق مقادير عالية من تكافؤ الفرص لمواطنيه الاقل يسرا، وفي الحاجات الرئيسية للجميع في العمل والتعليم والسكن والطبابة، مجتمع يضع العدالة الاجتماعية على جدول أعمال التحقيق الفعلي ويعطي في الوقت ذاته قيمة خاصة للثقافة والفن والتراث الشعبي.

من هنا ان سقوط تجربة واحدة في بناء بديل اشتراكي للرأسمالية ليس يعني ان الرأسمالية صارت نهاية التاريخ، ولا هو يشير الى استنفاد البشرية لضرورة وامكانية بناء بدائل اخرى، خصوصا اذا نجحت القوى المناهضة للرأسمالية في التعلم من دروس واخطاء التجربة الرائدة الاولى. الذين يقولون ان فشل اول تجربة في بناء الاشتراكي يقضي على اي امكانية لقيام الاشتراكية اصلا، يردّ عليهم المثال الذي يسوقه المسرحي الشيوعي الالماني الكبير برتولد بريشت إذ يذكرنا ان اول البشر الذين حاولوا الطيران سقطوا ارضا ومات معظمهم. لكن ذلك لم يمنع ان ينجح البشر اخيرا في الطيران!

دروس وعبر

● يحمل سقوط الاتحاد السوفياتي ومنظومة دول الاشتراكية «المتحققة» جملة من الدروس والعبر الاولى، نسجل في ما يلي اهمها.

اولا، سقوط فكرة النموذج الاجتماعي الاوحد او الطريق الاوحد لتجاوز الرأسمالية وبالتالي سقوط ما رافقه من دكتاتورية الحزب الواحد وفكرة الحزب الطليعي الذي يحل محل الطبقات الشعبية ذات المصلحة في الاشتراكية. ولعل من فوائد ذلك السقوط انه يخلي المجال امام التنوع في ابتكار وسائل وسبل وصيغ لتجاوز الرأسمالية، ويعلي قيمة الديمقراطية بما هي شرط للاشتراكية، لا زائدة تضاف اليها، وبالتأكيد ليست نقيضا لها، والتطلع الى بناء احزاب من نمط جديد تركز قوتها وتقوم شرعيتها على عميق تمثيلها للطبقات الاجتماعية التي تدعي تمثيلها وعلى ترسيخ التقاليد الديمقراطية في انظمتها وممارساتها الداخلية.

ثانيا، فشل نموذج من ممارسة الاممية ربط الاحزاب المنضوية تحت لوائها بمركز أوامري اوحد، وغلب احيانا كثيرة مصلحته ومصلحة «وطن الاشتراكية الاول» على مصالح الشعوب الاخرى في الثورة والتغيير. اضع الى هذا ان ذاك النموذج من الاممية اقام في نصاب

أعاد سقوط «الاشتراكية المتحققة» الاعتبار الى المكوّن الديمقراطي والشرط الديمقراطي للاشتراكية.

ثالثا - شكّل وجود الاتحاد السوفياتي - والاغراء الذي قدمه بما هو بديل من التنظيم الاجتماعي الرأسمالي - عونا كبيرا للطبقات الشعبية في اوروبا وأميركا لكي تنتزع انجازات وتشريعات سوف تتراكم لنتج رأسمالية من نمط جديد هي الرأسمالية الاجتماعية ودولة الرعاية. وليس مستغربا ان ترتدّ الرأسمالية المنتصرة، بعيد انتهاء الحرب الباردة، على تلك التعديلات الجذرية التي اضطرت الى القبول ما دامت ان المنافسة السوفياتية قائمة.

رابعا - لعب الاتحاد السوفياتي الدور البارز في دعم شعوب العالم الثالث في نضالها ضد الاستعمار الغربي وعلى نيل استقلالها والنشروع في التنمية وبناء اقتصادياتها المستقلة. ومهما يكن مقدار النجاح او الفشل في تلك التجارب التنموية، يبقى ان الاتحاد السوفياتي دفع من عرق شعوبه وكدهم ثمن الارقام الفلكية من الروبلات التي قدمت على شكل مساعدات مادية متنوعة دعما لشعوب القارات الثلاث.

خامسا واخيرا ليس أخرا، أبان الاتحاد السوفياتي

الايديولوجيا والوعي تعارضاً بين الامة من جهة وبين الوطنية والقومية من جهة ثانية ونشر ثقافة عدمية ضد هذه وتلك

نالك انكر انهيار التجربة السوقية مسألة مركزية في الاشتراكية هي كيفية المصالحة بين انتاج الثروة من جهة وبين توزيعها على نحو عادل من جهة ثانية ذلك ان النزعة المساواتية ادت الى تسويد الفقر والتضعية بالتنمية وابتاع الثروات لصالح التوزيع الاجتماعي

لا بد من إعادة الاعتبار لغاية الاشتراكية: المجتمع التعاوني حيث «التطور الحزّ لكل فرد من الأفراد هو شرط التطور الحزّ للجميع».

رابعاً أعداد سقوط «الاشتراكية المتحققة» الاعتبار الى التكوين الديمقراطي والشرط الديمقراطي للاشتراكية ذلك ان ادعاء تأجيل الحرية بمعجزة العمل على تحقيق المساواة الاقتصادية والاجتماعية ادّى الى نتائج كارثية خصوصاً عندما اقترنت التضعية بالحريات والديمقراطية السياسية بإضافات كبيرة في مجال تحقيق المساواة ذاتها ان اشتراكية تنوحى تجاوز الرأسمالية حقاً هي اشتراكية تجري مصالحة حقيقية بين الحرية والمساواة فقد بدا لزم طويل أن الاشتراكية بدلا من ان تكون انزاعاً للديمقراطية السياسية نحو تدعيمها وتجاوزها بواسطة تحقيق الديمقراطية الاقتصادية - الاجتماعية شكلت نكوصاً حتى عن الديمقراطية السياسية والعكس صحيح ان نقطة الانطلاق في مسار تجاوز الرأسمالية هو بناء أنظمة ديمقراطية قائمة على المساواة السياسية والقانونية للمواطنين الافراد وضمن الحريات الديمقراطية وتحقيق السيادة الشعبية بمنزلة الدرجة الاولى في اولوية الأنظمة التشريعية والفصل بين السلطات وتداول السلطة فقد انطلق رواد الاشتراكية والماركسية من الديمقراطية السياسية بما هي واقع متحقق في ملامحه التأسيسية اقلاً ليدعوا الى بناء الديمقراطية الاقتصادية والاجتماعية وهو الاسم الاصلي الذي اطلقوه على مشروعهم الاشتراكي ونظر ماركس وإنجلز الى الديمقراطية الاجتماعية هذه على انها هي التي تثير الديمقراطية السياسية وترسخها وتضمن تتجاوزها نحو المساواة الشاملة بين البشر

والمساواة من خلال الانتقال من الديمقراطية السياسية الى الديمقراطية الاجتماعية هذا هو الحل الذي قدمته للتنقّص بين الفرد والجماعة الذي يشكل احد أبرز تنقّصات الرأسمالية ومن مصائب «الاشتراكية المتحققة» انها منلماً غلبت ادعاء المساواة على الحرية، انها قامت ايضاً على تغليب الحقوق الجماعية - المفترضة - على حقوق الافراد ان اي امل في تحقيق نهضة اليسار الماركسي لا يد ان بعيد الاعتبار لغاية الاشتراكية باستلهم معادلة ماركس وإنجلز (في «البيان الشيوعي») اي العمل على بناء «المجتمع التعاوني» على انقراض الطبقات والتنقّصات الطبقة حيث «التطور الحزّ لكل فرد من الافراد هو شرط التطور الحزّ للجميع»

حرّي بهذه المعادلة أن لا تكون مجرد تصويب لهدف من الاهداف الاشتراكية وانما الملهم لسياسات وممارسات الاشتراكيين في القرن الواحد والعشرين.

❖ في الخلاصة ان الجديد الذي جاءت به الماركسية بما هي مشروع مجتمعي هو دعوتها لتحقيق المصالحة بين الحرية

إدواردو غاليانو: كاشف الحاضر، حارس الذاكرة

تقديم



على شهرته الواسعة في أميركا الجنوبية وسائر العالم، لا يزال إدواردو غاليانو شبيه مجهول في عالمنا العربي. تناقلت اسمه الصحف العالمية عندما قدم الرئيس الفنزويلي هينغو تشافيز إلى الرئيس الأميركي باراك أوباما في العام ٢٠٠٩ نسخة من كتاب غاليانو الكلاسيكي «الشرايين المذبوحة لاميركا اللاتينية» يؤرخ «الشرايين» (١٩٧١) للاستغلال الاقتصادي لاميركا الجنوبية من قبل الولايات المتحدة خلال خمسة فروع ويفتح الكتاب بهذه الجدلية «يقضي توزيع العمل بين الأمم أن تخصص أمم بالقوز وأخرى بالخسران» وإذا يتساءل المؤلف عن أسباب فقر أميركا الجنوبية، يجيب أنها فقيرة لأن الرأسمالية أفقرتها «كانت هزيمتنا دوماً مضمرة في انتصار الآخرين» ولقد أنتجت ثروتنا دوماً فقرنا من خلال تقديتها أزدهار الآخرين».

ولد إدواردو غاليانو عام ١٩٤٠ في الأوروغواي، وعمل في الصحافة اليسارية في بلاده فسخن بسبب كتابته ضد الانقلاب العسكري عام ١٩٧٣ وسلك طريق المنفى بعدما وضع اسمه

على لائحة المطلوبين للقتل على يد «مغارز الموت» تنقل بين الأرجنتين وإسبانيا خلال إحدى عشرة سنة حاولت دكتاتوريات الأوروغواي وسائر بلدان أميركا الجنوبية منع كتابته إلا أنها زادت من إقبال الناس عليها.

إلى الصحافة، جمع غاليانو الشعر والرواية ولكنه قبل أي شيء آخر مبتكر نوع من القصص التاريخي يقدم للقارئ نبذاً تضفي زوايا معتمدة من التاريخ غالباً في سرد صادق وساخرة علمه أحد الصيادين كلمة sentipensanti وهي كلمة مركبة تعني «التفكير الشعوري» مزيجاً من احساس وفكر. فتبنى غاليانو المصطلح صفة له وشعاراً لا يؤمن بالحدود بين أشكال التعبير وأساليبهم يمزج بين الرواية التاريخية والشاعرية والاقتصاد والسياسة، وإلى هذا كله هو هاوي كرة قدم ألف كتاباً لفي راجا كبيراً عن الاقتصاد السياسي للرياضة الشعبية في علاقتها بالجاء والسلطة.

رايتمته ثلاثية «ذاكرة النار» المنشورة عام ١٩٨٦ تروي تاريخ أميركا اللاتينية عن طريق بُذ القصص التاريخي وهو حارس ذاكرة قبل أي شيء آخر كتب: «أنا كاتب مهودس بالذكور، يتذكر ماضي أميركا، والأهم ماضي أميركا اللاتينية، الأرض المحمية المعكومة بقندان الذكورة» له كتاب نقدي مشهور عن العولمة وكتابه الأخير «رايا» يستخدم تقنية ذاتها لإعادة رواية تاريخ العالم في ٦٠٠ نبذة.

إلى هذا كله، يشغل إدواردو غاليانو عضوية لجنة الرعاية في «معركة يتراند راسل عن فلسطين» التي تطالب الأمم المتحدة والدول الأعضاء بإنهاء استثناء إسرائيل من المحاسبة الدولية واتخاذ الإجراءات التي تليها تجاؤزاتها والتوصل إلى حل عادل للنزاع العربي - الإسرائيلي.

المختارات

احتفال بزواج الكلمة والفعل

قرأت مقالاً للكاتب المسرحي اركاني رايبكي نشرته مجلة موسكويفه البيروغرافية، يقول الكاتب، تركز على الفصل بين الفعل والكلام والافكار. يبقى الفعل في مكان العمل، تبقى الكلمات في قاعات الاجتماعات واما الافكار فتترك على المائدة.

في اعتقادي ان القسم الاكبر من قوة تنسي غيفارا، ذلك الزخم الملغز الذي يتخطى بكثير موته واخطاه» يتأتى من واقع بسيط جداً كان التنسي ذلك الانسان النادر الذي يقول افكاره ويمارس اقواله

(«كتاب العناق» ١٩٨٩)

تدلّ على هويتنا.
(«كتاب العناق» ١٩٨٩)



نافذة على الجسد

تقول الكاتبة: الجسد خطيئة

يقول العلم: الجسد آلة

يقول الاعلان: الجسد سلعة

اما الجسد فيقول: انا مهرجان

(«كلمات راجلة» ١٩٩٣)

نافذة على الخوف

يفطر الجوع على الخوف

والخوف من الصمت يملأ ضجيجاً الشارع

الخوف بهدنة

اذا احببته تصاب بالابتزاز

اذا دخنت، تبلى بالسرفطان

اذا تنسقت الهواء تصاب بالتلوث

اذا احتسيت الخمر، تلذع ضحية

حادث سير

اذا اكلت، ترتفع في دمك نسبة

الكوليستيرول

اذا رفعت صوتك معترضة تطرد من العمل

اذا سرت على قديميك تصدمك «سيرة

اذا فكرت، تغتم

اذا تشككته تتخيل

اذا شعرته تستوح

(«كلمات راجلة» ١٩٩٣)

قوة عمل

محمد أشرف لا ينهب الى المدرسة من الفجر الى النحر يعمل على قياس وقطع وتكرير وتقب وخطاطة كرات قدم كرات قدم لا تلبث ان تندرج من قرية «عمر كوت» الباكستانية الى ملاعب كرة القدم العالمية.

محمد عمره إحدى عشرة سنة وهو يمارس هذا العمل منذ ان كان في الخامسة لو كان محمد يجيد القراءة، ويستطيع قراءة الانكليزية، لفهم معنى العلامة التي يلصقها على كل واحد من منتجاته «هذه الكرة ليست من صنع اطفال»

(«اصوات الزمن» ٢٠٠٤)



اصيداء المياه

توجد شركات تشبه النملة ولكنها اكبر من النملة بكثير.

في نهاية القرن العشرين اندلعت حرب الماء في مدينة كوتشينايا.

استولت شركة «بيكتل» الاميركية

الشمالية على نظام توزيع المياه

ورفعت الاسعار ثلاثة اضعاف بين ليلة

وضحاها. تظاهرت الجماعات الهندية

السكانة في الودية وحاصرت المدينة

والمدينة انتفضت بدمورها، رفعت

المتاريس واشترمت النار في خواثر المياه

لحييب

حدث هذا في الادغال، في ادغال الامازون الاكوادوري

هنود حمر من قبيلة «شوار» يكون جدّة تقتصر، يتحلقون حول فراشه

ويتنصبون

سألهم مراقب من عالم آخر:

– لماذا تكون في حضرتها وهي لا

تزال على قيد الحياة؟

أجابها كونه

– لتعرف كم انا نحيب.

(«كتاب العناق» ١٩٨٩)

عنايقد الخمر

على فراش الموت كان كزّام يتكلم همساً في أذن مارسيل، وقبل ان يسلم الروح، ياح لها بسرة

– «العنقود» هسهس» «العنقود

مصنوع من خمر»

هذا ما روت لي مارسيل بريس –

سيفلك

خكرت اذا كان العنقود مصنوعاً

من خمر، ربما كنا نحن الكلمات التي

من الفضة والكثير من الارامل.
لاكثر من قرنين من الزمن، في
مرتفعات اميركا اللاتينية الجليدية
كانت اورورا فانس شعيرة مسيحية
غريزة يوما بعد يوم وليلة بعد ليلة
كانت اورورا تطعم الجبل اللحم
البشري في مقابل تسليمها الفضة
من كل عشرة هنود يدخلون ذوبة
المنجم يخرج سبعة احبائه كان القتل
يحصل في بوليفيا التي لم تكن تسمى
بتلك الاسم بعد لكي يثبت فجر
الرأسمالية في اورورا، الرأسمالية التي لم
تكن هي بلورها تسمى بذاك الاسم بعد
الآن «تيرد ريكو» جبل مجنون
نضبت فضته منذ زمن بعيد

هكذا مؤل من بينين اجتياح المملكة
التي ولد فيها وترعرع.
(«اصوات الزمن» ٢٠٠٤)



حريق الذاكرة

عام ١٤٩٩ في نيران محاكم
التفتيش احرق المطران سيسنبروس
الغرناطي كتبيا كانت تحفظ ثمانية قرون
من الثقافة الاسلامية وثلاثة عشر قرنا
من الثقافة اليهودية في اسبانيا
عام ١٥٦٢، في بوكاثان قضى
فراي ديغو دي لاند على ثمانية قرون
من ادب المايا حرقا في النار

في اماكن اخرى من العالم اندلعت
حرائق قبل ذلك واندلعت اخرى
بعدها ذكارت اثت عليها النيران

في العام ٢٠٠٣، عندما اتم
جيش الغزو احتلاله للعراق، حاصروا
آبار النفط، ومستودعات النفط
وزارة النفط بالديابات والعسكر، الا
ان الجنود كانوا يصفرون ويشبهون
بانظارهم عندما اجتاحت المتاحف
ونهت ارواح الأجر التي روت اولى
الخرافات واولى القصص واولى

في حريق كبير في بلاسادي أرماسه
رنت الحكومة البوليفية بواسطة
الرصاصة كما العادة فرض منع
التجول وسقط قتلى واعتقل مواطنون
لكن الانتفاضة استمرت بلا توقف
شهرين، يوما بعد آخر، ليلة بعد ليلة
الى ان استعاد اهالي كوتشايوميا في
انتفاضة اخيرة السائل الذي يقتل
اجسادهم ويحرق مزارعهم

في مدينة لا ياس في المقابل، لم
تنجح الاحتجاجات في منع شركة
«فنتا السويس» الفرنسية من السيطرة
على نظام المياه ارتفعت الاسعار
ارتفاعا كبيرا ولم يعد يستطيع احد ختم
حنفية الماء في بيته لماذا كان الاستهلاك
منخفضا اثنى تلك الدرجة تسائل
الخبراء وموظفو الحكومة الاوروغويون
بسبب التخلف الثقافي طبع الفقراء
اي جميع سكان بوليفيا تقريبا، لا
يعرفون ما فيه الكفاية لكي يستحموا
يوميا كما يفعل الناس في اورورا ربا
لاخر مرة، ولا هم يدركون انهم بحاجة
الى غسل السيارات التي لا يملكونها

(«اصوات الزمن» ٢٠٠٤)



السيد الذي يلتزم الصمت

في الازمنة الكولومبالية كان «تيرد
ريكو» في بوتوسي ينتج كميات كبيرة

ثمن لغز

تلطفت اورورا غاستعمرت افريقيا
السوداء اولاً، هشتت الخريطة
وابتلعت الاجزاء، سرقت الذهب
والعاج والماس، وخطفت اقوى اطفال
افريقيا ثم باعهم في اسواق النخاسة
تسم لتكملة تعليم الافريقيين
السود شئت عليهم اورورا حملات
تلويح علة

في نهاية القرن التاسع عشر، قام
الجنود البيطريون بوحدة من تلك
التدخلات التروية في مملكة بينين بعد
المجزرة وقيل المحرقة، نقلوا الغنيمة
كمية ضخمة من الاقمشة والمنحوتات
والمحفورات انتزعوها من الاماكن
المقدسة التي منحها الحياة والملمع

كانت تلك اكبر غنيمة من الفن
الافريقي جرى الاستيلاء عليها فاطمة
تغطي الف سنة من التاريخ في لندن

السرايع في العالم

بعدما اندلعت النيران في مكتبة بغداد الوطنية، وتحول نصف مليون كتاب إلى رماد هناك قضى العديد من الكتب الأصلية الفارسية والعربية نعيده «اصموات الزمن» ٢٠٠٤



عقبه الرجل الأبيض

كان الكابتن ليون روم هاوي جمع فراشات ورؤوس أنميّة الفراشات كان يشكها بالديابليس في الحائط الرؤوس كان يزين بها حديقته ضابط آخر في الجيش الاستعماري، غليوم فان كركهوفز، كان يناقسه ويزعم انه هو بطل قطع الرؤوس

كان الكونقو، الباقية مساحته منه ضعف بلجيكا الملكية الخاصة للملك لويولده بالاضافة إلى كونه مصدرا زاخرا للمطاط والعاج، كان مشهرا ضخما لعبيد مقبدين ومجلودين ومشوهين ومقتولين

في العام ١٩٠٠، دعي الدبلوماسي البريطاني رودجر كيسمانت إلى العشاء في القصر الملكي في بروكسل بين وجبة وأخرى تحدث الملك لويولده عن رسالته في نشر الحضارة وعن المصاعب التي واجهها في كل خطوة من خطواتها والعبء الأكبر كان فرض الانضباط على عرق دوني لم يعرف ثقافة العمل خصوصاً تحت شمس افريقية حارة إلى

درجة تذيب الحجر

اعترف الملك بأن رجاله، وهم ذور نوايا طيبة كما لا يخفاكم كانوا يرتكبون التجاوزات واللوم على الطغمة «الحمر لا يُطاق» كان يدفعهم إلى الجنون «اصموات الزمن» ٢٠٠٤

فن الحكم

امبراطور صيني - مجهول الاسم والسلالة والحقيبة - استدعى كبير مستشاريه ذات ليلة وأسر له بالقلق الذي يقض عليه مضجعه «لا احد يهينني» قاله

مما دام اتباعه لا يهينونه، فكانهم لا يحترمونه ومما داموا لا يحترمونه فكانهم لا يطيعونه

«الامر يستدعي العقاب» اقترح المستشار

قال الامبراطور انه «سبق له ان امر بجلد كل من لا يدفع الجزية، وأن يعذب ببطء كل من لا ينحني امامه عند مروره» ويسبق كل من يتجاسر على نقد قراراته

«ولكن هؤلاء هم المذنبون» قال المستشار وشرح قائلا: «السلطة دون خوف تتكشش مثل رشة بلا هوا» اذا عاقبت المذنبين، وحدهم المذنبون سوف يخافون»

تأمل الامبراطور في الامر بصمت وقال «فهمت»

امر الجلاذ يقطع رأس المستشار وامر كل سكان ييجينغ بأن يشاهدوا المنظر في ساحة السلطة السماوية وكان المستشار الاول على لائحة طويلا

«اصموات الزمن» ٢٠٠٤

المحارب

عام ١٩٩١ غزت الولايات المتحدة العراق وقد فرغت للتو من غزو باكامة لأن العراق كان قد غزا الكويت

تيموني ملك فاني كان مبرمعا للقتله في التدريب الابدائي كانوا يأمرونه ان يصيح: «التم ينقي الزرع» بعد ان سلبوه بتلك التبة الايكولوجية، سكبوا خريطة العراق في دم رميت الطائرات من القنابل مما يوازي خمس قنابل ذرية من حجم قنبلة هيروشيما وكانت الديابيت تدفن الجرحى وهم احياء وقد سحق الكائن ملك فاني عددا منهم في كتاب الرمال علموه ان يقول عن الاعداء في الزي العسكري او الاعداء بدون زي عسكري انهم «اضرار جانيية»

نال النجمة البرونزية لدى عودته، لم يقدم احد على نزع برمجته في او كلاهما قتل ١٦٨ شخصا بينهم نساء واطفالهم «انهم اضرار جانيية» قاله

ثم يعلقوا ميدالية جديدة على صدره حقونه يحقنة بميتة وصرفوه من الخدمة «اصموات الصمت» ٢٠٠٦



بغداد ١٩٩١

في الساعات الاولى قبل فجر يوم الثالث عشر من شباط ١٩٩١، قُلقت قنبلتان «ذكيستان» قاعدة عسكرية تحت الارض في احدى ضواحي بغداد القاعدة لم تكن قاعدة كانت

رامي المدفع

اتخذ رئيس وزراء اسرائيل قراره ونقله وزير الدفاع وشرح قائد الجيش انهم سوف يستخدمون العلاج الكيميائي ضد السرطان الفلسطيني اعلن اللواء منع التجول والكولونيل امر يحو الاكواخ والحقول المزروعة عن سطح الارض وأمر الوحدة ارسال الديابات وقطع الطريق على سيارات الاسعاف والكاثين اصدر الامر باطلاق النار والملازم قال لرامي المدفع بأن يطلق القذيفة الاولى

الا ان الرامي، ذلك الرامي بالذاته لم يكن هناك يقال يرون، الحلقة الاخيرة في سلسلة الارام، كان قد ارسل مخفورا الى السجن لكنه رفض الاستمرار في القتل

(اصوات الصمت ٢٠٠٦)



١٨٨٦:

اطنلطا كوكا كولا

جون بيرتن، صيدلي، اكتسب بعض سمعة بسبب ترويه «حبوب الحب» وادوية الشفاء من الصلع.

وهو قد اخترع دواة يربح من ارجاج الرأس ويخفف من القيان. اعتمد في تركيب منتج الجديد على اوراق الكوكا التي جاء بها من جبال الأنديس وعلى جوز الكولا وهي مادة منشطة وارد يقيه واكملت التركيبة باضافة الماء والسكر والكافيين

اللحم، ولحمنا القليل طعمه مروج نحن الخطرون واسماك القرش تعرف ذلك، غير ان اسمك القرش لا تخرج اخلاصا ولا هي توف روايات (اصوات الصمت ٢٠٠٦)

نشرة اخبار

تميش صناعة الترفيه على وحشة السوق تميش صناعة الاستشارات على خلق السوق.

تميش صناعة الامن على خوف السوق تميش صناعة الكذب على غباء السوق كيف يمكن قياس مدى نجاحها؟ على بورصة الاسهم

الصناعة الحرة ايضا، تصير اسعافها في البورصة هي افضل الاخبار في كل حرب

(اصوات الصمت ٢٠٠٦)

اخبار معلومة

بعد شهر معلومة من الحادي عشر من ايلول، قصفت اسرائيل جنين، تحول المخيم الفلسطيني كله الى حفرة ضخمة في الارض، مابنة بالبحث والدمار.

ككت حفرة جنين يحجم الحفرة التي خلفها تدبير اليرجين (في نيويورك) باستثناء من بقي على قيد الحياة واخذ بنق في الركام بحثا عن احبابه كم عدد الذين شاهدوا حفرة جنين؟ (اصوات الصمت ٢٠٠٦)



ملجأ من القصف الجوي يقتض بالشس النائم في تون معدونة، تقول الملجأ الى معركة جثت جنائزية احترق فيه اربع مئة وثمانية مدين حتى التفحم كان بينهم اثنان وخمسون طفلا واثنين عشر رضيعا.

جسد خالد محمد كله جرح فاغر، ظن انه ميتة لكن لم ميتة زحف على يديه وركبته واستطاع ان يخرج من الملجأ، لم يكن يستطيع ان يرى اطبقت النار جفنيه وسمعت عينيه والعالم نفسه لم يكن يستطيع ان يرى هو ايضا، لأن قنوات التلفزيون كان مشغولة يعرض آلات القتل



الحديث التي جرى انزالها الى السوق. (اصوات الصمت ٢٠٠٦)

سمك القرش

في الافلام والكتب، شاهد وحشا مخائلا ومتعطشا للدم يعوب السبع يحار فاغر الفكين مكسرا عن انبياه مثل الف سكينة يحلم بنا ويرطب شفغته بلسانه.

خارج الافلام والكتب لا يدي سمك القرش ادنى اهتمام باللحم البشريه نكرا ما بها جنة واذا ما حصل فمن قتل الدفاع عن النفس او بطريق الخطأ عندما يخلط سمك القرش، القصير النظر، بين احدا وبين دلفين او فقمة، بعض عضه من لحمنا ثم يصفقه انا عظم على قليل من

وبعض المواد السريفة

بعد قليل، ينجح ينبرتن اختراعه
بالفي وثلاثمائة دولار أميركي، وهو
مقتنع بأنه دواء شافى وأنه لينفجر
ضاحكاً، يلا فخر، إذا قال له كاشف
يخت انه قد خلق رمز القرن الآتي.
(«ذاكرة القارة» ١٩٨٢ - ١٩٨٦)

١٨٩٣:

كانودوس انطونيو كونسيليرو
لزم طوبى كان الانبياء برودون أراضي
الشمال الشرقي البرازيلي الملتزمة
يعلمون ان الملك سيستيان سوف يعود
من جزيرة «الاس بروما» [الغليظة]
فيقلب الاغنياء ويعول السود أيضاً
والسبب شيكيد ويقولون انه عندما
ينتهي القرن، سوف تصير الصحراء
يعرا والبحر صحراء، وسوف تلتهم
النيران المدن الساحلية حيث عبيد المال
والخطيئة، وغنى رماك مدن رسيبي
ديابيا وريو وساكو ياولو سوف تقوم
اورشليم الجديدة ويعكم فيها المسيح
لألف سنة لقد دنت ساعة الفقراء يعلم
الانبياء في خلال «سبع سنوات» سوف
تطبق السماء على الأرض، وينتفي
المرض والموت ويزول كل ظلم في هذا
الملوكوت الأرضي السماوي.

انطونيو كونسيليرو الورع يعول
من بلدة الى بلدة، مثل شيخ متغير تعول



لشدة القبطه وتنصب اكواخ الطين
والقش على تلال جرداء ووسط هذه
الأرض الحرون، أرض الميعاد هذه
أولى درجات الارتقاء الى الجنة، يرفع
انطونيو كونسيليرو صورة المسيح
ويعلم الرؤيا «الانبياء والكفرة
والفرسيون» سوف ينادون عن وجه
الأرض وسوف تصطبغ المياه بالدماء
ولن يكون الا راح واحد لقطع واحد
وتكون قبعات عديدة ورؤوس قليلة»
(«ذاكرة القارة» ١٩٨٢ - ١٩٨٦)

قد تلحق به جوفة من المتهملين جلده
درع جلدي رث، لحيتته شعناء وعباءته
كفن مهلهل لا يأكل ولا ينام، يوزع
الصدقات التي يتلقاها على الفقراء
يتحدث الى النساء دائرا لهن ظهره
يرفض اطاعة الحكومة الجمهورية
الكافرة، وفي ساحة بلدة يوم كونسيليرو
يرمي بتبليغات الضرائب الى النار
تطارده الشرطة فيلجأ الى
الصحراء مع مائتي مهاجر يؤسس
جماعة «كانودوس» على ضفاف نهر
شتوي هنا لا يلامس المطر الأرض